

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
كلية الدعوة وأصول الدين

نموذج رقم (٨)

إجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية بعد إجراء التعديلات

الاسم (رباعي) : **أحمد عبد الله علي الدروني** كلية : الدعوة وأصول الدين تسم : **الكتاب والسنة**
الأطروحة مقدمة لنيل درجة : **الماجستير** في تخصص : **التفسير**
عنوان الأطروحة : **((الإنسان في القرآن الكريم - وجوداً وغاية - دراسة موضوعية))**

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد :

بناءً على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الأطروحة المذكورة أعلاه - والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٨ / ١٩ / ١٤١٦ هـ - بقبولها بعد إجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم ؛ فإن اللجنة توصي بإجازتها في صيغتها النهائية المرفقة للدرجة العلمية المذكورة أعلاه ...

والله الموفق ...

أعضاء اللجنة

المشرف

الاسم : **د/ سليمان الصادق البيرة**

التوقيع :

المناقش الداخلي

الاسم : **د/ عبد الرحيم بن يحيى بن علي الحمود**

التوقيع :

المناقش الخارجي

الاسم : **د/ نايف عيسى**

التوقيع :

يعتمد

رئيس قسم

الاسم : **د/ نزيه فالحمان**

التوقيع :

• يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الأطروحة في كل نسخة من الرسالة .



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٣٠٧٦

٧٩٥٠٠٠٠٠

المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي - جامعة أم القرى
كلية الدعوة و أصول الدين
قسم الكتاب والسنة

الإنسان في القرآن ، وجوداً و غاية دراسة موضوعية

١٠٠٧٩٠٠٠
بحث لنيل درجة الماجستير مقدم من الطالب :
أحمد عبد الله علي الدروبي

إشراف فضيلة الدكتور :

سليمان الصادق البيرة

١٤١٨ هـ - ١٤١٩ هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ملخص الرسالة

الحمد لله رب العالمين و الصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإن هذا البحث (الإنسان في القرآن الكريم . وجوداً وغاية . دراسة موضوعية) قد تناول قضية هامة بينها القرآن الكريم بياناً شافياً هي قضية وجود الإنسان و الغاية من هذا الإيجاد وقد دار البحث على محورين أساسيين:

المحور الأول: وجود الإنسان .

وفي هذا المحور بينت خلق الإنسان وفيه بيان أنواع الخلق الثلاثة: خلق آدم وخلق حواء وخلق الذرية وقد تم استعراض الآيات في ذلك وبيان الأحوال التي تحيط بكل نوع منها و الدروس المستفادة من الآيات وبيان الإعجاز العلمي في القرآن المستفاد من الآيات .

المحور الثاني: الغاية من هذا الإيجاد .

وفيها: تحرير الغاية من وجود الإنسان وبيانها وهي (العبادة) وبيان شروطها التي لا تقبل إلاها ، وخصائصها التي تميزت بها والتي أثبتت وبشكل قاطع أن هذا الدين هو الحق من رب العالمين وأنه لا خلاص للبشرية ولا سعادة لها إلا بالنسك به ، وأنه الدين الوحيد الصالح لكل زمان ومكان .


ثم بينت السبل التي هيأها الله للإنسان كي يحقق الغاية من إيجاده ، وهي خمس سبل تجلّى فيها اللطف الرباني بالبشر ، والعدل الإلهي في التكليف بالعبادة وهذه السبل هي: فطرة على التوحيد ، إعطاء العقل ، إرسال الرسل ، إنزال الكتب ، تسخير ما في السموات والأرض له .

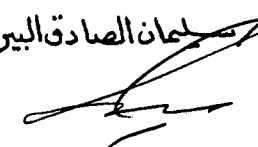
ثم تناول البحث آثار الإلترام ذلك الغاية في حياة الإنسان ومصيره وما تسببه له من سعادة في الدارين ، و آثار عدم الإلترام وما يسببه له ذلك من تعاسة وشقاوة في الدارين .

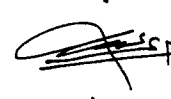
ثم تناول البحث المعوقات في طرق تحقيق الغاية من الإيجاد وهي المعوقات الذاتية التي تكون من ذات الإنسان كالنفس الأمارة بالسوء ، ومعوقات خارجية كالشيطان وأتباعه من الجن والإنس ، وفي كل ذلك تستعرض الآيات و يستخرج منها العبر المستفادة ، و يبين الأسلوب القرآني في التحذير من تلك المعوقات والعلاج القرآني لها .

المشرف

الطالب

الإسم: محمد سعيد بن محمد حسن
التوقيع: 

الإسم: د. سلمان الصادق البيه
التوقيع: 

الإسم: أحمد عبد الله الدروبي
التوقيع: 

المقدمة

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا و من سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له و من يضل فلا هادي له ، وأشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وحده لا شريك له ، و أشهد أن محمداً عبده ورسوله أما بعد :

فإنَّ كتاب الله الكريم هو أفضل الكتب ، وهو معجزة النبي محمدٍ صلى الله عليه وسلم الخالدة ، الباقية على مر الدهور و الأيام ، أنزله الله تبارك تعالى هداية للناس يقودهم إلى رضوانه و جناته ، ويحذرهم من غضبه وأليم عقابه فكان بحق كما قال الله تعالى (قد جاءكم من الله نور و كتاب مبين • يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام و يخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه و يهديهم إلى صراط مستقيم)^١ .

وقد تكفل الله سبحانه بحفظ هذا الكتاب من كل تبديل و تغيير ليكون حجة على العباد في كل زمان و مكان (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)^٢ .

وقد أحب المسلمون كتاب الله حباً عظيماً فحفظه الآلاف منهم جيلاً بعد جيل ، و قضى كثير من علماء المسلمين أعمارهم المباركة في تدريسه و تحفيظه للناس ، و بيان هدايته التي يهتدي بها السائرون إلى الله تعالى ، و ما زال المسلمون على هذا النهج سائرين حتى يومنا هذا و إلى أن يرث الله الأرض و من عليها •

وبرغم كل المؤلفات الضخمة التي تركها أسلافنا جزاهم الله خيراً إلاَّ أن بحار عجائبه لم تنضب بل لا تزال تسقي و تجود كما كانت بالأمس •

(١) المائدة ١٥ - ١٦ •

(٢) فصلت ٤٢ •

سبب اختيار الموضوع:

و لما كان هذا هو الحال مع القرآن الكريم ، وكان شرفاً للإنسان أن يشتغل به حفظاً ودراسة وتعليماً فقد رغبت أشد الرغبة أن أقدم عملاً يكون محوره القرآن الكريم ، فانعقد العزم على الكتابة في موضوع من موضوعات القرآن الكريم من خلال ما يسمى بالتفسير الموضوعي .

وبعد استعراض الموضوعات التي جالت في خاطر والذهن استقر الرأي على الكتابة في موضوع من أهم تلك الموضوعات هو موضوع (الإنسان في القرآن الكريم) .

و بعد النظر في مجالات الكتابة في هذا الموضوع واستعراض المادة العلمية فيه تبين أنه بحر لا يدرك غوره لغزارة المادة العلمية المتعلقة به ، و تشعب الحديث عنه ، فحاولت تطير الموضوع و تحديده بحد تنضبط به الكتابة و يتركز فيه الجهد فقيدته بالوجود و العاية حيث دار البحث على هذين المحورين .

وقد اخترت هذا الموضوع لأمر:

الأول : أن الإنسان المعني بهذه القضية هم جميع الناس الذين يعيشون على وجه الأرض ، فهي قضية تمس الجميع على السواء وهنا تكمن أهمية الموضوع .

الثاني : أن إدراك هذا الموضوع تمام الإدراك كفيل بتحقيق السعادة للإنسان في دنياه وأخرته ، يستوي في ذلك الفرد والجماعة .

الثالث : كثرة ضلال الناس في هذا الموضوع ، وعدم وضوح الرؤية عند آخرين ، فجاء هذا البحث لبيان هذه القضية و إيضاحها للناس بحسب الطاقة .

الرابع : أن هذا الموضوع يبين جانباً من إعجاز القرآن الكريم وهو الإعجاز العلمي الذي قد يكون إبرازه للناس — وخاصة الماديين منهم —

سبب إدخال البعض منهم في الإسلام أو إقامة الحجّة عليهم على أقل تقدير .
 والإعجاز العلمي هو ما كان مبنياً على الحقائق العلمية اليقينية الثابتة
 علمياً ، وليس على النظريات القابلة للتغيير والنقض ، ولذلك فكل ما جاء في
 هذا البحث فهو من هذا الباب .

الخامس : قلة الكتابة في هذا وإن وجد بعض أفراده متناثراً في كلام

السابقين .

السادس : رغبة الباحث في تجلية بعض المسائل التي كثر الجدل حولها

وتشعب الخلاف فيها كالموقف من حديثي ابن مسعود و حذيفة في أطوار
 خلق الإنسان وغيرها من القضايا العلمية كما سيتبين في ثنايا البحث .

السابع : إيضاح النظرة الإسلامية السامية للإنسان أصلاً وفرعاً والتي

تتميز عن غيرها من الفلسفات المعاصرة والقديمة .

الثامن : تحرير الغاية التي من أجلها خلق الإنسان ، وبيان العواقب

المرتبة على تحقيقها وعدمه ، لما في ذلك من دفع للمؤمن للاستزادة من
 الطاعات ، وتنبيه الغافل إلى تدارك أمره قبل فوات الأوان .

التاسع : إقامة الحجّة على الناس ببيان العدل الإلهي في التكليف بالعبادة

وذلك من خلال بيان السبل التي هيأها الله له لكي يحقق العبادة .

العاشر : كي يستفيد الدعاة والمربون من مادة هذا البحث في تقديم

دعوتهم للناس على أسس علمية سليمة خاصة لمن يعرض الإسلام على غير
 المسلمين .

فهذه بعض الأسباب التي دعت إلى الكتابة في هذا الموضوع ، ولا

أدعي أنني قد حققتها كما أردت و لكنني بذلت جهدي لذلك و أسأل الله أن

يتقبله مني ويعفو عن تقصيري .

عنوان الرسالة :

أمّا عنوان الرسالة فهو (الإنسان في القرآن وجوداً وغايةً — دراسة موضوعية) .

موضوع البحث :

يدور موضوع البحث حول محورين أساسيين :

• المحور الأول : وجود الإنسان .

ونعني به خلق الإنسان ، كيف بدأ ، وأين كان ، وما الظروف التي صاحبت تلك القضية ، مع بيان أنواع الخلق الأخرى كخلق زوج آدم عليه السلام ، وخلق ذريته .

• المحور الثاني : الغاية من هذا الخلق .

وفيه إجابة على التساؤل الذي يطراً على أذهان الكثيرين وهو : لماذا خلقنا ؟

و فيه تحرير الغاية من وجود الإنسان ، وبيان خصائصها ، وبيان السبل التي هيأها الله للإنسان كي يحقق تلك الغاية كما سيتضح في خطة البحث .

الدراسات السابقة في الموضوع :

و جدت كثيراً من الدراسات تحمل عنوان [الإنسان في القرآن] .
فهناك دراسة للدكتور أحمد إبراهيم مهنا ، وكتاب للأستاذ عباس محمود العقاد ، و كتاب لعبد الكريم الخطيب ، وكتاب للدكتور عبد الرحمن المطرودي ، وكتاب لمحمد الشيخ عايد تحت نفس العنوان تقريباً .
وكل هذه الدراسات — ماعدا دراسة الدكتور عبد الرحمن المطرودي — تفتقر إلى أمور وعليها ملاحظات أجملها فيما يلي :

١- عدم تحديد الموضوع والكتابة فيه بشكل إجمالي مما يسلب الدراسة خاصية البحث المنهجي المبني على تحديد القضية المراد بحثها و ضبطها بخطة علمية تتناول مفرداتها وتنظم سيرها .

- وقد سبق أن بينت أن هذا الموضوع بحر لا ساحل له وأن الكتابة فيه لابد من ضبطها حتى تحدد الفكرة ، ولا يتشتت ذهن القارئ عند القراءة .
- ٢- افتقار تلك الدراسات إلى الأسس المنهجية المرعية عند كتابة البحوث العلمية الأكاديمية ، فأكثر هذه الكتب خالٍ من الإحالات العلمية وذكر المصادر والمراجع المستفاد منها .
- ٣- قلة الاعتماد على كتب التفسير والحديث ، والاعتماد في بعضها على الدراسات الفلسفية والقضايا العقلية من غير اعتماد على القرآن الكريم كمحور أساسي يدور من خلاله البحث ، مثل كتاب العقاد .
- ٤- افتقارها إلى الدراسة التحليلية للنص و ربطها بالوحدة الموضوعية حتى يجتمع الأمران في خدمة الهدف المراد من الدراسة .
- ٥- أكثر تلك الدراسات لم تعتن ببيان الغاية التي من أجلها خلق الإنسان والتركيز على هذا الجانب ، بل اكتفت بعضها بالإشارة إلى ذلك من غير تحقيق علمي كمن زعم أن الغاية من خلق الإنسان هو الخلافة في الأرض .
- ٦- لم تتعرض الكتب السابقة لكل الموضوعات التي تعرضت لها في بحثي ، و أكثر التشابه يكاد يكون في المحور الأول وهو خلق الإنسان مع اختلاف في المضمون و الطرح .
- و هناك دراسات وكتابات تناولت الإنسان ولكنها بعيدة في تناولها للموضوع عن التفسير بمفهومه العام ، فتناولته من جوانب أديبه ككتاب الدكتورة عائشة بنت عبد الرحمن (القرآن وقضايا الإنسان) ، أو جوانب فكرية ككتاب الأستاذ محمد قطب (الإنسان بين المادية والإسلام) .
- فهذه نبذة عامة عن بعض الدراسات السابقة ، و الحق يقال إن تلك الدراسات مع الملاحظات التي عليها قد خدمت جوانب أخرى قد لا أكون

تعرضت لها في رسالتي ، و هذا هو حال التأليف في الموضوعات المتداخلة
حيث يكمل بعضها بعضاً .

أما دراستي الدكتور مهنا ، و الدكتور المطرودي فسأبين بعض تفاصيل
الخلاف بينها وبين دراستي .

دراسة الدكتور مهنا :

سبق أن قدمت لمجلس القسم الموقر الفروق بين دراستي وبعض
الدراسات السابقة ، وسأذكر هنا أهم الفروق التي ميزت هذا البحث عن
بحث الدكتور مهنا ، وهي فروق في الخطة والتقسيم ، وفروق في العرض
والطرح ، وسأذكر بعض الملاحظات المهمة إكتفاءً بما قدم لمجلس القسم الموقر
حيث تقدمت بمذكرة من ستة عشر صفحة ذكرت فيها تفصيل الفرق بين
البحثين .

الملاحظات على بحث الدكتور مهنا :

(١) الكتاب ليس رسالة علمية لنيل درجة علمية ، أو على الأقل لم
يذكر في الكتاب أنه كذلك .

(٢) الطرح في الكتاب ليس طرْحاً منهجياً كما هو المطلوب في الرسائل
الجامعية ، فلا يكاد القارئ يظفر بإحالة إلى مرجع من المراجع أو مصدر من
المصادر ، ويظهر ذلك جلياً في قلة الهوامش في الكتاب .

(٣) البحث يفتقر إلى خطة علمية مفصلة تتسلسل بالقارئ تسلسلاً ذهنياً
يقرب الموضوع إليه ، وتنتقل به من نقطة إلى أخرى على نحو مترابط و
بشكل موضوعي .

(٤) قلة المراجع والمصادر التي اعتمد عليها المؤلف حيث بلغ عدد
المصادر العربية عشرين مصدراً ، وبلغت المصادر الأجنبية ستة مصادر فقط .

(٥) اشتمل الكتاب على اثني عشر فصلاً ، ستة فصول منها تتعلق
بالموضوع تعلقاً مباشراً، والستة الأخرى تتعلق به تعلقاً خفياً أو غير مباشر .

أما الفصول التي لها تعلق مباشر فهي :

- ١- خلق الإنسان •
- ٢- الإنسان (وضعه بين المخلوقات) •
- ٣- طبيعة الإنسان •
- ٤- هاية الإنسان •
- ٥- الإنسان (الغاية من خلقه) •
- ٦- الإنسان (أنواعه بالنسبة للعقيدة) •

أما الفصول التي ليس لها تعلق مباشر فهي :

- ١- الإيمان والمؤمنون في القرآن • (الفصل السابع) •
- ٢- العلاقات الإنسانية في القرآن الكريم • (الفصل الثامن) •
 - علاقة المؤمن مع المؤمن •
 - العلاقات الفردية بين المؤمن وغير المؤمن •
 - العلاقات الدولية في القرآن •
 - علاقة الدولة الإسلامية بالمخاريين •
 - علاقة الدولة الإسلامية بالمعاهدين •
- ٣- رسل الله و أنبيأؤه في القرآن • (الفصل التاسع) •
- ٤- الرسول محمد في القرآن الكريم • (الفصل العاشر) •
 - أمرن اختص بهما محمد صلوات الله وسلامه عليه عن إخوانه من المرسلين •
 - عموم رسالته صلوات الله وسلامه عليه •
 - معجزة محمد صلوات الله وسلامه عليه •
 - حياة الرسول المتزلية •
 - أزواجه صلوات الله وسلامه عليه •
 - زواجه من زينب بنت جحش رضي الله عنها •

- تعدد أزواج الرسول صلوات الله وسلامه عليه .
- محمد الإنسان الكامل صلوات الله وسلامه عليه .
- مكانة الرسول وواجب المسلمين إزاءه .
- ٥- طريقة القرآن في الدعوة والإقناع . (الفصل الحادي عشر) .
- عناصر الفلاح في الدعوة .
- عناصر الفلاح في الداعي .
- عناصر الفلاح في طريقة الدعوة .
- خاتمة .

٦- المرأة في القرآن الكريم . (الفصل الثاني عشر) .

ويتضح من خلال هذا العرض مدى بعد هذه الفصول الأخيرة عن عنوان البحث .

(٦) تناول المؤلف الفصول الأولى التي تتعلق بموضوع البحث في خمس وستين صفحة فقط ، خمسون منها للكتابة في الموضوع و خمس عشرة للعناوين . و تناول بقية الفصول التي لا تعلق لها بالموضوع في ١٨٠ صفحة . و كل فصل من الفصول التي ذكرها المؤلف يصلح أن يكون رسالة علمية مستقلة ، فالغاية من وجود الإنسان يصلح أن يكون بحثاً ومع هذا فقد تناوله الدكتور في أربع صفحات ونصف الصفحة ، وطبيعة الإنسان كذلك وقد تناولها في عشر صفحات ونصف الصفحة ، ونهاية الإنسان كذلك وقد تناولها في خمس صفحات .

وأكثر ما في هذه الصفحات هو جمع الآيات القرآنية ، وكثير من سطورها يذكر فيه آية واحدة لا تتجاوز ربع السطر فمثلاً في ص ٤٤ ذكر في ستة أسطر قوله تعالى (فأما من أعطى واتقى - إلى قوله - للعسرى) . و منهج المؤلف في الفصول التي تتعلق بالموضوع هو جمع الآيات في القضية ، والتعليق عليها تعليقاً مقتضباً من غير تعمق في تفسير الآيات بحيث يتناول

مفرداتها بالشرح ومن ثم يبين مسائلها العلمية التي ترتبط بالموضوع ويزيل الإشكالات التي قد تظهر ويكون من الآيات وحدة متكاملة تربط بينها روابط معنوية نابعة من التصور العام للقضية .

(٧) لم يتعرض للسنة النبوية في عرضه لهذه الموضوعات مع أن السنة النبوية تبين كثيراً من الأمور المحملة في القرآن ، وتبين أموراً أخرى سكت عنها القرآن .

والتعرض للسنة في مثل هذه الموضوعات يعطي البحث تكاملاً موضوعياً لا غنى عنه .

فهذه بعض الملاحظات على بحث الدكتور مهنا .

دراسة الدكتور المطرودي :

يبدو أن هذه الدراسة أطروحة جامعية ، وقد استفسرت عن طريق الحاسب الآلي لمركز الملك فيصل فلم أعثر عليها ، وكذلك راجعت الفهرس المطبوع فلم أجدها .

وعلى أي حال فعنوان بحثه هو (الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم) .

أمّا جانب الوجود فيبينه وبين المحور الأول من بحثي قدر مشترك وهو ما يتعلق بوجود آدم ، وحواء ، و ذريتهما ، مع الاختلاف الشديد في تفاصيل هذه القضايا ، وفي الموقف من بعض الآيات والأحاديث الواردة فيها حيث تعرض لها الباحث تعرضاً خفيفاً لم يخالف فيه من سبقه في شيء ، أمّا في دراستي فقد كانت هناك نتائج جديدة مبنية على أسس علمية تجاه بعض الآيات و الأحاديث الواردة في قضية الخلق .

أمّا بقية مباحث الرسالة فإنها تختلف عن دراستي كما سيظهر من استعراض فهرس رسالة الدكتور .

ولا يفوتني هنا أن أنبه على بعض الأمور التي تلاحظ على بحث الدكتور
ومنها :

١- اعتماده كثيراً على كتب علم النفس والاجتماع ، وهذا يوجهه
البحث إلى منحى هذين العلمين على حساب التفسير ، ومعلوم أن كثيراً من
كتب العلمين المذكورين لا يستمد مادته من الوحي بل من النظريات التي جاء
بها منظروا العلمين .

ومع تحفظي على موقفي من هذين العلمين إلا أنني أرى أن الاعتماد على
مثلهما في التفسير بهذا القدر يخرج الرسالة عن كونها رسالة في التفسير إلى
كونها رسالة في التربية وعلم الاجتماع ، ويظهر هذا الاعتماد جلياً لمن وقف
على الرسالة أو طالع فهرس المراجع فيها .

٢- إكثار الباحث من النقول عن غيره كما يظهر ذلك لمن تصفح
الرسالة فلا تكاد تمر عبارة إلا وعليها إحالات على بعض المراجع .
٣- تقرير الباحث لبعض الأمور التي أرى أنها من الخطأ مثل جعل
الخلافة الغاية من وجود الإنسان ، ومثل التعبير بقوله الإنسان خليفة الله في
أرضه وتقريره صحة ذلك كما سيتضح عند مناقشة هذه الأقوال .

٤- سأعرض الآن فهرس موضوعات رسالة الدكتور عبد الرحمن
المطرودي حفظه الله حتى يظهر الفرق جلياً بينها وبين موضوع بحثي :

فهرس رسالة الدكتور

الباب الأول : التكوين .

الفصل الأول : آدم عليه السلام والتكوين .

— خلق آدم عليه السلام .

— خلق حواء .

— في الملائكة الأعلى .



٣٠٧٦

- الهبوط إلى الأرض
- الفصل الثاني : خلق ذرية آدم عليه السلام
- مراحل خلق ذرية آدم
- مرحلة النطفة
- مرحلة العلقة
- مرحلة المضغة
- في ظلمات ثلاث
- الفصل الثالث : فرضية التطور والتكوين
- أدلة التطوريين
- الخلية
- حياة الجنين
- الأعضاء الأثرية
- التشابه
- الحفريات
- نقد الفرضية
- الحياة
- وراثه الصفات المكتسبة
- الحفريات
- التشابه
- آدم والتكوين
- فرضية وليست حقيقة علمية
- الباب الثاني : عناصر التكوين
- الفصل الأول : الجسد
- الفصل الثاني : الروح

- — المقصود بالروح في القرآن الكريم •
- — خلق الروح بعد الجسد •
- — خلق الروح قبل الجسد •
- — إجماع المسلمين على أنّ الروح حادثة •
- — ليست الروح سر الحياة •
- — الفصل الثالث : العلاقة بين الروح والجسد •
- — فرضية التفاعل العلي المتبادل •
- — فرضية الأصل والفرع •
- — فرضية الموازاة •
- — الفرضية الذاتية •
- — الفرضية السلوكية الفلسفية •
- — الباب الثالث : خصائص التكوين •
- — الفصل الأول : خصائص الحياة النفسية •
- — المقصود بالنفس في القرآن الكريم •
- — وحدة النفس •
- — أحوال النفس •
- — النفس الأمانة بالسوء •
- — النفس اللوامة •
- — النفس مطمئنة •
- — الدوافع •
- — الانفعالات •
- — الفصل الثاني : خصائص الحياة القلبية •
- — القلب مكان الخبرات الإنفعالية •
- — القلب هو المؤشر للوجدان الباطني •

- القلب مرتكز الذات الإنسانية
- وحدة القلب

الفصل الثالث : خصائص الحياة العقلية

- الحواس والعقل
 - العوامل المؤثرة على العمليات العقلية
 - التشريع هداية للعقل
 - العقل هو مناط التكليف
- الباب الرابع : الإنسان والدوافع
- #### الفصل الأول : الدوافع الفطرية
- الدوافع الفطرية العضوية
 - الدافع الجنسي
 - دافع الأمومة
 - الدوافع الفطرية النفسية
 - دافع التدين
 - دافع الخلود
 - دافع التملك
- #### الفصل الثاني : الدوافع المكتسبة
- #### الفصل الثالث : تعديل الدوافع
- الإعلاء
 - الإبدال
- الباب الخامس : الإنسان والخلافة
- #### الفصل الأول : الخلافة
- التحليل اللفظي
 - المقصود بالخلافة في القرآن

- الخليفة
- المستخلف في الأرض
- الفصل الثاني : الإنسان والخلافة
- مقومات الخلافة
- الإنسان
- الأرض و الكون
- التكليف
- الدولة
- تحقيق الخلافة
- الخاتمة

فهذا فهرس الرسالة والفرق بين البحثين بين وواضح •
ومع هذا فإن الرسالة قيمة ويستفاد منها و كل يدلي بدلوه حتى تتلاقح
الأفكار وتنضج الأطروحات •

خطة البحث :

قسمت الرسالة إلى ثلاث أبواب كل باب يشتمل على فصول والفصول
تشتمل على مباحث والمباحث تشتمل على مطالب سأبين تفصيلاً في
الفهرس التفصيلي في آخر الرسالة وسأذكر الآن نبذة مجملة عنها :

الباب الأول

• الوجود الإنساني • والحكمة منه •

وفيه فصلان :

• الفصل الأول : وجود الإنسان •

وفيه ثلاثة مباحث :

• المبحث الأول : خلق آدم عليه السلام •

• المبحث الثاني : خلق حواء •

المبحث الثالث : خلق ذرية آدم •

الفصل الثاني : الإنسان من الجنة إلى الأرض •

وفيه ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : آدم وحواء في الجنة •

المبحث الثاني : معصيتهما وتوبتهما •

المبحث الثالث : الإنسان في الأرض • والحكمة من ذلك •

الباب الثاني

الغاية من وجود الإنسان ، و السبل التي هيأها الله له ليحققها •

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الغاية من وجود الإنسان (العبودية) •

وفيه تمهيد و مبحثان :

التمهيد : في تحرير الغاية من وجود الإنسان و بيانها •

المبحث الأول : معنى العبودية •

المبحث الثاني : خصائص العبودية •

الفصل الثاني : السبل التي هيأها الله له ليحقق هذه الغاية •

وهي خمسة سبل :

السبيل الأول : فطره على التوحيد •

السبيل الثاني : إعطاؤه العقل •

السبيل الثالث : إرسال الرسل •

السبيل الرابع : إنزال الكتب •

السبيل الخامس : تسخير ما في السموات والأرض له •

الباب الثالث

أثر هذه الغاية في حياة الإنسان ومصيره ، والمعوقات في طريق تحقيقها •

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الإنسان بين تحقيق الغاية وعدم تحقيقها •
وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تحقيق هذه الغاية ، وأثر ذلك في حياة الإنسان
ومصيره •

المبحث الثاني : عدم تحقيقها ، وأثر ذلك في حياة الإنسان ومصيره •
الفصل الثاني : المعوقات في طريق تحقيق الغاية من وجود الإنسان •
وفيه تمهيد ومبحثان :

• التمهيد : في المقصود بالمعوقات •

• المبحث الأول : المعوقات الذاتية •

• المبحث الثاني : المعوقات الخارجية •

الخاتمة : وفيها أهم النتائج ، و بعض الاقتراحات •

وقد ألحقت بالبحث بعض الفهارس الفنية التي تفيد القارئ مثل فهرس المراجع
والمصادر ، وفهرس الآيات القرآنية ، وفهرس الأحاديث النبوية ، وفهرس
الأعلام ، وفهرس الموضوعات •

منهج البحث :

سلكت في هذه الدراسة طريقة التفسير الموضوعي التي تجمع بين الدراسة
التحليلية و التركيز على الوحدة الموضوعية للبحث ، مع استنباط الفوائد
وترتيب المعلومات بحيث تظهر الدراسة بشكل علمي متناسق يرتبط أوله
بآخره •

وفي كل مبحث ومطلب من البحث يدور الحديث حول الآيات القرآنية
التي تتعلق بهذا المبحث أو المطلب ، وما يتعلق بها من المسائل و الفوائد ذات
الصلة بموضوع البحث ، وأستشهد لذلك من السنة النبوية إذ هي مؤكدة لما
في القرآن و مبينة له في كثير من الأحوال فلا يصح فصلها عنه البتة •

و الذي دعاني إلى التنبيه لهذا ما قد يفهمه البعض من أن الدراسة الموضوعية في القرآن تقتصر على ما في القرآن فحسب وهذه نظرة خاطئة لأنّ القرآن و السنة كلاهما مبين لمراد الله موضح له و قد قال تعالى (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ٠٠)^١ الآية ، وقال تعالى (و ما ينطق عن الهوى إن هو إلاّ وحي يوحى)^٢ .

وفي الغريب من الآيات أرجع إلى كتب التفسير واللغة والغريب وأبين أقوال العلماء في الآية إن احتاج الأمر إلى ذلك ، وأرجح في بعض الأحيان ما أراه راجحاً .

وقد يقول قائل : إن هذا من باب التفسير المقارن والبحث في التفسير الموضوعي؟!!

والجواب على ذلك : أن التفسير الموضوعي لا بد أن يتعرض فيه الباحث إلى أنواع التفسير سواء التحليلي منها أو المقارن أم غير ذلك ، وذلك لأمر : أولاً : أن منهج تحليل الألفاظ للوصول إلى المعاني الصحيحة منهج متفق على صحته ، والتفسير الموضوعي يحتاج كثيراً إلى مثل هذا النوع من التفسير ولا يستغني عنه بل لا يمكن إلا به .

ثانياً : التفسير الموضوعي يحتاج إلى التفسير المقارن احتياجاً أكيداً ، لأن الباحث عند عرضه لموضوع معين وإرادته إثبات فكرة معينة لا يكفي أن يكون القول الذي اعتمده في إثبات هذه الفكرة منقولاً عن أحد المفسرين ، لأن هذا القول قد يكون ضعيفاً عند التحقيق وبالتالي يكون إثبات الفكرة على أساس ضعيف سرعان ما ينهار عند النقد العلمي فتبطل بذلك الفكرة المراد إثباتها ، لذا لزم أن تعرض الأقوال ويختار الراجح منها ومن ثم تبني الفكرة عليه حتى تكون مبنية على أساس علمي قوي وبالتالي تحصل الثقة بها من القارئ .

ثالثاً : أن الباحث كونه يكتب في التفسير الموضوعي فإنه لم يخرج عن

(١) النحل ٤٤ .

(٢) النجم ٣ - ٤ .

كونه يكتب في التفسير لذا فهو يحتاج إلى الوقوف على الكتب المصنفة في أنواع التفسير المختلفة والأخذ منها بحسب ما يحتاج ، وهذا أمر معلوم عند كل من كتب في هذا الفن ، بل إن التفسير الموضوعي قد يخرج إلى بعض العلوم الأخرى التي لها تعلق بالقرآن كالفقه والحديث والقراءات ، وإلى علوم أخرى ليس لها تعلق مباشر بالقرآن كالطب والعلوم الطبيعية الأخرى وغير ذلك .

فالتفسير الموضوعي أعم وأشمل من حصره في كيفية محددة .
وأعزو الآيات القرآنية بذكر أرقامها وسورها عند كل ورود إلا إن كان الورد قريباً فأكتفي بالسابق .

أما الأحاديث فإنني أخرج ما لم يكن في الصحيحين بذكر سنده والحكم على رواته ومن ثم إعطاء الحكم فيه على حسب قواعد علم مصطلح الحديث ، واستشهد بأقوال العلماء في الحكم على هذا الحديث إن تيسر ذلك .

أمّا ما كان في الصحيحين أو أحدهما فإنني أكتفي بتلقي العلماء لهما بالقبول ، وقد أخرج الحديث من أحدهما أو كليهما لأن الغرض هو الاستشهاد .

و لا يفوتني أن أنه إلى أن الإحالة في أحاديث البخاري هي على فتح الباري لابن حجر .

أمّا الآثار التي في كتب التفسير و غيرها فلا ألتزم بالحكم عليها ، وغالبها موجود في تفسير ابن جرير رحمه الله لأن المقصود بيان الأقوال والاستئناس بها وليس الاحتجاج بها في الغالب .

وبالنسبة للإحالات فإنني إن نقلت كلام شخص وعزوته إليه في النص فإنني أضع في نهاية كلامه حرفي (أهـ) إشارة إلى انتهاءه وأبين المرجع في الهامش بدون كلمة (انظر) ، أما إذا كان الكلام في النص مقتبساً أو منقولاً من غير عزو إلى قائله فإنني أقول في الهامش انظر : كذا .

و سبب ذلك أن الكلام في النص قد يكون مأخوذاً من عدة مراجع

مدجماً بعضه في بعض حيث لا يتميز كلام كل شخص عن الآخر فالإحالة على جميع المراجع تعلم القارئ بمكان وجود هذا الكلام .
والإحالات على كتب التفسير تكون بشهرة هذا التفسير سواءً باسم الكتاب أم باسم مؤلفه مثل تفسير (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) لابن جرير الطبري أكتفي فيه بقولي انظر : ابن جرير ، وأذكر الجزء ورقم الصفحة .

ومثل كتاب (الكشاف) للزمخشري اكتفي فيه باسم الكتاب .
وبالنسبة لتفسير ابن جرير فقد اعتمدت على النسخة التي في مكتبتي ، وهي نسخة جيدة لولا أن المحقق اعتمد في ترقيمه على أجزاء القرآن حيث يستأنف الترقيم في كل جزء ثم ضم بعض الأجزاء إلى بعض في مجلد واحد مع احتفاظ كل جزء بترقيمه الخاص مما يصعب عملية الرجوع إليه .
وقبل أن أختتم هذه المقدمة أتوجه بالحمد والثناء إلى الله المنعم المتفضل الكريم على نعمه التي لا تعد ولا تحصى ، ثم أتوجه بالشكر إلى فضيلة أستاذي المشرف الدكتور سليمان الصادق البيره الذي ما فتأ يوجهني ويسددني بروح الأخ الصديق والمربي الفاضل والمعلم الناصح والعالم المتمكن فجزاه الله خيراً على ما قدم لي ولغيري وجعل ذلك في موازين حسناته ، كما أتوجه بالشكر إلى زوجتي التي هيأت لي سبل الراحة وتحملت عني تبعات الانشغال في البحث من الانشغال عن الأبناء والبيت فجزاها الله خيراً ، وأتوجه بالشكر أيضاً إلى أخي الأستاذ عبد الرحمن عبد الله الدروي الذي ساعدني في طباعة البحث وإخراجه في ثوبه القشيب وعلى ما تفضل به من الملاحظات على البحث فله جزيل الشكر ، والشكر أزجيه لكل من أسدى إلي نصحاً أو أشار عليّ بفائدة ممن يضيق المقام عن ذكرهم .

وأخيراً فقد بذلت في هذا البحث جهدي فما كان فيه من توفيق وسداد فمن الله ، و ما كان فيه من تقصير فمن نفسي و من الشيطان ، والله المستعان وعليه التكلان والحمد لله رب العالمين .

كتبه

أحمد بن عبد الله بن علي الدروي

الباب الأول الوجود الإنساني والحكمة منه

- الفصل الأول : وجود الإنسان.
الفصل الثاني : الإنسان في الأرض، وحكمة ذلك.

تمهيد

الوجود الإنساني فاتحة حلقات قصة الإنسان، والمدخل الأساسي لكل بحث يتحدث عن الإنسان في القرآن.

وأعني بوجود الإنسان ظهوره أصلاً وفرعاً، وهي قضية بينت في القرآن بياناً كافياً شافياً.

ولا أجدني محتاجاً ولا غيري لأن أعرف بالإنسان المعني بهذا البحث، لأن كل إنسان يعرف من هو الإنسان، والدخول في مثل هذا من الأمور التي لا تضيف جديداً .

والذي يحتاج إليه فعلاً هو التعريف بقيمة الإنسان، وذلك من خلال بيان الهدف والغاية من وجوده.

وليس هناك مرجع يبين هذه القضية بياناً وافياً سوى القرآن الكريم، كتاب الله، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ ففيه الإرشاد والهداية لكل من طلب الحق، وسعى إليه.

ولبيان الهدف والغاية من هذا الوجود الإنساني لا بد أن أبين هذا الوجود كما تحدث عنه القرآن الكريم.

وليس الهدف من هذا هو البيان المجرد، إنما الهدف هو إظهار ما يمكن إظهاره من دلالات الآيات التي تحدثت عن هذا الوجود بحسب طاقة الباحث واطلاعه، فأسرار القرآن ودلالاته أوسع وأعظم من أن يحيط بها بحث أو يستوعبها باحث.

وقد جعلت الحديث عن الوجود في فصلين:

فالفصل الأول: عن الخلق، والحديث فيه على ثلاثة محاور هي: خلق
الإنسان الأول، آدم عليه السلام، وخلق حواء وزوجه، وخلق ذريتهما.
والفصل الثاني: عن قصة إهباط الإنسان إلى الأرض، والحكمة من
ذلك.

فأقول مستعينا بالله:

الفصل الأول وجود الإنسان

وفيه المباحث التالية :

- المبحث الأول : خلق آدم عليه السلام
- المبحث الثاني : خلق حواء
- المبحث الثالث : خلق الذرية

المبحث الأول

خلق آدم عليه السلام

وفيه المطالب التالية:

المطلب الأول : مادة الخلق.

المطلب الثاني : أطوار الخلق.

المطلب الثالث : تأملات في قصة الخلق.

تمهيد

لما كان لكل خلق بداية كان لخلق الإنسان أيضا بداية، ولكنها بداية مميزة ومهمة.

والتميز فيها يتجلى بذكر تفاصيلها في القرآن الكريم في عدة مواضع منه، الأمر الذي لم يحدث لمخلوق غير الإنسان .

فقد وردت قصة خلق آدم عليه السلام وما دار قبلها وبعدها من أحداث في سورة البقرة، وآل عمران، والأعراف، والحجر، والإسراء، والكهف، وطه، والسجدة، وص، والرحمن.

ففي سورة البقرة يقول الله سبحانه وتعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)^١

(١) البقرة ٣٠-٣٩.

وفي سورة آل عمران (إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)^١

وفي سورة الأعراف (ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين قال أنظرني إلى يوم يبعثون قال إنك من المنظرين قال فيما أغويتني لأقعدن لهم صراطك المستقيم ثم لأتيَنهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين قال اخرج منها مذءوما مدحورا لمن تبعك منهم لأملأنَّ جهنم منكم أجمعين و يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين فوسوس لهما الشيطان ليبيد لهما ماوري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدهما بغرور فلما ذاق الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إنَّ الشيطان لكما عدو مبين قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون)^٢

وقال تعالى في سورة الحجر (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجنان خلقناه من قبل من نار السموم وإذ قال ربك للملائكة إني خالق

(١) آل عمران ٥٩

(٢) الأعراف ١١ - ٢٥ .

بشرا من صلصال من حمأ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين قال يا إبليس مالك ألا تكون مع الساجدين قال لم أكن لأسجد لبشر خلقتة من صلصال من حمأ مسنون قال فاخرج منها فإنك رجيم وإنّ عليك اللعنة إلى يوم الدين قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين إلا عبادة منكم المخلصين قال هذا صراط علي مستقيم إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإنّ جهنم لموعدهم أجمعين لها سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم^١

وقال تعالى في سورة الإسراء (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أسجد لمن خلقت طينا قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا واستفزز من استطعت منهم بصوتك وأجلب عليهم بخيلك ورجلك وشاركهم في الأموال والأولاد وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورا إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا)^٢ .

وفي سورة الكهف يقول تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا)^٣ .

(١) الحجر ٢٦-٤٤ .

(٢) الإسراء ٦١-٦٥ .

(٣) الكهف ٥٠ .

وفي سورة طه (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزما وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فيما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه وللعذاب الآخرة أشد وأبقى)^١ .

وفي سورة السجدة (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين)^٢ .

وفي سورة ص (إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين قال فاخرج منها فإنك رجيم وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين)^٣ .

(١) طه ١١٥-١٢٧ .

(٢) السجدة ٧ .

(٣) ص ٧١-٨٥ .

وفي سورة الرحمن (خلق الإنسان من صلصال كالفخار وخلق الجن من
 مارج من نار)^١ .

ولهذا التعدد في ذكر هذه القصة أهميته ودلالاته التي سيظهر بعضها في ثنايا
 هذا البحث .

وقصة خلق الإنسان مهمة لإمور منها :

الأول: أنها تبين التصور الإسلامي لمسألة خلق الإنسان ووجوده ، الأمر الذي
 يختلف المسلمون وأتباع الأديان الأخرى مع الملحدون الذين يزعمون أن الإنسان
 وجد صدفة، مع ملاحظة ما تميز به الدين الإسلامي من الوضوح والدقة، وعدم
 التحريف الذي وقع في اليهودية والنصرانية.^٢

الثاني : أنها اشتملت على قضايا مصيرية تم الإنسان كثيراً ، مثل قضية
 قيمة الإنسان ، والغاية من وجوده ، وقضية عداوة الشيطان للإنسان ، وقضية
 عواقب العصيان ، وغير ذلك مما سيظهر إن شاء الله تعالى .

وقبل أن أدخل في تفاصيل خلق آدم عليه السلام أحب أن أعرف كلمة الخلق
 وأبين معناها:

معنى الخلق:

الخلق في اللغة: التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا
 احتذاء، قال تعالى (خلق السموات والأرض) أي أبدعهما ، بدلالة قوله (بديع
 السموات والأرض) .

(١) الرحمن ١٤- ١٥ .

(٢) انظر : في ذلك كتاب الدكتور/ موريس بوكاي (ما أصل الإنسان؟ إجابات العلم والكتب
 المقدسة) .

ويستعمل في إيجاد الشيء من الشيء نحو قوله تعالى (خلقكم من نفس واحدة) ، وقوله (خلق الإنسان من نطفة)^١ .

قال الراغب : فالخلق إيجاد الشيء من شيء قبله كخلق الإنسان من التراب فيقتضي تركيباً . أهـ^٢

وفي لسان العرب : والخلق في كلام العرب ابتداء الشيء على مثال لم يسبق إليه ، وكل شيء خلقه الله فهو مبتدئه على غير مثال سبق إليه . أهـ^٣

فخلق الإنسان هو ابتداعه على غير مثال سابق ، وهذا الابتداء من مادة سابقة هي التراب .

وسأحدث بعون الله تعالى عن هذا الحدث المهم وهو خلق الإنسان في المطالب التالية لهذا التمهيد وعلى الله التكلان .

(١) انظر : مفردات الراغب الأصفهاني ص ١٥٧ مادة خلق .

(٢) تفصيل النشأتين للراغب الأصفهاني ص ٧٠ .

(٣) لسان العرب ١٩٣/٤ ، مادة خلق .

المطلب الأول : مادة الخلق .

بعد استعراض الآيات في خلق الإنسان نجد أن الله تعالى أخبر أن
الإنسان خلق من تراب، ومرة أخبر أنه خلق من طين ، ومرة من
صلصال .

فالتراب هو المادة الأصلية ، والطين والصلصال مراحل مرت بالمادة
الأصلية، وبيان ذلك على النحو التالي :

أولاً : التراب .

ذكرت المادة الأصلية التي خلق منها آدم عليه السلام في عدة مواضع من
القران الكريم :

ففي سورة آل عمران قال تعالى (إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم
خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)^١ .

وفي سورة الحج (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من
البعث فإننا خلقناكم من تراب)^٢ .

وفي سورة الروم (ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر
تنتشرون)^٣ .

وفي سورة فاطر (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة)^٤ الآية .

وفي سورة غافر (هو الذي خلقكم من تراب)^٥ الآية .

(١) آل عمران ٥٩ .

(٢) الحج ٥ .

(٣) الروم ٢٠ .

(٤) فاطر ١١ .

(٥) غافر ٦٧ .

ففي هذه الآيات يبين الله تبارك وتعالى أن المادة التي خلق منها الإنسان هي التراب .

ويلاحظ في هذه الآيات أن الخطاب موجه فيها إلى جميع البشر —
 ماعدا آية آل عمران — مع أن آدم عليه السلام هو الذي خلق من التراب .
 والحكمة في ذلك ووجه الإعجاز فيه — والعلم عند الله — أن هذه
 الآيات جاءت في سياق الحديث عن قضيتين في غاية الأهمية :

القضية الأولى : بيان قدرة الله الباهرة على الخلق .

وهي القدرة التي يتحول بها التراب الجامد المجرد عن مظاهر الحياة إلى
 بشر يتناسل ويتكاثر ويفكر ويقدر ويسمع ويبصر ويفعل الأعاجيب .
القضية الثانية : الاحتجاج لقدرة الله على البعث ، وهذه مترتبة على
 القضية الأولى .

والاحتجاج لهاتين القضيتين بذكر الأصل الذي خلق منه الإنسان —
 وهو التراب — أقوى وأبلغ من الاحتجاج لنفس القضيتين بذكر المادة التي
 يخلق منها الإنسان — وهي الماء — لأن هذا الماء فيه آثار الحياة وذلك بوجود
 الحيوانات المنوية فيه ، وهذا وإن كان معجزاً كافياً في إقامة الحجة على
 ما أراده الله إلا أن الاحتجاج بذكر التراب المجرد عن الحياة أقوى وأبلغ
 والله أعلم .

يقول سيد قطب في آية سورة الروم السابقة : والتراب ميت ساكن ، ومنه نشأ الإنسان ، وفي موضع آخر جاء (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين) فالطين هو الأصل البعيد للإنسان ، ولكن هنا يذكر هذا الأصل ويعقبه مباشرة بصورة البشر منتشرين متحركين للمقابلة في المشهد والمعنى بين التراب الميت الساكن والبشر الحي المتحرك وذلك بعد

قولـه (يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي) تنسيقاً للعرض على طريقة القرآن .

وهذه المعجزة الخارقة آية من آيات القدرة ، وإيجاء بالصلة الوثيقة بين البشر وهذه الأرض التي يعيشون عليها ، والتي يلتقون بها في أصل تكوينهم ، وفي النواميس التي تحكمها وتحكمهم في نطاق الوجود الكبير .
والنقلة الضخمة من صورة التراب الساكن الزهيد إلى صورة الإنسان المتحرك الجليل القدر نقلة تثير التأمل في صنع الله و تستجيش الضمير الحي وتحرك القلب لتمجيد الصانع المتفضل الكريم . أهـ^١ .

مصدر التراب وأثره في الخلق

إنَّ التراب الذي خلق منه آدم عليه السلام هو من تربة الأرض التي نعيش عليها كما بين ذلك قول الله تبارك وتعالى (منها خلقناكم وفيها نعيدكم) وبينت السنة النبوية أنَّ هذه التربة أخذت من جميع الأرض من سهلها وحزنها ، وخبثها وطيبها ، وأحمرها وأسودها ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض بحسب اختلاف التربة .

روى الإمام الترمذي في جامعه بسنده عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، فجاء بنو آدم على قدر الأرض فجاء منهم الأحمر والأبيض والأسود وبين ذلك ، والسهل والحزن ، والخبث والطيب^٢ .

(١) في ظلال القرآن ٢٧٦٣/٥ .

(٢) رواه الترمذي في كتاب التفسير ، باب من سورة البقرة ١٨٧/٥ ، حديث رقم ٢٩٥٥ ، قال حدثنا محمد بن بشار حدثنا يحيى بن سعيد وابن أبي عدي ومحمد بن جعفر و عبد الوهاب قالوا : حدثنا عوف عن قسامة بن زهير عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فذكره . قال الترمذي : حسن صحيح .

قلت : وهذا إسناد صحيح .

ثانياً: الطين :

ذكرت فيما سبق أن الخلق يقتضي تركيباً لذلك فإن المادة الأصلية في الخلق وهي التراب أضيفت إليها مادة أخرى هي الماء فاختلط الماء بالتراب ونتج عنه الطين .

وقد ذكر الطين في القرآن الكريم في عدة مواضع :

ففي سورة الأنعام قال تبارك وتعالى (هو الذي خلقكم من طين ٠٠)
الآية^١ .

وفي سورة المؤمنون قال تبارك وتعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ٠٠) الآيه^٢ .

وفي سورة السجدة قال تبارك وتعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين ٠٠) الآيه^٣ .

وفي سورة الصافات قال تبارك وتعالى (إنا خلقناهم من طين لازب)^٤ .

= فمحمد بن بشار : ثقة . التقريب ٢ / ١٤٧ ، رقم ٧١ .

ويحيى بن سعيد : هو القطان ، ثقة متقن حافظ . التقريب ٢ / ٣٤٨ ، رقم ٧٢ .

وعوف : هو ابن أبي جميلة الأعرابي ، ثقة رمي بالقدر و التشيع . التقريب ٢ / ٨٩ ، رقم

٧٩٣ .

وقسامة بن زهير : ثقة . التقريب ٢ / ١٢٦ ، رقم ١١٤ .

و الحديث صححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٤ / ١٧٢ ، حديث رقم ١٦٣٠ ، و ذكر له

طرقاً كثيرة .

ورواه أبو داود في كتاب السنة ، باب في القدر ٥ / ٦٧ ، حديث رقم ٤٦٩٣ .

(١) الأنعام ٢ .

(٢) المؤمنون ١٢ .

(٣) السجدة ٧ .

(٤) الصافات ١١ .

وفي سورة ص قال تبارك وتعالى (إني خالق بشراً من طين)^١ .

فالطين هو التراب والماء المختلط .^٢

وقد وصف هذا الطين قي سورة الصافات بأنه لازب .

واللازب : هو الثابت الشديد الثبوت .^٣

وفي لسان العرب : لزب الطين يلزب لزوباً ، ولزب : لصق وصلب ،
وحدث علي عليه السلام : دخل بالبله حتى لزبت أي لصقت ولزمت ،
وطين لازب : أي لازق ، قال تعالى (من طين لازب) .^٤ اهـ

ثالثاً: الصلصال .

الصلصال هو : الطين اليابس الذي لم تصبه نار فإذا نقرته صوت ،
فإذا مسته النار فهو فخار .^٥

قال الراغب : وسمي الطين الجاف صلصالاً ، قال (من صلصال
كالفخار) (من صلصال من هما مسنون) ، والصلصلة : بقية ماء ، سميت
بذلك لحكاية صوت تحركه في المزايدة ، وقيل : المنتن من الطين من قولهم :
صل اللحم .^٦ اهـ

وقد ذكر الصلصال في موضعين في القران :

ففي سورة الحجر قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من صلصال
من حمأ مسنون)^٧ .

(١) ص ٧١ .

(٢) انظر : مفردات الراغب ص ٣١٢ مادة طين .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩٩ مادة لزب .

(٤) لسان العرب ٢٧١/١٢ مادة لزب .

(٥) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص ٢٣٧—٢٣٨ .

(٦) انظر : مفردات الراغب ص ٢٨٤ ، تفسير غريب القران ص ٤٣٧ .

(٧) الحجر ٢٦ .

وفي سورة الرحمن (خلق الإنسان من صلصال كالفخار)^١ .

ويلاحظ أن الصلصال وصف مرة بأنه من حمأ مسنون ، ومرة بأنه

كالفخار .

والحمأ : الطين الأسود المنتن^٢ .

والمسنون : المتغير الرائحة^٣ .

أما الفخار : فهو الجرار وذلك لصوته إذا نقر ، كأنما تصور بصورة

من يكثر التفاخر^٤ .

فحاصل ما ذكره القران في مادة الخلق هو أن الإنسان خلق من تراب ،

وأنه خلق من طين ، ووصف هذا الطين بأنه لازب ، وأنه خلق من صلصال

، ووصف هذا الصلصال بأنه من حمأ مسنون، ومرة وصف بأنه كالفخار .

كل ذلك لا تناقض فيه ولا اختلاف ، فكل آية تدل على طور من

أطوار خلق آدم عليه السلام كما سيتضح من المطلب التالي .

(١) الرحمن ١٤ .

(٢) انظر : لسان العرب ٣ / ٣١٢ ، مادة حمأ .

(٣) انظر : تفسير غريب القران ص ٢٣٨ .

(٤) انظر : مفردات الراغب ص ٣٧٤ ، مادة فخر .

المطلب الثاني : أطوار الخلق .

مرّ خلق الإنسان بأطوار عدة ، سواءً في خلق آدم عليه السلام أم في خلق ذريته .

تبدأ هذه الأطوار بالأطوار الأقل تعقيداً ثم تتدرج في التعقيد إلى أن تصل في النهاية إلى خلق بالغ التعقيد والتركيب .

ففي خلق آدم بدأ الخلق بالتراب وانتهى بآدم عليه السلام مروراً بأطوار عدة كما سأبينه إن شاء الله .

وفي خلق الذرية يبدأ الخلق بنطفة من ماء الرجل تلتقي ببويضة المرأة فتلقحها ثم تنتقل النطفة الملقحة إلى طور العلقة وهي مرحلة أعقد من مرحلة طور النطفة ، ثم تنتقل العلقة إلى طور أكثر تعقيداً هو طور المضغة ، ثم تنتقل المضغة إلى طور العظام ، ثم تكسى العظام باللحم ، ثم ينشأ خلق آخر غاية في التعقيد .

إن هذه الأطوار بتدرجها من السهل إلى ما هو أكثر تعقيداً تجعل الإنسان أمام حقيقة كبرى لا يمكن أن يجادل فيها أو يماري ، تلك الحقيقة هي عظمة الخالق تبارك وتعالى .

وقد وجه الباري سبحانه الغافلين إلى تلك الحقيقة في استفهام إنكاري حيث قال (مالكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً)^١ .

قال ابن جرير : معناه ما لكم لا ترون لله عظمة .

ونقل ذلك عن ابن عباس ومجاهد وسفيان والضحاك .^٢

وقال في قوله تعالى : (وقد خلقكم أطواراً) : وقد خلقكم حالاً بعد

(١) نوح ١٣ - ١٤ .

(٢) انظر : تفسير ابن جرير ٢٩/١١٧ - ١١٨ .

حال طوراً نطفة وطوراً علقة وطوراً مضغة .

ونقل ذلك عن ابن عباس و مجاهد و قتادة و الضحاك و ابن زيد^١ .
وبالنظر إلى الآيات التي تحدثت عن خلق آدم عليه السلام نجد أن كل
تعبير مغاير للآخر له دلالاته التي تدل على مرحلة من مراحل الخلق .
ويمكن استنتاج هذه الأطوار والمراحل مرتبة على النحو التالي :
أولاً : التراب :

وهو ما تشير إليه الآيات في سور الحج والروم وفاطر وغافر .

ثانياً : الطين :

وهو التراب المخلوط بالماء من غير تغير ولا ييوسة .

وتدل عليه الآيات التي ذكرت الطين فقط من غير وصفه بأي وصف ،
وهي في سور الأنعام والمؤمنون والسجدة .

ثالثاً : الطين اللازب :

وهو الثابت الملتصق بعضه ببعض حتى يصلب ، وتدل عليه آية
الصفات .

رابعاً : الصلصال :

ترك هذا الطين حتى أنتن وصار يابساً، وهو ما يسمى بالصلصال .

وهو ما تدل عليه آية سورة الحجر .

خامساً : صلصال كالفخار:

ثم ترك هذا الصلصال حتى صار له صوت يشبه صوت الفخار عندما
ينقر ، وهو ما تدل عليه آية سورة الرحمن .

(١) انظر : ابن جرير ٢٩ — ١١٨/١١٩ .

سادساً : نفخ الروح :

ثم نفخت فيه الروح بعد ذلك وهي المرحلة الأخيرة .^١

قال تعالى : (فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له

ساجدين)^٢ .

بعد أن نُفختُ الروح في هذا المخلوق دبت الحياة فيه ، فبعد أن كان تراباً صار مخلوقاً سمياً بصيراً عاقلاً مدركاً ، أودع الله فيه صفات عظيمة ليكون مهياً لأداء المهمة المناطة به وهي عبادة الله سبحانه وتعالى .

وفي الآية السابقة يبين الله تبارك وتعالى أنه نفخ في آدم من روحه — وإضافة الروح إليه تبارك وتعالى إضافة تشريف وتكريم^٣ — وفي هذا بيان لمتزلة الإنسان وتشريف له .

وزيادة في التشريف أمر الله ملائكته بالسجود لآدم فامتثلوا ما عدا إبليس اللعين امتنع عن السجود .

وكان هذا الحدث بداية العداوة بين الشيطان والإنسان وسأعرض لهذه القضية عند الحديث عن المعوقات في طريق تحقيق الغاية من وجود الإنسان .

وقبل الانتقال إلى المبحث الثاني وهو خلق حواء زوج آدم عليه السلام سأعقد مطلباً للتأمل في قصة خلق آدم وما احتوت عليه من قضايا وسيكون مطلباً ثالثاً في هذا المبحث .

(١) انظر : القرطبي ١٠/١٦ ، تفصيل الشائتين ص ٧٢ ، فتح القدير للشوكاني ٣/١٣٠ ،

أضواء البيان ٣/١٢٩ .

(٢) الحجر ٢٩ ، و ص ٧٢ .

(٣) انظر في ذلك : القرطبي ١٠/١٧ ، فتح القدير ٣/١٣٠ .

المطلب الثالث : تأملات في قصة الخلق :

إنَّ القارئ لقصة خلق آدم عليه السلام تستوقفه عدة أمور يستفيد منها الكثير في حياته الدنيوية والأخروية .

فمن هذه الأمور :

أولاً : تكريم الله سبحانه للإنسان :

إذا تأملنا الآيات التي وردت في قصة الخلق نجد أن الله تعالى قد كرم الإنسان وأعلى قدره .

فمن مظاهر هذا التكريم :

١- أنه سبحانه وتعالى أخبر أنه نفخ فيه من روحه ، وإضافة الروح إلى الباري تعالى إضافة تشريف و تكريم و هي بالتالي تشريف و تكريم لمن نُفخت فيه .

٢- أنه أخبر أنه خلقه بيده حيث قال : (ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي) الآية^١ .

وفي هذا تكريم كبير للإنسان ، لأنَّ الله قادر على أن يقول للشيء كن فيكون من غير أن يكون محتاجاً إلى تلك المراحل السابق ذكرها ، ولكنَّه تبارك وتعالى خلق آدم بيده تكريماً له و تعظيماً لشأنه^٢ .

وهذا الخلق باليدين حقيقةً على كيفيةٍ لائقةٍ بالله تعالى لا تشبه صفات المخلوقين .

٣- أنه أمر ملائكته بالسجود له .

وهذا السجود ليس سجود عبادة قطعاً — لأنَّ العبادة لا تنبغي إلا لله

(١) ص ٧٥ .

(٢) انظر : فتح القدير ٤/٤٤٥ ، فتح الباري ١١ / ٥٠٧ .

تبارك وتعالى— ولكنّه سجود تكريم وبيان لمتزلة ذلك المخلوق ، وهذا السجود شبيه بسجود إخوة يوسف له كما قال تعالى: (ورفع أبويه على العرش وخرّوا له سجداً وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً ٠٠) الآية^١ ، ورؤياه هذه هي ما أخبر الله عنها أول السورة على لسان يوسف في قوله تعالى : (إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين) ٢٠

فهذا السجود ليس سجود عبادة قطعاً إنما هو سجود تحية وتشريف للمسجود له والله أعلم^٣ .

قال ابن جرير : و كان سجود الملائكة لآدم تكريماً لآدم و طاعة لله . ثم نقل عن قتادة قوله: (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم ، أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته^٤ .

٤- أنه علمه الأسماء كلها .

قال تعالى : (وعلم آدم الأسماء كلها ٠٠) (إنها فضيلة العلم التي فاق بها الملائكة الكرام .

قال ابن كثير عند هذه الآية : هذا مقام ذكر الله تعالى شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شيء دونهم ، وهذا كان بعد سجودهم له ، وإثماً قدم هذا الفصل على ذلك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم

(١) يوسف ١٠٠ .

(٢) يوسف ٤ .

(٣) انظر : تفسير ابن كثير ٧٧/١ ، البيضاوي ٥٣/١ ، تفسير المنار ٢٦٥/١ .

(٤) ابن جرير ٣٢٧/١ ، وانظر : أحكام القرآن لابن العربي ١٦/١ .

بِحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك فأخبرهم تعالى بأنه يعلم ما لا يعلمون ولهذا ذكر الله هذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم في العلم^١ اهـ .

وقال البيضاوي في تفسير هذه الآيات : واعلم أن هذه الآيات تدل على شرف الإنسان، ومزية العلم وفضله على العبادة^٢ . اهـ

٥- أنه خلقه في أحسن تقويم .

كما أخبر الله تعالى عن ذلك حيث قال: (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم)^٣ .

فالإنسان خلق في صورة جميلة متناسقة غاية في التمام و الجمال قال تعالى : (وصوركم فأحسن صوركم . .) الآية^٤ .

٦- أنه أسكنه الجنة .

قال تعالى : (اسكن أنت وزوجك الجنة . .) الآية^٥ . فأباح له ثمارها وخيراتهما ، ولولا فضله ومكانته لما أسكنه الله الجنة .

هذه بعض مظاهر التكريم في قصة الخلق ، وبعضها وإن كان خاصاً بآدم عليه السلام إلا أن تكريم الأصل تكريم للفرع .

وقد أخبر الله تبارك و تعالى أنه كرم بني آدم أجمعين في قوله

(١) تفسير ابن كثير ٧٢/١-٧٣ .

(٢) تفسير البيضاوي ٥٢/١ .

(٣) التين ٤ .

(٤) غافر ٦٤ ، التغابن ٣ .

(٥) البقرة ٣٥ .

تعالى : (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)^١ .

وهكذا تبدو نظرة الإسلام للإنسان نظرة سامية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى ، فهو مخلوق كريم حظي بتشريف الله تعالى واصطفائه ، يميزه عن غيره العلم الذي آتاه الله إياه ، و القدرة على التعلم التي هي باب وصوله إلى خالقه ومولاه .

إنّ نظرة الإسلام إلى الإنسان ليست مبنية على تصورات وتكهنات البشر ، إنما الحق لأنها نزلت من عند الحق تبارك وتعالى وهذا ما يميزها عن ذلك الغناء الذي أتت به العقول المنحرفة التي استحوذ عليها الشيطان .

فأي مقارنة تُعقد بين من يعتقد بالعقيدة الإسلامية الناصعة و بين من يرى أن الإنسان أصله قرد ثم تطور بعد ذلك كما هو حال النشؤيين . بل أي مقارنة تُعقد بين من يدرك حقيقة وجوده وغايته و بين من لا يعلم عن ذلك شيئاً فهو يتخبط في ظلمات الجهل .

إنّ الحياة عند المؤمن مزرعة للآخرة يزرع فيها الخير والفضائل والمثل ، ويسعى بنفسه لكمالها ، أما الكافر فإنّ الحياة بالنسبة إليه فرصة للانغماس في الشهوات ، وبالتالي فهو عبد لهواه ورغباته ، فهو يعيش عيشة البهائم ، بل هو أضل منها ، قال تعالى في هؤلاء الذين انحرفوا عن منهج الله وأتبعوا أهواءهم : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه أفأنت تكون عليهم وكيلاً أم تحسب أن أكثرهم يسمعون أو يعقلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً)^٢ .

(١) الإسراء ٧٠ .

(٢) الفرقان ٤٣ — ٤٤ .

إنّ المؤمن عندما يقرأ متديراً وقائع هذه القصة يدرك تماماً حقيقة وجوده وغايته ويدرك أبعاد المعركة التي يخوضها ضد عدوه اللدود إبليس اللعين .

ثانياً: عداوة الشيطان للإنسان .

إنّ من الأمور التي بينتها قصة الخلق طبيعة العداوة التي يضمها الشيطان للإنسان و التي بدأت في وقت مبكر جداً وكان منشأها الحسد والكبر .
 إنّ هذه العداوة شديدة جعلت إبليس لعنه الله يقف أمام ربه ومولاه يتوعد ياغواء بني آدم وإضلالهم عن طريق الله ومنهج الله بشتى الوسائل وجميع الطرق ، قال تعالى على لسانه : (قال فيما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم ثم لا آتينهم من بين أيديهم و من خلفهم وعن أيّاهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين)^١ .

ثالثاً : العصيان وعقوبته .

اشتملت قصة آدم على نوعين من العصيان ، ونوعين من العصاة .

فالنوع الأول من العصيان : العصيان بسبب النسيان .

وهي معصية آدم عليه السلام فإنه نسي ما عهد إليه ربه من عدم الأكل من الشجرة وذلك في قوله تعالى : (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً)^٢ .

قال الشنقيطي في أضواء البيان : أي أوصيناه ألا يقرب تلك الشجرة . وهذا العهد إلى آدم الذي أجمله هنا بينه في غير هذا الموضع كقوله في سورة

(١) الأعراف ١٦ - ١٧ .

(٢) طه ١١٥ .

البقرة : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) فقوله (ولا تقربا هذه الشجرة) هو عهده إلى آدم المذكور هنا .^١ أهـ

وهذا العصيان له أسباب متعددة ، منها الاندفاع وراء الرغبات في لحظة نسيان العواقب كما حصل من آدم عليه السلام، فإن إبليس علم شهوة الآدميين في الخلود وشهوتهم في الملك فدخل على آدم من هاتين الشهوتين كما أخبر عن ذلك الله بقوله : (فوسوس لهما الشيطان ليبيد لهما ما وري عنهما من سوءاتهما وقال ما نماكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين)^٢ .

وقال في سورة طه : (قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد

وملك لا يبلى)^٣ .

قال سيد قطب عند تفسيره لهذه الآية : لقد لمس في نفسه الموضوع الحساس ، فالعمر البشري محدود والقوة البشرية محدودة ، من هنا يتطلع إلى الحياة الطويلة و إلى الملك الطويل ، ومن هاتين النافذتين يدخل عليه الشيطان ، و آدم مخلوق بفطرة البشر وضعف البشر لأمر مقدر وحكمة مخبوءة ومن نسي العهد و أقدم على المحذور .^٤ أهـ

وهكذا دأب الشيطان مع ابن آدم ، يدخل عليه من باب الشهوات

مستغلاً الضعف البشري تجاهها ويساعده في ذلك بعد الإنسان عن منهج الله

ونسيانه لعهد الله .

(١) أضواء البيان ٤/ ٥٦٥ .

(٢) الأعراف ٢٠ .

(٣) طه ١٢٠ .

(٤) الظلال ٤/ ٢٣٥٤ .

النوع الثاني من العصيان : العصيان بسبب الكبر .

وهو ما وقع من إبليس اللعين، فإنه عصى ربه بترك السجود لآدم، مع ورود الأمر به فقال له الله (يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين) ^١ .

فرد اللعين في كبر و صلف: (قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقتة من طين) ^٢ .

وهذا النوع من العصيان من أكبر الذنوب و أبشعها ، وهو ما وقع فيه كثير من الكفرة الذين عرفوا الحق وأعرضوا عنه .

ففرعون عرف أن موسى عليه السلام على الحق ولكنه جحد ظلماً وعلواً كما أخبر بذلك الله تعالى حيث قال : (وجحدوا بها و استيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً . .) الآية ^٣ .

وقال تعالى عن الكفرة من قريش (فيأثم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) ^٤ .

وهكذا كان كفر الكفرة لا تكذيباً لرسولهم لأن دلائل صدقهم متوافرة، و معجزاتهم قاطعة، ولكن لما انطوت عليه أنفسهم من الكبر عن قبول الحق ، فالكبر هو بطل الحق و غمط الناس كما عرفه الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . ^٥

(١) ص ٧٥ .

(٢) ص ٧٦ .

(٣) النمل ١٤ .

(٤) الأنعام ٣٣ .

(٥) رواه مسلم في صحيحه ، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر و بيانه ١ / ٩٣ ، حديث رقم

إنَّ النوع الأول من العصيان هو الذي يحدث من المؤمنين بالله في لحظات الغفلة والضعف ونسيان العواقب ، ولكنَّ المؤمن سرعان ما يتذكر إنَّ كان ناسياً فيتوب إلى الله ويرجع إليه ويستغفر من ذنبه قال تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين)^١ .

أما النوع الثاني فلا يحدث من المؤمنين البتة ، لأنَّ العصيان بسبب الكبر كفر لا يجتمع مع الإيمان .

وأما العصاة فهم أيضاً نوعان كما بينت ذلك قصة الخلق :

النوع الأول : العصاة الذين اعترفوا بخطئهم وندموا على ما بدر منهم ولم يصروا على الذنب .

مثل ما وقع من آدم عليه السلام فإنه لما عصى ربه سارع إلى التوبة والاعتراف بالذنب والاستغفار منه قال تعالى (قال ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين)^٢ .

وقال تعالى : (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم)^٣ .

وقال تعالى : (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى)^٤ .

فهؤلاء العصاة جديرون بالمغفرة لأنهم سارعوا بالتوبة من ذنوبهم ، و التحلل منها، وقد بين الرسول صلى الله عليه وسلم أن الخطأ وارد من كل

(١) آل عمران ١٣٥ — ١٣٦ .

(٢) الأعراف ٢٣ .

(٣) البقرة ٣٧ .

(٤) طه ١٢٢ .

البشر إلا أن خير الخطائين التوابون كما قال عليه الصلاة والسلام : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون^١ .

ومن قصة الخلق هذه يستفاد أن الخطأ من طبع البشر لما ركب في النفس من الاستعداد للنقيضين الخير والشر قال تعالى (ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكها وقد خاب من دساها)^٢ ، ولما يعتري النفس البشرية من نوازع الشهوات وهذا ما اقتضته حكمة الله تبارك وتعالى حتى يتم الابتلاء ويُعلم المفسد من المصلح ، والطائع من العاصي .

النوع الثاني من العصاة : العصاة المصرون على الخطأ المقيمون عليه :

ويمثل هؤلاء إبليس اللعين الذي عاند وكابر وأصر على المعصية والإعراض عن أمر الله .

وبناء على التقسيم السابق للمعصية و العصاة ينقسم جزاء العصيان .

(١) أخرجه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب ٤٩ ، ٤ / ٥٦٨ حديث رقم ٢٤٩٩ عن أحمد بن منيع حدثنا زيد بن حباب حدثنا علي بن مسعدة الباهلي حدثنا قتادة عن أنس به .
وأحمد بن منيع : ثقة حافظ . . تقريب التهذيب ١ / ٢٧ رقم ١٢٨ .
وزيد بن حباب : صدوق يخطئ في حديث الثوري . . تقريب التهذيب ١ / ٢٧٣ رقم ١٦٨ .
وعلى بن مسعدة : صدوق له أوهام . . تقريب التهذيب ٢ / ٤٤ رقم ٤١١ .
وقتادة : ثقة ثبت . . تقريب التهذيب ٢ / ١٢٣ رقم ٨١ .
فالحديث بهذا الإسناد ضعيف . . وقد قواه ابن حجر كما في بلوغ المرام ، أنظر سبل السلام ٤ / ٣٤٦ ، وحسنه الألباني في تخريج أحاديث المشكاة ٢ / ٧٢٤ .
ورواه ابن ماجه بنفس الإسناد في الزهد باب ذكر التوبة ٢ / ١٤٢٠ حديث رقم ٤٢٥١ .
ورواه الدارمي في الرقاق باب في التوبة ٢ / ٣٩٢ رقم ٢٧٢٧ عن مسلم بن إبراهيم عن علي بن مسعدة به .

(٢) الشمس ٧ - ١٠ .

فالنوع الأول من العصيان قابل للمغفرة إذا كان العاصي أهلاً لها فإن
الله تعالى يغفر الذنوب جميعاً ما عدا الشرك .

فإذا تاب العاصي وأتاب قبلت توبته وبدلت سيئاته حسنات كما قال
تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي
حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق آثاماً يضاعف
له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً إلا من تاب وآمن وعمل عملاً
صالحاً فأولئك يبذل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً)^١ .
وآدم عليه السلام لما تاب تاب الله عليه .

وإذا لم يتب فاعل هذا العصيان فإنه يكون تحت مشيئة الله تبارك و
تعالى إن شاء عذبه وإن شاء غفر له قال صلى الله عليه وسلم
لأصحابه : بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا
تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بيهتان تفترونه بين أيديكم
وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن
أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله إن شاء عفا عنه وإن شاء
عاقبه .^٢

وأما النوع الثاني من العصيان فعاقبته وخيمة إن لم يتب العاصي ،
فإبليس تلقى العديد من العقوبات ، فمنها اللعنة من الله ، ومنها إخراجهم من
الجنة ، وإبعاده عن الله بعد أن كان قريباً ، ويوم القيامة ينتظره العذاب

(١) الفرقان ٦٨ — ٧٠ .

(٢) رواه البخاري في كتاب الإيمان ، حديث رقم ١٨ انظر البخاري مع شرحه لابن حجر

الأخروي في جهنم .

وهكذا كل من سار على خطى إبليس فإن مصيره سيكون كمصير

إبليس .

قال تعالى : (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فيما يأتيكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى قال رب لي لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسى وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى)^١ .

رابعاً : خطورة استعمال الرأي عند ورود النص :

وهو موضوع خطير وقد ضل فيه كثير من الناس والأصل فيه قول الباري تبارك وتعالى : (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً)^٢ .

فأمر الله وأمر رسوله لا يقبل المناقشة ولا المراجعة بل يجب التسليم له والخضوع والانقياد مع الرضى به كما قال تعالى : (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)^٣ .

(١) طه ١٢٣ - ١٢٧ .

(٢) الأحزاب ٣٦ .

(٣) النساء ٦٥ .

إنَّ المعصية التي وقع فيها إبليس كانت بسبب استخدام الرأي عند ورود النص .

فقد جاءه الأمر من ربه بالسجود ، وكان الواجب عليه الامتثال والخضوع ، ولكنه اعترض قبحه الله على هذا الأمر بقضية عقلية مقدماتها فاسدة .

فإنه اعترض بأنه خير من آدم لأن آدم مخلوق من الطين وهو من النار وجنس النار أفضل من جنس التراب لما فيه من الإضاءة والعلو والإحراق وغير ذلك من الصفات التي تجعله أفضل من الطين .

فاستدل بشرف أصله على شرفه وخيريته .

وقد أخطأ خطأً كبيراً وبيان ذلك من وجوه^١ .

الوجه الأول :

أنَّ هذا القياس منه في مقابل النص فهو فاسد الاعتبار لمخالفة النص .

الوجه الثاني :

أنَّ المقدمة التي بنى عليها غير مسلمة ولا تنتج له ما أراد فليس جنس النار أفضل من جنس الطين بل الطين أفضل لأن طبيعة النار الخفة و الطيش والإفساد و التفريق حتى إنَّ شواظاً من نار لو وقع في مدينة لأفسدها ، أما التراب فإن طبعه السكون والرزانة و الوقار و الأناة .

والطين مادة الحيوان والنبات والأقوات بخلاف النار فإنها مادة

(١) انظر ذلك في : القرطبي ١١٠/٧ - ١١١ ، الرازي ١٢/٧ ، ٣٦٨/١٣ - ٣٧٠ ، أضواء

البيان ٦٢/١ - ٦٣ ، تفسير المنار ٣٣٠/٨ - ٣٣٢ ، مصائب الإنسان من مكائد الشيطان لابن

مفلح الحنبلي ١٦٣ - ١٦٧ .

الإهلاك ، والتراب أمين مصلح فإن أودعته حبة رده إليك شجرة مثمرة
والنار تفسد كل ما أسلمته إليها .

الوجه الثالث :

أنا لو سلمنا جدلاً أن النار خير من الطين فإنه لا يلزم من ذلك أن
إبليس خير من آدم لأن شرف الأصل لا يقتضي شرف الفرع ، بل قد يكون
الأصل رفيعاً والفرع وضعياً كما قال الشاعر :

إذا افتخرت بأبائهم شرف قلنا صدقت ولكن بمس ما ولدوا
ولا يمنع كون الأصل وضعياً أن يكون الفرع نفيساً فالمسك من
الدم ، وجوهر الألماس من الكربون الذي هو أصل الفحم .
وأيضاً فإن أصل الرماد النار وأصل البساتين والأشجار المثمرة هو
الطين ، ومعلوم أن الأشجار المثمرة خير من الرماد .

ويتضح من هذا فساد رأي إبليس وفساد كل رأي مقابل النص ، وقد
جاء النكير من السلف رضوان الله عليهم على الاعتماد على الرأي والقياس في
مقابلة النص .

فقد روى ابن عبد البر في كتابه جامع بيان العلم بسنده عن الحسن
قال : أول من قاس إبليس قال : (خلقتني من نار وخلقته من طين)^١ .
وروى عن ابن سيرين قال : أول من قاس إبليس وإنما عبّدت الشمس
والقمر بالمقاييس^٢ .

(١) انظر : جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ١/٢ ٨٩٢ حديث رقم ١٦٧٤ .

(٢) انظر : السابق .

وروى عن مسروق قوله : إني أخاف أن أقيس فتزل قدمي ^١ .

وروى عن عمر بن الخطاب قوله : أصبح أهل الرأي أعداء السنن ،

أعيتهم الأحاديث أن يعوها وتفلتت منهم أن يرووها فاستبقوها بالرأي ^٢ .

خامساً : الأكثرية من الناس ينحرفون عن منهج الله :

إنّ مما يستفيدة المؤمن عند تلاوة هذه الآيات في قصة خلق آدم أنّ أكثر الناس متبعون لإبليس فيما يؤزهم إليه ، ولذلك قال إبليس كما أخبر الله عنه (ولا تجد أكثرهم شاكرين) ، وقال (ولأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين) ، وقال (لأحتنكن ذريته إلا قليلاً) .

فالكثرة ليست علامة للصحة كما يعتقد البعض بل قد تكون وقد لا تكون ولما احتملت الأمرين لم يصح أن تجعل علامة عليها .

ومما يؤيد هذا أن الله تعالى ذكر أن أكثر الناس ليسوا بمؤمنين قال تعالى (وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) ^٣ وقال (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله) ^٤ .

وحق القلة من المؤمنين قال الله تعالى عنهم : (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) ^٥ ، أي مشركون في الألوهية مع إيمانهم بالربوبية أو قد يحصل الشرك حتى ممن يؤمن بتوحيد الألوهية مثل من يرائي بعمله أو

(١) المصدر السابق ١٩٢/٢ حديث رقم ١٦٧٦ .

(٢) المصدر السابق ١٠٤١/٢ حديث رقم ٢٠٠١ .

وقال ابن القيم في إعلام الموقعين بعد ذكر الآثار المشابهة عن عمر رضي الله عنه : أسانيد هذه

الآثار عن عمر في غاية الصحة . انظر : إعلام الموقعين ١/٥٥ .

(٣) يوسف ١٠٣ .

(٤) الأنعام ١١٦ .

(٥) يوسف ١٠٦ .

يتحاكم إلى غير شرع الله^١ .

سادساً : الاحتجاج بالقدر على الذنب :

مما يستفيده المؤمن عند قراءته لقصة الخلق أن أول من احتج بالقدر على الذنب هو إبليس عليه لعنة الله ، حيث نسب الإغواء إلى الله تعالى فقال كما أخبر الله عنه : (رب بما أغويتني) .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : وقد ذكر الله تعالى عن آدم عليه السلام أنه لما فعل ما فعل قال : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وعن إبليس أنه قال : (فبما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين) .

فمن تاب أشبه أباه آدم ، ومن أصر واحتج بالقدر أشبهه إبليس . اهـ^٢ .

وقال رحمه الله : فالقدر يؤمن به ولا يحتج به ، فمن لم يؤمن بالقدر ضارع المجوس ، ومن احتج به ضارع المشركين ، ومن أقر بالأمر والقدر وطعن في حكمته كان شبيهاً بإبليس فإن الله ذكر عنه أنه طعن في حكمته وعارضه برأيه وهواه وأنه قال : (فبما أغويتني لأزينن لهم في الأرض) . اهـ^٣ .

وقد أفاض شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في الرد على من احتج للذنب بالقدر وبين بطلان مذهبه وما يلزمه مذهبه من الباطل في فتاواه^٤ .

(١) انظر : ابن جرير ١٣ / ١٠٦ ، ابن كثير ٢ / ٤٩٤ .

(٢) فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، جمع عبد الرحمن العاصمي النجدي ٨ / ١٠٨ .

(٣) المصدر السابق ٨ / ١١٤ .

(٤) المصدر السابق ٨ / ١٠٦ - ١٠٨ - ٢٥٦ - ٣٠٣ - ٤٠٥ .

سابعاً : وقفات مع لفظة الخليفة

قال الله تبارك وتعالى في سورة البقرة : (وإذ قال ربك للملائكة إني

جاعل في الأرض خليفة) .

ولي مع لفظة خليفة ثلاث وقفات :

الوقفة الأولى : في معنى الخليفة .

الخليفة من يخلف غيره وينوب منابه^١ ، وخلف فلان فلاناً قام بالأمر عنه

إما معه وإما بعده^٢ .

قال الراغب : والخلافة النيابة عن الغير إما لغيبة المنوب عنه وإما لموته

وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف ، وعلى هذا الوجه الأخير استخلف

الله أولياءه في الأرض قال تعالى (هو الذي جعلكم

خلائف في الأرض) . اهـ^٣

وقال ابن فارس : وإنما سميت خلافة لأن الثاني يجيء بعد الأول

قائماً مقامه . اهـ^٤

الوقفة الثانية : المقصود بالخليفة في الآية .

للعلماء في هذه المسألة قولان^٥ :

(١) تفسير البيضاوي ١ / ٤٩ .

(٢) مفردات الراغب ص ١٥٦ .

(٣) السابق ص ١٥٧ .

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٢ / ٢١٠ .

(٥) انظر هذه المسألة في : ابن جرير ١ / ٢٨٧ - ٢٩٠ ، الرازي ١ / ٥٨٠ ، زاد المسير

١ / ٦٠ ، القرطبي ١ / ١٨٢ ، الكشاف ١ / ٢٧١ ، فتح القدير ١ / ٦٢ ، أضواء البيان

١ / ٤٨ - ٤٩ ، تفسير المنار ١ / ٢٥٧ - ٢٦١ .

القول الأول : المقصود بالخليفة آدم عليه السلام .

واختلف أصحاب هذا القول في المراد بالخلافة :

فذهب بعضهم إلى أن المراد أن آدم عليه السلام خليفة الله في أرضه في

إقامة شرعه ودلائل توحيدِه والحكم في خلقه .

وذهب بعضهم إلى أن المراد أن آدم عليه السلام يخلف من كان قبله

من الجن أو الملائكة على خلاف في ذلك .

واستدل أصحاب هذا القول الأول بأدلة :

منها أن الظاهر المتبادر من السياق أن المقصود بالخليفة آدم عليه

السلام^١ .

ومنها أنه وحّد لفظ الخليفة فدل على أن المراد واحد^٢ .

القول الثاني: المقصود بالخليفة ذرية آدم عليه السلام وذلك أنه

يخلف بعضهم بعضا .

واستدل أصحاب هذا القول بأدلة :

منها أن الله تعالى قد ذكر في مواضع من كتابه خلافة بني آدم بعضهم

لبعض فقال تعالى (وهو الذي جعلكم خلائف الأرض)^٣ ، وقال

(ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون)^٤ ،

وقال : (هو الذي جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره)^٥

(١) أضواء البيان ١ / ٤٨ .

(٢) فتح القدير ١ / ٦٢ .

(٣) الأنعام ١٦٥ .

(٤) يونس ١٤ .

(٥) فاطر ٣٩ .

، وقال : (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض)^١ .

ومنها أن الله تعالى لما ذكر للملائكة أنه جاعل في الأرض خليفة أجابته الملائكة : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء)^٢ (إخباراً منها عن الخليفة الذي أخبر الله جل ثناؤه أنه جاعله في الأرض لا غير ، لأن المحاورة بين الملائكة وبين ربها عنه جرت .

فإذا كان كذلك وكان الله قد برأ آدم من الإفساد في الأرض ، وسفك الدماء ، وطهره من ذلك علم أن الذي عُني به غيره من ذريته .

فثبت أن الخليفة الذي يفسد في الأرض ويسفك الدماء هو غير آدم ، وأنهم ولده الذين فعلوا ذلك ، وأن معنى الخلافة التي ذكرها الله إنما هي خلافة قرن منهم قرناً غيرهم^٣ .

وأجابوا عما استدل به أصحاب القول الأول بما يلي :

أما دليلهم الأول وهو أن الظاهر المتبادر هو أن الخليفة آدم فالرد عليه بالدليل الثاني السابق ذكره .

وأما استدلالهم بإفراد لفظ الخليفة فإنه لا يتم لأنه وإن كان اللفظ مفرداً إلا أن المراد به الجمع ، والمفرد إن كان اسم جنس يكثر في كلام العرب إطلاقه مراداً به الجمع كقوله تعالى (إن المتقين في جنات ونهر)^٤ يعني أنهار ، بدليل قوله (فيها أنهار من ماء غير آسن)^٥ .

(١) النمل ٦٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن جرير ١ / ٢٨٩ .

(٣) القمر ٥٤ .

(٤) محمد ١٥ .

ومثل قوله (واجعلنا للمتقين إماما)^١ ، وقوله : (فإن طبن لكم عن شيء منه نفساً)^٢ .

ونظيره من كلام العرب قول عقيل بن علفة المري :^٣

وكان بنو فزارة شر عم
وقول العباس بن مرداس السلمي :^٤

فقلنا أسلموا إنا أخوكم
وقد سلمت من الإحن الصدور
والشواهد لهذا في كلام العرب كثيرة .^٥
والذي يترجح هو القول الثاني لقوة أدلته .

الوقفة الثالثة : هل يصح أن يقال الإنسان خليفة الله في الأرض ؟

للعلماء في هذه المسألة قولان :

القول الأول : أنه لا يصح أن يقال ذلك . وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم .^٦

قال شيخ الإسلام : والخليفة لا يكون خليفة إلا مع مغيب المستخلف أو موته فالنبي صلى الله عليه وسلم إذا كان بالمدينة امتنع أن يكون له

(١) الفرقان ٧٤ .

(٢) النساء ٤ .

(٣) عقيل بن علفة بن الحارث اليربوعي المري ، أبو العميس ، شاعر مجيد مقل من شعراء الدولة الأموية توفي نحو المائة . انظر ترجمته في الأعلام ٤ / ٢٤٢ .

(٤) العباس بن مرداس السلمي صحابي شهد مع النبي صلى الله عليه وسلم الفتح ومعه سبعمائة من قومه ، ويقال أنه ممن حرم الخمر في الجاهلية ، روى عنه كنانة وعبد الرحمن بن أنس السلمي . انظر ترجمته في الإصابة ٤ / ٣١ ، تهذيب التهذيب ٥ / ١١٤ .

(٥) انظر : أضواء البيان ١ / ٤٨ - ٤٩ .

(٦) وانتصر له من المعاصرين الشيخ عبد الرحمن الميداني في كتابه (لا يصح أن يقال الإنسان

خليفة عن الله) .

خليفة فيها ، كما أن سائر من استخلفه النبي صلى الله عليه وسلم لما رجع انقضت خلافته ، وكذلك سائر ولاة الأمور إذا استخلف أحدهم على مصره في مغيبه بطل استخلافه ذلك إذا حضر المستخلف ، ولهذا لا يصلح أن يقال إن الله يستخلف أحداً عنه فإنه حي قيوم شهيد مدبر لعباده ، متره عن الموت والنوم والغيبة .

ولهذا لما قالوا لأبي بكر : يا خليفة الله . قال : لست خليفة الله ، بل خليفة رسول الله وحسي ذلك ^١ .

والله تعالى يوصف بأنه يخلف العبد كما قال صلى الله عليه وسلم : اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل ^٢ .

وقال في حديث الدجال : (والله خليفتي على

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ١٠/١ من طريق موسى بن داود حدثنا نافع بن عمر عن ابن أبي مليكة قال : قيل لأبي بكر . فذكره بلفظ مقارب . وهذا إسناد حسن إلى ابن أبي مليكة .

فموسى بن داود : هو الضبي ، صدوق فقيه زاهد . التقريب ٢ / ٢٨٢ ، رقم ١٤٥٠ . و نافع بن عمر : هو ابن عبد الله بن جميل الحمصي ، ثقة ثبت . التقريب ٢ / ٢٩٦ ، رقم ٢٤ .

وابن أبي مليكة : هو عبد الله بن عبيد الله ، ثقة فقيه . التقريب ١ / ٤٣١ ، رقم ٤٥٢ . (٢) هذا جزء من حديث رواه الإمام مسلم في كتاب الحج ، باب ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره ٢ / ٩٧٨ حديث رقم ١٣٤٢ .

كل مسلم) ١ .

وكل من وصفه الله بالخلافة في القرآن فهو خليفة عن مخلوق كان قبله كقوله تعالى : (ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم) ، (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح) ، (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) وكذلك قوله (إني جاعل في الأرض خليفة) أي عن خلق كان في الأرض قبل ذلك كما ذكر المفسرون وغيرهم ٢ . أهـ

وقال في موضع آخر : وسمي الخليفة خليفة لأنه يخلف من قبله ، والله تعالى جعله يخلفه ، كما جعل الليل يخلف النهار ، والنهار يخلف الليل ، ليس المراد أنه خليفة عن الله كما ظنه بعض الناس ٣ . أهـ

وقال في موضع آخر : والمقصود هنا أن الله لا يخلفه غيره ، فإن الخلافة إنما تكون عن غائب وهو سبحانه شهيد مدبر لخلقه لا يحتاج قي تدبيرهم إلي غيره وهو سبحانه خالق الأسباب والمسببات جميعاً بل هو سبحانه يخلف عبده المؤمن إذا غاب عن أهله ٤ . أهـ

وقال ابن القيم في زاد المعاد : ومما يكره منها أن يقول للسلطان: خليفة الله ، أو نائب الله في أرضه فإن الخليفة والنائب إنما يكون عن غائب ، والله سبحانه وتعالى خليفة الغائب في أهله ووكيل عبده المؤمن ٥ . أهـ

(١) هذا جزء من حديث رواه الإمام مسلم في كتاب الفتن وأشراط الساعة ، باب ذكر الدجال

وصفته وما معه ، ٤ / ٢٢٥١ — حديث رقم (٢١٣٧) .

(٢) منهاج السنة النبوية لشيخ الإسلام ابن تيمية ٧ / ٣٥٢ — ٣٥٣ .

(٣) السابق ٥ / ٥٢٥ .

(٤) السابق ١ / ٥١٠ .

(٥) زاد المعاد لابن القيم ٢ / ٤٧٤ — ٤٧٥ .

فدليل أصحاب هذا القول هو ما يستلزمه من المعاني الفاسدة
فالخلافة إنما تكون عن غائب والله سبحانه شهيد مدبر لخلقه .

ومما يستدل به على فساد هذه المقولة أنها تنافي المعاني المعقولة لسياق
الآية في سورة البقرة فلا يمكن أن يكون الملائكة قد فهموا من قول الله تعالى :
(إني جاعل في الأرض خليفة) أن هذا المخلوق الجديد سيكون خليفة
عن الله ثم يقولوا لربهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) لأنهم
يعلمون أن الله تبارك وتعالى عليم حكيم فهو سبحانه لا يختار خليفة
عنه على أي مستوى من مستويات الاستخلاف إلا من هو أهل لهذه
الخلافة ، ولذلك فإنه مستنكر جداً أن يقول لهم سأجعل خليفة عني
فيقولوا له : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ^١ .

القول الثاني : أنه يصح أن يقال ذلك ، وهو المقصود في الآيات .
وذهب إليه بعض المفسرين ^٢ .

واستدل هؤلاء بأنه لا يلزم من كون الإنسان خليفة عن الله
خلو سلطان الله وهيمنته على الأرض .

ونظير هذا المعنى عندهم قول الله تعالى : (وقالوا الحمد لله الذي
صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء . .) الآية ^٣ .

فالله سبحانه هو الذي أورثهم الأرض ولا يلزم من ذلك موت المورث

(١) انظر : لا يصح أن يقال الإنسان خليفة عن الله للشيخ الميداني ص ٤١ .

(٢) انتصر له بعض المعاصرين مثل الدكتور فاروق الدسوقي في كتابه استخلاف الإنسان في

الأرض ، والبهى الخولي في كتابه آدم عليه السلام .

(٣) الزمر ٧٤ .

جل جلاله فكذلك الاستخلاف^١ .

واستدلوا أيضاً بورود هذا اللفظ في عدة أحاديث هي :

فالحديث الأول رواه الإمام أبو داود في سننه في كتاب الفتن من حديث سبيع بن خالد عن حذيفة بن اليمان والذي فيه : ثم قال — أي رسول الله صلى الله عليه وسلم — : إن كان لله خليفة في الأرض فضرب ظهرهك وأخذ مالك فأطعه وإلا فمت وأنت عاض بجذل شجرة . . . الحديث^٢ .

والحديث الثاني : رواه الإمام ابن ماجه في كتاب الفتن من حديث ثوبان رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقتل عند كتركم ثلاثة كلهم ابن خليفة ، ثم لا يصير إلى واحد منهم ، ثم تطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلونكم قتلاً لم يقتله قوم ، ثم ذكر شيئاً لا أحفظه فقال : فإذا رأيتموه فبايعوه ولو حبواً على الثلج فإنه

(١) انظر كتاب استخلاف الإنسان في الأرض للدكتور فاروق الدسوقي ص ٧ .

(٢) رواه الإمام أبو داود في كتاب الفتن والملاحم ، باب ذكر الفتن ودلائلها ٤ / ٤٤٦ حديث رقم ٤٢٤٤ ، من طريق مسدد حدثنا أبو عوانة عن قتادة عن نصر بن عاصم عن سبيع بن خالد عن حذيفة .

وهذا إسناد حسن ، فمسدد : بن مسرهد ، ثقة حافظ . التقريب ٢ / ٢٤٢ ، رقم ١٠٥٢ .
و أبو عوانة : هو وضاح بن عبد الله اليشكري ثقة ثبت . التقريب ٢ / ٣٣١ رقم ٣٣ .
وقتادة : هو ابن دعامة السدوسي . ثقة ثبت . التقريب ٢ / ١٢٣ رقم ٨١ .
ونصر ابن عاصم : هو الليثي البصري . ثقة رمي يرأي الخوارج . التقريب ٢ / ٢٩٩ رقم ٦٢ .
وسبيع بن خالد : مقبول كما في التقريب . التقريب ١ / ٢٨٤ رقم ٥٤ ، ووثقه العجلي في تاريخ الثقات ص ١٧٧ رقم ٥١١ ، ووثقه ابن حبان كما في الثقات ٤ / ٣٤٧ . ولم أجد من ذكر سبيع بجرح وهو راوي القصة عن حذيفة .

وقد حسن الشيخ الألباني إسناد هذا الحديث في السلسلة الصحيحة ٤ / ٤٠٠ .

خليفة الله المهدي^١ .

والذي يترجح القول الأول لأمر :

الأول : أن اللفظ إن كان يحتمل معنيين أو أكثر لم يجوز أن يحكم لأحدهما إلا بقريضة خالية عن القدح والاعتراض^٢ .

وما ذكره من الحجج لا يسلم واحد منها من ذلك .

فأما استدلالهم بقول الله تعالى : (وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء . .) الآية . وزعمهم بأن توريث الله لهم لا يقتضي موته فكذلك الاستخلاف لا يقتضي خلو الأرض عن سلطانه .

فالجواب عنه : إن هذا التنظير غير صحيح لأمر :

أحدها : أنهم بنوا استدلالهم على أن التوريث يقتضي الموت في حق البشر ولا يقتضيه في حق الله وهذا غير صحيح لأن التوريث لا يقتضي الموت حتى في حق البشر ، فليس كل من ورث شيئاً اقتضى ذلك موت

(١) رواه الإمام ابن ماجة في كتاب الفتن ، باب خروج المهدي ٢ / ١٣٦٧ حديث رقم ٤٠٨٤ ، من طريق محمد بن يحيى و أحمد بن يوسف قالوا: حدثنا عبد الرزاق عن سفيان الثوري عن خالد الحذاء عن أبي قلابة عن أبي أسماء الرحبي عن ثوبان قال : قال رسول الله . . فذكره . وهذا إسناد ضعيف علته أبو قلابة وهو عبدالله بن زيد الجرهمي فإنه مدلس وقد عنعن ، قال الذهبي في الميزان ٢ / ٤٢٥ : إمام شهير من علماء التابعين ثقة في نفسه إلا أنه يدلس عن لحقهم و عن لم يلحقهم ، وكان له صحف يحدث منها ويدلس . أهـ

وقال ابن حجر : ثقة فاضل كثير الإرسال . التقريب ١ / ٤١٧

وقد ضعف الألباني هذا الحديث بهذه العلة في السلسلة الضعيفة ١ / ١١٩ ، رقم ٨٥ .

(٢) انظر : الإتيان للسيوطي ٢ / ١٢١٤ .

المورث ، فقد يرث الإنسان عن أبيه الذكاء والفتنة والقوة أو غير ذلك من الصفات ولا يلزم أن يكون الأب ميتاً .

ثانياً : ولأن الله تعالى وارث وليس بمورث فليس في أسمائه مورث وإن كان هو خالق السبب المقتضي للإرث ، فالموت مثلاً سبب في الإرث والله خالقه فلو ورث الإنسان ما لا عن أبيه فإن الله أورثه إياه وإن كان المورث هو الأب .

فإسناد فعل التوريث إلى الله لا يقتضي أنه ورثه هو ، بل معناه أن الله تعالى جعله وارثاً، لذلك يقال : أورثني الله كذاً، أي جعلني وارثاً لا عن نفسه ، فالفرق واضح بين قولنا : أورث وورث .

ثالثها : لو سُلم أن ما قالوه صحيح فإن الأمر يختلف في الخلافة لما يلزم من المعاني الفاسدة التي سبق ذكرها .

رابعها : أن معنى الآية أن الله أورثهم إياها ومكنهم منها لا أنهم ورثوها عنه .

وأما استدلالهم بورودها في بعض الأحاديث فليس فيه حجة لأمر :
الأول : لأن المراد بها في الأحاديث الخليفة المسلم الذي يستخلفه الله في ذلك الوقت ، وهم قد جعلوها في كل إنسان .
فالأحاديث وردت مخصوصة في الخلفاء المسلمين فلا يصح تعميمها في كل البشر .

الثاني : أن الإضافة في الأحاديث لأحد أمرين :

أحدهما : أنها إضافة تشریف فيقال خليفة الله كما يقال بيت الله ، وناقاة الله ، مع أن الله سبحانه مستغن عن البيت والناقاة ومتره عنهما ولكن

إنما أضيفتا إليه لبيان شرفه ومترلته ، وهذا المعنى مشهور عند العلماء .^١
 الآخر : أن الإضافة لأجل أن الله تعالى هو الذي مكن الإنسان في
 الأرض وهو الذي جعله خليفة يخلف غيره فهو بهذا خليفة الله أي أن الله تعالى
 هو الذي استخلفه ، ويكفي في صحة الإضافة أدنى ملابسة .

الثاني من الأمور المرجحة للقول الأول :

أن اللفظ إذا كان يحتمل معنيين أحدهما يستلزم معنى غير لائق بالله تعالى
 ولو من بعد فالحمل على المعنى السالم من ذلك أولى .
 ولفظ الخليفة لما كان يحتمل معنيين أحدهما : أنه خليفة عن الله في
 أرضه وهذا المعنى لزم منه لوازم باطلة . والثاني : أنه يخلف بعضهم بعضاً
 بأمر الله ولا يلزم منه تعسف في التأويل بل هو معنى متساوق مع السياق
 ومع الآيات الأخرى التي جاءت فيها مادة الخلافة ، وجب حملة على هذا
 المعنى .

الثالث من الأمور المرجحة للقول الأول :

وهو إيراد يرد على أصحاب القول الثاني .

فيقال ما المقصود بالخليفة عندكم ؟

فإن قالوا : كل إنسان . لزمهم معنى فاسد لأنه لا يصح أن يكون كل
 إنسان خليفة عن الله في أرضه إذ أن هناك من يفسد في الأرض ويقوم على
 الكفر ولا يرعى حدود الله ، ومثل هذا لا يصح أن يقال عنه إنه خليفة الله في
 أرضه .

وأيضاً فإن حكمة الله وعلمه تأبى أن يتخذ الله له وكيلاً عنه ومفوضاً لا

(١) انظر في ذلك : الكشاف ٢ / ٢٨٩ ، القرطبي ٧ / ١٥٢ ، المحرر الوجيز ٢ / ٤٢١ ،

النسفي ١ / ٥٢٦ ، أبو السعود ٣ / ٢٤٢ .

يرعى حقوقه ، ولا يقيم حدوده وهو القائل سبحانه (الله أعلم حيث يجعل رسالته) فكذلك خلافته ^١ .

فإن قالوا : إنسانٌ معينٌ .

قيل لهم : يجب عليكم بيانه .

فإن قالوا : هو السلطان ، يرد عليهم ما ورد أولاً من أن ليس كل سلطان مقيم لحدود الله وشرعه بل هناك من يجارب الله فكيف يصح أن يقال عن هذه صفته أنه خليفة الله .

فإن قالوا : هو السلطان المقيم لحدود الله .

قيل لهم : هذا تخصيص بدون دليل .

وفيه اضطراب في المعنى إذ معنى الآية على هذا القول يكون : (إنني

جاعل في الأرض سلطان يقيم حدود الله وشرعه) .

فتجيب الملائكة : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء .

فالخلف واضح بين خبر الله واستفسار الملائكة .

الرابع من الأمور المرجحة للقول الأول :

سلامة أدلتهم — أي أصحاب القول الأول — من التعارض والتنافر في

المعاني ، وقوة ما استدلوا به على قولهم .

الخلاصة :

مما سبق يتبين أن مقولة : (الإنسان خليفة الله في أرضه) غير صحيحة

إن أُريد بها معنى الوكيل أو المفوض عنه سبحانه .

أما إن قيل : (خليفة الله) لمن جعله الله إماماً للمسلمين فإنه يصح

باعتبارين :

الأول : أن الله تعالى هو الذي مكّنه في الأرض وجعله خليفة لا عنه بل

(١) انظر : لا يصح أن يقال الإنسان خليفة عن الله ص ١٦ — ١٧ .

عن غيره من الخلفاء .

الثاني : أن تكون الإضافة إضافة تشریف وتكريم، كما يقال بيست الله وناقة الله .

ثامناً : التكرار في قصة خلق آدم عليه السلام وفوائده :

التكرار هو إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة^١ .

وهو ما يسميه الإمام الزركشي^٢ المتشابه .

وهذا التكرار له فوائد جمة ومقاصد عدة لذا فإن الشيخ بدر الدين بن جماعة^٣ ألف كتاباً خاصاً في ذلك سماه (المقتنص في فوائد تكرار القصص) ذكر ذلك السيوطي في الإتيان ثم ساق جملة من تلك الفوائد^٤ .

وسأذكر بعون الله بعض الفوائد التي وقفت عليها في كتب أهل العلم .

فمن فوائد تكرار القصص عموماً :

١ — تحدي العرب به ، فهو يأتيهم بالقصة الواحدة في أساليب متعددة، وأشكال من الكلام متنوعة، وطرائق في التعبير مختلفة وهم عاجزون

(١) انظر : البرهان ١ / ١١٢ ، معترك الأقران للسيوطي ١ / ٨٥ .

(٢) هو الإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي ولد سنة ٧٤٥ هـ وتلمذ على جمال الدين الإسنوي وسراج الدين البلقيني وغيرهم له مؤلفات كثيرة في العلوم ، توفي رحمه الله بمصر في رجب سنة ٧٩٤ هـ . انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٤ / ١٧ ، شذرات الذهب ٦ / ٣٣٥ .

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ولد سنة ٦٣٩ هـ بحماة وتلمذ على ابن مالك صاحب الألفية وابن دقيق العيد وغيرهم ومن تلاميذه السبكي صاحب الطبقات ، وأبو حيان المفسر ، والذهبي وغيرهم ، توفي رحمه الله سنة ٧٣٣ هـ . انظر ترجمته في الدرر الكامنة ٣ / ٣٦٧ ، البداية والنهاية ١٤ / ١٧١ ، طبقات الشافعية الكبرى ٩ / ١٣٩ .

(٤) انظر : الإتيان ٢ / ٨٥٣ .

عن أن يؤلفوا على أي طريقة من الطرق .

قال الزركشي في البرهان : وحكمته التصرف في الكلام وإتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم من جميع طرق ذلك مبتدأ به ومتكرراً^١ .

٢ — التكرار بأسلوب واحد قد يمل السامع ، وأما في القرآن فإن القصة الواحدة تتكرر بأشكال وأساليب شتى لا يمل منها سامعها وهذا ما يمكن تسميته بالتنوع لأجل التشويق ، فيحصل تأثير خاص في نفس السامع في كل عرض لتلك القصة .

قال السيوطي نقلاً عن كتاب ابن جماعة السابق الذكر : ومنها — أي فوائد تكرار القصص — أن القصة لما كررت كان في ألفاظها في كل موضع زيادة ونقصان وتقديم وتأخير ، وأتت على أسلوب غير أسلوب الأخرى ، فأدى ذلك ظهور الأمر العجيب في إخراج المعنى الواحد في صور متباينة في النظم ، وجذب النفوس إلى سماعها ، لما جبلت عليه من حب التنقل في الأشياء المتجددة واستلذاذها بها ، وإظهار خاصة القرآن ، حيث لم يحصل مع تكرير ذلك فيه هُجْنَةٌ في اللفظ ، ولا ملل عند سماعه ؛ فباين ذلك كلام المخلوقين^٢ .

٣ — التكرار من أساليب التعليم ، وتثبيت المعلومات ، فالمخاطبين ليسوا على درجة واحدة في الفهم ، بل هم متفاوتون بين محتاج إلى التكرار فينتفع به ويفيده ، وغير محتاج فيؤكد الحق في نفسه .

٤ — التكرار يفسح للباحثين والمفسرين مجالاً لإظهار إعجاز القرآن الكريم اللفظي والمعنوي ، وذلك بإظهار أوجه المناسبات بين المتشابهات ،

(١) انظر البرهان ١ / ١١٢ .

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ٢ / ٨٥٤ .

ولذلك عدَّ السيوطي رحمه الله المتشابه — المتكرر — من أوجه إعجاز القرآن الكريم في كتابه (معترك الأقران في إعجاز القرآن)^١ .

٥ — التكرار يأتي لتأكيد البيان وتقرير الحجة ، كما ذكر ابن المنادي^٢ في كتابه متشابه القرآن^٣ .

٦ — قد يظهر من سياق الآية في موضعين بلفظين مختلفين زيادة في المعنى ، وذلك كقوله تعالى في سورة البقرة : (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم)^٤ ، وفي سورة إبراهيم أضاف الواو في قوله : (ويذبجون أبناءكم)^٥ . فتكون جملة يذبجون في سورة البقرة بدل من سوء العذاب^٦ .

وفي سورة إبراهيم يكون من باب عطف الخاص على العام فيكون فيه زيادة في المعنى إذا التقتيل حينئذ صورة من صور سوء العذاب الذي تعرضوا له .

(١) انظر : معترك الأقران للسيوطي ١ / ٨٥ .

(٢) هو أحمد بن جعفر بن محمد المنادي — بضم الميم وفتح النون وسكون الألف بعدها دال مهملة — نسبة إلى من ينادي على الأشياء التي تباع والأشياء الضائعة كما في اللباب ، ولد سنة ٢٥٦ هـ وتلمذ على الدوري المقرئ ومحمد بن اسحاق الصفاني وغيرهم ، ومن تلاميذه أبو عمرو ابن حيوية وأحمد بن نصر الشدادي وغيرهما ، كان ثقة أميناً توفي سنة ٣٣٦ هـ .
انظر ترجمته في : تاريخ بغداد ٤ / ٦٩ ، الفهرست لابن الندم ص ٥٨ ، المنتظم لابن الجوزي ٦ / ٣٥٧ ، تذكرة الحفاظ للذهبي ٣ / ٨٤٩ ، طبقات الحنابلة لأبن أبي يعلى ٢ / ٣ ، اللباب في تهذيب الأنساب ٣ / ٢٥٨ .

(٣) انظر متشابه القرآن ص ٢٢٧ .

(٤) البقرة ٤٩ .

(٥) إبراهيم ٦ .

(٦) انظر : ملاك التأويل لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي ١ / ٢٠٢ .

٧ — التكرار يعطي تكاملاً في التصور لأحداث قصة ما .

فقصة آدم عليه السلام لم تُذكر مفصلة في موضع واحد بل تفرقت في عدة مواضع كل موضع منها فيه زيادة عن الموضع الآخر .

ففي سورة البقرة مثلاً بين الله تعالى أنه أمر آدم بعدم الأكل من الشجرة فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه .

ولكن في سورة الأعراف بين أنه وسوس لهما وبين المدخل الذي دخل منه اللعين عليهما وكيف أنه أقسم لهما بأنه ناصح لهما وكيف أكلا من الشجرة فبدت لهما سوءاتهما إلى آخر هذه الأحداث التي لم تذكر في سورة البقرة .

وقد بين بالتكرار ما أُجمل في موضع آخر ففي سورة البقرة ذكر الله تعالى أن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه .

هذه الكلمات هي ما ذكر في سورة الأعراف من قولهما له : (قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) .

فهذه بعض فوائد تكرار القصص عموماً في القرآن الكريم .

ويظهر جلياً أن هذا التكرار في قصة آدم وغيرها من المكررات من إعجاز القرآن اللغوي البياني كما سبق ذكر ذلك .

شبهة والرد عليها :

وهي شبهة يوردها بعض أهل الزيغ والإلحاد وهي أن كلام العرب مبني على الاختصار والإيجاز دون التكرار والإطناب وهذا التكرار الذي في القرآن من الإطناب المنافي لبلاغة العرب .

والجواب عن هذه الشبهة من وجوه :

الوجه الأول : لا يسلم لكم أن كلام العرب مبني على الإيجاز دون الإطناب بل إن البلاغة عندهم هي الإطناب في المقام المقتضي للإطناب ، والإيجاز في المقام المقتضي للإيجاز .

فإن أوجز في مقام الإطناب كان ذلك عيباً من قائله ، وإن أطنب في مقام الإيجاز كان ذلك حشواً لا فائدة فيه ، وذلك يختلف باختلاف الأحوال والمخاطبين .

قال الشاعر :

يرمون بالخطب الطوال وتارة وحي الملاحظ خيفة الرقباء

قال أبو العباس المبرد^١ في كتابه الكامل في اللغة والأدب : من كلام العرب الاختصار المفهم والإطناب المفحم اهـ^٢ .

وقال الزمخشري : كما أنه يجب على البليغ في مضان الإجمال أن يجمل ويوجز فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل أن يفصل ويشبع اهـ^٣ .

والقرآن جاء على هذا النحو إيجاز في مقام الإيجاز ، وإطناب في مقام الإطناب كما سبق بيان ذلك في الفوائد .

(١) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي إمام العربية ببغداد في زمانه وأحد أئمة الأدب والأخبار ولد بالبصرة سنة ٢١٠ هـ روى عن أبي عثمان المازني وأبي حاتم السجستاني وعنه الصولي ونفطويه والخرائطي وغيرهم ، له كتاب الكامل في اللغة والأدب ، والمذكر والمؤنث ، والمقتضب وغيره — توفي رحمه الله سنة ٢٨٦ هـ ، انظر ترجمته في : الدرر الكامنة ٥ / ٤٣٠ ، الأعلام ٧ / ١١٤ .

(٢) الكامل للمبرد ١ / ٢٩ .

(٣) انظر : الإتقان ٢ / ٨٠٨ .

الوجه الثاني : وهو باب التترل وهو أن العرب إذا لم تحتاج إلى الإطناب لبلاغتهم كما زعمتم فإن غير العرب ليسوا كذلك ، بل هم بحاجة إليه ، والقرآن نزل لهداية البشر جميعاً ، لم يختص به جنس دون جنس .

قال ابن المنادي : فأما تردد أنباء الرسل وأممها وغير ذلك من القصص المعادة في سورها فمقول بحسب ما فطر الله عليه العرب ، من ذلك إبدال بعض كلامها ببعض وزيادة بعضه في الشرح على بعض ، أو آيل^١ ذلك كله إلى معنى واحد .

على أنها وإن نسبت إلى ذلك لاتساع ألسنتها ، وتحسين كلامها ، وكان الإيجاز أغلب عليها ، فلغيرها من ذوي الألسنة المترل عليها الكتب الوحية في التكرار المختلفة ألفاظه والمتفقة مع الزيادة والبسط في الشرح أكثر مما لها^٢ . أهـ

الوجه الثالث : أن العرب على كمال فصاحتهم وبلاغتهم لم يأت عن أحد منهم النيل في القرآن ، ولو كان فيه ضرب من العي أو الحشو لسارعوا إلى إظهاره للانتقاص من قدره ومكانه فلما لم يقع ذلك منهم لم يبق لمن أتى بعدهم ممن استعجم قلبه ولسانه أن يورد مثل هذا الإيراد فقد كانوا به أولى .

قال الزمخشري في مقدمة الكشاف في مدح القرآن : أفحم به من طولب بمعارضته من العرب العرباء^٣ ، وأبكم به من تحدى به من مصاقع الخطباء^٤ ، فلم يتصدى للإتيان بما يوازيه أو يدانيه واحد من فصحاءهم ، ولم ينهض

(١) هكذا في الكتاب المطبوع ولعل الصواب أنه بالواو فقط من غير الألف .

(٢) متشابه القرآن لابن المنادي ص ٢٢٨ — ٢٢٩ .

(٣) العرب العرباء : هم الخلف مناهم .

(٤) مصاقع الخطباء : جمع مصقع أي بليغ مجهر بخطبته .

لمقدار أقصر سورة منه ناهض من بلغائهم ، على أنهم كانوا أكثر من حصى
البطحاء ، وأوفر عدداً من رمال الدهناء^١ ، ولم ينبض منهم عرق العصبية
مع اشتهاهم بالإفراط في المضادة والمضارة^٢ ، وإلقائهم الشراشر على
المعازة والمعارة^٣ ، ولقائهم دون المناضلة عن أحسابهم الخطط^٤ ، وركوبهم
في كل ما يرمونه الشطط^٥ ، إن أتاهم أحد بمفخرة أتوه بمفاخر ، وإن رماهم
بمأثرة رموه بمآثر^٦ ، وقد جرد لهم الحججة أولاً والسيف آخرًا ، فلم يعارضوا إلا
السيف وحده على أن السيف القاضب مخراق لاعب^٧ إن لم تمض الحججة
حده ، فما أعرضوا عن معارضة الحججة إلا لعلمهم أن البحر قد زخر فطم
على الكواكب^٨ وأن الشمس قد أشرقت فطمست نور الكواكب^٩ . أهـ

-
- (١) أرض ببلاد تميم ذات رمال كثيرة .
(٢) المضادة : المعادة . و المضارة : الضرار .
(٣) الشراشر : الأثقال . المعازة : المغالبة . المعارة : المضارة .
(٤) دون المناضلة : أي قدام المرماة والمدافعة وفي أدنى مكان منها . الخطط : عظام الأمور
وشدائدها .
(٥) الشطط : مجاوزة الحد .
(٦) المآثرة : المكرمة .
(٧) القاضب : القاطع . مخراق لاعب : منديل يلف ليضرب به عند اللعب ، يبين أن
معارضتهم بالسيف مع الخلو عن الحججة مما لا يعتد به .
(٨) زخر : ماج و امتلأ . طمّ : غلب وعلا .
انظر المعاني السابقة في : حاشية السيد الشريف علي بن محمد بن علي السيد زين العابدين أبي
الحسن الحسيني الجرجاني على الكشاف المطبوعة بمأمش الكشاف ١ / ٩ — ١١ .
(٩) الكشاف للزمخشري ١ / ٩ — ١١ .

المبحث الثاني

خلق حواء زوج آدم

وفيه مطلبان :

- المطلب الأول : خلق حواء •
- المطلب الثاني : الحكمة من خلقها •

المطلب الأول : خلق حواء .

لم يُذكر في القرآن الكريم تفصيل قصة خلق حواء كما ذكرت تفاصيل قصة خلق آدم عليه السلام ، وكما ذكرت تفاصيل خلق ذريته كما ستبين بعد إن شاء الله .

والذي ورد هو بعض الآيات التي أشارت إلى خلق حواء ، ففي سورة النساء قال تعالى (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها) الآية^١ .

وفي سورة الأعراف قال تعالى (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها) الآية^٢ .

وقال تعالى في سورة الزمر (خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها) الآية^٣ .

فالنفس الواحدة هي نفس آدم عليه السلام كما ذكر المفسرون والمقصود بزوجها في الآيات حواء . ويلاحظ أن الله تبارك وتعالى ذكر مرة أنه خلق منها زوجها ومرة أنه جعل منها زوجها .

وقد سبق بيان معنى الخلق في تمهيد المبحث الأول .

أما الجعل ففيه معنى التضمين وجعل يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى أحدث وأنشأ كقوله تعالى (وجعل الظلمات والنور) ، ويتعدى إلى مفعولين إذا كان بمعنى صير كقوله تعالى (وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا) الآية^٤ .

وقد ذكر الراغب في معنى جعل خمسة أوجه قال في الثالث منها :

(١) النساء ١ .

(٢) الأعراف ١٨٩ .

(٣) الزمر ٦ .

(٤) الزخرف ١٩ .

الثالث : في إيجاد شيء من شيء وتكوينه منه نحو (وجعل لكم من أنفسكم أزواجا)^١ .

وأما الفرق بينهما فقد ذكره الزمخشري فقال : والفرق بين الخلق والجعل أن الخلق فيه معنى التقدير وفي الجعل معنى التضمين كإنشاء شيء من شيء أي تصيير شيء شيئاً أو نقله من مكان إلى مكان ومن ذلك (وجعل منها زوجها)^٢ .

فالتعبير بجعل مناسب لكيفية خلق حواء ، فهي أنشئت من آدم عليه السلام وخلقت منه كما قال تعالى : (وخلق منها زوجها)^٣ الآية . وبهذا تظهر دقة التعبير وانسجام المعاني في القرآن الكريم .

ويرد هنا سؤال وهو كيف خلقت حواء من آدم عليه السلام ؟

والإجابة أن القرآن الكريم والسنة النبوية لم يُذكر فيهما تفاصيل كيفية الخلق والذي ورد هو ما ذكرته آنفاً من أنها خلقت من آدم عليه السلام .

وقد ورد في السنة النبوية أن المرأة خلقت من ضلع وذلك في قول النبي صلى الله عليه وسلم : استوصوا بالنساء خيراً فإن المرأة خلقت من ضلع وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه فإن ذهبت تقيمه كسرته وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء^٤ .

قال ابن حجر : معنى خلقت أي أخرجت كما تخرج النخلة

(١) مفردات الراغب ص ٩٤ .

(٢) الكشاف ٢ / ٣ .

(٣) النساء ١ .

(٤) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الأنبياء . انظر البخاري مع شرحه لابن حجر ٦ / ٣٦٣ .

، وأخرجه مسلم في الرضاع ٢ / ١٠٩١ حديث رقم ٦٠ .

من النواة . اهـ^١

قال النووي في شرح هذا الحديث : وفيه دليل لما يقوله الفقهاء أو بعضهم أن حواء خلقت من ضلع آدم ، قال تعالى (**خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها** ٠٠) وبين النبي صلى الله عليه وسلم أنها خلقت من ضلع . اهـ^٢ .

وأخرج الإمام الطبري عن مجاهد في قوله (**وخلق منها زوجها**) قال : حواء من قصيري^٣ آدم وهو نائم فاستيقظ فقال : أتا بالنبطية امرأة^٤ ، وأخرج عن قتادة في قوله : (**وخلق منها زوجها**) يعني حواء خلقت من آدم من ضلع من أضلاعه^٥ .

وأخرج عن ابن إسحاق قال : ألقى على آدم صلى الله عليه وسلم السنة فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن عبد الله بن العباس وغيره — ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله تبارك وتعالى من ضلعه تلك زوجته حواء ، فسواها امرأة ليسكن إليها فلما كشفت عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون والله أعلم : لحمي ودمي وزوجتي فسكن إليها^٦ .

(١) فتح الباري ٦ / ٣٦٨ .

(٢) شرح مسلم للنووي ١٠ / ٥٧ .

(٣) القصيري : أسفل الأضلاع أو آخر ضلع في الجنب . انظر غاية الإحسان في خلق الإنسان

السيوطي ص ١٧٨ .

(٤) انظر : ابن جرير ٤ / ٢٩٧ .

(٥) انظر : السابق ٤ / ٢٩٧ .

(٦) السابق ٤ / ٢٩٨ .

وهذا الأثر وإن كان يظهر أنه من روايات أهل الكتاب إلا أنه لا
يتعارض مع ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم بل يشهد له فهو من
الإسرائيليات التي تجوز روايتها للاستشهاد^١ .

فيتبين مما سبق أن حواء خلقت من آدم عليه السلام من ضلع
من أضلاعه .

(١) انظر في ذلك : الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد أبو شهبة

المطلب الثاني : الحكمة من خلق حواء

من المعلوم من الدين بالضرورة أن أفعال الله سبحانه و تعالى مقرونة بالحكمة فلا يخلو فعل منها عن الحكم العظيمة علمها من علمها و جهلها من جهلها .

والقرآن الكريم مليء بذكر تلك الحكم ، وهي لا تظهر إلا لمن قرأ القرآن متدبراً متأملاً ، جامعاً الآيات في الموضوع الواحد وهذا من حسنات التفسير الموضوعي .

وقبل أن أدخل إلى بيان بعض الحكم من خلق حواء أود أن أشير إلى أن ذكر الحكمة من خلق حواء لا يقصد بها ذاتها فحسب بل إن كل حكمة في خلقها تتعدى إلى كل أنثى من البشر ولذلك سأترك التعبير بحواء وأستخدم لفظ الأنثى أو المرأة لأنه أعم .

فمن الحكم الإلهية في خلق الأنثى ما يلي :

١ - أن الأنثى سكن للرجل قال تعالى (وجعل منها زوجها ليسكن إليها) ^١ ، أي ليطمئن إليها ويميل ولا ينفّر لأن الجنس إلى الجنس أميل وبه آنس وإذا كانت بعضاً منه - كما في خلق حواء - كان السكون والمحبة أبلغ كما يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه ^٢ .

٢ - ومن الحكم أن الجنس البشري لا يكون ولا يبقى إلا بوجود الزوجين الذكر والأنثى إلا ما استثني مثل عيسى عليه السلام فإن الله خلقه من أنثى بلا ذكر وهو على ما يشاء قدير .

قال تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم

(١) الأعراف ١٨٩ .

(٢) انظر : الكشاف ١٣٦/٢ .

من أزواجكم بنين وحفدة ٠٠ (١) الآية ٠

٣ - ومن الحكم أن طبيعة الرجل تنجذب إلى المرأة وطبيعة المرأة تنجذب إلى الرجل وكل منهما يكمل جوانب نفسية وعصبية وجسمية في الآخر ولذلك عدّ الله تبارك وتعالى العلاقة بين الزوجين من آياته العظيمة فقال (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) ٢ ٠

قال سيد قطب عن هذه الآية: والناس يعرفون مشاعرهم تجاه الجنس الآخر، وتشغل أعصابهم ومشاعرهم تلك الصلة بين الجنسين وتدفع خطاهم وتحرك نشاطهم تلك المشاعر المختلفة الأنماط والاتجاهات بين الرجل والمرأة ولكنهم قلما يتذكرون يد الله التي خلقت لهم من أنفسهم أزواجاً، وأودعت نفوسهم هذه العواطف والمشاعر، وجعلت في تلك الصلة سكناً للنفس والعصب وراحة للجسم والقلب، واستقراراً للحياة والمعاش، وأنساً للأرواح والضمائر واطمئناناً للرجل والمرأة على السواء ٣ ٠ أهـ

٤ - أن الاستقرار النفسي الذي تسببه المرأة في حياة الرجل ويسببه الرجل في حياة المرأة من العوامل المساعدة للجنسين لكي يؤديوا المهمة المطلوبة منهما وهما في راحة نفسية وهدوء بال قال تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) ٤ ٠

وقال تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها

(١) النحل ٧٢ ٠

(٢) الروم ٢١ ٠

(٣) الظلال ٥ / ٢٧٦٣ ٠

(٤) النحل ٧٢ ٠

ليسكن إليها ٠٠) ^١ ، فالتعبير بالسكن يعطي معنى الهدوء والاستقرار .

وينبغي أن يلاحظ أنه لا يكفي في المرأة لكي تحقق الاستقرار للرجل كونها امرأة بل لابد مع ذلك أن تكون سالحة ، لأنها وإن حققت له بأنوثتها جانباً من السكن والارتياح إلا أنها ربما تسبب له عكس ذلك تماماً إذا كانت بعيدة عن دين الله وشرعه ولذلك قال تعالى محذراً (يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم عدواً لكم فاحذروهم) ^٢ ، ولذلك فإن الإسلام يحث على أن يتزوج الرجل المرأة الصالحة . قال النبي صلى الله عليه وسلم : تنكح المرأة لأربع لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك ^٣ ، وقال : الدنيا متاع ، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة ^٤ .

وهكذا بالنسبة للرجل لابد فيه من الصلاح لكي يحقق السعادة له وللمرأة في الدارين .

وقد ذكر الله تبارك وتعالى من خصال عباد الرحمن أنهم يدعون ربهم أن يرزقهم من الأزواج والأولاد ما يكون قرّة عين لهم فقال تعالى : (ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرّة أعين ٠٠٠) الآية ، وذلك لأهمية

(١) الأعراف ١٨٩ .

(٢) التغابن ١٤

(٣) أخرجه البخاري في كتاب النكاح ، باب الأكفاء في الدين . انظر البخاري مع شرحه لابن حجر ٩ / ١٣٢ حديث رقم ٥٠٩٠ .

وأخرجه مسلم في الرضاع ، باب استحباب نكاح ذات الدين ٢ / ١٠٨٦ حديث رقم ١٤٦٦ .

(٤) أخرجه مسلم في الرضاع ، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة ٢ / ١٠٩٠ حديث رقم ١٤٦٧ .

(٥) الفرقان ٧٤ .

صلاح هذين العنصرين الأزواج والأولاد في استقرار الإنسان وسعادته وبالتالي في أداء المهمة المطلوبة منه على الوجه الأكمل .

وليس الموضوع في بحث العلاقة بين الرجل والمرأة ، ولكن هذه الإيضاحات البسيطة لها تعلق بموضوع البحث وبموضوع هذا المطلب بالذات .

٥ - النساء أقدر على تربية الولد لما وجد فيهن من المؤهلات لأداء تلك المهمة فالمرأة فطرت على العطف والحنان والصبر على الولد ولها القدرة على تغذيته وتربيته والقيام بأموره أكثر من الرجل الذي تنصرف همته لأشياء أخرى كالسعي في الأرض وعمارتها وتحصيل الرزق وغير ذلك .

إن وجود المرأة في الحياة يعطي توازناً دقيقاً ، ولو لا وجودها لاضطربت ولصارت إلى خراب وفناء ، لأجل هذا استحق أن يكون وجود المرأة نعمة ومنة يمتن الله بها على عباده ، قال تعالى : (والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون)^١ .

وهذه الآية في سورة النحل جاءت في سياق وسباق يتحدثان عن نعم الله تعالى على الإنسان والاستدلال بإنعامه سبحانه على أحقيقته المطلقة للعبادة ولذلك ذيل الآية الكريمة بقوله : (أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون) .

وهذا يدل على أهمية هذه القضية إذ لولا أهميتها لما جعلت دليلاً لقضية كبرى بل أكبر قضية في حياة الإنسان وهي توحيد الباري سبحانه وتعالى .

ومن هذه الدلالة نستنتج قيمة ومكانة الإنسان ذكراً أو أنثى ، فهما وما نتج عنهما من ذرية وما أعطيا من الطيبات مادة الدليل السابق .

وفي سورة الروم جعل إيجاد الزوج وجعلها سكناً للرجل وما جعل بينهما من مودة ورحمة آيات من آياته الناطقة بأحقيقته سبحانه للعبادة دونما شريك ، ولكنها لا تظهر إلا لمن يتفكر في ذلك ، قال تعالى (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)^١ .

فمادة هذا الدليل هو الأزواج وما يسببونه من السكن وما جعل بين الزوجين من المودة والرحمة ، وهذا مقام آخر للتشريف الذي حظي به الإنسان ودليل على مكانته ومزلته .

فحاصل ما سبق أن الإنسان ذكراً كان أم أنثى حظي بمكانة عظيمة أهله لأن يكون مادة للاستدلال على أحقية المولى تبارك وتعالى المطلقة للعبادة .

وهكذا فإن النظرة الإسلامية للإنسان نظرة سامية ومكانته رفيعة وهو قادر على أن يصل مع هذا التكريم إلى أعلى المراتب في الدنيا والآخرة وفي ذات الوقت يستطيع أن ينحط إلى أسفل سافلين متى جهل أو تجاهل الغاية من وجوده ، قال تعالى (لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون)^٢ .

(١) الروم ٢١ .

(٢) التين ٤ - ٦ .

والمرأة حظيت بمكانة خاصة روعي فيها مشاعرها ومتاعبها وقدر كل ذلك لها فإذا كانت أمّاً فلها مكانتها وإذا كانت أختاً أو زوجاً أو عمّة أو خالة أو غير ذلك فمكانتها محفوظة وكرامتها مصونة لا تمييز بينها وبين الرجل إلا بما فضل الله به بعضهم على بعض وليس البحث في مكانة المرأة ولكن دلالات الآيات في خلقها التي جعلت منها سكناً للرجل ومنة يمتن الله بها على الذكور من بني الإنسان فرضت بيان شيء من هذا ، والله أعلم .

المبحث الثالث

خلق ذرية آدم عليه السلام

وفيه المطالب التالية :

المطلب الأول : مادة الخلق

المطلب الثاني : أطوار الخلق

تمهيد

إن ذرية آدم عليه السلام لم تظهر إلا بعد أن أهبط آدم عليه السلام إلى الأرض ، فالإهباط متقدم على ظهور الذرية إلا أني ذكرت خلق الذرية بعد خلق آدم وخلق حواء إلحاقاً للنظير بنظيره على أن أعود إلى الإهباط في الفصل الثاني من هذا الباب بعون الله .

المطلب الأول : مادة الخلق

- ذكر المولى تبارك وتعالى أن مادة خلق الإنسان هي الماء .
 - قال تعالى : (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)^١ .
 - وقال تعالى : (ألم نخلقكم من ماء مهين)^٢ .
 - وقال تعالى : (فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق)^٣ .
 - وقال تعالى : (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً)^٤ .
- وهذا الماء المقصود به المني الذي يقذفه الرجل كما بين ذلك في مواضع من القرآن الكريم .
- قال تعالى : (أيحسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك

(١) السجدة ٨ .

(٢) المرسلات ٢٠ .

(٣) الطارق ٥ - ٦ .

(٤) الفرقان ٥٤ .

نطفة من مني يمى) ١ .

وقال تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمى) ٢ .

وقال تعالى : (أفرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون) ٣ .

صفات الماء في القرآن :

وصف هذا الماء بأنه مهين وأنه دافق وسمى نطفة .

الماء المهين :

أما وصفه بالمهين فقد جاء في قوله تعالى (ألم نخلقكم من ماء مهين) ٤ .

والمهين هو الضعيف الحقير ٥ .

ووصف هذا الماء بهذه الصفة لفت لنظر الإنسان إلى أصله ردعاً له عن التكبر والتعظيم فالضعف والحقارة صفتا نقص لا يحسن بصاحبهما أن يتلبس بضدهما في مواجهة خالقه ومولاه .

كما أن وصف الماء بالحقارة والضعف فيه إشارة إلى قدرة الله تبارك وتعالى الباهرة على الخلق إذ أن هذا الماء الضعيف الحقير يتحول بقدرة الله تبارك وتعالى إلى إنسان قوي ذي إرادة وقدرة وتفكير ، قال الله تبارك وتعالى : (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفاً وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) ٦ .

(١) القيامة ٣٦ — ٣٧ .

(٢) النجم ٤٥ — ٤٦ .

(٣) الواقعة ٥٨ — ٥٩ .

(٤) المرسلات ٢٠ .

(٥) انظر : ابن جرير ٢٠ / ١١٥ ، القرطبي ١٤ / ١٦ ، معاني القرآن للنحاس ٥ / ٣٠١ ،

المحرر الوجيز ٤ / ٣٥ ، تفسير الخازن ٥ / ٩٣ ، تفسير البغوي ٥ / ٩٣ .

(٦) الروم ٥٤ .

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية : (من ضعف) يقول من نطفة وماء مهين^١ . أهـ

الماء الدافق :

أما وصفه بالدافق فهو في قول الله تعالى : (فلينظر الإنسان مم خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب)^٢ .

والدافق هو المدفوق وهو مما أخرجته العرب بلفظ فاعل وهو بمعنى المفعول ، وهو صب الماء يقال: دفقت الماء أدفقه دفقاً : صببته ، فهو ماء دافق أي مدفوق^٣ .

قال أبو السعود : وهو صب فيه دفع وسيلان بسرعة^٤ .

وأما الصلب في الآية : فهو الظهر .

والترائب : موضع القلادة من المرأة ، ومنه قول امرئ القيس^٥ :

مهفهة بيضاء غير مفاضة ترائبها مصقولة كالسحنجل
وقال دريد ابن الصمة^٦ :

(١) ابن جرير ٢١ - ٦٨ .

(٢) الطارق ٥ - ٧ .

(٣) انظر في ذلك : معاني القرآن للفراء ٣ / ٢٥٥ ، ابن جرير ٣٠ / ١٨٣ ، القرطبي ٢٠ / ٥ ،

المحرر الوجيز ٥ / ٤٦٥ .

(٤) أبو السعود ٩ / ١٤١ .

(٥) امرئ القيس بن حجر بن الحارث الكندي أشهر شعراء العرب ، اشتهر بلقبه

واختلف في اسمه ، كان أبوه ملك أسد وغطفان وهو أول شعراء المعلقةات توفي

بأنقرة . انظر : الأعلام ٢ / ١١ - ١٢ .

(٦) دريد ابن الصمة الجشمي البكري من هوازن من المعمرين في الجاهلية وأدرك الإسلام ولم

يسلم وقتل يوم حنين في السنة الثامنة من الهجرة ، اشتهر بشجاعته . انظر:

الأعلام ٢ / ٣٣٩ .

فإن تدبروا نأخذكم في ظهوركم وإن تقبلوا نأخذكم في الترائب
وقال المثقب العبدى^١:

ومن ذهب يسن على تريب كلون العاج ليس بذى غضون
وقد اختلف المفسرون في المقصود من هذا الماء^٢:

— فقال بعضهم: المقصود به ماء الرجل الذي يخرج من صلب الرجل
وترائبه، والماء الذي يخرج من صلب المرأة وترائبها .
— وخصه بعضهم بماء الرجل وهو مروى عن قتادة^٣.

وذكر ابن عطية أن الضمير في قوله تعالى: (يخرج من بين الصلب
والترائب) يحتمل أن يكون للإنسان ويحتمل أن يكون للماء^٤.

والذي يترجح أن المقصود بالماء هو ماء الرجل فقط وذلك لأمر:

الأول: أن الله سبحانه وتعالى ذكر ماءً واحداً ولم يذكر ماءين،
والمعهود في القرآن ذكر ماء الرجل في الاستدلال لمثل ما استدل به هنا مثل
قول الله تعالى (أفرايتم ما تمنون)^٥، وقوله تعالى: (ألم يك نطفة من
مني يميني)^٦، وقوله (ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين)^٧.

الثاني: أن الله تبارك وتعالى وصف الماء بأنه دافق أي مصبوب بدفع

(١) هو العائد بن محسن بن ثعلبة من بني عبد القيس، شاعر جاهلي مدح النعمان بن المنذر،

وشعره جيد فيه حكمة ورقة . انظر الأعلام ٢٣٩/٣ .

(٢) انظر: المحرر الوجيز ٥ / ٤٦٥، القرطبي ٢٠ / ٦، فتح القدير ٥ / ٤١٩ .

(٣) انظر: ابن جرير ٣٠ / ١٨١ .

(٤) انظر: المحرر الوجيز ٥ / ٤٦٥ .

(٥) الواقعة ٥٨ .

(٦) القيامة ٣٧ .

(٧) السجدة ٨ .

وسيلان بسرعة ، وماء المرأة غير دافق ، لأن المقصود بالماء عند المرأة البويضة كما أثبت ذلك الطب الحديث ، والبويضة تكون داخل الرحم وقت خروجها من المبيض سواء أحدث جماع أم لم يحدث والذي يدفق حقاً هو ماء الرجل فتبين أنه المقصود .

الثالث : ولأن المأمور به النظر ، والنظر يكون لأمر ظاهر واختلاط المائين غير ظاهر إذ يكون في الرحم وليس كل إنسان قادر على الإطلاع على ما في الرحم من المائين بخلاف النظر إلى ماء الرجل فإنه ظاهر لكل أحد .

الرابع : ولأن الاقتصار في النظر على ماء الرجل كاف فيما أراده الله سبحانه وتعالى .

فإن قيل : أكثر المفسرين على أن الماء هنا هو ماء المرأة وماء الرجل .

يقال : إن تفسير الماء هنا بماء الرجل وماء المرأة ليس فيه توقيف عن النبي صلى الله عليه وسلم ، ولم يرد عن أحد الصحابة رضوان الله عليهم ، فكل مفسر يفسر بما أدى إليه اجتهاده ، فالبعض فسره بالمائين ، والبعض خصه بماء الرجل كما ورد عن قتادة ، وبقي أن يذكر كل فريق أدلته على تفسيره .

فإن قيل : قد وصف الله الماء بأنه يخرج من بين الصلب والترائب ، والترائب هو موضع القلادة من المرأة .

يقال : هذا تحديد للمكان وليس تخصيصاً للمرأة به بدلالة بيت دريد بن الصمة السابق ، وبدلالة أن بعض المفسرين ذكروا أن ماء الرجل يخرج من بين صلبه وترائبه .

الخلاف في معنى قوله تعالى (يخرج من بين الصلب والترائب) :

سبق أن ذكرت أن المفسرين اختلفوا في الضمير المستتر في هذه الآية على من يعود ؟

فأكثر المفسرين على أنه يرجع إلى الماء كما هو ظاهر السياق إعادة للضمير إلى أقرب مذكور وهو هنا الماء الدافق .

وذكر ابن عطية أن الضمير يحتمل أن يعود للإنسان ويحتمل أن يعود للماء .^١

ونقل القرطبي عن المهدوي قال : من جعل المني يخرج من بين صلب الرجل وترائبه فالضمير في (يخرج) للماء ، ومن جعله من بين صلب الرجل وترائب المرأة فالضمير للإنسان .^٢

الترجيح :

قبل أن أرجح قولاً من القولين ينبغي ملاحظة أمرين :

الأول : أنه لا يوجد شيء من هذه الأقوال مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولا مذكوراً عن أحد الصحابة رضوان الله عليهم .

فالتفسير المنقول محل اجتهاد .

الثاني : أن أكثر المفسرين بل كل المفسرين القدامى تكلموا عن بعض القضايا التشريحية الخاصة بالإنسان بناءً على ما كان مستقراً عندهم في هذه الأمور ، والمعلومات في ذلك الوقت تعتبر بدائية لأنها لا تعتمد على الأسس العلمية والحقائق العملية التي تقوم على وجود الأجهزة التقنية المتطورة ، لذا فإن أقوالهم في هذه القضايا محل نظر في هذا الوقت بناءً على ما توفر

(١) انظر : المحرر الوجيز ٥ / ٤٦٦ .

(٢) انظر : القرطبي ٢٠ / ٦ .

لدينا من معلومات وتقدم هائل في هذا الموضوع ، فإذا نقل عن بعض المفسرين أن ماء الرجل يخرج من صلبه ، نستطيع أن نرد هذا القول لأنه ثابت يقيناً أن ماء الرجل يخرج من الخصية وملحقاتها .

وإذا نقل عن بعض المفسرين أن ماء المرأة يخرج من ترائبها استطعنا أن نرد هذا القول لما ثبت يقيناً أن ماء المرأة نوعان^١ :

النوع الأول : الذي يفرزه المهبل عند الجماع وهذا لا أثر له في الخلق .

والنوع الثاني : الذي يكون له أثر في الخلق وهو بويضة المرأة ، فالأول يفرزه المهبل والثاني يخرج من المبيض ويستقر في الرحم فليس شيء منها يخرج من الترائب .

إذا استقر هذا الأمر فالترجيح أن الضمير يعود للإنسان ، لأن ماء الرجل وماء المرأة لا يخرجان من بين الصلب والترائب .

فيكون المعنى أن الإنسان يخرج عند اكتمال نموه في رحم أمه من بين صلب أمه وترائبها . ومشاهد لكل أحد أن الأم إذا أتمت شهور الحمل انتفخ بطنها بالجنين ويكون الجنين في ذلك الوقت بين صلب أمه وترائبها .

وهذا المعنى متناسب مع الجو العام لهذه السورة وهو لفت نظر ابن آدم إلى القدرة على البعث .

وقد استخدم القرآن لذلك أسلوباً يتكرر كثيراً عند الحديث عن هذه القضية ، هذا الأسلوب هو ذكر الدليلين الظاهرين للإنسان على البعث .
فالدليل الأول : خلق الإنسان ، إذ أن القادر على خلق الماء الدافق إلى بطن الأم بشراً سويماً قادر على إعادته ، (فليُنظر الإنسان مم خلق خلق من

(١) انظر : ما أصل الإنسان لموريس بوكاي ص ٢٠٤ - ٢٠٥ .

ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر) ١ .

والمعنى : انظر كيف دخلت إلى رحم أمك ماء دافقاً ثم خرجت من بين صلبها وترائبها بشراً سوياً .

والدليل الثاني : إخراج النبات من الأرض الميتة بإنزال المطر .

فالقادر على ذلك قادر على الإعادة ، (والسماوات ذات الرجوع والأرض ذات الصدع إنه لقول فصل) ٢ .

فالسماوات ذات الرجوع : أي المطر ، والأرض ذات الصدع : أي التي تتشقق بالنبات ٣ .

فالله سبحانه ذكر الدليل الأول ثم بين قدرته على البعث حيث قال :
(إنه على رجعه لقادر) ، ثم أقسم بالدليل الثاني لهذه المناسبة .

وقد تكرر هذا الأسلوب في مواضع عدة من القرآن الكريم . ففي سورة الحج قال تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب مما نزلنا من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئا وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور) ٤ .

(١) الطارق ٥ - ٨ .

(٢) الطارق ١١ - ١٣ .

(٣) انظر : المحرر الوجيز ٥ / ٤٦٦ .

(٤) الحج ٥ - ٧ .

وفي سورة الواقعة : (أفرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون أفرايتم ما تحرثون أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون لو نشاء لجعلنه حطاماً فظلمت تفكهون إنا لمعرمون بل نحن محرومون)^١ .

وفي سورة عبس قال تعالى : (قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة خلقه فقدره ثم السبيل يسره ثم أماته فأقبره ثم إذا شاء أنشره كلا لما يفتي ما أمره فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلباً وفاكهة وأباً متاعاً لكم ولأنعامكم)^٢ .

ففي الآيات يظهر جلياً اقتران الدليلين السابقين ، كيف خلق الماء بشراً ، وكيف تشققت الأرض بالزرع .

والآية في سورة الحج تشهد للمعنى الذي ذكرته في سورة الطارق حيث بين الله الدليل الأول على البعث وهو خلق الإنسان فين أطوار هذا الخلق من التراب إلى النطفة إلى العلقة إلى المضغة ثم أخرجه بعد ذلك طفلاً (ثم نخرجكم طفلاً)^٣ .

ومما يشهد للمعنى المذكور أن الله سبحانه وتعالى أمر بالنظر في الآية وهذا الأمر للوجوب^٤ ، فكل إنسان يجب عليه النظر في هذا الدليل وهذا يقتضي أن يكون الدليل ظاهراً لكل إنسان وإلا كان تكليفاً بالمحال .

(١) الواقعة ٥٨ — ٦٧ .

(٢) عبس ١٧ — ٣٢ .

(٣) الحج ٥ .

(٤) انظر : أضواء البيان ٧ — ٧٨٦ .

فإذا ثبت هذا فإن إعادة الضمير إلى الماء من غير تقدير محذوف يجعل في الآية نوعاً من الغموض ، لأن خروج الماء من بين الصلب والترائب غير ظاهر للإنسان ولا يعلمه وقد كلف بالنظر فكأنه تكليف بما لا يستطاع .

وإنما احترزت بقولي من غير تقدير محذوف لأننا لو أعدنا الضمير إلى الماء مع تقدير محذوف هو (بشراً) لصح التفسير وزال الإشكال فيكون المعنى يخرج هذا الماء بعد خلقه من بين الصلب والترائب بشراً .

وبهذا يظهر أن حمل الضمير في قوله تعالى : (يخرج من بين الصلب والترائب)^١ على الإنسان أو على الماء مع تقدير محذوف كما سبق أنسب وأدعى لتألف المعاني في السورة .

تسمية الماء بالنطفة :

سمي ماء الرجل بالنطفة في مواضع متعددة من القرآن الكريم .

ففي سورة الحج قال تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإن خلقناكم من تراب ثم من نطفة . . .)^٢ الآية .

وقال تعالى : (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين)^٣ .

وقال تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى)^٤ .

وقال تعالى : (ألم يك نطفة من مني يعني)^٥ .

(١) الطارق ٧ .

(٢) الحج ٥ .

(٣) النحل ٤ .

(٤) النجم ٤٥ — ٤٦ .

(٥) القيامة ٣٧ .

وقال تعالى : (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ٠٠٠)^١ الآية ٠

إلى غير ذلك من الآيات ٠

والنطفة هي : القليل من الماء ٠

وقيل الماء الصافي قل أو أكثر ، ويعبر بها عن ماء الرجل^٢ ٠

فالتسمية توحى بقلة الماء الذي يخلق منه الإنسان ، وسيأتي مزيد بيان

لهذه القضية في مطلب أطوار الخلق ٠

ماء المرأة وعلاقته بالخلق :

من الثابت علمياً أنّ ماء المرأة له علاقة بتخلق الجنين ، فالإنسان يخلق

من ماء الرجل ومن ماء المرأة (البويضة) ٠

وقد كان الناس ما عدا المسلمين يجهلون هذا الأمر حتى أواخر القرن

الثامن عشر الميلادي عندما أثبت (سبالانزاني) أهمية كل من الحيوان المنوي

والبويضة في عملية التخلق البشري وذلك في عام ١٧٧٥م تقريباً ، وتمكن

(هيرتوج) من ملاحظة كيف يلحق الحيوان المنوي البويضة وأثبت بذلك

أنّ كلا من الحيوان المنوي والبويضة يسهمان في تكوين البويضة الملقحة

وكان بذلك أول إنسان يشاهد عملية التلقيح ويصفها وكان ذلك في عام

١٨٧٥ م أي في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي ٠

وفي عام ١٨٨٣ م تمكن (فان بندن) من إثبات أنّ كلا من البويضة

والحيوان المنوي يساهمان بالتساوي في تكوين البويضة الملقحة ٠

(١) فاطر ١١ ٠

(٢) انظر معنى النطفة في : القاموس المحيط ١١٠٧ ، مادة نطف ، لسان العرب ١٤ / ١٨٧ ،

مادة نطف ، مفردات الراغب ٤٩٦ ، معجم مقاييس اللغة ٥ / ٤٤٠ ٠

أما قبل هذه الاكتشافات فقد كانت الآراء السائدة أنّ الجنين يتخلق من دم الحيض ، وكان البعض يرى أنّ الجنين يكون جاهزاً في ماء الرجل فإذا دخل ماء الرجل الرحم انعقد ثم نما كما تنمو البذرة في الأرض^١ .

وقد بين الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الحقائق التي ثبتت مؤخرًا قبل حوالي ألف ومائتي عام من بداية اكتشاف علاقة المرأة بالتخلق البشري . فالرسول صلى الله عليه وسلم هو أول من أخبر أن ماء المرأة يحمل صفات وراثية تنتقل إلى ولدها .

فقد روى الإمام البخاري عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت :
جاءت أم سليم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله إن الله لا يستحي من الحق فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت ؟

قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا رأت الماء .

فغطت أم سلمة — تعني وجهها — وقالت : يا رسول الله وتحتلم المرأة ؟

قال : نعم ، تربت يمينك ففيم يشبهها ولدها^٢ .

فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن الشبه يكون بسبب الماء الذي تسهم به المرأة في تخلق الإنسان .

والقرآن الكريم ذكر أنّ الإنسان يتخلق من الذكر والأنثى قال

(١) انظر هذا التبع التاريخي في : خلق الإنسان بين الطب والقرآن لمحمد البار ١٨٥ - ١٩٠ ، علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة بمقر رابطة العالم الإسلامي ١٥ - ٢٢ .

(٢) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب العلم ، باب الحياء في العلم ، انظر البخاري مع شرحه لابن حجر ١ / ٢٢٨ حديث رقم ١٣٠٠ . وأخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الحيض ، باب وجوب الغسل على المرأة ١ / ٢٥١ حديث رقم ٣١٣ .

تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)^١ .
فتبين بهذا سبق الإسلام إلى معرفة هذه الأمور التي لم تتبين إلا مؤخراً ،
وهذا يدل على أن هذا الدين من عند الله تبارك وتعالى .

ما هو ماء المرأة ؟ ولم سمي ماء ؟

المقصود بماء المرأة : الماء الذي له علاقة بالخلق ، كما يقصد بماء الرجل عند الإطلاق .

وقد سبق أن ذكرت أن ماء المرأة نوعان^٢ :

النوع الأول : الذي يفرزه المهبل عند الجماع ، وهذا لا علاقة له بالخلق وفائدته تلين المهبل لتسهيل الجماع .

النوع الثاني : البويضة التي تخرج من مبيض المرأة كل شهر، وهي التي تلقح بماء الرجل، ويكونان النواة الأولى للجنين البشري ، وهو ما يسمى عند أهل الطب بالزيجوت .

هذا النوع الثاني هو المقصود بماء المرأة .

وقد يرد هنا سؤال وهو : لماذا سميت البويضة ماءً ؟

والجواب عن ذلك من أوجه:

الأول : سميت ماء نظراً لما يعهده العرب من وجود المائين ، والنبى صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس على قدر عقولهم وفهومهم .

(١) الحجرات ١٣ .

(٢) انظر : ما أصل الإنسان لموريس بوكاي ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، خلق الإنسان لمحمد

البار ص ١٢١ .

الثاني: سميت ماءً باعتبار ما يغلب على تكوينها .

فالبويضة أكبر خلية في الإنسان^١ ، ونسبة الماء في الخلية من ٥٠-٩٠ بالمئة^٢.

الثالث: سميت ماء نظرا لأن البويضة في المبيض تكون في حويصلة تسمى حويصلة جراف محاطة بالماء ، فإذا انفجرت الحويصلة تدفق الماء على أفتاب البطن ، وتلقفت أهداب البوق البويضة لتدخلها إلى قناة الرحم حيث تلتقي هناك بالحيوان المنوي^٣.

فالبويضة تسبح في الماء كما أن الحيوانات المنوية تسبح في الماء أيضا .

خلاصة المطلب :

تبين مما سبق أن ذرية آدم عليه السلام تخلق من ماء الرجل (المني) ومن ماء المرأة (البويضة) ، وأن الإسلام قد سبق البشرية إلى ذكر تلك الحقائق على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في وقت لم تكن الأجهزة التقنية موجودة ، ولا الخلفية العلمية دقيقة، مما يظهر بجلاء صدق نبوة هذا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم .

وقبل أن أتحدث عن أطوار الخلق في المطلب الثاني أود أن أبين أن عملية الخلق لا تتم إلا بتوفر ثلاثة عوامل رئيسية :

الأول : وجود الزوجين، الذكر والأنثى .

فلا يمكن أن يكون خلق بدون زوجين إلا في حالات معروفة أظهرت قدرة الباري سبحانه على كل شيء .

(١) انظر :خلق الإنسان ص ١٦٤ .

(٢) انظر : القرآن والطب للدكتور الحاج محمد وصفي ص ٣٧ .

(٣) انظر : خلق الإنسان ص ١٢١ .

فآدم خلق من غير أب ولا أم .

وحواء خلقت من آدم من غير أم .

وعيسى خلق من أم بلا أب .

قال الله تعالى : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى

وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا .)^١ الآية .

الثاني : صلاحية الزوجين للإنجاب

فإذا كان أحد الزوجين عقيماً فإنه لا تتم عملية الخلق إلا في الحالات التي يشاء الله فيها أن تتم كما في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ، و زكريا عليه الصلاة والسلام ، فكلا النبيين الكريمين كانت زوجته عاقراً ، ومع ذلك فقد أكرمهما الله تبارك وتعالى بالولد كما بين ذلك القرآن الكريم .

قال الله في شأن إبراهيم (فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم)^٢ .

وقال تعالى في شأن زكريا (قال رب أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء)^٣ .

قال الله تعالى : (لله ملك السماوات والأرض يخلق ما يشاء يهب لمن يشاء إنثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكراً وإنثاً ويجعل من يشاء عقيماً إنه عليم قدير)^٤ .

(١) الحجرات ١٣ .

(٢) الذاريات ٢٩ .

(٣) آل عمران ٤٠ .

(٤) الشورى ٤٩ - ٥٠ .

الثالث : إرادة الله تبارك وتعالى

وهو أهم هذه العوامل إذ قد يتحقق العاملان السابقان ولا تحدث عملية الخلق لأن الله تعالى لم يرد لها أن تحدث .

وهذا يشهد له الواقع فكم من زوجين صالحين للإنجاب لم يرزقا الولد لأن الله تعالى لم يقدر لهما الولد ، وله في ذلك المشيئة النافذة والحكمة البالغة .

فهذه هي العوامل التي ينبغي توافرها حتى تتم عملية الخلق فإذا ما تخلف عاملٌ منها لا تتحقق تلك العملية .

المطلب الثاني : أطوار الخلق :

سبق أن ذكرت أن خلق آدم عليه السلام مر بأطوار متعددة وكذلك خلق ذريته مر بأطوار متعددة ، وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى (ما لكم لا ترجون لله وقاراً وقد خلقكم أطواراً)^١ .

والأطوار الجملة في هذه الآية بينت في آيات أخرى أثارت دهشة العلماء العصريين في علم الأجنة .

فبعد أن ظن هؤلاء أنهم أحرزوا قصب السبق ببحوثهم في هذا المجال فوجئوا بأن القرآن قد عرض لهذه القضية منذ أكثر من أربعة عشر قرناً ، وكان هذا الأمر سبب لإسلام بعضهم^٢ ، أو على الأقل اعتراف بعضهم بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

يقول البروفيسور (كيث . ل . مور) في هذا الموضوع : لقد كشفت الدراسات المكثفة للقرآن والحديث خلال السنوات الأربعة الأخيرة جهاز تصنيف الأجنة البشرية الذي يعتبر مدهشاً ، حيث إنه سجل في القرن السابع بعد الميلاد فيما يتعلق بما هو معلوم من تاريخ علم الأجنة ، لم يكن يعرف شيء عن تطور وتصنيف الأجنة البشرية حتى حلول القرن العشرين ، ولهذا السبب فإن أوصاف الأجنة البشرية في القرآن الكريم لا يمكن بناؤها على المعرفة العلمية للقرن السابع ، الاستنتاج الوحيد المعقول هو أن هذه الأوصاف قد أوحيت إلى محمد صلى الله عليه وسلم من الله إذ ما كان له

(١) نوح ١٣ - ١٤ .

(٢) انظر قصة إسلام البروفيسور (تاجاتان تاجاسون) رئيس قسم التشريح والأجنة بجامعة شاينج ماي بتايلاند في كتاب إنه الحق . إصدار هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة برابطة العالم الإسلامي ص ٣٠ - ٣٥ .

أن يعرف مثل هذه التفاصيل لأنه كان أمياً ولهذا لم يكن قد نال تدريباً عملياً^١ .

فهذا اعتراف من البروفيسور كيث مور وهو أستاذ علم التشريح والأجنة بجامعة تورنتو بكندا . وهو من المتخصصين في هذا المجال وله كتاب أطوار خلق الإنسان (The Developing Human) وكتابه هذا مترجم إلى ثمان لغات : الروسية ، اليابانية ، الألمانية ، الصينية ، الإيطالية ، البرتغالية ، الإنجليزية ، اليوغسلافية^٢ .

ويقول البروفيسور (مارشال جونسون) رئيس قسم التشريح ومدير معهد دانيال بجامعة توماس جيفرسون بفيلا دلفيا بالولايات المتحدة الأمريكية عن هذه القضية : إنني كعالم أستطيع فقط أن أتعامل مع أشياء أستطيع أن أراها بالتحديد، أستطيع أن أفهم علم الأجنة ، وتطور علم الأحياء ، أستطيع أن أفهم الكلمات التي تترجم لي من القرآن ، كما ضربت لكم أمثلة من قبل .

إذا افترضنا أنني نقلت نفسي لتلك الفترة — أي فترة عهد النبي صلى الله عليه وسلم — عملاً بما تعلمته حتى اليوم ، وواصفاً الأشياء ، لقد استطعت أن أصف الأشياء التي وصفت ، إنني لا أرى دليلاً على حقيقة تفند مفهوم هذا الفرد محمد صلى الله عليه وسلم الذي لا بد وأنه يتلقى هذه المعلومات من مكان ما ، ولذلك إنني لا أرى شيئاً يتضارب مع مفهوم التدخل الإلهي

(١) انظر : كتاب إنه الحق ص ٢٧ — ٢٨ ، وانظر مزيداً من كلامه في ص ١٤ من نفس المرجع ، مصطلحات قرآنية لمراحل وأطوار التخلق البشري للدكتور كيث مور وهو البحث الثامن من بحوث كتاب علم الأجنة الصادر عن هيئة الإعجاز العلمي برباطة العالم الإسلامي ص ١٤٣ — ١٤٨ .

(٢) انظر نبذة عن الدكتور كيث مور . مور . في كتاب إنه الحق ص ١٣ — ١٤ .

كان مشمولاً فيما كان باستطاعته أن يبلغه^١ . أهـ

ويقول الدكتور موريس بوكاي في كتابه (ما أصل الإنسان) : وفي هذا السياق نجد أن حقائق علم الأجنة الحديثة تتساقق تماماً وبدرجة مدهشة مع النص القرآني .

وكل هذه الآيات تتفق وحقائق اليوم الثابتة ، ولكن كيف تسنى للرجال الذين عاشوا في عهد محمد صلى الله عليه وسلم أن يكون لديهم هذه التفاصيل الكثيرة والدقيقة في علم الأجنة ؟

إنّ هذه الحقائق لم تكتشف إلا بعد مرور ألف عام تقريباً على نزول القرآن ، ويقودنا تأريخ العلوم إلى أن نجزم بعدم وجود أي تعليل أو تبرير بشري لوجود هذه الآيات في القرآن^٢ . أهـ

فهذه نماذج من اعترافات كبار العلماء المتخصصين في علم الأجنة والتشريح تشهد بصدق ما جاء في القرآن ، وموافقته المدهشة لما توصل إليه العلم الحديث بتقنياته المتطورة ، وإمكانياته الهائلة ، وهذا من الأدلة الواضحة لهؤلاء القوم ولغيرهم على صدق رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وعلى أنّ القرآن كلام الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قال تعالى (سنبهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد)^٣ .

(١) كتاب إنه الحق ص ٤٩ .

(٢) ما أصل الإنسان ص ٢٠٧ .

(٣) فصلت ٥٣ .

أطوار الخلق في القرآن :

تناول القرآن هذه القضية في عدة مواضع منه :

من أوضحها وأجمعها ما جاء في سورتي الحج والمؤمنون ، وهذان الموضوعان هما أصل الكلام في هذا الموضوع .

قال تعالى في سورة الحج (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج)^١ .

وقال تعالى في سورة المؤمنون (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)^٢ .

وقد جاءت آيات أخر اقتصرت على ذكر بعض هذه الأطوار أو واحد منها .

ففي فاطر : (والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً)^٣ .

وفي سورة غافر : (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من

(١) الحج ٥ .

(٢) المؤمنون ١٢- ١٤ .

(٣) فاطر ١١ .

علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلاً مسمى ولعلكم تعقلون) ١ .

وفي النجم : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى) ٢ .

وفي السجدة : (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون) ٣ .

وفي الإنسان : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) ٤ .

وفي العلق : (خلق الإنسان من علق) ٥ .

وفي القيامة : (ألم يك نطفة من مني يعني ثم كان علقة فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى) ٦ .

وهناك آيات أخر سبق ذكرها في مطلب مادة الخلق .

ومن الآيات السابقة نستطيع أن نستخرج أطوار الخلق مرتبة :

فالطور الأول هو النطفة ، والطور الثاني العلقة ، والطور الثالث المضغة ، والطور الرابع العظام ، والطور الخامس كساء العظام

(١) غافر ٦٧ .

(٢) النجم ٤٥ — ٤٦ .

(٣) السجدة ٧ — ٩ .

(٤) الإنسان ٢ .

(٥) العلق ٢ .

(٦) القيامة ٣٧ — ٣٩ .

باللحم ، والطور السادس انتهاء الخلق .

وسأتكلم عن كل طور من هذه الأطوار .

الطور الأول : النطفة .

سبق أن ذكرنا أن معناه الماء القليل ويعني بها ماء الرجل .

والنطفة أول مراحل الخلق وهي تتكون من الحيوانات المنوية التي تتكون في خصية الرجل ومن السائل المنوي الذي يفرزه كل من الحويصلات المنوية والبروستاتة والغدد الملحقة بالقناة البولية^١ . فالحيوانات المنوية التي تسبح في السائل المنوي هي المسئولة عن إخصاب البويضة الأنثوية عند الالتقاء بها في الرحم ، ومن بين ملايين الحيوانات التي يقذفها الرجل في المرة الواحدة يترشح واحد منها لكي يقوم بهذه المهمة .

ويلاحظ هنا التناقض بين هذه الحقيقة وبين التعبير القرآني الذي سمي

ذلك نطفة وهي القليل من الماء .

وبالنظر في الآيات التي ذكر فيها لفظ النطفة يلاحظ أن القرآن ذكر هذا

اللفظ لأغراض عدة :

أولها : تذكير الإنسان بأصله الذي خلق منه ردعاً له عن التعاضم

والتكبر ، حيث إن التعبير بلفظ النطفة يوحي بصغر وحقارة وضعف هذا

المخلوق وأنه لا يعدو أن يكون قطرات قليلة من ماء مهين .

قال تعالى (قتل الإنسان ما أكفره من أي شيء خلقه من نطفة

خلقه فقدره ثم السبيل يسره)^٢ .

(١) انظر : ما أصل الإنسان ص ٢٠٥ .

(٢) عبس ١٧ - ٢٠ .

ثانيها : تذكير الإنسان بنعمة الله عليه وكيف أنه صيره من هذه النطفة الحقيرة إنساناً سمياً بصيراً عاقلاً مدركاً للأمر قادراً على الخصومة وإقامة الحجج قال تعالى (خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين)^١ ، وقال تعالى (خلق الإنسان علمه البيان)^٢ ، وقال تعالى (إننا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سمياً بصيراً)^٣ .

ثالثها : بيان قدرة الله الباهرة في الخلق .

فمن هذا الماء القليل الحقيير خلق الإنسان السميع القوي البصير .

قال تعالى (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين)^٤ .

وقال تعالى (وهو الذي خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً)^٥ .

وقال تعالى (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى)^٦ .

رابعها : الاستدلال على قدرة الله على البعث .

(١) النحل ٤ .

(٢) الرحمن ٣ — ٤ .

(٣) الإنسان ٢ .

(٤) المؤمنون ١٢ — ١٤ .

(٥) الفرقان ٥٤ .

(٦) النجم ٤٥ — ٤٦ .

قال تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ٠٠)^١ الآية ٠

وقال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلاله من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقه ثم خلقنا العلقه مضغة فخلقنا المضغة عظماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ثم إنكم بعد ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيامة تبعثون)^٢ ٠

وقال تعالى : (أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)^٣ ٠

وقال تعالى : (وأنه خلق الزوجين الذكر والأنثى من نطفة إذا تمنى وأنّ عليه النشأة الأخرى)^٤ ٠

وقال تعالى : (أيجسب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى يمى ثم كان علقه فخلق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى أليس ذلك بقادر على أن يحي الموتى)^٥ ٠

خامسها : بيان قلة الماء الذي خلق منه الإنسان ٠

وفيه دلالة غير مباشرة إلى أنّ عملية الخلق تتم بكمية ضئيلة من الماء وهي

(١) الحج ٥ ٠

(٢) المؤمنون ١٢ — ١٦ ٠

(٣) يس ٧٧ — ٧٩ ٠

(٤) النجم ٤٥ — ٤٧ ٠

(٥) القيامة ٣٦ — ٤٠ ٠

حيوان منوي واحد كما أثبت ذلك العلم الحديث .

فهذه بعض الأغراض التي تظهر من استخدام لفظ النطفة في القرآن وقبل أن انتقل إلى الطور الثاني أود أن أحيب عن تساؤل قد يطرأ على من يقرأ الآيات في هذا الموضوع .

هذا التساؤل هو أن الله تعالى قد ذكر في أكثر من موضع أن الإنسان خلق من تراب وخاطب بذلك بني الإنسان كما في سورة الحج وفاطر وغافر ، وقد ذكرت هنا أن أول طور من أطوار الخلق هو النطفة فكيف يجمع بين الأمرين ؟

فأقول وبالله التوفيق :

قد ذكر العلماء لهذا الإشكال جوابين^١ :

الأول : أن الإنسان خلق من النطفة والنطف من الأغذية ، والأغذية

راجعة إلى التراب .

الثاني : أن معنى خلقه الناس من تراب أي خلق أبيهم آدم، ولما خلق أباهم آدم من تراب وكانوا تبعاً له في الخلق صدق عليهم أنهم خلقوا من تراب .

والجواب الثاني عليه أكثر المفسرين^٢ .

ويدل عليه قول المولى تبارك وتعالى في سورة السجدة (الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من

(١) انظر في ذلك : الرازي ١١ / ٢٣٤ ، أضواء البيان ٤ / ٤٦٠ ، ٥ / ٢٠ .

(٢) انظر : ابن جرير ١٠ / ١٥٣ ، القرطبي ١٢ / ٦ ، المحرر الوجيز ٢ / ٢٦٦ ، البيضاوي

٢ / ٨٣ ، الخازن ٢ / ٣٥٥ ، البغوي ٢ / ٣٥٥ ، التسهيل ٣ / ٧٦ ، زاد المسير ٥ / ٤٠٦ معاني

القرآن للنحاس ٤ / ٣٧٦ ، فتح القدير ٢ / ٩٨ .

سلالة من ماء مهين . . (الآية ١٠)

فالآية واضحة في أن ابتداء خلق الإنسان من الطين ، وذلك هو خلق آدم عليه السلام ، أما السلالة والذرية فمخلوقة من الماء المهين وإن كان أصلها الأول هو الطين .

فالآية فيها إثبات لنوعي الخلق :

النوع الأول : ابتداء الخلق وهو خلق آدم وهو من طين .

النوع الثاني : خلق الذرية وهو من الماء المهين .

فآدم مخلوق من الطين ومنه تناسلت ذريته فلذلك صح أن يقال إن ذريته

خلقت من الطين باعتبار الأصل .

قال الشيخ الشنقيطي في أضواء البيان : وما يزعمه بعض أهل العلم من أن معنى خلقهم من تراب أن النطفة إذا وقعت في الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذي يدفن فيه فيذره على النطفة فيخلق الله النسمة من النطفة والتراب معاً فهو خلاف التحقيق ، لأن القرآن يدل على أن مرحلة النطفة بعد مرحلة التراب بمهلة فهي غير مقارنة لها بدليل الترتيب بينهما بـثم في قوله تعالى : (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة . .) .

وقوله تعالى : (هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة . .) .

وقوله تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة

في قرار مكين) .

وقوله تعالى : (ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم الذي

أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من
سلالة من ماء مهين) .

وكذلك ما يزعمه بعض المفسرين من أن معنى خلقهم من تراب أن المراد
أنهم خلقوا من الأغذية التي تتولد من الأرض فهو ظاهر السقوط كما
ترى^١ . أهـ

والخلاصة في هذا الطور :

أن النطفة التي يقذفها الرجل في رحم المرأة تلتقي بالبويضة الأنثوية
ويكونان ما يسمى بالزيجوت وهو ما عبر عنه القرآن في سورة الإنسان
بقوله تعالى : (إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً
بصيراً)^٢ فالنطفة الأمشاج هي اختلاط ماء الرجل بماء المرأة .

وبالرغم من تغير طبيعة نطفة الرجل بعد اختلاطها بماء المرأة إلا أن
القرآن سماها أيضاً نطفة وذلك لأن مظهرها لم يتغير عن الشكل الأصلي
للنطفة لأنها تملك غشاء سميكاً يحفظها ويحفظ مظهر النطفة فيها^٣ .

تبقى النطفة على هذا الشكل حتى اليوم السادس من بداية التلقيح حيث
تشق طريقها إلى تحت سطح بطانة الرحم حيث يتم انغراسها في الرحم
وتكتمل بذلك مرحلة النطفة في اليوم الرابع عشر من التلقيح تقريباً^٤ .

وبذلك تأخذ حصتها من الأربعين يوم التي ذكرت في الحديث النبوي
الذي أخرجه الشيخان من حديث ابن مسعود قال : حدثني رسول الله

(١) أضواء البيان ٤ / ٤٦٠ .

(٢) الإنسان ٢ .

(٣) انظر : علم الأجنة ص ٣٨ ، ٤٩ .

(٤) السابق ١١٨ .

صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق قال : إنَّ أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً ثم يكون في ذلك علقة مثل ذلك ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك ثم يرسل الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات بكتب رزقه ، وأجله ، وعمله ، وشقي أو سعيد . . .^١ الحديث .

الطور الثاني : العلقة :

تعريفها وسبب التسمية :

العلق في اللغة : هي الدم الجامد ، والعلق الدم العبيط أي الطري ، و العلق القطعة من العلق^٢ .

قال ابن فارس : العين واللام والقاف أصل كبير صحيح يرجع إلى معنى واحد ، وهو أن يناط الشيء بالشيء العالي ثم يتسع الكلام فيه ، والمرجع كله إلى الأصل الذي ذكرناه^٣ . أهـ

وقال صاحب القاموس : العلق محركة الدم عامة ، أو الشديد الحمرة ، أو الغليظ أو الجامد ، القطعة منه : بهاء وكل ما علق^٤ . أهـ

قال الراغب في المفردات : العلق التشبث بالشيء . . . والعلق دود يتعلق بالخلق ، والعلق الدم الجامد ومنه العلقة التي يكون منها الولد^٥ . أهـ

(١) أخرجه البخاري في كتاب القدر ١١ / ٤٧٧ حديث رقم ٦٥٩٤ ، وأخرجه مسلم واللفظ

له في كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمي ٤ / ٢٠٣٦ حديث رقم ٢٦٤٣ .

(٢) انظر في ذلك : الرازي ١١ / ٢٣٥ ، الكشاف ٣ / ٥ ، المحرر الوجيز ٤ / ١٠٧ ، أضواء

البيان ٥ / ٢١

(٣) معجم مقاييس اللغة ٤ / ١٢٥ .

(٤) القاموس المحيط ص ١١٧٥ مادة علق .

(٥) مفردات الراغب ص ٣٤٣ .

فحاصل ما سبق أن مادة العلق تدل على التشبث بالشيء ويطلق على

الدم وعلى دودٍ يعلق بالخلق .

وهذه المعاني كلها موجودة في الجنين عندما يكون في طور العلق .

فالبويضة الملقحة التي سبق ذكرها في الطور السابق تعلق بجدار الرحم في

اليوم السادس بعد التلقيح وتكون محاطة ببرك من الدماء نتيجة لظهور

الأوعية الدموية القلبية والقلب الأولي وكيس المشيمة وتكون الدماء

محبوسة في الأوعية الدموية ولا يبدأ الدم في الدوران حتى نهاية الأسبوع

الثالث وبهذا يأخذ الجنين مظهر الدم الجامد أو الغليظ^١ .

ويفقد الجنين شكله المستدير ويستطيل في هذا الطور حتى

يأخذ شكل الدودة^٢ .

ويتبين بهذا دقة التعبير والوصف القرآني لهذا الطور والذي لم تتبين بعض

جوانبه إلا في العصر الحديث مما يضيف دليلاً آخر على صدق رسالة النبي

صلى الله عليه وسلم وعلى أن ما جاء به هو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه

الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

يستمر طور العلق حتى اليوم الواحد والعشرين تقريباً^٣ ثم بعد ذلك يبدأ

الطور الجديد وهو طور المضغة .

(١) انظر : خلق الإنسان للبار ص ٢١٤ ، علم الأجنة ٥٨ — ٦٣ ، ما أصل الإنسان

ص ٢٠٥ .

(٢) علم الأجنة ص ٦٢ .

(٣) انظر : علم الأجنة ص ١١٩ ، خلق الإنسان ص ٢٥٣ .

الطور الثالث : المضغعة .

تعريفها وسبب التسمية :

المضغعة : هي القطعة الصغيرة من اللحم على قدر ما يمضغه الآكل^١ .

وهي مأخوذة من المضغ .

قال ابن فارس : الميم والضاد والغين أصل صحيح وهو المضغ للطعام^٢ . أهـ

وفي لسان العرب : المضغعة القطعة من اللحم لمكان المضغ أيضاً^٣ . أهـ

ويرى بعض المحدثين أن كلمة مضغعة تعبر من شكل تلك القطعة وليس عن مقدارها ، بناءً على المشاهدات الحديثة لتخلق الجنين في بطن أمه والتي تظهر الجنين في هذه المدة على شكل اللحم الممضوغة^٤ .

يقول الدكتور موريس بوكاي في كتابه ما أصل الإنسان : وبمجرد أن تنتهي مرحلة العلقة الموضحة في القرآن ، يخبرنا القرآن أن الجنين يمر بمرحلة أخرى هي مرحلة المضغعة (المعلوكة) ويحتفظ الجنين بهذا الشكل حتى اليوم العشرين تقريباً عندما يبدأ في التشكل بهيئة الإنسان^٥ . أهـ

(١) انظر : الكشاف ٣ / ٥ ، الرازي ١١ / ٢٣٥ ، مفردات الراغب ص ٤٦٩ ، القرطبي

١٢ / ٤٦ ، أضواء البيان ٥ / ٢١ .

(٢) معجم مقاييس اللغة ٥ / ٣٣٠ .

(٣) لسان العرب ١٣ / ١٢٩ .

(٤) انظر : خلق الإنسان للبار ص ٢٥٢ ، علم الأجنة ص ٦٧ .

وقد سبق إلى ذكر ذلك ابن العربي في أحكام القرآن حيث قال في تفسيرها : يعني من جزء مختل

يشبه اللقمة التي مضغت . أهـ انظر أحكام القرآن ٣ / ١٢٧١ .

(٥) ما أصل الإنسان لموريس بوكاي ص ٢٠٦ .

المضغة المخلقة وغير المخلقة :

ذكر القرآن الكريم أن المضغة تكون مخلقة وغير مخلقة في آية
سورة الحج السابقة .

وقد اختلف المفسرون في تفسير ذلك على ما يلي :

— فذهب بعضهم إلى أنها صفة من نطفة وليست من المضغة ومعنى
الآية : فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة مخلقة وغير مخلقة .
والمخلقة ما كان خلقاً سويّاً وغير المخلقة ما دفعته الأرحام من النطف
وألقته قبل أن يكون خلقاً .

نقل هذا القول ابن جرير عن ابن مسعود .

— وذهب البعض إلى أن معنى ذلك : تامة وغير تامة .

نقله ابن جرير عن قتادة .

— وذهب البعض إلى أن المضغة إذا صورت إنساناً فهي مخلقة
والعكس بالعكس .

نقله ابن جرير عن مجاهد ورجحه^١ .

والذي يترجح والعلم عند الله أن غير المخلقة هي المضغة قبل نفخ الروح
فيها وقبل بداية التشكل الإنساني الذي يكون بعد الأربعين يوم .

وبعد أن تنفخ فيها الروح ويبدأ التشكل الإنساني تسمى مخلقة ويشهد
لهذا حديث ابن مسعود السابق الذي بين فيه أن الروح تنفخ فيه بعد مرحلة
المضغة الغير مخلقة .

(١) انظر في ذلك : ابن جرير ١٠ / ١٥٤ — ١٥٥ ، الرازي ١١ / ٢٣٥ — ٢٣٦ ، أضواء

البيان ٥ / ٢١ — ٢٥ .

ويشهد له أيضاً ما رواه الإمام مسلم وغيره من حديث حذيفة بن أسيد قال : إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظمها . .^١ الحديث .

ومعلوم أن مرحلة المضغة تستمر حتى نهاية الأربعين يوم تقريباً حيث تبدأ في التشكل الإنساني^٢ لتتداخل مع طور العظام الذي سيأتي ذكره إن شاء الله .

فالحاصل أن المخلقة وغير المخلقة مرحلتان في طور واحد هو طور المضغة ، ولذلك عطف بينهما بحرف الواو بخلاف الأطوار السابقة التي رتب العطف فيها بـ(ثم) .

أما تقديم المخلقة على غير المخلقة في الآية فإن ذلك بناء على أن العطف بالواو لا يقتضي الترتيب .

قال الشوكاني : (مخلقة) بالجر صفة لمضغة أي مستبينة الخلق ، ظاهرة التصوير .

(وغير المخلقة) لم يستبن خلقها ، ولا ظهر تصويرها .

قال ابن الأعرابي : (مخلقة) يريد قد بدا خلقه ، (وغير مخلقة) لم تصور .

قال الأكثر : ما أكمل خلقه بنفخ الروح فيه فهو المخلقة وهو الذي ولد لتمام ، وما سقط كان غير مخلقة أي غير حي بإكمال خلقته بالروح .

قال الفراء : مخلقة تام الخلق ، وغير مخلقة السقط .

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب القدر باب كيفية الخلق الآدمي ٤ / ٢٠٣٧ حديث رقم ٢٦٤٥ .

(٢) انظر : خلق الإنسان ص ٢٥٣ .

ومنه قول الشاعر :

أفي غير المخلقة البكاء فأين الحزم ويحك والحياء^١ . أهـ

والقول بأن المقصود بالمخلقة وغير المخلقة النطفة بعيد لأنه خلاف ظاهر الآية ، ولأنه لا يصح أن يفصل بين المنعوت ونعته بفواصل أجنبي عنه كما في هذه الآية^٢ .

فجعلها صفة للنطفة لم يقم عليه دليل .

أما القول بأنها التامة وغير التامة ، فإن قصد بها السقط وعدمه فليس بقوي لأن السقط قد أشير إليه في قوله تعالى : (ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى . .) الآية ، ولو كان المراد لكان تكراراً يتره عنه القرآن الكريم .

ولأن الخطاب في أول الآية بيان للخلق كما في قوله تعالى : (فإننا خلقناكم . .) وليس لما يتم خلقه .

قال الرازي : والقول الأول أقرب لأنه تعالى قال في أول الآية (فإننا خلقناكم) وأشار إلى الناس فيجب أن تحمل مخلقة وغير مخلقة على من سيصير إنساناً وذلك يبعد في السقط لأنه قد يكون سقطاً ولم يتكامل فيه الخلق^٣ . أهـ

وأما إن أريد بالتامة وغير التامة تمام الخلق وسلامتها من العيوب وعكس ذلك فلم يظهر لي وجه الحكمة في ذكر ذلك في طور المضغة دون غيره من

(١) فتح القدير للشوكاني ٣ / ٤٣٦ .

(٢) انظر في ذلك : شرح الكافية الشافية لابن مالك الأندلسي ٢ / ١١٤٧ — ١١٥١ ،

المساعد على تسهيل الفوائد لابن عقيل ٢ / ٣٨١ .

(٣) الرازي ١١ / ٢٣٦ .

الأطوار ، ذلك أن معظم الصفات التي يتصف بها الإنسان تكون موجودة في أسلافه منقولة عبر حاملات الوراثة في الخلايا البشرية (الكروموسومات) وهي موجودة في ماء الرجل وماء المرأة .

وقد يقال إن بداية التشكل الإنساني يكون في طور المضغة وذلك بظهور الكتلة البدنية التي هي أساس الجهاز الهيكلي والعضلي فما تم خلقه من غير نقص في أعضائه فهو المضغة المخلقة وما خلق بنقص فهو المضغة غير المخلقة .

وما رجحته أقوى والله أعلم .

الطور الرابع : طور العظام .

يستمر طور المضغة السابق حتى نهاية الأسبوع السادس حيث يكون الجنين في نهاية هذا الطور في شكل المضغة ولا يدل على الشكل الإنساني .
ومع بداية الأسبوع السابع يبدأ الهيكل العظمي الغضروفي في الانتشار في الجسم كله فيأخذ الجنين شكل الهيكل العظمي وتكون العظام هي أبرز تكوين في هذا الطور .

ويتم الانتقال من شكل المضغة إلى بداية شكل الهيكل العظمي في فترة زمنية وجيزة ويتميز هذا الطور بظهور الهيكل العظمي الذي يعطي الجنين مظهره الآدمي .

ومصطلح العظام الذي أطلقه القرآن الكريم على هذا الطور هو المصطلح الذي يعبر عن هذه المرحلة من حياة الحمل تعبيراً دقيقاً يشمل المظهر الخارجي ، وأهم تغيير في البناء الداخلي وما يصاحبه من علاقات جديدة بين

(١) انظر : خلق الإنسان للبار ص ١٢٤ — ١٣٢ .

أجزاء الجسم واستواء في مظهر الحميل، ويتميز بوضوح عن طور المضغة الذي قبله^١.

وهذا الذي قرره علماء الأجنة في العصر الحديث قد قرره النبي محمد صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه عنه حذيفة بن أسيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة بعث الله إليها ملكاً فصورها وخلق سمعها وبصرها وجلدها ولحمها وعظامها ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟

• فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك

ثم يقول: يا رب أجله؟

• فيقول ربك ما شاء ويكتب الملك

ثم يقول: يا رب رزقه؟

• فيقضي ربك ما شاء ويكتب الملك

ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص^٢.

وفي رواية لمسلم: يدخل الملك على النطفة بعد ما تستقر في الرحم بأربعين أو خمسة وأربعين ليلة^٣. الحديث

(١) انظر: علم الأجنة، بحث الدكتور كيث. ل. مور مصطلحات قرآنية لمراحل وأطوار التخلق البشري ص ١٦٤.

وبحث الدكتور جولي سمسون أطوار خلق الإنسان في الأيام الأربعين الأولى ص ١١٩ - ١٢٠.

(٢) رواه الإمام مسلم في كتاب القدر، باب كيفية الخلق الآدمي ٤ / ٢٠٣٧ حديث رقم ٢٦٤٥.

(٣) السابق حديث رقم ٢٦٤٤.

فظاهر حديث حذيفة أنّ الكتابة تكون بعد الأربعين الأولى ، وأنّ التصوير يكون بعد الأربعين الأولى كذلك .

أمّا في حديث ابن مسعود السابق ذكره فظاهره أنّ الكتابة بعد الأربعين الثالثة ، وأنّ التصوير يكون بعدها أيضاً لأنه لا يكون إلا بعد المضغة .

ففي الحديثين إشكالان :

الأول : أنّ التقدير والكتابة في حديث حذيفة بعد الأربعين ، وفي حديث ابن مسعود بعد مائة وعشرين .

الثاني : أنّ خلق اللحم والعظم (التصوير) يكون بعد الأربعين الأولى في حديث حذيفة ، وفي حديث ابن مسعود بعد مائة وعشرين أي بعد الأربعين الثالثة الخاصة بالمضغة .

وقد أجاب أهل العلم عن هذا التعارض بعدة إجابات سأبينها ثم أذكر القول المختار في الجمع بين الأحاديث .

الإجابة عن الإشكال الأول :

للعلماء في توجيه هذا الإشكال عدة أقوال :

الأول : أنّ هذا تقدير بعد تقدير .

وذهب إليه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى ، فقال في حديث حذيفة : نتلقاه بالقبول والتصديق وترك التحريف ، ولا ينافي ما ذكرناه ، إذ غاية ما فيه أن التقدير وقع بعد الأربعين الأولى ، وحديث ابن مسعود يدل على أنه وقع بعد الأربعين الثالثة ، وكلاهما حق قاله الصادق صلى الله عليه وسلم ، وهذا تقدير بعد تقدير .

فالأول: تقدير عند انتقال النطفة إلى أول أطوار التخليق التي هي أول مراتب الإنسان ، وأما قبل ذلك فلم يتعلق بها التخليق .

والتقدير الثاني : عند كمال خلقه ونفخ الروح فيه ، فذلك تقدير عند أول خلقه وتصويره ، وهذا تقدير عند تمام خلقه وتصويره^١ . اهـ

الثاني : أن الكتابة والتقدير مرة واحدة ولكن يختلف باختلاف الأجنحة ، فبعضهم يكتب له بعد الأربعين الأولى ، وبعضهم بعد الأربعين الثالثة^٢ .

الثالث : أن المراد بالأربعين في حديث حذيفة الأربعين الثالثة في حديث ابن مسعود^٣ .

الرابع : أن الكتابة تكون مرة واحدة بعد الأربعين الأولى كما في حديث حذيفة ، وإنما أخره في حديث ابن مسعود إلى بعد مرحلة المضغة لئلا ينقطع ذكر الأطوار التي يتقلب فيها الجنين ، فإن ذكر أطواره الثلاثة على نسق واحد أعجب وأحسن ، ولذلك أحر المعطوف عليها وإن كان المعطوف متقدماً على بعضها في الترتيب .

ومثل ذلك قوله تعالى (وبدأ خلق الإنسان من طين ٠٠) الآية^٤ ، والمراد بالإنسان آدم عليه السلام ، ومعلوم أن تسويته ونفخ الروح فيه كان قبل جعل نسله من سلالة من ماء مهين .

لكن لما كان المقصود ذكر قدرة الله عز وجل في مبدأ خلق آدم وخلق

(١) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ص ٣٤٥ .

(٢) انظر : جامع العلوم والحكم ص ٥١ ، فتح الباري ١١ / ٤٨٤ .

(٣) انظر : التبيان في أقسام القرآن ص ٣٤٦ .

(٤) السجدة ٧ .

نسله عطف أحدهما على الآخر ، و آخر ذكر تسوية آدم ونفخ الروح وإن كان متوسطاً بين خلق آدم من طين وبين خلق نسله^١.

الإجابة عن الإشكال الثاني :

للعلماء في توجيه هذا الإشكال عدة أقوال :

الأول : أن هذا تصوير بعد تصوير .

وإلى هذا ذهب ابن القيم والقاضي عياض^٢.

قال ابن القيم : ولكن هنا تصويران :

أحدهما : تصوير خفي لا يظهر ، وهو تصوير تقديري ، كما تصور حين تفصل الثوب أو تنجر الباب مواضع القطع والتفصيل ، فيعلم عليها ويضع مواضع الفصل والوصل ، وكذلك كل من يضع صورة في مادة ، لاسيما مثل هذه الصورة ينشئ فيها التصوير والتخليق على التدريج شيئاً بعد شيء لا وهلة واحدة ، كما يشاهد بالعيان في التخليق الظاهر في البيضة .

فهاهنا أربع مراتب :

أحدها : تصوير وتخليق علمي لم يخرج إلى الخارج .

الثانية : مبدأ تصوير خفي يعجز الحس عن إدراكه .

الثالثة : تصوير يناله الحس ولكنه لم يتم بعد .

الرابعة : تمام التصوير الذي ليس بعده إلا نفخ الروح .

فالمرتبة الأولى علمية ، والثلاث الأخر خارجية عينية .

(١) انظر : جامع العلوم والحكم ص ٥١ .

(٢) انظر : التبيان في أقسام القرآن ص ٣٤٨ ، فتح الباري ١١ / ٤٨٤ .

وهذا التصوير بعد التصوير نظير التقدير بعد التقدير .^١ اهـ

الثاني : أن التصوير في حديث حذيفة إنما هو بعد الأربعين الثالثة .

قالوا : وأكثر ما فيه التعقيب بالفاء ، وتعقيب كل شيء بحسبه وقد قال تعالى (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة ٠٠) الآية^٢ ، بل قد قال تعالى (ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ٠٠) الآية^٣ ، وهذا تعقيب بحسب ما يصلح له المحل ولا يلزم أن يكون الثاني عقيب الأول تعقيب اتصال^٤ .

الثالث : أن التصوير والتخليق في حديث حذيفة في التقدير والعلم ، والذي في حديث ابن مسعود في الوجود الخارجي .^٥

الترجيح :

بعد النظر في الأقوال السابقة في توجيه الإشكالين نجد أن هذه الأقوال محاولات اجتهادية من العلماء لإزالة التعارض بين الحديثين .
وقد سلك العلماء طريق الجمع بين الحديثين كما هي القاعدة المتبعة عند التعارض ، ولم يرجحوا أحدهما على الآخر ، لأن كلا الحديثين مرويان في الصحيح .

ولا يخلو قول من الأقوال من مقال فيه ، وأكثرها تعالج جانباً

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ٣٤٨ .

(٢) الحج ٦٣ .

(٣) المؤمنون ١٤ .

(٤) انظر : التبيان في أقسام القرآن ص ٣٤٧ .

(٥) المرجع السابق .

من الحديث وتترك جانباً .

فلأن قدرنا صحة ما قيل في توجيه الإشكال الأول من أن هذا تقدير بعد تقدير فيبقى الإشكال الآخر وهو أن خلق العظام يكون بعد الأربعين في حديث حذيفة و بعد مائة وعشرين يوماً كما يفهم من حديث ابن مسعود .
وهكذا القول الثاني في توجيه الإشكال الأول .

وأما القول الثالث فقد قال ابن القيم فيه : وهذا بعيد جداً من لفظ الحديث ، ولفظه يأباه كل الإباء . اهـ

ويرد عليه ما يرد على القول الذي قبله .

وهكذا القول الرابع يرد عليه نفس الإيراد .

أما الإشكال الثاني :

فمن قال إنه تصوير بعد تصوير فهو خروج عن ظاهر الحديث ، ويحتاج إثبات مثل ذلك إلى دليل من المعصوم .
والحقائق العلمية أثبتت أن خلق العظام بعد الأربعين الأولى حقيقة وليس تقديراً .

وأما القول الثاني في توجيه الإشكال الثاني فهو مخالف لظاهر الحديث الذي بين أن التصوير بعد الأربعين الأولى .

وهو مخالف أيضاً لما ثبت من أن تكوين العظام يبدأ بعد الأربعين الأولى حقيقة كما هو ظاهر حديث حذيفة .

وأما القول الثالث في توجيه الإشكال الثاني فهو انتقال عن الظاهر بدون دليل .

ثم هو مخالف لما ثبت من أن تكون العظام يكون بعد الأربعين الأولى حقيقة .

وهكذا يظهر أن الأقوال السابقة تخالف ظاهر الحديث ، وتعالج جانباً دون جانب .

وبما أن كلا الحديثين خرج من مشكاة واحدة فلا بد أن يكونا متفقين في مضمونيهما، ويكون الخطأ إما في فهمهما ، أو من قبل النقلة ، فيبحث حينئذ عن مرجح لأحدهما ويوجه الآخر بناءً عليه ما دام صحيحين .

قال صاحب الكوكب المنير : قال أبو بكر الخلال من أئمة أصحابنا المتقدمين : لا يجوز أن يوجد في الشرع خبران متعارضان ليس مع أحدهما ترجيح يقدم به، فأحد المتعارضين باطل إما لكذب الناقل أو خطئه بوجه ما من النقلات أو خطأ الناظر ، أو لبطلان حكمه بالنسخ .^١ أهـ

ونستطيع الآن بما تكشف لنا من حقائق العلم الحديث في هذا المجال والمعتمد على المشاهدات العينية اليقينية أن نرجح حديث حذيفة على حديث ابن مسعود لأنه موافق لما ذكره علماء الأجنة من أن العظام يبدأ تكوينها الفعلي بعد أربعين يوم من التلقيح كما بينت ذلك في طور العظام .

ومما يشهد لحديث حذيفة أن جنس الجنين — كونه ذكراً أو أنثى — يتحدد بعد خلق العظام كما في رواية مسلم لحديث حذيفة ، وهذا موافق لحقائق العلم الحديث التي تبين أن جنس الجنين يتحدد تماماً في الأسبوع

(١) شرح الكوكب المنير المسمى بمختصر التحرير لمحمد بن أحمد الفتوحى المعروف بابن النجار الحنبلي ٤ / ٦١٧ ، وانظر في ذلك : الرسالة للشافعي ص ٢١٦ ، الإجماع للسبكي ٣ / ٢١٨ .

الثاني عشر أي في اليوم الرابع والثمانين تقريباً^١ .

وأما على حديث ابن مسعود فإنَّ الجنين يكون في هذا الوقت في طور المضغة قبل أن تخلق فيه العظام فضلاً عن تحديد جنس الجنين .

فيبدو— والعلم عند الله — أن بعض الرواة تصرف في لفظ حديث ابن مسعود بناءً على فهمه له ، معتمداً على جواز رواية الحديث بالمعنى .

فمدار الحديث على الأعمش عن زيد بن وهب ، فإما أن يكون التصرف من الأعمش أو من زيد بن وهب .

وبالنظر في طرق الحديث نجد أن هناك تصرفاً من بعض الرواة في روايته :

فرواية مسلم جاءت بزيادة لفظ (في ذلك) في قوله : ثم يكون في ذلك علقه مثل ذلك ، ثم يكون في ذلك مضغة مثل ذلك .

وفي جميع روايات البخاري التي في كتاب القدر ، وبدأ الخلق ، والتوحيد ، والأنبياء لم تذكر تلك الزيادة .

وفي رواية البخاري الكتابة قبل نفخ الروح ، وفي رواية مسلم ذكر النفخ ثم الكتابة .

وفي رواية البخاري في بدأ الخلق لم يذكر (الأجل) في الكلمات المكتوبة .

فيظهر أن بعض الرواة يتصرف في لفظ الحديث بناءً على جواز روايته بالمعنى فلا يبعد أن يكون بعضهم زاد لفظ (مثل ذلك) ، إما

(١) انظر : علم الأجنة بحث وصف التخلق البشري ، مرحلة النشأة ت . ف . ن برسود رئيس

قسم التشريح بكلية الطب بجامعة منيتويا كندا ص ٩٨-٩٩ ، خلق الإنسان للبار ص ٢٩٤ .

الأعمش أو زيد بن وهب .

ولست أجزم بذلك ولكن يبقى الاحتمال قائماً .

وقد نقل ابن حجر عن بعض الشراح المتأخرين ما يشهد لما قلته فنقل عنهم قولهم : ويحتمل أن يكون ذلك من تصرف الرواة برواياتهم بالمعنى الذي يفهمونه^١ .

فالحاصل أن حديث حذيفة يتوافق مع ما توصل إليه العلم الحديث .

كما أن حديث ابن مسعود ليس صريحاً في أن كل طور من الأطوار يستغرق أربعين يوماً ، أما حديث حذيفة فصريح في أن تكوين العظام واللحم يكون بعد الأربعين الأولى ، فيحمل ما كان دلالاته غير صريحة على ما كان صريح الدلالة لا سيما وقد وافق هذا الأخير العلم الحديث .

ويزول بهذا كل الإشكالات التي ترد على الحديثين ويستغنى به عن تكلف الجمع بينهما .

وقد يعترض بأن حديث ابن مسعود مخرج في الصحيحين ، وحديث حذيفة انفرد به مسلم ، وما كان في الصحيحين يقدم على ما انفرد به أحدهما كما هو معروف عند علماء الحديث والأصول^٢ .

والجواب عن ذلك :

أن الحديث وإن كان في درجة أقل من حديث آخر فإنه قد يعرض للمفوق ما يجعله فائقاً ، كما لو كان الحديث عند مسلم مثلاً وهو مشهور قاصر عن درجة التواتر لكنه حفته قرينة صار بها مفيداً للعلم ، فإنه يقدم

(١) فتح الباري ١١ / ٤٨٥ .

(٢) انظر : نزهة النظر ص ٣١ ، الأجوبة الكاملة للكنوي ص ٢٠٢ - ٢٠٥ ، إرشاد

الفعول ص ٢٧٨ ، قواعد التحديث للقاسمي ص ٣١٤ .

على الحديث الذي يخرجه البخاري إذا كان فرداً مطلقاً كما ذكر ذلك ابن حجر^١ .

وحديث حذيفة وإن كان مسلم قد انفرد به إلا إنه قد شهدت له قرينة قوية ترجحه على حديث ابن مسعود وهي الحقائق العلمية التي تؤكد أن العظام يبدأ تكوينها بعد الأربعين يوماً الأولى كما بينت ذلك سابقاً .

وقد ذكر الإمام العراقي في كتابه التقييد والإيضاح : أن من وجوه الترجيح بين الخبرين كون أحد الخبرين يقل فيه اللبس^٢ .

وهذا ينطبق على حديث حذيفة فإن اللبس فيه أقل باعتبار أنه قد وافق الحقائق العلمية في هذا المجال .

أما حديث ابن مسعود فإن اللبس فيه حاصل لاختلافه مع حقائق العلم الحديث .

الخلاصة :

مما سبق يمكن إجمال أوجه الترجيح في ثلاثة أوجه :

الأول : أن حديث حذيفة موافق لحقائق العلم الحديث .

الثاني : أن حديث حذيفة صريح في أن خلق العظام يكون بعد الأربعين بينما حديث ابن مسعود ليس صريحاً في أن كل طور يستغرق أربعين يوماً وبالتالي فهو ليس صريح في أن خلق العظام يكون بعد مائة وعشرين يوماً فيحمل ما كانت دلالاته غير صريحة على ما كان صريح الدلالة .

(١) انظر : نزهة النظر ص ٣٢ .

(٢) انظر : التقييد والإيضاح للحافظ العراقي ص ٢٨٨ .

الثالث : أن اللبس في حديث حذيفة أقل من اللبس في حديث ابن مسعود وما كان اللبس فيه أقل فإنه أرجح مما كثر فيه اللبس .

والقاعدة الكلية في الترجيح أنه متى اقترن بأحد دليلين متعارضين أمر نقلي كآية أو خبر ، أو اصطلاحى كعرف أو عادة عام ذلك الأمر ، أو خاص ، أو اقترن بأحد الدليلين قرينة عقلية أو قرينة لفظية أو قرينة حالية وأفاد ذلك الاقتران زيادة ظن رجح به^١ .

ويبقى هذا الترجيح محاولة اجتهادية من الباحث لبيان الحقيقة ، وقد يظهر في المستقبل من الاكتشافات ما يؤيد هذا القول ويقويه ، أو ما ينقضه وينفيه فالباب في ذلك مفتوح .

والحق الذي لا مرية فيه أن التعارض و التناقض يستحيلان في حق المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وأن الحق في هذا الموضوع وفي غيره لا يخرج عما نقل عنه ، وإن كان ثبت لبس فمرده إلى الفهم القاصر أو الخاطيء أو النقل الخاطيء كما ذكر ذلك أهل العلم والله المستعان .

الطور الخامس : طور اللحم :

يبدأ هذا الطور في نهاية الأسبوع السابع ويستمر طوال الأسبوع الثامن .

ويتميز هذا الطور بانتشار العضلات حول العظام وإحاطتها بها كما يحيط الكساء بلائسه .

وبتمام كساء العظام باللحم تبدأ الصورة الأدمية بالاعتدال ، فترتبط أجزاء الجسم بعلاقات أكثر تناسقاً .

(١) انظر شرح الكوكب المنير ٤ / ٧٥١ .

وبعد تمام تكوين العضلات يمكن للجنين أن يتحرك . وبهذا يظهر أثر كساء العظام باللحم في هذا الطور على الشكل الخارجي للحميل ، وهو يعبر عن أهم الأحداث في هذه المرحلة من تكون الجنين التي تتميز عما قبلها من حيث المظهر والتكوين الداخلي^١ .

ويلاحظ في هذا الطور أن الجنين يبدأ بالحركة فيه مما يعني نفخ الروح فيه ويكون ذلك في نهاية الأسبوع الثامن ، أي في اليوم السادس والخمسين تقريباً^٢ ، وهذا ما بينه حديث حذيفة .

الطور السادس : انتهاء الخلق :

يبدأ هذا الطور بعد طور كساء العظام باللحم أي من الأسبوع التاسع وتمتد إلى أن يدخل الجنين مرحلة القابلية للحياة خارج الرحم أي حتى الشهر السادس .

ففي الفترة ما بين الأسبوعين التاسع والثاني عشر تبدأ أحجام كل من الرأس والجسم والأطراف في التوازن والاعتدال . وفي الأسبوع الثاني عشر يتحدد جنس الجنين بصفة نهائية وذلك بظهور الأعضاء التناسلية الخارجية .

ويتطور في هذا الأسبوع بناء الهيكل العظمي من العظام الغضروفية اللينة إلى العظام الكلسية الصلبة ، كما تتمايز الأطراف ويمكن رؤية الأظافر على الأصابع .

(١) انظر : علم الأجنة ص ١٦٤ - ١٦٦ ، بحث مصطلحات قرآنية لمراحل وأطوار التخلق

البشري لكيث مور ، الزنداني ، مصطفى أحمد .

(٢) السابق ص ٨٥ ، بحث وصف التخلق البشري طور العظام واللحم ج . س جور نجر ،

الزنداني ، مصطفى أحمد .

وفي هذا الطور يظهر الشعر على الجلد ، ويزداد وزن الجنين بصورة ملحوظة وتتطور العضلات الإرادية وغير الإرادية وبالتالي تظهر الحركات الإرادية وتصبح أعضاء الجنين وأجهزته مهيأة للقيام بوظائفها ويكون ذلك في الأسبوع السادس والعشرين أي في الشهر السادس من الحمل وهي أقل مدة للحمل يمكن للجنين العيش بعدها خارج الرحم^١ .

ثم يمكث الجنين في رحم أمه بقية مدة الحمل وهي ثلاثة أشهر وبعدها يكون الجنين قد هياً تماماً للحياة خارج رحم الأم .

وهكذا يتم خلق ذرية آدم في أرحام الأمهات في عملية مذهشة تظهر جانباً من جوانب قدرة الله تبارك وتعالى التي ليس لها مثيل .

وهي عملية تفيد الناظر فيها فوائد عدة من أهمها أنها تعطي الدليل القاطع على قدرة الله على البعث ، ولذلك استخدمها القرآن الكريم كثيراً لإثبات هذه القضية .

(١) انظر : علم الأجنة ص ١٦٦ — ١٧٠ ، بحث مصطلحات قرآنية لمراحل وأطوار التخلق

البشري للدكتور كيث مور ، الزنداني ، مصطفى احمد .

الباب الأول

الفصل الثاني

الإنسان من الجنة إلى الأرض

وفيه ثلاث مباحث :

- المبحث الأول : آدم وحواء في الجنة
- المبحث الثاني : معصيتهما وتوبتهما
- المبحث الثالث : الإنسان في الأرض

المبحث الأول

آدم وحواء في الجنة

وفيه مطلبان :

المطلب الأول: الجوانب التي بينها القرآن في هذه القضية .

المطلب الثاني: الجوانب التي لم يذكرها القرآن .

المطلب الأول

الجوانب التي بينها القرآن في هذه القضية :

بعد أن أسجد الله تبارك وتعالى ملائكته لآدم عليه السلام أمره بالسكن في الجنة ، وأباح له الأكل منها حيث شاء ، ونهاه عن شجرة من أشجارها ، ووعدته بأنه لا يجوع فيها ولا يعرى ، ولا يظمأ فيها ولا يضحى ، ومعنى يضحى أي يصيبه الضحاء وهو الشمس ، والمعنى : لا تظهر للشمس فيؤذيك حرها ، ومنه قول عمر بن أبي ربيعة :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحى وأما بالعشي فيخصر^١ .
 وحذره سبحانه وتعالى من إبليس وبين له أنه عدو له ولزوجه وأنه لا يفتأ يكيدهما حتى يخرجهما من الجنة .

وقد وردت هذه القضية في ثلاث مواطن في القرآن : ففي سورة البقرة قال تعالى : (وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)^٢ .

وفي سورة الأعراف قال تعالى : (ويا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين)^٣ .

وفي سورة طه قال تعالى : (فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى إن لك ألا تجوع

(١) انظر : ابن جرير ١٦ / ٢٧٦ ، والبيت في ديوان عمر بن أبي ربيعة ص ١٢١ .

(٢) البقرة ٣٥ .

(٣) الأعراف ١٩ .

فيها ولا تعرى وأنك لا تظماً فيها ولا تضحى^١ .

ومن هذه الآيات تظهر الجوانب المهمة في هذه الجزئية من القصة :

الجانب الأول : إكرام الله سبحانه وتعالى لهذا العبد وزوجه حيث أسكنهما الجنة وأباح لهما الأكل من خيراتها حيث شاءا .

الجانب الثاني : إسباغ النعم عليهما في الجنة من المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك .

الجانب الثالث : تحذيرهما من العدو المتربص بهما ، والذي لا شغل له إلا السعي في إشقاءهما وإخراجهما من النعيم الذي هم فيه . وبين لهما أنه قد يصل إليهما بطرقه الخاصة وإن لم يكن معهما في الجنة بذاته ، قال تعالى (فلا يخرجنكما من الجنة . .)^٢ ففي الآية دلالة على أنه قد يتسلط عليهما وهما في الجنة .

الجانب الرابع : وهو من باب التحذير لهما وهو أنهما إذا خالفا أمر الله في الأكل من تلك الشجرة فسيكونان من الظالمين ، والجنة ليست مقاماً للظالمين .

الجانب الخامس : وهو من الباب الذي قبله أيضاً ، وقد ذكره بعض المفسرين في توجيه العطف في آية البقرة بالواو ، وفي آية الأعراف بالفاء في قوله تعالى : (فكللا منها) ، فقالوا : إن هذا القول تكرر مرتين مرة قبل دخول الجنة ومرة بعد الدخول ، وذلك مبالغة في الإعذار وتوكيداً للإنذار ، وتحقيقاً لقول الله عز

(١) طه ١١٧ - ١١٩ .

(٢) طه ١١٧ .

وجل (ولا تقربا هذه الشجرة)^١ .

فهذه الجوانب تبين بجلاء الإعذار الإلهي لآدم عليه السلام ، فرغد العيش والتحذير من العدو ، وبيان العواقب الناتجة عن إطاعة العدو ، كلها توجيهات إلهية تضمن استمرارية الحياة الهائلة في الجنة ، ومخالفتها تعني انتهاء هذه الحياة وبداية مرحلة جديدة تكون فيها الشدة بدلاً عن الرخاء ، والشقاء بدلاً عن النعيم .

ومنهج الإعذار قبل العقاب منهج إلهي متبع مع ذرية آدم عليه السلام كما اتبع مع أبيهم من قبل وقد دلت عليه آيات كثيرة في كتاب الله .

(١) البقرة ٣٥ .

المطلب الثاني

الجوانب التي لم يذكرها القرآن .

من عادة القرآن الكريم أن يذكر في قصصه ما يكون موضعاً للعبارة والعظة وترك ما ليس له تعلق بذلك .

ومن غير المجدي أن يبحث المرء المواضع والجوانب التي لم يذكرها القرآن الكريم إذ لو تعلق بذلك أدنى فائدة لذكرت في كتاب الله أو في السنة .

وقد تعرض بعض المفسرين في قصص القرآن بصفة عامة لبعض الأمور التي لا طائل من وراء ذكرها .

ومن الأمور التي ذكرت في قصة آدم تعيين الشجرة التي نهي آدم عن الأكل منها ، هل هي الخنطة أم غيرها ؟

ومثل الجنة التي كان آدم فيها هل هي جنة الخلد أم غيرها ؟

وهل هي في الأرض أم في السماء ؟ وغير ذلك .

قال الشنقيطي في أضواء البيان : وقد قدمنا في سورة الكهف أن اختلاف العلماء في تعيين الشجرة التي نهي الله آدم عن الأكل منها اختلاف لا طائل تحته لعدم الدليل على تعيينها ، وعدم الفائدة في معرفة عينها أهـ .

المبحث الثاني

معصيتهما وتوبتهما

وفيه المطالب التالية :

- المطلب الأول : المعصية
- المطلب الثاني : التوبة
- المطلب الثالث : الدروس المستفادة من القصة

المطلب الأول : المعصية

مكث آدم عليه السلام في الجنة ما شاء الله له أن يمكث ذاكراً عهد الله تبارك وتعالى إليه بعدم الأكل من الشجرة ، وبعدم إطاعة إبليس ، يتمتع هو وزوجه بما أباح الله لهما فيها وينعما بحياة لا جوع فيها ولا ظمأ ، ولا عري فيها ولا شدة كما وعدهما الله تعالى إلى أن استطاع إبليس أن يزين لهما المعصية ويوقعهما في الخطيئة .

وقد تناول القرآن الكريم قصة الخطيئة في عدة مواضع :

ففي سورة البقرة قال تعالى (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه)^١ .

وفي سورة الأعراف قال تعالى : (فوسوس لهما الشيطان ليبيدي لهما ما وري عنهما من سوءاتهما وقال ما هنا كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة .)^٢ الآية

وفي سورة طه قال تعالى (فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى فأكلا منها فبدت لهما سوءتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه فغوى)^٣ .

فهذه الآيات بينت جوانب المعصية وملابساتها وطريقتها وسأبين ذلك

من خلال النقاط التالية :

(١) البقرة ٣٦ .

(٢) الأعراف ٢٠ - ٢٢ .

(٣) طه ١٢٠ - ١٢١ .

أولاً : وسيلة الإغواء •

يظهر من آيتي الأعراف وطه أنّ الشيطان وسوس إلى آدم وزوجه •
 والوسوسة : هي الحديث في اختفاء همساً ، سراراً من الصوت ،
 مأخوذة من الوسواس وهو صوت الحلي ، فشبه الهمس به •
 والوسواس : هو الشيطان كما في قول الله تعالى (من شر
 الوسواس الخناس) ^١ •

و وسوس له : أي فعل الوسوسة لأجله ، و وسوس إليه : أي
 ألقاها إليه ^٢ •

قال الراغب : الوسوسة الخطرة الرديئة ، أصله من الوسواس وهو
 صوت الحلي والهمس الخفي • اهـ ^٣

والوسوسة هي أحد الأساليب التي يستخدمها الشيطان في إغواء بني
 آدم ، وهي عبارة عن الخطرات الرديئة التي تنبعث في النفس فتصرف
 الإنسان إلى المعصية وتشغله عن الطاعة ، وهي سبيل الشيطان في إثارة
 الشكوك في صدور المؤمنين •

وقد بين القرآن الكريم أنّ الوسوسة هي الوسيلة التي تمكن بها إبليس من
 إغواء آدم عليه السلام •

وقد أورد المفسرون هنا إيراداً : وهو أنّ الله تعالى قد طرد إبليس من
 الجنة فكيف تمكن من الوصول إليهما والوسوسة لهما ؟

(١) الناس ٤ •

(٢) انظر : الكشف ٢ / ٧١ - ٧٢ ، المحرر الوجيز ٢ / ٣٨٤ ، القرطي ٧ / ١١٥ ، أضواء

البيان ٤ / ٥٧٣ •

(٣) مفردات الراغب ص ٥٢٢ •

وأجابوا عن ذلك بعدة إجابات منها^١ :

— أنه احتال حتى دخل الجنة في حية .

— وقال البعض : إنه وقف على باب الجنة وناداهما .

— وقال البعض : إن الله مكنه من دخول الجنة لا كرامة له ولكن

امتحاناً لآدم وزوجه .

— وقال البعض : إنه أوقع في نفسيهما ذلك من غير مخاطبة ولا

مشاهدة .

وهذا القول الأخير هو المتوافق مع معنى الوسوسة ، ومع قدرة الشيطان

التي يتمكن بها من إلقاء ما يشاء إلى سامعه ولو من بُعد .

أما القول الأول فمستنده ما رواه ابن جرير بسنده عن وهب بن منبه

في خبر طويل ذكر فيه قصة الحية .^٢

و وهب من مسلمة أهل الكتاب الذين أكثروا من رواية الإسرائيليات ،

وقد أمرنا ألا نصدقهم ولا نكذبهم حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا

تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم .^٣

هذا إذا لم يعارض هذا المروي ما في ديننا ، أما إذا عارضه فإنه

يرد ولا يقبل .^٤

(١) انظر : زاد المسير ١ / ٦٧ — ٦٨ ، المحرر الوجيز ٢ / ٣٨٤ ، ابن كثير ١ / ٨١ ، أضواء البيان ٥٧٤ / ٤ .

(٢) انظر : ابن جرير ١ / ٣٣٦ .

(٣) أخرجه البخاري في التفسير ، باب (قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ٠٠) ٨ / ١٧٠ ، حديث رقم ٤٤٨٥ .

(٤) انظر : المنار ٨ / ٣٥٦ .

قال الشيخ محمد أبوشهبة : وكل هذا من قصص بني إسرائيل الذي تزيدوا فيه واخلطوا حقاً بباطل ثم حملة عنهم ابن عباس وغيره من الصحابة والتابعين وفسروا به القرآن . اهـ

وأما كونه وقف على باب الجنة وناداهما فإن مثل هذا يحتاج إلى دليل من المعصوم لإثباته لأنه من الغيب الذي لا يعلم إلا عن طريق الرسل ، وكذلك القول الثالث يحتاج إلى دليل أيضاً .

فالقول الأخير هو المتبادر إلى الذهن وهو كونه وسوس إليهما مع كونه خارجاً عن الجنة ، وذلك بطرق وقدرات مكنه الله منها .

ومن المعلوم أن طبيعة الشيطان غير طبيعة الإنسان فلا تقاس قدرات الشيطان بقدرات الإنسان فهو يصعد إلى أجواز الفضاء ، ويغوص في أعماق البحار ، ويجري من الإنسان مجرى الدم .

فلا يبعد أن يتمكن الشيطان من إلقاء ما يريد إلقاءه عن بعد من غير أن يكون موجوداً بذاته .

ويقرب هذا من الأذهان ما نشاهده ونسمعه عن طريق الإذاعة والتلفاز حيث تكون صورة الإنسان وصوته حيث يكون الجهاز ، ولكن ذات الشخص المتكلم قد تكون على بعد آلاف الأميال .

(١) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير للدكتور محمد أبوشهبة ص ١٧٩ ، وانظر :

تفسير المنار ٣٥٦/٨ .

وقد رد الدكتور محمد حسين الذهبي على الطعون الموجهة إلى مسلمة أهل الكتاب في كتابه

التفسير والمفسرون ١٨٩/١ - ١٩٧ .

و أردت بهذا المثال أن أبين أن الوصول إلى الشخص من غير أن تكون معه ممكن ومشاهد في قدرة البشر ، و لا يبعد أن يكون الشيطان توصل إليهما بطريقة من طرقه — وهو الذي يملك الإمكانيات الهائلة في ذلك — من غير أن يكون داخلاً معهما في الجنة .

ثانياً : مدخل الإغواء .

عرف إبليس لعنه الله جانب الضعف البشري تجاه الشهوات منذ أن صور الله آدم عليه السلام ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه ، فجعل إبليس يطيف به ، ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك^١ .

قال الإمام النووي : الأجوف صاحب الجوف .

و قيل : هو الذي داخله خال .

ومعنى لا يتمالك : لا يملك نفسه و يجسها عن الشهوات .

و قيل : لا يملك دفع الوسواس عنه .

و قيل : لا يملك نفسه عند الغضب .

والمراد جنس بني آدم . اهـ^٢

و الآيات السابقة أظهرت أن إبليس دخل على آدم وزوجه من باب الشهوات ، فقد دخل عليهما من شهوتين لا يملكان دفعهما عن نفسيهما هما حب الخلود والملك الذي لا يبلى .

و يظهر أن المحاولات تكررت من إبليس في سبيل دفعهما إلى ارتكاب

المحذور .

(١) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب خلق الإنسان خلقاً لا يتمالك ٤ / ٢٠١٦ ،

حديث رقم ٢٦١١ .

(٢) شرح مسلم للنووي ١٦ / ١٦٤ .

ففي آية سورة طه يقف في موقف الناصح لهما الدال لهما على الخير
(هل أدلك على شجرة الخلد و ملك لا يبلى) .

وفي آية سورة الأعراف يبرر لهما العلة من النهي تبريراً يهون الإقدام على
ارتكاب المحذور (ما هما كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين
أو تكونا من الخالدين) فهو تبرير مشوب بدغـدغة العواطف
وإثارة الشهوات .

ثم يقسم لهما إنه لمن الناصحين مستغلاً تصورهما لعدم إمكان الإقسام
على الله كذباً (وقاسمهما إني لكما لمن الناصحين) .
و هذه المحاولات المختلفة تبين الإصرار الشيطاني على إغواء بني آدم ،
فهو يدخل عليهم من كل باب ، ويسلك معهم كل سبيل يمكن أن يؤدي بهم
إلى المعصية .

ثالثاً : المعصية .

بعد هذه المحاولات المتكررة استطاع إبليس أن يوجد قناعةً ما في نفس
آدم للأكل من الشجرة وفي ذلك يقول الله تعالى (فدلها بغرور) .
و دلى الشيء تدلية : أرسله إلى الأسفل رويداً رويداً ، والمعنى : فترلها
إلى الأكل من الشجرة .^١

قال ابن جرير : فخدعهما بغرور ، يقال : ما زال فلان يدلي فلاناً بغرور
بمعنى : ما زال يخدعه بغرور و يكلمه بزخرف من القول باطل . أهـ^٢

قال الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره للآية : أي فما زال يخدعهما
بالتريغيب في الأكل من الشجرة ، و القسم على أنه ناصح بذلك لهما به حتى

(١) انظر : الكشاف ٢ / ٧٣ ، البيضاوي ١ / ٣٣٤ - ٣٣٥ ، المنار ٨ / ٣٤٩ .

(٢) ابن جرير : ٨ / ١٨٦ .

أسقطهما و حطهما عمّا كانا عليه من سلامة الفطرة و طاعة الفاطر بما غرهما به .
 والغرور : الخداع بالباطل، وهو مأخوذٌ من الغرة (بالكسر) ، و
 الغرارة (بالفتح) وهما بمعنى الغفلة وعدم التجربة كما حققناه بالتفصيل في
 تفسير (٦ : ١١١) (يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) و
 استشهدنا عليه بخداع الشيطان لآدم و حواء في مسألتنا .

و قيل : دلاهما حال كونهما متلبسين بغرور .

و الأول أظهر .

و الظاهر أنهما اغترا و انخدعا بقسمه ، و صدقا قوله لاعتقادهم أن
 أحداً لا يحلف بالله كاذباً .

و استنكر بعضهم أن يكونا صدقاه ، و استكبر أن يقع ذلك منهما ،
 وزعم أن تصديقه كفر ، و رجح هؤلاء أن يكون الغرور بتزين الشهوة ، فإن
 من غرائز البشر حب التجربة و استكشاف المجهول و الرغبة في الممنوع ،
 فجاء الوسواس نافخاً نار هذه الشهوات الغريزية ، مذكياً لها ، مثيراً للنفس بما
 إلى مخالفة النهي حتى نسي آدم عهد ربه . أهـ^١

و ما ذكره الشيخ من استنكار البعض لتصديقهما لإبليس هو الظاهر
 من حالهما ، و إنما كان أكلهما من الشجرة رغبةً منهما في اكتشاف
 المجهول ، ولما استقر في النفوس من حب الممنوع ، فكان الأكل
 كالمقدمة لتصديقه و لكنهما لم يصدقاه قطعاً ، و هو إنما تمكن من إغواءهما
 بتزين الشهوات لهما حتى نسيا عهد الله و أقداما على الممنوع .^٢

(١) المنار ٨ / ٣٤٩ .

(٢) انظر : الرازي ٧ / ٣٢ .

رابعاً : النتائج •

ترتب على أكل آدم من الشجرة نتائج يمكن تقسيمها إلى نوعين :

• النوع الأول : نتائج فورية •

• النوع الثاني : نتائج متأخرة •

فالنوع الأول : النتائج الفورية •

و المقصود بها النتائج التي حدثت بمجرد وقوع المعصية و قبل حصول

التوبة •

فبمجرد أن ذاق آدم و زوجه الشجرة ظهرت نتيجة المعصية و هي

انكشاف السوءات ، وهي النتيجة الأولى •

• قال تعالى (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما)^١ •

و قال تعالى (فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما)^٢ •

و معنى بدت لهما سوءاتهما : أي تهافت عنهما اللباس فظهرت لهما

عوراتهما^٣ •

و السوأة : الفرج و الدبر و يشبه أن يسمى بذلك لأن منظره يسوء أو

لأن انكشافها يسوء الإنسان •^٤

و الظاهر من الآيات أن بدو العورات كان حقيقياً وليس من قبيل المجاز

كما قال البعض^٥ وزعموا أن المعنى : انكشاف معاني السوءات و ظهور ما

يسوءهما ، لأن المعاني كانت معلومة عند آدم بمقتضى تعليم آدم الأسماء كلها •

(١) الأعراف ٢٢ •

(٢) طه ١٢١ •

(٣) انظر : الكشاف ٢ / ٧٣ •

(٤) انظر : المحرر الوجيز ٢ / ٣٨٤ ، أضواء البيان ٤ / ٥٧٨ •

(٥) انظر : المحرر الوجيز ٢ / ٣٨٤ •

و لأنّ انكشاف معنى السوأة لهما لا يفيد إنكاراً عليهما بقدر ما هو زيادة في العلم كان لا بد لهما من معرفتها ، فهذا المعنى أقرب للثواب منه للعقاب .

و يبدو و العلم عند الله أنّ بدو السوءات كان علامة للذنب و عقوبة عليه ، و لذلك كان هدف إبليس أن يبدي لهما ما وُري عنهما من سوءاتهما كما قال تعالى (فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما وُري عنهما من سوءاتهما)^١ ، و قال تعالى (يا بني آدم لا يفتنكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة يترع عنهما لباسهما ليريهما ما وُري عنهما من سوءاتهما)^٢

و في هذه الآية الأخيرة أضاف نزع اللباس إلى إبليس و إن لم يتول ذلك لأنه كان بسبب منه كما تقول : أنت فعلت هذا ، لمن حصل عنه ذلك الفعل بسبب و إن لم يباشره ، و لما كان نزع اللباس عنهما بوسوسة الشيطان و غروره أسند إليه^٣ .

فالحاصل أنه بمجرد أن ذاق آدم و زوجته الشجرة ، و خالفا الأمر ، ظهرت النتيجة و هي انكشاف السوءات ، فسارع آدم و زوجته إلى التستر بأشجار الجنة ، و أخذوا من أوراقها ليصنعا لهما ساتراً يستر سوءاتهما .

قال تعالى (وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة)^٤

و معنى طفقا أي : شرعا في الفعل .

و الخصف : أن يجعل عليهما خصفة ، و هي أوراق ، و المعنى : أنهما

(١) الأعراف ٢٠ .

(٢) الأعراف ٢٦ .

(٣) انظر : ابن جرير ١ / ٣٤٢ ، الرازي ٧ / ٣٩ .

(٤) الأعراف ٢٢ ، طه ١٢١ .

أخذنا يقطعان الورق ويلزقانه بعورتهمما ليستراها ، مأخوذٌ من خصف النعل :
إذا جعله طبقةً فوق طبقة^١ .

و أما النتيجة الفورية الثانية فهي : التوبيخ الإلهي لهما •
و في ذلك يقول الله تعالى (و ناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما
الشجرة و أقل لكما إن الشيطان لكما عدوٌّ مبين)^٢
و هذا التوبيخ حصل لهما من جهتين :

الأولى : بسبب مخالفة أمر الله بالأكل من الشجرة •

الثانية : بسبب إطاعة الشيطان مع أن الله تعالى قد حذرهما منه •

و النتيجة الثالثة : أنه بمجرد وقوع المعصية خرج آدم من الهداية إلى الغواية •

قال تعالى (فعصى آدم ربه فغوى)^٣

و الغواية هنا ليست مطلقة بل هي مقيدةٌ بمحل المعصية ، فيكون المعنى :
غوى في إقدامه على المحذور •

قال الشنقيطي في أضواء البيان : فغوى : الغي : الضلال ، و هو
الذهاب عن طريق الصواب •

فمعنى الآية : لم يطع ربه فأخطأ طريق الصواب بسبب عدم الطاعة^٤ . أهـ
و قد رد رحمه الله على من قال : إن معنى قوله (فغوى) : فسُد
عليه عيشه بتزوله إلى الدنيا بأنه خلاف الظاهر •

(١) انظر : مفردات الراغب ص ١٤٩ ، المحرر الوجيز ٢ / ٣٨٦ ، فتح القدير ٢ / ١٩٥ •

(٢) الأعراف ٢٢ •

(٣) طه ١٢١ •

(٤) أضواء البيان ٤ / ٥٨٢ — ٥٨٣ •

و كذلك قول من قال : إنَّ معناه : بشم من كثرة الأكل ، ونقل عن
الزمخشري أنه قال في هذا التفسير الأخير : إنه تفسير خبيث ^١ .

النوع الثاني : نتائج متأخرة .

و نقصد بها النتائج التي حدثت بعد التوبة .

فالنتيجة الأولى : هي الخروج من الجنة .

و قد سبق أن الله تعالى حذرهما من أن يخرجهما الشيطان من الجنة ، و

لكن الشيطان استطاع أن يخرجهما من الجنة .

قال تعالى (فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه) ^٢

و كانت هذه النتيجة من أصعب النتائج التي نزلت بآدم و هي الخروج
من النعيم الذي لا شقاء فيه و لا تعب إلى الحياة التي لا تقوم إلا بالكد
والتعب ، و التي يعتمد الإنسان فيها على نفسه في كل شيء ، و هذا هو
الشقاء المراد بقوله تعالى (فتشقى) ^٣ .

و في هذه النتيجة لام موسى آدم عليهما السلام كما في الحديث عن
النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : احتج آدم و موسى ، فقال له موسى :
أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة .

قال له آدم : يا موسى اصطفاك الله بكلامه وخط لك بيده ، أتلومني
على أمر قدره الله علي قبل أن يخلقني بأربعين سنة ؟

(١) انظر : أضواء البيان ٤ / ٥٨٢ — ٥٨٣ ، الكشاف ٢ / ٥٥٧ .

(٢) البقرة ٣٦ .

(٣) انظر : معاني القرآن للفراء ٢ / ١٩٣ ، المحرر الوجيز ٤ / ٦٧ ، البيضاوي ٢ / ٦٠ ، فتح

القدير ٣ / ٣٨٩ ، أضواء البيان ٤ / ٥٦٩ .

فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى . ثلاثاً^١ .

النتيجة الثانية : الإهباط إلى الأرض .

قال تعالى (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو و لكم في الأرض مستقر
و متاع إلى حين)^٢

و تختلف هذه النتيجة عن التي قبلها في أن الإخراج من الجنة لا يستلزم
مفارقة الملائة الأعلى و الهبوط من السماء ، أما هنا فقد أهبطا من السماء إلى
الأرض ، وشتان ما بين العيش بين الملائة الأعلى و بين العيش في الأرض .

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب القدر ، باب تحاج آدم وموسى عند الله ١١ / ٥٠٥ ،

حديث رقم ٦٦١٤ .

(٢) الأعراف ٢٤ .

المطلب الثاني : التوبة •

أخبر المولى تبارك و تعالى أن آدم عليه السلام و زوجته عندما حصل
منهما الذنب و وقعا في الخطيئة سارعا بالتوبة إليه ، و الاستغفار من الذنب •
قال تعالى (قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن من
الخاسرين)^١ •

فاعترفا بالخطيئة ، و أقبلوا على الله في خضوع وانكسار ، فطلبوا منه
المغفرة و الرحمة ، والعفو عن الزلة ، فقبل الرحمن توبتهما و غفر لهما •
قال تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو
التواب الرحيم)^٢ •

قال أهل العلم : هذه الكلمات هي ما ورد في سورة الأعراف في قوله
تعالى (قالوا ربنا ظلمنا أنفسنا و إن لم تغفر لنا و ترحمنا لنكونن
من الخاسرين)^٣ •

فالله سبحانه علمهما تلك الكلمات التي يتوب بها عليهما ، وهذا من
فضله و رحمته بعباده و حبه لتوبة العاصي ، و لذلك ختم الآية بقوله (إنه هو
التواب الرحيم) •

و هذه الكلمات من أعظم ما يستغفر الله به لأنها من تعليم الله ، وفيها
اعتراف بالذنب — و هو أمر محبوب جداً إلى الله — و استغفار واسترحام
و خضوع وانكسار ، وتبري من الحول و القوة ، و إيقان بخسارة العاقبة إن
لم تتم المغفرة ، و كل هذه الأمور محبوبة إلى الله ، و سبب في حصول

(١) الأعراف ٢٣ •

(٢) البقرة ٣٧ •

(٣) انظر : ابن جرير ١ / ٣٥٠ - ٣٥١ ، أضواء البيان ٤ / ٥٨٦ •

المغفرة إن صدرت من قلب منيب .

و ترتب على هذه التوبة المفعمة بالندم و الحسرة اجتناء الله تعالى لآدم

بعد التوبة عليه و هدايته .

قال تعالى (ثم اجتباه ربه فتاب عليه و هدى)^١

قال بعض أهل العلم : الاجتناء هنا النبوة .^٢

و الهداية المقصود بها هنا : الهداية إلى صالح الأعمال و الأقوال ، و هداه

الله إلى حفظ التوبة و غيره من أسباب العصمة و التقوى .^٣

(١) طه ١٢٢ .

(٢) انظر : القرطبي ١١ / ١٧٠ - ١٧١ ، فتح القدير ٣ / ٣٩٠ .

(٣) انظر : الكشاف ٢ / ٥٥٧ .

المطلب الثالث : الدروس المستفادة من القصة .

أنزل الله سبحانه و تعالى القرآن الكريم هداية للناس ، يدهم على طريق الخير ، و يحذرهم من طريق الشر ، و ذلك إما بالتوجيه المباشر أو بقص القصص أو بضرب الأمثال أو بغير ذلك من الأساليب القرآنية .

و أسلوب القصص القرآني من الأساليب المؤثرة في الناس ، وفي إيضاح الدعوة و نشرها ، و في تثبيت قلوب المؤمنين ، و ذلك لما في هذا الأسلوب من نماذج صادقة للمؤمنين السابقين ، و بيان أحوالهم و مآلهم ، حتى تؤخذ العبرة و العظة من تلك القصص .

قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه و تفصيل كل شيء و هدى و رحمة لقوم يؤمنون)^١ .

و قصة معصية الأبوبين و توبتهما فيها عبرٌ عظيمة و دروس مستفادة كثيرة تظهر لمن قرأ القرآن قراءة التأمل المتدبر .

و سأبين بعون الله في هذا المطلب بعض الدروس المستفادة من القصة :

الدرس الأول : القصة أنموذج للمعاصي الحاصلة من بني آدم .

احتوت قصة آدم على مفردات المعصية من الأسباب و الدوافع و ما يسبقها و ما يلحقها ، فبينت مسار الذنب من قبل وقوعه إلى ما بعد الوقوع .

فما حدث لآدم هو ما يحدث لبنيه من بعده .

فأول الأمر حصول الإنعام الإلهي بكافة أنواع النعم التي لا تعد و لا تحصى

ليكون الإنعام مدعاة لشكر المنعم المتفضل .

(١) يوسف ١١١ .

ثم يأتي بعد ذلك الابتلاء بالأمر والنهي حتى يعلم المؤمن من الكافر ، ويكون هذا الابتلاء مقروناً بالتحذير من المعصية و عواقبها ، و من الشيطان وتربصه ببني آدم .

ثم يأتي بعد ذلك تزين الشيطان المعاصي و الشهوات لابن آدم بطرقه المختلفة .

• ثم تحدث الخطيئة ومخالفة الأمر و النهي .

• ثم تأتي العواقب العاجلة .

• ثم تأتي التوبة التي تفضل الله سبحانه بفتح بابها للعاصي كي يقلع عن الذنب .

• ثم بعد ذلك قبول توبة التائبين الصادقين في توبتهم .

وهذا المسار هو واقع معاش يعيشه أفراد البشر كما عاشه أبوهم من قبل إلا أنهم يختلفون في التعامل معه بين سائر على نهج أبيه في تدارك الخطأ والإقلاع عنه وبين مقتف لأثر إبليس في التمادي في الباطل والإصرار عليه .

الدرس الثاني : الخطأ و ارد على بني آدم

إنَّ الله تعالى خلق بني آدم ، وركب فيهم من الشهوات ما لا يستطيعون دفعه ، فشهوة الطعام والشراب وشهوة الجنس وحب المال وغير ذلك من الشهوات موجودة فيهم إلا إنها هذبت بأوامر الشرع ، ولكن في لحظات الغفلة والضعف قد يجنح الإنسان عن منهج الله مع ما أوتي من العلم .

فآدم عليه السلام علمه الله تعالى الأسماء كلها ، وقربه منه وكرمه وحصل له من التشريف والتكريم ما لم يحصل لغيره من البشر وأسكنه جنته ، وكلفه بأمر لا يشق عليه وهو الامتناع عن الأكل من شجرة واحدة مع إباحة بقية الأشجار ولكن الطبيعة البشرية في الاستشراف على المجهول والرغبة في الممنوع خاصة إذا وافق

شهوات النفس جعلت آدم ينسى عهد الله تعالى مع ما أوتيته من العلم فأقدم على المعصية وقد كان أولى الناس بالابتعاد عنها لعلمه بما تسببه من عواقب .

وفي هذا دليل على أن الخطأ وارد على البشر مهما أوتوا من العلم وفي هذا المعنى يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين التوابون ^١ .

ولكن التفاوت بين الناس يكون فيما بعد الخطيئة .

فأهل العلم بالله أسرع الناس إنابةً إليه ، و أكثرهم ندماً على الذنب ، لأنهم أكثر الناس خشيةً لله كما قال الله عز وجل (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ^٢ .

و كان آدم و زوجه من أعلم الناس بالله ولذلك فقد بادرا إلى التوبة وسارعا إليها ، وأما غيرهم فهم متفاوتون بحسب أحوالهم ، ويقل ذلك ويكثر بحسب تمكن الإيمان في القلوب ، فمن كان من أهل الدين و الاستقامة فهو يسلك نهج أبويه في التوبة من الذنوب و الإقلاع عنها والندم على فعلها ، وقد يقل ذلك أو ينعدم بحسب الأحوال .

و قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك عند تقسيمه للقلوب حيث قال : تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً ، فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء ، وأى قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء ، حتى تصير القلوب على قلبين ، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السموات و الأرض ، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً و لا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه ^٣ .

(١) سبق تخريجه ص ٤٨ .

(٢) فاطر ٢٨ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الإيمان ، باب بيان أن الإسلام بدأ غريباً ١ / ١٢٨ ، حديث رقم ١٤٤٠ .

و معرفة أنّ الخطأ واردٌ على البشر ذات شقين : إيجابي ، وسلي .
 أما الإيجابي : فهو أن تلك المعرفة تعطي الإنسان ارتياحاً نفسياً لمعرفة أنه
 الإنسان معرضٌ للذنب و ليس معصوماً منه ، وأنّ الطريق مفتوحٌ لاستدراك
 الخطأ بالتوبة والإنابة وعدم الإصرار على الذنب .

إنّ هذا الشعور يدفع الإنسان إلى الأفضل لكونه لم يجعل الذنب عائقاً يمنعه من
 بقية الطاعات ، ولكونه يجعل من الذنب طريقاً إلى الرفعة عند الله و سبباً في نيل
 محبته ، قال تعالى (إنّ الله يحب التوابين ويحب المتطهرين)^١ .

و أما الجانب السلبي : فهو ذو شقين :

الأول : ما يتمسك به أهل الأهواء من اعتبار تلك المعرفة مبرراً لهم في الإقدام
 على الذنب ، و الاحتجاج بأنّ ذلك من طبع الإنسان و فطرته .

و هؤلاء يهملون جانب التوجيه الإلهي للبشر عند حصول الذنب .

الثاني : الشعور بعقدة الذنب ، والإحباط المصاحب لها و بالتالي الانتكاس عن

طريق التوبة .

فالنفس مكبلّة بالذنب ، وبدلاً من سعيها في فك تلك الأغلال بالتوبة والإنابة

تزيد من الأغلال التي تعوقها عن طريق الخلاص منها .

وهذا الصنف أهمل جانب التوجيه الإلهي كسابقه .

الدرس الثالث : الشيطان متربص

الشيطان في معركةٍ دائمةٍ مع الإنسان ، وهو يدركها تماماً .

أما الإنسان فقد يغفل عن تلك الحقيقة فيسلم قياده لعدوه .

(١) البقرة ٢٢٢ .

فالشيطان متسلطٌ على بني آدم بالوسوسة و تزيين المعاصي و تهوينها في قلوبهم ، وهو في ذلك لا ييأس ولا يمل ولا يتعب ، يحاول ويكرر المحاولة عند فشله ، ويدخل من مداخل شتى ، ويستخدم أساليب متنوعة حتى يحصل له مراده و تتحقق غايته .

فإذا عرف الإنسان طبيعة عدوه ، وتربصه به ، و أدرك طبيعة ذلك الصراع ، أعطى الأمر حقه من الأهمية ، و أعد العدة لمواجهة عدوه .

الدرس الرابع : الذنب قد يكون سبباً لرفعة الإنسان عند ربه .

و ذلك إذا تاب الإنسان منه وأقنع عنه و آدم عليه السلام لما تاب اجتباه ربه و هداه ، قال تعالى (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) ^١ .
و هكذا ذريته من بعده من تاب من ذنبه بدل الله سيئاته حسنات ، و كان الذنب سبباً في رفعة درجته .

قال تعالى (و الذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر و لا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق و لا يزنون و من يفعل ذلك يلق آثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة و يخلد فيه مهاناً إلا من تاب و آمن و عمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات و كان الله غفوراً رحيماً) ^٢ .

و هكذا فإن دين الله يدعم المرء ليكون إيجابياً حتى عند حصول الذنب منه حتى لا يكون ذلك عائقاً له عن مواصلة سيره إلى ربه تبارك و تعالى .

الدرس الخامس : حلم الله على عباده .

الله سبحانه و تعالى قادرٌ على إنزال العقوبة الفورية بالعاصي وهذا سيؤدي إلى

(١) طه ١٢٢ .

(٢) الفرقان ٦٨-٧٠ .

انقراض الناس لأن كل البشر خطاؤون .

قال تعالى (و لو يؤاخذ الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجلهم لا يستتخرون ساعة ولا يستقدمون)^١ .

و لكنه سبحانه رحيم بعباده ، يحب لهم الخير و يكره لهم الكفر ، فترك لهم فرصة ليتوبوا و ينيبوا وهو يقبلها منهم .

قال تعالى (وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما تفعلون)^٢ .

فعلى الإنسان أن يستغل فرصة الإمهال للإقبال على ربه و الاعتراف بذنبه و ترك التمادي فيه والإصرار عليه .

الدرس السادس : المعاصي سبب زوال النعم

المعصية شؤم على الإنسان ، و بالتالي على المجتمع ككل ، و من السنن الإلهية أن المجتمع الذي تكثر فيه المعاصي يكون عرضةً لزوال النعم عنه .

قال تعالى (و ضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون)^٣ .

و إبليس لما عصى ربه بترك السجود كانت النتيجة المباشرة إخراجه من الجنة مذعوماً مدحوراً .

(١) النحل ٦١ .

(٢) الشورى ٢٥ .

(٣) النحل ١١٢ .

فبدل النعيم بالشقاء ، والعزة و الكرامة بالمذلة و المهانة .

و آدم لما عصى ربه كانت العاقبة إخراجهم مما كان فيه من النعيم .

و كم قص الله علينا في القرآن من قصص الذين مكناهم في الأرض ثم أزال

ملكهم و قوتهم بسبب ذنوبهم .

قال تعالى (ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن مكناهم في الأرض ما لم

نمكن لكم و أرسلنا السماء عليهم مدراراً و جعلنا الأنهار تجري من تحتهم

فأهلكناهم بذنوبهم و أنشأنا من بعدهم قرناً آخرين)^١ .

و هذا الدرس بابٌ متسع جداً لمن أراد أن يبحثه ، و حسبي هنا الإشارة إليه

فقد اعتنى به العلماء و وضحوه و بينوا الآثار المترتبة على المعاصي من جميع

الجوانب ، و من هؤلاء العلماء الإمام ابن القيم في كتابه القيم (الجواب الكافي لمن

سأل عن الدواء الشافي) .

الدرس السابع : الفطرة البشرية تأبي التعري و الخلاعة .

ويظهر ذلك من موقف الأبوين عندما تهاقت عنهما لباسهما و انكشفت

سوءاتهما سارعا إلى تغطيتها من ورق الجنة .

قال تعالى (فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما و طفقا يخصفان عليهما

من ورق الجنة)^٢ .

قال القرطبي : و في الآية دليل على قبح كشف العورة .^٣

وقال الرازي : وفيه دليل على أن كشف العورة قبيح من لدن آدم ، ألا ترى

(١) الأنعام ٦ .

(٢) الأعراف ٢٢ .

(٣) القرطبي ٧ / ١١٧ .

أهـ .
 .

قال سيد قطب : لقد شعرا الآن أن لهما سوآت تكشفت لهما بعد أن كانت
 مواراة عنهما فراحا يجمعان من ورق الجنة ويشبكانه بعضه في بعض (يخلصان)
 ويضعان هذا الورق المشبك على سوآتهما مما يوحي بأنها العورات الجسدية التي
 ينجل الإنسان فطرة من تعريها ، ولا يتعري و ينكشف إلا بفساد في هذه الفطرة
 من صنع الجاهلية^٢ . أهـ

وما يرى في عصرنا هذا من التكشف والعري والدعوة إليه وإقامة الأندية له
 يدل على فساد عظيم في فطر من يفعله .

ولذلك من الواجب علينا أن نسعى جاهدين للمحافظة على أبناء أمتنا وذلك
 بتلقينهم منذ صغرهم معاني العفاف والحشمة ونبين لهم أخطار التكشف والعري ،
 ويركز في ذلك على البنات خاصة ويتعاون الجميع على تحقيق الهدف في البيت
 والمدرسة والشارع حتى نقي أبناءنا ويلات الفجور والخلاعة ونحمي مجتمعنا من
 أحد أهم عوامل الاهتيار .

(١) الرازي ٧ / ٣٤ .

(٢) الظلال ٣ / ١٢٦٩ .

المبحث الثالث

- الإنسان في الأرض • والحكمة من ذلك •
و فيه مطلبان :
- المطلب الأول : إهباط آدم وزوجه إلى الأرض •
- المطلب الثاني : الحكمة من إهباطهما •

المطلب الأول :

إهباط آدم وزوجه إلى الأرض

لما عصى آدم وزوجه ربهما و وقع منهما ما وقع كان من العقوبات التي نزلت بهما أن أخرجهما الله من الجنة و أهبطهما إلى الأرض .
قال تعالى (قلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو و لكم في الأرض مستقر و متاع إلى حين)^١ .

و قال تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)^٢ .

و قال تعالى (قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو و لكم في الأرض مستقر و متاع إلى حين)^٣ .

وقال تعالى (قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى و من أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً و نحشره يوم القيامة أعمى)^٤ .

ويلاحظ في الآيات أن الخطاب في سورتي البقرة والأعراف كان بصيغة الجمع (اهبطوا) ، وفي سورة طه بصيغة التثنية (اهبطا) وعلى جميع الأوجه فالمراد آدم وزوجه وإبليس . ورجحه ابن القيم^٥ .

فأما خطاب الجمع فباعتبار ثلاثتهم .
وأما خطاب التثنية فباعتبار أنهم فريقان فريق يضم آدم وزوجه

(١) البقرة ٣٦ .

(٢) البقرة ٣٨ .

(٣) الأعراف ٢٤ .

(٤) طه ١٢٣ — ١٢٤ .

(٥) انظر : مفتاح دار السعادة ١ / ١٥ — ١٦ .

وفريق يضم إبليس وحزبه .

أو باعتبار أن الخطاب لآدم وزوجه ابتداءً ثم لما قال لهما (جميعاً) دخل معهما إبليس كما قال ابن عطية^١.

و أما من أدخل الحية معهم كالقرطبي و ابن عطية وغيرهما^٢ فقد بينت سابقاً أن الاعتماد في قصة الحية على الإسرائيليات المنقولة عن أهل الكتاب ، و لا يصلح ما هذا سبيله أن يدخل في تفسير كتاب الله .

قال ابن القيم : قيل إنه خطاب لهم وللحية و هذا يحتاج إلى نقل ثابت إذ لا ذكر للحية في شيء من قصة آدم و إبليس . أهـ^٣
و الآيات السابقة قد اشتملت على عدة أمور :

الأمر الأول : أن الله تعالى قد هيأ الأرض ليعيش فيها آدم و ذريته المدة التي كتبها الله تعالى لهم .

قال تعالى (و لكم في الأرض مستقر و متاع إلى حين)^٤.

و المستقر يكون بمعنى الاستقرار كقوله تعالى (إلى ربك يومئذ المستقر)^٥ ، و يكون بمعنى المكان الذي يستقر فيه كقوله تعالى (أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً و أحسن مقيلاً)^٦ . أهـ^٧

قال الرازي : و الأكثر حملوا قوله تعالى (و لكم في الأرض مستقر) على المكان ، و المعنى : أنهما مستقركم حالتي الحياة و الموت . أهـ^٨

(١) انظر : المحرر الوجيز ٤ / ٦٨ .

(٢) انظر : المحرر الوجيز ٤ / ٦٨ ، القرطبي ١ / ٢١٨ .

(٣) مفتاح دار السعادة ١ / ١٥ .

(٤) البقرة ٣٦ .

(٥) القيامة ١٢ .

(٦) الفرقان ٢٤ .

(٧) انظر : الرازي ٢ / ٢٧ .

(٨) الرازي ٢ / ٢٧ — ٢٨ .

و نقل ابن جرير عن ابن عباس أنه فسر المستقر بالقبور^١ .
و المتاع : ما يستمتع به من أكل و شرب و لبس و حياة و حديث و
أنس و غير ذلك^٢ .

ولا يكون الاستقرار و لا المتاع إلا إذا كان المكان مهياً لذلك .
و قوله تعالى (إلى حين) : أي مدة محددة .
و الحين : وقت بلوغ الشيء و حصوله وهو مبهم المعنى ويتخصص
بالمضاف إليه نحو قوله تعالى (و لات حين مناص)^٣ .^٤
و اختلف العلماء في تحديد الحين :

فقال بعضهم : هو الموت .
و قال آخرون : قيام الساعة .
و مآل القولين واحد ، لأن الموت نهاية للإنسان و الساعة نهاية للدنيا
كلها .

و تقيد الاستقرار و المتاع بكونه إلى حين فيه تنبيه للآدميين بأن الدنيا
وإن كانت ذات بهجة و متاع إلا أنها ذات تحول و انقطاع ، فلا يصح الركون
لبهجتها ، و الرضى بزهرتها .

بخلاف الجنة التي لا ينقطع نعيمها و لا ينقص فأكلها دائم و ظلها .
و من وزن بين الأمرين طلباً للنجاة اختار بلا تردد الآخرة و سعى لها
سعيها .

(١) انظر : ابن جرير ١ / ٣٤٥ .

(٢) انظر : القرطبي ١ / ٢١٩ ، ابن جرير ١ / ٣٤٦ .

(٣) ص ٣ .

(٤) انظر : مفردات الراغب ص ١٣٨ .

(٥) انظر : ابن جرير ١ / ٣٤٦ .

الأمر الثاني : أن الله تعالى بين أن لنا أعداءً يجب الحذر منهم .

قال تعالى (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو) .

فميدان الحياة ميدان صراع بين أعداء ألداء ، وهذه حقيقة يجب على الإنسان أن يدركها ويستوعبها جيداً ، ويستعد لها استعداداً جيداً ، وذلك يقتضي معرفة العدو ، و معرفة أساليبه و خططه و مداخله ، وأسلوب مقاومته وصدده .

الأمر الثالث : أن الله تعالى لم يترك الإنسان لاجتهاده في معرفة الهدى والضلال ، بل تكفل سبحانه ببيان ذلك له عن طريق الرسل الكرام (فإما يأتينكم مني هدى) فالهدى يأتي من عند الله تبارك وتعالى و الإنسان مطالب باتباع ذلك الهدى ليفوز برضوان الله تعالى و يكسب المعركة التي يخوضها ضد عدوه .

الأمر الرابع : أن الله سبحانه بين عاقبة ذلك الابتلاء ، و هي أن من اتبع هدى الله و ما جاء من عند الله عن طريق الرسل فلن يضل ولن يشقى و لا خوف عليه و لا حزن ، و أما من أعرض عن ذلك الهدى فإن له معيشة ضنكاً و يحشر يوم القيامة أعمى ثم يصير إلى عذاب الله الذي هو أشد وأبقى .

قال تعالى (قلنا اهبطوا منها جميعاً فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)^١ .

وقال تعالى في سورة طه (فإما يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا يضل و لا يشقى ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً و نحشره يوم القيامة أعمى قال رب لم حشرتني أعمى و قد كنت بصيراً قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى وكذلك نجزي من أسرف و لم يؤمن

بآيات ربه و لعذاب الآخرة أشد وأبقى^١ .

فالوصية الإلهية في هذه الآيات بينت للإنسان ما يجب أن يكون عليه و عواقب ذلك ، وما يجب أن يتعد عنه و عواقب ذلك .

وبالنظر إلى الآيات السابقة في هذا الموضوع يتبين بوضوح الإعذار الإلهي لبني آدم ، فقد حذرهم من إبليس وعدواته ، و تكفل لهم ببيان الهدى الذي ينجون به من الضلال ، و بين لهم عواقب الطاعة و عواقب المعصية فلا يبقى بعد ذلك حجة للناس على الله تبارك و تعالى .

وهكذا هبط الإنسان إلى الأرض ليتحمل الأمانة، وليدخل في لجة الامتحان الذي يحدد مصيره الأخروي ، ولكنه دخل مزوداً بوسائل السلامة والنجاة .

وقد اختلف المفسرون في المكان الذي أهبط فيه آدم و زوجته عليهما السلام^٢ :

فالأكثر على أنه أهبط بالهند و زوجته بجدة .
و ذكر بعضهم أنه أهبط بين مكة والطائف بمكان يقال له : دحنا .
و ذكر البعض أنه أهبط بالصفاء و زوجته بالمروة .
والخلاف في ذلك لا طائل وراءه وهو من جنس الخلاف في نوع الشجرة التي أكل منها آدم الذي سبق التنبيه عليه .

قال ابن كثير : و قد ذكر المفسرون الأماكن التي هبط فيها كل منهم ، ويرجع حاصل تلك الأخبار إلى الإسرائيليات و الله أعلم بصحتها ، و لو كان في تعين تلك البقاع فائدة تعود على المكلفين في أمر دينهم أو دنياهم لذكرها الله تعالى في كتابه أو رسوله صلى الله عليه وسلم . أهـ^٣

(١) طه ١٢٣ - ١٢٧ .

(٢) انظر : ابن كثير ١ / ٨٠ .

(٣) السابق .

و ما ذكره ابن كثير رحمه الله هو قاعدة فيما لم يرد الدليل بتعيينه ، فكل ما لم يرد الدليل بتعيينه فلا حاجة و لا فائدة في معرفة عينه والله أعلم .

المطلب الثاني :

الحكمة من إهباط آدم و زوجته إلى الأرض .

إنَّ إهباط آدم و زوجته عليهما السلام إلى الأرض كان بداية الوجود البشري على وجه الأرض ، وهو أمر أرادَه اللهُ تعالى وقدره لحكم عظيمة .
وكل أفعال الله مقرونة بالحكمة و قد يدرك الإنسان بعض تلك الحكم وهذا لا يعني أنه تمكن من إدراكها كاملة بل قد يظهر للبعض من وجوه الحكم ما لا يظهر للآخرين ، و كل ذلك بحسب توفيق الله للعبد في اقتناص تلك الحكم .

وقد لا يدرك الإنسان حكمة فعل من أفعاله سبحانه فعليه حينئذٍ أن يتهم عقله ، ويعرف قصوره ، ويسعى لتدارك هذا القصور حتى يدرك الحكمة من أفعال الله تعالى ، فإذا عجز عن ذلك آوى إلى ركن شديد هو إيمانه العميق بأن الله حكيم في أفعاله .

وقد نظرت في كتب التفسير التي بين يدي لعلني أظفر في موضوعي هذا بما يشفي الغليل فلم أظفر إلا بالترر اليسير ، ثم وقفت على كلام نفيس للإمام ابن القيم رحمه الله — لم يسبق إلى مثله فيما أعلم — أجاد فيه وأفاد وجمع من تلك الحكم ما تفرق في غيره من الكتب وما جال منها في الذهن فرأيت أن ألخص كلامه إذ ليس عليه مزيد ، وقد جعلت كل حكمة في نقطة مستقلة حاذفاً ما كان متكرراً منها أو ما كان داخلاً في بعض فأقول مستعيناً بالله تعالى :

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى : أما بعد فإن الله لما أهبط آدم أباً البشر من الجنة لما له في ذلك من الحكم التي تعجز العقول عن معرفتها والألسن عن صفتها فمنها :

١ — أنه سبحانه أهبطه منها ليعود إليها على أحسن أحواله ، فأراد

سبحانه أن يذيقه وولده من نصب الدنيا وغمومها وهمومها ما يعظم به عندهم مقدار دخولهم إليها في الدار الآخرة ، فإن الضد يظهر حسنه الضد ، ولو تربوا في دار النعيم لم يعرفوا قدرها .

٢ — والله سبحانه وتعالى أراد أمر بني آدم ونهيمهم ، وابتلاءهم واختبارهم وليست الجنة دار تكليف فأهبطهم إلى الأرض ، وعرضهم بذلك لأفضل الثواب الذي لم يكن لينال بدون الأمر والنهي .

٣ — وأراد سبحانه أن يتخذ منهم أنبياء ورسلاً وأولياء وشهداء يجبههم ويجبونه فخلى بينهم وبين أعداءهم وامتحنهم بهم ، فلما آثروه وبدلوا نفوسهم وأمواهم في مرضاته ومحابه نالوا من محبته ورضوانه والقرب منه ما لم يكن لينال بدون إهباطه إلى الأرض وجعل معيشتهم ومعيشة أولاده فيها .

٤ — ولما كان من أسمائه الحسنى الغفور ، الرحيم ، العفو ، الحليم ، الخافض ، الرافع ، المعز ، المذل ، المحي ، المميت ، الخ ، وكان لا بد من ظهور آثار هذه الأسماء اقتضت حكمته أن يتزل آدم وذريته داراً يظهر عليهم فيها آثار أسمائه الحسنى فيغفر لمن يشاء ويرحم من يشاء ويخفف من يشاء ، ويرفع من يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، الخ .

٥ — ولما كان الله سبحانه هو الملك الحق المبين ، فهو الذي يأمر وينهى ، ويثيب ويعاقب ، ويهين ويكرم ، اقتضى ذلك أن يتزل آدم وذريته داراً تجري عليهم فيها أحكام الملك ثم ينقلهم إلى دار يتم عليهم فيها ذلك .

٦ — وأنزلهم سبحانه إلى الدنيا ليظهر إيمانهم بالغيب الذي هو الإيمان النافع ، أما الإيمان بالشهادة فكل أحد يؤمن يوم القيامة يوم لا ينفع نفساً إلا إيمانها في الدنيا ، فلو خلقوا في دار النعيم لم ينالوا درجة الإيمان بالغيب ، ولم ينالوا اللذة والكرامة الحاصلة بذلك ، بل كان الحاصل لهم لذة وكرامة غير هذه .

٧ — والله سبحانه لما خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض ، والأرض فيها الطيب والخبيث ، والسهل والحزن ، فعلم سبحانه أن في ظهره من لا يصلح لمساكنته في داره ، فأنزله إلى دار استخرج فيها الطيب والخبيث من صلبه ، ثم ميزهم سبحانه بدارين فجعل الطيبين أهل جواره ومساكنته في داره ، وجعل الخبيث أهل دار الشقاء ، وله في ذلك الحكمة البالغة والمشيمة النافذة .

٨ — وأنزلهم إلى دار الإبتلاء ليظهر للملائكة علمه بخواص خلقه عندما قالوا : (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فقال : (إني أعلم ما لا تعلمون) فأظهر لهم الأنبياء والرسل والأولياء الذين يتقربون إليه ويبدلون أنفسهم في محبته ومرضاته ، مع مجاهدة شهواتهم وأهواءهم فيتركون محبوباتهم تقرباً إليه ، فيعبدونه سبحانه مع معارضة الهوى والشهوة والنفس والعدو ، بينما يعبد الملائكة من غير معارض ولا شهوة ولا عدو .

٩ — وأنزلهم سبحانه حتى يبين للملائكة علمه بما استتر في نفس الخبيث إبليس من الكبر ، والمخاربة له سبحانه ، وسعيه في خلاف مرضاته .

١٠ — ولما كان الله يحب الصابرين ويحب المحسنين ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص ، ويحب التوايين ، ويحب المتطهرين ، ويحب الشاكرين ، وكانت محبته أعلى أنواع الكرامات اقتضت حكمته أن أسكن آدم وبنيه داراً يأتون فيها بهذه الصفات التي ينالون بها أعلى الكرامات ، فكان إنزالهم من أعظم النعم عليهم .

١١ — ولما خلق الله آدم وفضله على كثير من خلق الله جعل عبوديته أفضل درجاتهم لأنها عبودية اختيارية يأتون بها طوعاً واختياراً ، لا كرهاً واضطراً ، ومقام العبودية أفضل مقام ، ولذلك اقتضت حكمته أن أسكن آدم وذريته داراً ينالون فيها هذه الدرجة بكمال طاعتهم لله وتقربهم إليه

محبابه ، وترك مألوفاتهم من أجله فكان ذلك من تمام نعمته عليهم وإحسانه إليهم .

١٢ — والله سبحانه أراد أن يُعرّف عباده تمام نعمته عليهم ، وقدرها ليكونوا أعظم محبة وأكثر شكراً ، وأعظم التذاذاً بما أعطاهم من النعيم ، فأراهم سبحانه فعله بأعدائهم ، وما أعدّ لهم من العذاب ، وأنواع الآلام ، وأشهدهم تخليصهم من ذلك ، ليزداد سرورهم ، وتتم لذتهم ، ولم يكن بد في ذلك من إنزالهم إلى الأرض وامتحنهم ، وتوفيق من شاء منهم رحمة وفضلاً ، وخذلان من شاء حكمة وعدلاً .

و لا ريب أن المؤمن إذا رأى عدوه في أنواع العذاب والآلام وهو يتقلب في أنواع النعيم واللذة ازداد بذلك سروره وعظمت بذلك لذته و كملت نعمته .

١٣ — وأهبط أباهم آدم إلى الأرض لبيان عواقب الذنب وإجابة الهوى والشهوات ليكونوا أعظم حذراً ، فمن تمام نعمة الله على آدم وذريته أن أراهم ما فعل العدو بهم فاستعدوا له وأخذوا أهبتهم .

١٤ — أن ظهور البشر على الأرض من أسباب ظهور عدله سبحانه وتعالى ليرتب على ذلك حمده إذ الحمد مترتب على العدل ، وهو سبحانه له الحمد المطلق ، فكما أنه محمودٌ على إحسانه وبره وثوابه فهو محمود على عدله وانتقامه، ولهذا قال عقيب إخباره عن قضائه بين أهل السعادة وأهل الشقاوة (و قضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين)^١ .

١٥ — والله سبحانه وتعالى أنزلهم إلى الدنيا ليظهر التفاوت بين الشاكرين ، فلو تساوا جميعاً في النعمة والعافية لم يعرف صاحب النعمة قدرها ، ولم يبذل شكرها ، إذ لا يرى أحداً إلا في مثل حاله ، و من أقوى

أسباب الشكر أن يرى العبد غيره في ضد حاله الذي هو عليها من الكمال
والفلاح .

١٦ — والله سبحانه وتعالى خلق الجنة درجات كما في الصحيح أنها
مائة درجة ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماء والأرض ، وحكمته
سبحانه مقتضية لعمارة هذه الدرجات ، وإنما تعمر ويقع التفاوت منها بحسب
الأعمال ، ولازم هذا إنزالهم إلى دار العمل والمجاهدة .

١٧ — ولما خلق الله آدم وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريثه جنة الخلد ، وكان في
سبحانه أن ينقله وذريته من هذا الاستخلاف إلى توريثه جنة الخلد ، وكان في
علم الله أن نفس الإنسان مولعة بحب العاجل ولو كان خسيساً ، اقتضت
حكيمته أن أدخله الله الجنة ليعرف النعيم الذي أعدله عياناً فيكون إليه
أشوق وعليه أحرص .

وهذا وإن كان حصل لآدم ومن أكرمه الله من الأنبياء إلا أن الذرية
يحصل لها تصور ذلك بما يقصه عليها أنبياء الله تبارك وتعالى عنها^١ . أهـ
فهذه سبعة عشر وجهاً استللتها من بين ثلاثة وعشرين وجهاً ذكرها
ابن القيم رحمه الله لا تخرج في جملتها عما ذكرته هنا .

(١) انظر : مفتاح دار السعادة ١ / ٣-١٠ بتصرف واختصار .

الباب الثاني

الغاية من وجود الإنسان ، و السبل التي هيأها الله له

• ليحقق الغاية

وفيه فصلان :

• الفصل الأول: الغاية من وجود الإنسان (العبودية)

• الفصل الثاني: السبل التي هيأها الله له ليحقق هذه الغاية

الفصل الأول

الغاية من وجود الإنسان (العبودية)

وفيه تمهيد والمباحث التالية :

التمهيد : في تحرير الغاية من وجود الإنسان وبيانها .

المبحث الأول : معنى العبودية .

المبحث الثاني : خصائص العبودية .

تمهيد

يذهب بعض المعاصرين إلى أن الغاية من إيجاد الإنسان هي أن يكون خليفة لله في الأرض^١ .

وقد سبق أن بينت أن القول بأن الإنسان خليفة لله في الأرض بمعنى النائب والوكيل غير صحيح .

وقول من قال إن غاية وجود الإنسان أن يكون خليفة لله غير صحيح
لأمور :

الأول : أن الخلافة بكل معانيها سواء المتفق عليها أم المتنازع فيها تقصر بالإنسان عن الغاية الشاملة التي أرادها الله منه والتي دلت عليها آيات صريحة في كتاب الله تعالى كقوله في سورة الذاريات : (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون)^٢ .

فالآية دلت دلالة واضحة على أن الغاية من خلق الثقلين هي عبادة الله تبارك وتعالى ، وشتان ما بين العبادة بمفهومها الشامل كما سيأتي وبين الخلافة بمعناها القاصر كما يفهم منها على أوسع الفهوم .

فلو فرضنا أن معنى الخلافة هو ما زعمه من قال بأن الإنسان خليفة الله في أرضه في تنفيذ أحكامه وشرعه وجعل هذا المعنى الغاية من خلق الإنسان فإنه يكون حينئذ قد قصر الغاية على إقامة الحدود وتنفيذ الأحكام مع أن المطلوب من الإنسان أوسع من ذلك من الإيمان بالغيب وإخلاص الأعمال

(١) من هؤلاء سيد قطب في الظلال ٣ / ١٢٦٨ ، فاروق الدسوقي في كتابه (استخلاف الإنسان) ص ٦ ، د / عبد الرحمن المطرودي في كتابه (الإنسان وجوده وخلافته في القرآن) ص ٤٣٠ ، د / عبد المجيد النجار محقق كتاب تفصيل الشأئين في الهامش ص ١٠٥ ، د / محمد الزحيلي في كتابه (التكريم الإلهي للإنسان) ص ١٣ ، وعبد الكريم الخطيب في كتابه (الإنسان في القرآن) ص ٣-٥ .

(٢) الذاريات ٥٦ .

ومراقبة الله في السكنات والحركات وتحويل العادات إلى عبادات وكل هذه المعاني لا تدخل في المعنى الذي ذكره إلا بتكلف .

الثاني : أن قصر الغاية على مفهوم الخلافة يقصر الغاية على أشخاص معينين دون غيرهم هم الحكام ومن يقوم مقامهم فيكون المعنى غير شامل للبشر ككل مع أن المقطوع به أن الغاية لا بد أن تشمل جميع البشر .

الثالث : أخبر الله سبحانه عن أن الغاية التي خلق الثقلين من أجلها هي العبادة فقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فالغاية المطلوبة واحدة ومن جعل الغاية من إيجاد الإنس الخلافة يكون قد فرق بين الغاية من إيجاد الجن والغاية من إيجاد الإنس لأن الخلافة خاصة بالإنسان وهي من خصائصه دون الجن وهذا مخالف لما ذكره الله تعالى من أن الغاية من خلقهما واحدة .

الرابع : أن حمل الغاية على العبادة أمر متفق عليه ولا ينازع فيه أحد ، أما حملها على الخلافة فقد تبين ما فيه .

فإن قالوا : الخلافة المقصود بها العبادة .

يقال : على أي مستند أستندتم في التسوية بين معنى الخلافة ومعنى العبادة ، فلا اللغة تدل على ذلك ولا الشرع ولا العرف .

فإن قالوا : هي من لوازم العبادة .

يقال : هذا غير صحيح ، لأنكم قصرتموها على الإنس ، ولو كانت من لوازم العبادة لصح أن يقال : الجن خلفاء الله في الأرض ولا يبقى للإنسان حينئذ ميزة ، وهذا ما لم يقله أحد منكم .

فالغاية الواضحة التي لا لبس فيها هي عبادة الله تعالى .

وقد قص علينا القرآن الكريم قصص الأنبياء السابقين وبين أن جميع الأنبياء دعوا إلى عبادة الله وحده مما يوضح بجلاء أن غاية إيجاد الإنسان هي أن يحقق العبودية لله ، أما الاستخلاف في الأرض والذي توهم البعض أنه الغاية

من إيجاد الإنسان وإنما يذكر في القرآن بياناً لمنة الله على عباده بأن استخلفهم بعد أقوام كانوا قبلهم ويخاطب في هذا المؤمن والكافر فهي منة على الجميع ولذا فإن أنبياء الله جعلوا هذه المنة حجة يحتجون بها على أقوامهم في أن الله سبحانه هو المستحق للعبادة .

قال تعالى عن هود في مخاطبته لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون)^١ .

وقال عن صالح في مخاطبته لقومه (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين)^٢ .

فالاستخلاف هو التمكين في الأرض وهي نعمة تستحق أفراد الله بالعبادة ولذلك توعد الله الكافرين بقطع استخلافهم والإتيان بآخرين في قوله تعالى (إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين)^٣ .

وقال هود مهدداً قومه بسلب تلك النعمة (ويستخلف ربي قوماً غيركم ولا تضرونه شيئاً)^٤ .

ويدل على هذا المعنى أيضاً وعد الله لعباده بالاستخلاف في الأرض إن هم تمسكوا بدينهم حيث قال تعالى (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن

(١) الأعراف ٦٩ .

(٢) الأعراف ٧٤ .

(٣) الأنعام ١٣٣ .

(٤) هود ٥٧ .

لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا
يشركون بي شيئاً ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون (١) .

فالاستخلاف هو التمكين في الأرض و ليس هو الغاية من وجود
الإنسان إذ هو حاصل للمؤمن والكافر .

فيتبين بجلاء ووضوح أن الغاية من وجود الإنسان هي عبادة الله ولا
ينبغي لإنسان أن ينازع في ذلك لأن ذلك هو صريح القرآن وسأبين في
المباحث التالية معنى تلك العبودية وخصائصها .

المبحث الأول معنى العبادة

وفيه مطلبان :

- المطلب الأول : المعنى اللغوي للعبادة
- المطلب الثاني : المعنى الشرعي للعبادة

المطلب الأول

المعنى اللغوي للعبادة

العبادة : مصدر عبد يعبد عبادة ، و لا يقال إلا لمن يعبد الله تعالى^١ .
والعبودية : الخضوع و التذلل^٢ ، و منه الطريق المعبد : و هو المسلك
المذلل بالوطء^٣ ، و منه البعير المعبد : أي المهنوء بالقطران ، لأن ذلك يذله و يخفض
منه^٤ .

والعبودية و العبادة : الطاعة^٥ .

فالمعنى اللغوي يدور حول الطاعة و التذلل و الخضوع ، لذا قال في لسان

العرب : العبودية : هي الطاعة و الخضوع^٦ .

(١) انظر : معجم مقاييس اللغة لابن فارس ٤ / ٢٠٥ ، لسان العرب ٩ / ١١ .

(٢) انظر : لسان العرب ٩ / ١٠ .

(٣) انظر : مفردات الراغب ص ٣١٩ .

(٤) انظر : معجم مقاييس اللغة ٤ / ٢٠٥ ، لسان العرب ٩ / ١٣ .

(٥) انظر : القاموس المحيط للفيروزآبادي ص ٣٧٨ .

(٦) لسان العرب ٩ / ١٢ .

المطلب الثاني

المعنى الشرعي للعبادة

ورد لفظ العبادة و ما يشتق منه في مواضع عديدة من القرآن الكريم والسنة النبوية جامعاً لمعان شتى جاءت بها الشريعة .
 و قد وضع بعض العلماء تعريفاً للعبادة يجمع أفرادها ، ويمنع التباسها بغيرها كما هو الحال عند وضع حد لمصطلح معين .
 وعلى هذا اختلفت عباراتهم بحسب تصورهم لمعنى العبادة ، وتفاوتت تعريفاتهم بحسب كمال أو قصور العبارة .
 و قبل أن أذكر تعريفات العلماء للعبادة يحسن أن أوضح معنى هذه المادة في القرآن الكريم .

فالعبودية كما سبق إظهار التذلل .

و قد فرق الراغب بينها و بين العبادة فجعل العبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل ، و لا يستحقها إلا من له غاية الإفضال و هو الله تعالى .
 ثم ذكر رحمه الله أن العبد يقال على ضرب :

الأول : عبد بحكم الشرع و هو الإنسان الذي يصح بيعه وابتاعه ، وهو الرقيق ، ومنه قول الله تعالى (العبد بالعبد)^١ ، وقوله تعالى (عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء)^٢ .

الثاني : عبد بالإيجاد ، وذلك ليس إلا لله تعالى .

ومنه قوله تعالى (إن كل من في السموات والأرض إلا آتيني

الرحمن عبداً)^٣ .

(١) البقرة ١٧٨ .

(٢) النحل ٧٥ .

(٣) مريم ٩٣ .

الثالث : عبد بالعبادة بالخدمة .

و هذان قسمان :

فالأول : عبد مخلص له .

و منه قول الله تعالى (إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان)^١

(إلاَّ عباد الله المخلصين)^٢

(و عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً)^٣

(أن أسر بعبادي)^٤ .

و الثاني : عبد للدنيا و أعراضها فهو متكلف على خدمتها و مراعاتها .

و منه قول النبي صلى الله عليه و سلم : تعس عبد الدرهم ، تعس عبد

الدينار . أهـ^٥

و من هنا يتضح أن العبودية ضربان :

الأول : عبودية بالتسخير .

و منه قوله تعالى (تسبح له السموات السبع والأرض و من فيهن وإن

من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)^٦ الآية .

وقوله تعالى (ولله يسجد من في السموات و الأرض من دابة

و الملائكة)^٧ الآية .

(١) الحجر ٤٢ .

(٢) الصافات ١٦٠ .

(٣) الفرقان ٦٣ .

(٤) الشعراء ٥٢ .

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب ما يتقى من فتنة المال ١١ / ٢٥٣ ، حديث رقم ٦٤٣٥ .

(٦) انظر : مفردات الراغب ص ٣١٩ بتصرف .

(٧) الإسراء ٤٤ .

(٨) النحل ٤٩ .

الثاني : عبودية بالاختيار .

و هي المأمور بها شرعاً في قوله تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) .^١

الآية .

وهذا الضرب من العبودية هو الذي ذكر العلماء تعريفه و سعوا إلى بيانه .

تعريف العبادة:

بعد أن بينت أنواع العبادة من حيث الاختيار والاضطرار ، وبينت أن

العلماء اعتنوا ببيان العبادة الاختيارية سائين بعون الله تعريفات أهل العلم لها مبيناً

التعريف الراجح منها :

تعريف الراغب الأصفهاني :

ذكر الراغب الأصفهاني رحمه الله تعريفاً للعبادة في كتابه (تفصيل

النشأتين) حيث قال رحمه الله : العبادة فعل اختياري منافٍ للشهوات البدنية

تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله طاعة للشريعة .

فبقولنا (فعل اختياري) يخرج الفعل التسخيري و القهري . .

و بقولنا (منافٍ للشهوات) يخرج منه ما ليس بطاعة ، وأما الأفعال

المباحة كالأكل و الشرب و مجامعة المرأة فليست عبادة من حيث أنها شهوة و

لكن قد تكون عبادة إذا تحري بها حكم الشريعة .

و إنما قيل : تصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله لأنه إذا لم يرد بها التقرب

إلى الله بل أريد بها مراعاة لم تكن أيضاً عبادة .

و إنما قيل : طاعة للشريعة لأن من أنشأ من نفسه فعلاً ليس بسائغ في

الشريعة لم يكن عبادة و إن قصد به التقرب إلى الله تعالى .

فالعبادة إذاً فعلٌ يجمع هذه الأوصاف كلها . أهـ^٢

(١) البقرة ٢١ .

(٢) تفصيل النشأتين للراغب ص ١٥٧ — ١٥٨ . باختصار يسير .

نقد التعريف :

من شأن أي تعريف حتى يكون صحيحاً أن يكون جامعاً مانعاً ، فإذا أردنا أن نعرف دقة التعريف من عدمها نظرنا فيه هل هو جامع لكل أفرادهِ ، مانع لغيرهِ من الدخول فيه .

فإن كان كذلك كان التعريف دقيقاً ، وإن احتل من ذلك شيء بأن فات على المعرف بعض أفرادهِ أو أدخل في التعريف ما ليس من أفرادهِ كان ذلك قصوراً في التعريف .

وتعريف الراغب السابق جعل العبادة فعل اختياري منافي للشهوات البدنية ، وهو بهذا يخرج الأمور التي تستجيب الشريعة فيها للشهوات الإنسان كالأكل والشرب والزواج واكتساب المال من طرق الحلال ، فكل هذه شهوات كما سماها الله تعالى في قوله (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)^١ .

ولكنها في مفهوم الشريعة تدخل تحت اسم العبادة إذا نوى الإنسان فيها نية صالحة كالتقرب إلى الله بإنفاق المال المكتسب من الحلال ، وتحصيل الولد الصالح من الزواج ، أو درء الفتنة عن نفسه به ، أو تكثير المسلمين أو غير ذلك ، فكل هذه النيات تدخل العمل في مسمى العبادة وإن كان شهوة بدنية كما شهدت لذلك النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة .

وفي هذا المعنى يقول النبي صلى الله عليه وسلم : وفي بضع أحدكم صدقة .

قالوا : يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر ؟

(١) آل عمران ١٤ .

قال : أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه فيها وزر ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر ^١ .

فتقيد الراغب رحمه الله للأفعال الاختيارية بأن تكون منافية للشهوات البدنية ليس في موضعه .

وقد عقب هو على ذلك بقوله : وأما الأفعال المباحة كالأكل والشرب والمجامعة فليست عبادة من حيث إنها شهوة ولكن قد تكون عبادة إذا تحري بها حكم الشريعة .

فهو رحمه الله أخرج هذه الأفعال من تعريفه ثم أدخلها بالاستدراك ولو أنه حذف عبارة (منافع للشهوات البدنية) لصح التعريف وكان جامعاً مانعاً وكان كالتالي : العبادة فعل اختياري يصدر عن نية يراد بها التقرب إلى الله طاعة للشريعة .

تعريف شيخ الإسلام ابن تيمية :

ذكر شيخ الإسلام في كتابه العبودية تعريفاً للعبادة حيث قال : العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة .
فالصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة ، وبر الوالدين ١٠٠٠ الخ ، وأمثال ذلك من العبادة وكذلك حب الله ورسوله ، وخشية الله والإنابة إليه ، وإخلاص الدين له والصبر لحكمه ١٠٠٠ الخ ، وأمثال ذلك هي من العبادة ^٢ أهـ .

وهذا التعريف جامع مانع ، يدخل فيه كل فعل للإنسان أراد به التقرب إلى الله تعالى وفق ما شرع ، إذ لا يكون العمل محبوباً إلى الله إلا إذا كان خالصاً لله

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب الزكاة ، باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع معروف

٢ / ٦٩٧ حديث رقم ١٠٠٦ .

(٢) انظر : العبودية لشيخ الإسلام ص ٣٨ باختصار .

على وفق الشريعة .

فإن لم يكن خالصاً كان رياءً ، وإن لم يكن على وفق ما شرع كان بدعة
وكلا الأمرين لا يحبه الله ولا يرضاه .

فتقيد العبادة بمحبة الله ورضوانه تستلزم ما ذكرت من الإخلاص والموافقة
للشرع فإن اختل جانب خرج الفعل عن مسمى العبادة .

وهذا التعريف موافق تماماً للتعريف السابق الذي ذكره الراغب ولكن

بعد تعديله .

تعريف القرطبي :

قال القرطبي رحمه الله : وعبادة الله إثبات توحيدهِ وتصديق رسله والعمل بما

أنزل في كتبه^١ أهـ .

وهذا التعريف لا يخرج عن سابقيه فهو في معناهما .

واتفاق الأئمة على تعريف العبادة يدل على ثبوت هذا المفهوم عند

المسلمين وعدم الاختلاف فيه .

(١) القرطبي ٢ / ١١ .

المبحث الثاني خصائص العبادة

خصائص العبادة في الإسلام

عندما خلق الله الإنسان أراد منه أن يعبده ولا يشرك به شيئاً ولذلك أرسل إليه الرسل ، وأنزل إليه الكتب ليوضحوا له الطريق ويبينوا له هدى الله ومراده ومحوباته .

والعبادة المطلوبة من الإنسان لها خصائص بينها القرآن الكريم سائين بعضاً منها في النقاط التالية :

أولاً : الاختيار .

الاختيار هنا المراد به ما هو ضد الجبر وذلك أن يكون الإنسان مختاراً لفعله غير مجبور عليه .

فالعبادة في الإسلام اختيارية يفعلها بإرادته بعد الاقتناع بها . والله سبحانه خلق له هذه الإرادة وأعطاه القدرة على التمييز بين الحق والباطل ، وأقام له الأدلة على الحق ، ثم تركه لتلك الإرادة إما أن يؤمن وإما أن يكفر قال تعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)^١ . وهذه خاصية من خصائص العبادة المطلوبة من الإنسان فإن غير الإنسان من غير المكلفين كالشجر والدواب والأحجار والسموات والأرض وغيرها كلها طائعة لله وكلها تسبح بحمد الله ولكن جبراً بدون اختيار .

قال تعالى (ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين)^٢ .

وقال تعالى (وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم)^٣ .

(١) الكهف ٢٩ .

(٢) فصلت ١١ .

(٣) الإسراء ٤٤ .

وقال تعالى (والله يسجد من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً
وظلالهم بالغدو والآصال)^١ .

والآيات الدالة على ذلك كثيرة .

فعبادة هؤلاء قهرية جبرية لا اختيارية كما هو الحال في
عبادة الإنسان .

يقول الإمام الشاطبي رحمه الله : المقصد الشرعي من وضع الشريعة
إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله
اضطراً^٢ . أهـ

فالعبودية الاضطرارية متحققة في الإنسان شاء أم أبي وقد سبق
الحديث عنها .

أما العبودية الاختيارية وهي التكليف بأمر الشريعة سواء أمور العقائد
أو العبادات فهي راجعة إلى الإنسان خاضعة لإرادته واختياره كما قال
تعالى (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)^٣ .

فإن وافقت إرادته إرادة الله تبارك وتعالى حقق العبودية المطلوبة ، وإن
خالفت إرادته إرادة الله الشرعية لم يحققها وكان من الكافرين .

وقد عبر القرآن عن التكليف المطلوبة من الإنسان بالأمانة في قوله
تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها
وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً)^٤ .

(١) الرعد ١٥ .

(٢) الموافقات للإمام الشاطبي ٢ / ١٦٨ .

(٣) البقرة ٢٥٦ .

(٤) الأحزاب ٧٢ .

فالأمانة هنا الطاعة والفرائض كما نقل ذلك ابن جرير عن ابن عباس وسعيد ابن جبير وقتادة وغيرهم^١ .
 وذكر ابن جرير أن بعض المفسرين حملوا الأمانة في الآية على أمانات الناس .

والحقيقة أن أمانات الناس جزء من الأمانة وليست هي كلها إذ مفهوم الأمانة في الآية أوسع من قصرها على أداء الودائع ، فأوامر الشرع كالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، وصدق الحديث ، وغسل الجنابة وغير ذلك كلها أمانات داخله في الأمانة العامة وهي التكليف بالدين والفرائض وقد نقل هذا المعنى ابن جرير عن ابن مسعود والبراء^٢ .

فحاصل ما تقدم أن عبادة الإنسان اختيارية وعليها يترتب الجزاء فمن قام بحقها كما أمره الله ووافق مراد الله يكون قد حقق الغاية من خلقه كما أراده الله وكان له بذلك الأجر العظيم ومن فعل خلاف ذلك كان جزاءه العقاب الأليم .

قال تعالى (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقاً إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لا نضيع أجر من أحسن عملاً أولئك لهم جنات عدن تجري من تحتهم الأنهار يحلون فيها من أساور من ذهب ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق متكئين فيها على الأرائك نعم الثواب وحسنت مرتفقاً)^٣ .

(١) انظر : ابن جرير ٢٢ / ٦٦ - ٦٩ .

(٢) انظر : السابق .

(٣) الكهف ٢٩ - ٣١ .

ثانياً : الإخلاص .

قال الله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء
ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة)^١ .
والإخلاص في اللغة : مصدر أخلص يخلص إخلاصاً .
ومعناه : تنقية الشيء مما يشوبه .
قال الراغب : الخالص كالصافي إلا أن الخالص ما زال عنه شوبه بعد
أن كان فيه ، والصافي قد يُقال لما لا شوب فيه^٢ أهـ .
قال ابن فارس : الخاء واللام والصاد أصل واحد مطرد وهو تنقية
الشيء وتهذيبه^٣ . أهـ
أما المعنى الشرعي للإخلاص : فهو قصد المعبود وحده بالعبادة^٤ .
وفي لسان العرب : الإخلاص في الطاعة : ترك الرياء^٥ أهـ .
قال الراغب : فحقيقة الإخلاص التبري عن كل ما دون
الله تعالى^٦ أهـ .
ويظهر من كلام أهل العلم أن الإخلاص هو الخلوص من الشرك الذي
هو شرط التوحيد .
وحقيقة الإخلاص هي تحقيق كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ولذلك
سميت كلمة التوحيد بكلمة الإخلاص .
ولا تتحقق كلمة التوحيد إلا بشروط ذكرها أهل العلم سأبينها

(١) البينة ٥ .

(٢) مفردات الراغب ص ١٥٤ .

(٣) معجم مقاييس اللغة ٢ / ٢٠٨ .

(٤) عمدة الحفاظ للسمين الحلبي ص ١٦١ .

(٥) لسان العرب ٤ / ١٧٣ .

(٦) مفردات الراغب ص ١٥٥ .

بعد بيان معنى الشرط اصطلاحاً .

معنى الشرط اصطلاحاً :

الشرط ما يلزم من عدمه العدم ولا يلزم من وجوده وجود وعدم^١ .

قال الجرجاني في تعريفاته : الشرط تعليق شيء بشيء بحيث إذا وجد

الأول وجد الثاني .

وقبل : الشرط ما يتوقف عليه وجود الشيء ويكون خارجاً عن ماهيته

ولا يكون مؤثراً في وجوده^٢ . أهـ

فالشرط علامة وجود المشروط^٣ .

فإذا عدم الشرط دل على عدم وجود المشروط حقيقة وإن وجدت

صورة المشروط ، كمن قال لا إله إلا الله بلسانه ولم يحقق أحد شروطها الآتية

فإنه لا يكون أتى بها حقيقة وإنما أتى بصورتها .

وسأبين هذه الشروط فيما يلي :

شروط كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله) :

ذكر العلماء سبعة شروط يجب تحققها فيمن قال كلمة التوحيد

مؤمناً بها .

وهذه الشروط مستنبطة من كتاب الله تعالى وهي :

الأول : العلم بمعناها المراد منها نفياً وإثباتاً المنافي للجهل بذلك ، قال

تعالى : (فاعلم أنه لا إله إلا الله . .)^٤ الآية .

(١) انظر : شرح الكوكب ١ / ٤٥٢ .

(٢) التعريفات للجرجاني ص ١٢٥ .

(٣) انظر : شرح الكوكب ١ / ٤٥١ .

(٤) محمد ١٩ .

وقال صلى الله عليه وسلم : من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله
دخل الجنة^١ .

الثاني : اليقين .

وهو اليقين المنافي للشك ، بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة
يقيناً جازماً ، فإن الإيمان لا يغني فيه إلا علم اليقين .

قال عز وجل (إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله
ثم لم يرتابوا)^٢ الآية .
أما المرتاب فهو من المنافقين .

قال تعالى (إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر و
ارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون)^٣ .

وقال صلى الله عليه وسلم : أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا
يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة^٤ .
وفي الحديث الطويل أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث أبا هريرة بنعليه
وقال : اذهب بنعلي هاتين فممن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله
إلا الله مستيقناً بما قلبه فبشره بالجنة^٥ .

الثالث : القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه .

وقد قص الله علينا أخبار الأمم السابقة التي كذبت رسلها ولم تقبل ما
جاءت به استكباراً .

(١) رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل

الجنة قطعاً ١ / ٥٥ حديث رقم ٢٦ .

(٢) الحجرات ١٥ .

(٣) التوبة ٤٥ .

(٤) رواه الإمام مسلم في كتاب الإيمان ١ / ٥٥ — ٥٦ حديث رقم ٢٧ .

(٥) السابق ١ / ٥٩ — ٦٠ حديث رقم ٣١ .

قال تعالى (احشروا الذين ظلموا و أزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم وقفوهم إنهم مسؤولون ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون) — إلى قوله — (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أننا لتأركوا أهنتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق و صدق المرسلين)^١ .

وقال صلى الله عليه وسلم : مثل ما بعثني الله به من الهدى و العلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ و العشب الكثير ، و كان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا و سقوا و زرعوا ، و أصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماءً و لا تنبت كلأً ، فذلك مثل من فقه في دين الله ، و نفعه ما بعثني الله به فعلم و علم ، و مثل من لم يرفع بذلك رأساً و لم يقبل هدى الله الذي أرسلت به^٢ .
الرابع : الانقياد لما دلت عليه و الاستسلام له .

قال تعالى (وأنبيوا إلى ربكم و أسلموا له)^٣ الآية .

وقال تعالى (و من أحسن ديناً ممن أسلم وجهه لله و هو محسن و اتبع ملة إبراهيم حنيفاً و اتخذ الله إبراهيم خليلاً)^٤ .

وقال تعالى (و من يسلم وجهه إلى الله و هو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى و إلى الله عاقبة الأمور)^٥ .
و العروة الوثقى هي لا إله إلا الله .

(١) الصفات ٢٢ — ٣٧ .

(٢) رواه الإمام البخاري في كتاب العلم ، باب فضل من علم و علم / ١ ، ١٧٥ ، حديث

رقم ٧٩ .

(٣) الزمر ٥٤ .

(٤) النساء ١٢٥ .

(٥) لقمان ٢٢ .

- روى ابن جرير هذا المعنى عن سعيد بن جبير والضحاك^١ .
- ورواه في تفسير سورة لقمان عن ابن عباس^٢ .
- الخامس : الصدق فيها المنافي للكذب .
- وهو أن يقولها صادقاً من قلبه .
- قال تعالى (والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون)^٣ .
- والمقصود بالصدق في الآية : لا إله إلا الله .
- ومن صدق به : يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- روى ذلك ابن جرير في تفسير هذه الآية عن ابن عباس .
- وروى أقوال أخرى في تفسيرها .
- فنقل عن البعض أن الذي جاء بالصدق : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والذي صدق به أبو بكر .
- ونقل عن آخرين أن الصدق : القرآن ، والمصدقون : المؤمنون .
- ونقل عن غيرهم أن الذي جاء بالصدق : المؤمنون ، والصدق : القرآن ، وهم المصدقون به^٤ .
- ثم قال رحمه الله مرجحاً : والصواب من القول في ذلك أن يقال : كل من دعا إلى توحيد الله وتصديق رسله والعمل بما ابتعث به رسوله صلى الله عليه وسلم من بين رسل الله و أتباعه و المؤمنون به ، وأن يقال : الصدق هو القرآن وشهادة أن لا إله إلا الله ، والمصدق به : المؤمنون بالقرآن من جميع خلق الله كائناً من كان من نبي الله و أتباعه^٥ . أهـ

(١) انظر : ابن جرير ٣ / ٢٥٦ .

(٢) السابق ٢١ / ٩٦ .

(٣) الزمر ٣٣ .

(٤) انظر : ابن جرير ٢٤ / ٥ — ٦ .

(٥) ابن جرير ٢٤ / ٦ .

السادس : الإخلاص .

• وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك .

قال الراغب : الإخلاص أن يقصد الإنسان فيما يفعله وجه الله تعالى

متعرياً عن الالتفات إلى غيره^١ . أهـ ، وقد سبق الحديث عنه .

السابع : المحبة لهذه الكلمة وما اقتضته و دلت عليه ، ولأهلها العاملين بها

الملتزمين لشروطها ، وبغض ما ناقض ذلك .

قال تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب

الله و الذين آمنوا أشد حباً لله . .)^٢ الآية .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي

الله بقوم يحبهم و يحبونه . .)^٣ الآية .

وعلامة المحبة تقديم محاب الله و إن خالفت هواه .

وبغض ما يبغض ربه و إن مال إليه هواه ، ومـوالاة من والى الله و

رسوله ، ومعادة من عاداه ، و إتباع رسوله و اقتفاء أثره .

قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله . .)^٤

الآية .

والأدلة على علامات المحبة كثيرة مبثوثة في القرآن الكريم .

فهذه الشروط السبعة التي تتحقق بها كلمة التوحيد والإخلاص ولا

يشترط أن يكون الإنسان حافظاً لألفاظها ، ولكن المراد أن يكون الإنسان

عاملاً بها فكم من عامي اجتمعت فيه و التزمها ، ولو قيل له : اعددها لم

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهاني ص ٢١٣ .

(٢) البقرة ١٦٥ .

(٣) المائدة ٥٤ .

(٤) آل عمران ٣١ .

يحسن ذلك ، وكم من حافظ لألفاظها يجري فيها كالسهم و تراه يقع كثيراً فيما يناقضها^١ .

ثالثاً : الجمع بين كمال الذل للمعبود و كمال المحبة له .

فالعباداة كما سبق في معناها اللغوي أنها الذل .

لكن العباداة المطلوبة من الإنسان تتضمن غاية الذل مع غاية المحبة .
ومن خضع لإنسان بسبب الرق كان ذلك سبباً لبغض المستعبد لمن استعبده لما في ذلك من الذلة و المهانة التي تحصل للمستعبد .
أما في جانب الله تعالى فالذلة والمحبة متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر ومن هنا كانت هذه العبودية مختصة بالمحبة دون غيرها وقد دلت على هذه الخصيصة آيات و أحاديث .

قال تعالى (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم و أزواجكم و عشيرتكم و أموال اقترفتموها و تجارة تخشون كسادها و مساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله و جهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره و الله لا يهدي القوم الفاسقين)^٢ .

وقال صلى الله عليه وسلم : فوالذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده^٣ . وفي رواية : والناس أجمعين^٤ .
ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم من محبة الله .

(١) انظر في هذه الشروط : معارج القبول لحافظ الحكمي ١ / ٣٧٧ - ٣٨٧ ، كلمة

الإخلاص للحافظ ابن رجب الحنبلي ٧ - ٤٥ ، العبودية لشيخ الإسلام ابن تيمية .

(٢) التوبة ٢٤ .

(٣) رواه الإمام البخاري في كتاب الإيمان ، باب حب الرسول من الإيمان ١ / ٥٨ ،

حديث رقم ١٤ .

(٤) السابق ١ / ٥٨ حديث رقم ١٥ .

وقال صلى الله عليه وسلم : ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان :
أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما و أن يحب المرء لا يحبه إلا الله وأن
يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار^١ .

فالجمع بين مقامي الذل والمحبة خاصة من خصائص العبادة التي أمر الله
بها عباده و أرادها منهم .

رابعاً : الانضباط بالوحي

فالعبادة المأمور بها هي ما أمر الله تعالى به في كتابه العظيم أو على لسان
رسوله الكريم ، لا يصح لأحد أن يأتي بعبادة لم يشرعها الله تبارك و تعالى .
قال شيخ الإسلام : والعبادة والطاعة والاستقامة و لزوم الصراط
المستقيم و نحو ذلك من الأسماء مقصودها واحد و لها أصلان :
أحدهما : أن لا يعبد إلا الله .

الثاني : أن لا يعبده إلا بما أمر و شرع ، لا يعبده بغير ذلك من الأهواء
والظنون والبدع^٢ أهـ .

وإنما جعلت العبادة مضبوطة بالوحي لأمر :

١ — أن الله تعالى أعلم بمراده و محبوباته التي يعبد خلقه بها ، فعلمهم
إياها عن طريق الرسل كي يعبدوه بها .

٢ — تنظيماً لأمر العبادة من الفوضى التي تؤدي بالناس إلى
التفرق ، وحصماً لاختلاف الأهواء المختلفة .

فلو فرض جدلاً أن الله تعالى ترك أمر العبادة للبشر لأتى كل إنسان فيها
بما يوافق رأيه وهواه ، ويصبح الناس بذلك أشتاتاً متفرقين لا يجمعهم دين ولا
يحكمهم شرع فتعم بذلك الفوضى وينتشر الفساد .

٣ — سداً لباب التزويد في الدين المؤدي إلى الإفراط أو التفريط .

(١) أخرجه الإمام البخاري في كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان ١ / ٦٠ حديث رقم ١٦ .

(٢) العبودية لشيخ الإسلام ص ٧٤ .

قال صلى الله عليه وسلم : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد^١ .

٤ - لإقامة الحجّة على الناس .

فلو لم تبيّن أمور العبادة من قبل الله لكان للناس حجّة على الله في أنه لم يبيّن لهم أمور دينهم .

قال تعالى (رسلاً مبشرين و منذرين لئلا يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً)^٢ .

وقال تعالى (ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل و نخزي)^٣ .

٦ - لكي يكون الدين واضحاً . فلو لم تكن العبادة مضبوطة بالوحي لما استطاع المسلمون أن يعرضوا دينهم على غيرهم من البشر لأنه يكون حينئذ مسرحاً لأفكار البشر المختلفة فلا تتضح معالمه ولا تلتئم أطرافه .
أما العبادة المضبوطة بالوحي فإنها معصومة من الزلل و التناقض متفكّمة المبدأ و المنتهى لا مجال فيها لأفكار البشر المضطربة بل كل مؤمن بها يعتقد ما يعتقدّه الآخر .

قال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)^٤ .

خامساً : الشمول .

ونعني بالشمول هنا اتساع مفهوم العبادة ليشمل كل مناحي الحياة وقد

(١) أخرجه الإمام مسلم في كتاب الأفضية ، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات

الأمور ٣ / ١٣٤٣ حديث رقم ١٧١٨ .

(٢) النساء ١٦٥ .

(٣) طه ١٣٤ .

(٤) النساء ٨٢ .

سبق بيان هذا المعنى عند الحديث عن معنى العبادة في الاصطلاح ويُبين هناك أن العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله و يرضاه من الأقوال و الأعمال الظاهرة و الباطنة .

فهي غير مقتصرة على أداء الشعائر أو إتباع الأوامر و اجتناب النواهي فحسب بل تتعدى ذلك لتشمل كل حركات الإنسان و سكناته و أفعاله الجبلية و المباحة إذا نوى بها النية الحسنة .

قال تعالى (قل إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين لا شريك له و بذلك أمرت وأنا أول المسلمين)^١ .

فالنبي صلى الله عليه وسلم يبين أن صلاته و نسائكه و حياته و مماته لله رب العالمين وهذا هو ما أمر به من قبل ربه من الإخلاص لله في كل الأعمال و الأقوال .

قال الزمخشري في تفسير الآية : (ومحياي و مماتي) وما آتية في حياتي وما أموت عليه من الإيمان و العمل الصالح .^٢ أهـ .

وقال ابن الجوزي في تفسير هذه الآية : في معناه قولان :

أحدهما : أن معناه : لا يملك حياتي و مماتي إلا الله .

الثاني : حياتي لله في طاعته و مماتي لله في رجوعي إلى جزائه .

ومقصود الآية أنه أخبرهم أن أفعالهم و أحوالي لله وحده^٣ أهـ .

فالتوجه بالنية الصالحة لله في أي عمل يكسبه صفة العبادة التي يؤجر عليها الإنسان .

والأمر واضح فيما كان من قبيل الواجب أو المنذور أو المحرم أو المكروه ولكن يبقى الأمر المباح الذي لا يظهر فيه وجه القربة إلى الله لأول

(١) الأنعام ١٦٢ - ١٦٣ .

(٢) الكشاف ٢ / ٦٤ .

(٣) زاد المسير ٣ / ١٦١ .

وهلة كالأكل والشرب والتمتع باللذائذ المباحة التي يسعى الإنسان إليها بطبعه
و جبلته فكيف يؤجر عليها و كيف تكون عبادة ؟

إن من فضل الله على عباده أن جعل تلك الأعمال العادية تقلب بالنية
الصالحة إلى أعمال عبادية يؤجرون عليها و يثابون وقد تقدم ذكر الحديث
الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم : وفي بضع أحدكم
صدقة . . . الحديث .

قال النووي في هذا الحديث : وفي هذا دليل على أن المباحات تصير
طاعات بالنيات الصادقات ، فالجماع يكون عبادة إذا نوى به قضاء حق
الزوجة و معاشرتها بالمعروف الذي أمر الله تعالى به ، أو طلب ولد صالح ،
أو إعفاف نفسه ، أو إعفاف الزوجة ، ومنعهما جميعاً من النظر إلى حرام
أو الفكر فيه ، أو الهم به ، أو غير ذلك من المقاصد الصالحة .^١ أهـ

فيظهر بهذا أن المراد بالشمول اتساع مفهوم العبادة لتشمل جميع أوجه
العمل البشري بالشرط المذكور وهو إخلاص النية لله تعالى .

إن هذا المفهوم الشامل للعبادة له آثاره العميقة في نفس الإنسان و
حياته فمن هذه الآثار :

١- أنه يصبغ حياة المسلم و أعماله بالصبغة الربانية و يجعله مشدوداً
إلى الله في كل ما يؤديه في حياته^٢ .

٢- أنه يمنح المسلم وحدة الجهة ووحدة الغاية في حياته كلها ، فغاياته
إرضاء ربه سبحانه و تعالى في كل ما يأتي و يذر من غير انقسام ولا صراع
ولا ازدواج في شخصيته^٣ .

(١) شرح مسلم للنووي ٧ / ٩٢ .

(٢) انظر : العبادة في الإسلام للدكتور يوسف القرضاوي ص ٦٦ .

(٣) السابق ص ٦٧ .

٣- وهذا المفهوم الشامل للعبادة كفيل بأن يمنح الإنسانية السعادة الدنيوية لأن الإنسان إذا توجه بعمله إلى الله تبارك و تعالى أياً كان هذا العمل فإنه سيحاول جاهداً أن يقدمه على أتم وجه و أحسن حال حتى يرضى عنه الله تبارك و تعالى ويأجره عليه وبالتالي فإنه سيتقن كل عمل يوكل إليه و تكون النتيجة صلاح المجتمع و سعادته .

٤- وهذا المفهوم يدفع الإنسان إلى الاستزادة من الأعمال الصالحة و المبادرة إلى النية الحسنة فإنها لا تكلفه شيء ، فقد يقوم الإنسان بأداء عمل مطلوب منه في الدنيا كعمله الرسمي الذي أوكل به من قبل ولاة الأمر و الذي يأخذ عليه أجراً عند إنجائه و لكنه مع هذا الأجر الدنيوي يطمح أن يحقق مكسباً أكبر و أجدي هو المكسب الأخروي فيجد الطريق أمامه سهلاً واضحاً ولا يكلفه إلا إخلاص العمل لله و مراقبة الله عند أدائه بالإتيان به كما أريد منه فيحصل له بذلك الأجر ، وهكذا في بقية أعماله .

٥- إن وضوح هذا المفهوم لدى الإنسان يجعله يستشعر عظم الغاية التي من أجلها أوجد وهي عبادة الله و يستشعر عبوديته لله و شعوره بالذل له فكل حياته لربه و كل حياته عبادة لله ، وهذا الشعور أعني الذل لله من أعظم معاني العبودية كما بينت سابقاً وهو طريق الإنسان إلى الفلاح و السعادة فمن حققه في نفسه فقد حقق معنى مهم من معاني العبودية .

سادساً : الوضوح .

و أعني به ظهور شرائع الدين و شعائره لمن أراد أن يعبد الله تعالى ، فالله سبحانه تكفل ببيان أمور العبادة كما سبق بيان ذلك عند قوله تعالى (فإِذَا يَأْتِيَنكُمْ مِّنِي هُدًى فَمَن تَبِعْ هُدَايَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)^١ .

فبين سبحانه أن المطلوب هو اتباع هدى الله الذي يأتي من عنده
عن طريق الرسل .

وأرسل الله رسله لأجل هذا المقصد العظيم وهو بيان الشرائع قال
تعالى (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فيفضل الله من
يشاء ويهدي من يشاء)^١ .

وقال تعالى (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم
ما يتقون إن الله بكل شيء عليم)^٢ .

وقال تعالى ممتناً على عباده (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت
عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً)^٣ الآية .

فالشريعة مكتملة و الطريقة واضحة قال تعالى (ثم جعلناك على
شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون)^٤ .

والوضوح في العبادة يشمل جانبين :

أولاً : وضوح التكاليف عامة من الأحكام و العقائد .

ثانياً : وضوح العواقب و النتائج المترتبة على الإيمان وعلى الكفر .

ولذلك ليس في الإسلام شيء غامض ، أو شيء لا يعرفه إلا الخواص ،

بل كل شيء واضح ومبين .

سابعاً : السهولة واليسر .

إن الله سبحانه وتعالى لم يكلف الناس بما لا يطيقون فهو سبحانه لا

يريد العسر بعباده بل يريد بهم اليسر كما قال (يريد الله بكم اليسر و لا

يريد بكم العسر) لذا فقد كلفهم بعبادة سهلة ميسرة ليس فيها حرج .

(١) إبراهيم ٤ .

(٢) التوبة ١١٥ .

(٣) المائدة ٣ .

(٤) الجاثية ١٨ .

فالله سبحانه لم يرد أن يشق على عباده بالتكليف ، ولكنه سبحانه كلفهم ليزيل عنهم الآفات التي في نفوسهم كما قال تعالى (ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون)^١ .

وقال تعالى (هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل)^٢ .

و هكذا جاءت الشريعة برفع الحرج عن الناس و التسهيل عليهم وعدم تكليفهم بما لا يطيقون ، وقد أكد هذا المعنى في القرآن كثيراً .

قال الله تعالى (لا نكلف نفساً إلاّ وسعها)^٣ .

وقال تعالى (لا يكلف الله نفساً إلاّ وسعها)^٤ .

وقال تعالى (لا يكلف الله نفساً إلاّ ما آتاها)^٥ .

وقال تعالى (لا تكلف نفس إلاّ وسعها)^٦ .

وقد فرق العلماء بين التكليف بما لا يطاق و التكليف بالمشقة .

فالأول ممتنع في الشريعة بناءً على الآيات السابقة .

أما الثاني فهو ممكن إذ التكليف الشرعية يحصل فيها نوع من المشقة إما البدنية كالصيام والحج ، أو المالية كالزكاة ، أو النفسية من حيث كون التكليف عموماً خارجة عن هوى المكلف و في ترك اتباع الهوى مشقة على النفس^٧ .

(١) المائدة ٦ .

(٢) الحج ٧٨ .

(٣) الأنعام ١٥٢ ، الأعراف ٤٢ ، المؤمنون ٦٢ .

(٤) البقرة ٢٨٦ .

(٥) الطلاق ٧ .

(٦) البقرة ٢٣٣ .

(٧) انظر : الموافقات للشاطبي ٢ / ١٢١ .

ولكن تلك المشقة لا تسمى في العادة المستمرة مشقة كما لا يسمى في العادة طلب المعاش بالتحرف و سائر الصنع مشقة ، لأنه ممكن معتاد لا يقطع ما فيه من الكلفة عن العمل في الغالب المعتاد ، بل أهل العقول وأرباب العادات يعدون المنقطع عنه كسلان ، ويذمونه بذلك ، فكذلك المعتاد في التكاليف^١ .

وقد وضع الإمام الشاطبي رحمه الله قاعدة في التفريق بين هذين النوعين من المشاق فقال بعد ذكره الكلام السابق : و إلى هذا يرجع الفرق بين المشقة التي لا تعد مشقة عادةً و التي تعد مشقة ، وهو أنه إن كان العمل يؤدي الدوام عليه إلى الانقطاع عنه أو عن بعضه ، وإلى وقوع خلل في صاحبه في نفسه أو ماله أو حال من أحواله فالمشقة هنا خارجة عن المعتاد .

وإن لم يكن فيها شيء من ذلك في الغالب فلا يعد في العادة مشقة وإن سميت كلفة ، فأحوال الإنسان كلها كلفة في هذه الدار في أكله وشربه وسائر تصرفاته ، ولكن جعل له قدرة عليها بحيث تكون تلك التصرفات تحت قهره لا أن يكون هو تحت قهر التصرفات فكذلك التكاليف ، فعلى هذا ينبغي أن يفهم التكليف وما تضمن من المشقة^٢ . أهـ

وإنما ذكرت هذا الكلام دفعا لما قد يرد من أن التكاليف الشرعية فيها نوع من المشقة و الدين جاء باليسير وفي هذا نوع من التناقض !

فبينت هنا الرد على ذلك و حاصله أنه لا يمتنع أن يكلف الشارع العباد بما فيه مشقة معتادة يستطيع الإنسان أدائها من غير ضرر ، أما إن كان

(١) انظر : الموافقات ٢ / ١٢٣ .

(٢) السابق ٢ / ١٢٣ .

فيه ضرر يلحق بالإنسان فإن الشارع لا يكلف الإنسان به قاصداً المشقة فيه ،
ولكن من حيث أن فيه مصلحة عاجلة أو آجلة للمكلف كالقتال فإن فيه
حفظ للأمة ودفع لضرر الأعداء ، وفيه الأجر العظيم عند الله
تعالى في الآخرة .

وقد جاءت الشريعة برفع الحرج عن الناس رحمة بهم لوجهين :

الأول : الخوف من الانقطاع من الطريق ، و بغض العبادة ، و كراهية
التكليف ، و ينتظم تحت هذا المعنى الخوف من إدخال الفساد عليه في جسمه
أو عقله أو ماله أو حاله .

الثاني : خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة
الأنواع ، مثل قيامه على أهله وولده إلى تكاليف أخر تأتي في الطريق ، فربما
كان التوغل في بعض الأعمال شاغلاً عنها ، وقاطعاً بالمكلف دونها ، وربما
أراد الحمل للطرفين على المبالغة في الاستقصاء فانقطع عنهما ^١ .

و قد أفاض الشاطبي رحمه الله في بيان هذه القضية وتكلم عنها بكلام
في غاية النفاسة يحسن جداً الرجوع إليه .

وهاهنا قضية أخيرة أريد التنبيه عليها وهي أن التكاليف الشرعية قد
يكون فيها نوع من المشقة في أول الأمر ، أما عند ممارستها بشرطها وهو
الإخلاص لله فإن تلك المشقة تنقلب إلى لذة يستلذ بها العبد و لا يستغني عنها
أبداً لأنها حينئذٍ غذاء لروحه وطمأنينة لقلبه .

(١) انظر : الموافقات للشاطبي ٢ / ١٣٦ .

وفي هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : وجعلت قرّة
عيني في الصلاة^١.

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى كتاب عشرة النساء ، باب حب النساء حديث رقم

٨٨٨٧ ، وحديث رقم ٨٨٨٨ .

أخرجه النسائي من طريقين :

الأولى : من طريق الحسين بن عيسى القومسي قال : نا عفان بن مسلم قال : نا سلام أبو المنذر
عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : حبب إلي من الدنيا النساء
والطيب وجعل قرّة عيني في الصلاة .

وهذا إسناد ضعيف لأن الحسين بن عيسى القومسي : صدوق ، وهو من رجال البخاري

ومسلم . التقريب ١ / ١٧٨ رقم ٣٨١ .

وعفان بن مسلم : ثقة ثبت . التقريب ٢ / ٢٥ رقم ٢٢٦ .

و سلام : هو ابن سليمان المزني صدوق يهم . التقريب ١ / ٣٤٢ رقم ٦١٤ .

وثابت : هو البناني ثقة عابد . التقريب ١ / ١١٥ رقم ١ .

الثانية : من طريق علي بن مسلم الطوسي قال : نا سيار قال : نا جعفر قال : نا ثابت عن أنس
قال : قال رسول الله . . فذكره .

وهذا إسناد ضعيف لأن علي بن مسلم : صدوق ، روى له البخاري . التقريب ٢ / ٤٤ رقم

٤١٢ .

و سيار : هو ابن حاتم العتري أبو سلمة صدوق له أوهام . التقريب ١ / ٣٤٣ رقم ٦٢٣ .

وجعفر : هو ابن سليمان الضبيعي صدوق زاهد ، من رجال مسلم . التقريب ١ / ١٣١ ،

التهذيب ٧ / ٣٣٤ .

والحديث بمجموع طرقه يرقى إلى درجة الحسن لغيره والله أعلم .

وقد أخرجه الحاكم في المستدرک ٢ / ١٦٠ وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه .

ووافقته الذهبي .

و قال الحافظ ابن حجر في التلخيص الحبير ٣ / ١١٦ : رواه النسائي وإسناده حسن .

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣ / ١٢٨ .

الفصل الثاني

السبل التي هيأها الله للإنسان كي يحقق الغاية من إيجادها

وفيه خمسة سبل :

- السبيل الأول : فطره على التوحيد
- السبيل الثاني : إعطاءه العقل
- السبيل الثالث : إرسال الرسل
- السبيل الرابع : إنزال الكتب
- السبيل الخامس : تسخير ما في السماوات والأرض له

تمهيد

في الفصول السابقة بينت خلق الإنسان ، و وجوده على الأرض ، و بينت الغاية من إيجاده وهي عبادة الله تبارك وتعالى .

وفي هذا الفصل سأبين كيف أن الله تعالى لم يترك الإنسان لمحض اجتهاده في تحقيق الغاية من إيجاده بل قد هياها لتلك المهمة ، وهياً له من الظروف المناسبة ما يساعده في أداءها على الوجه المطلوب ، حتى تقوم عليه الحجة و يقطع طريق الاحتجاج .

وقد حاولت أن أجمع السبل التي هياها الله للإنسان ليحقق الغاية من وجوده من القرآن الكريم فتيسر لي منها خمسة سبل كل سبيل منها له أثره الكبير في هذا الموضوع .

ولبيان هذه السبل أهمية كبيرة أجملها في النقاط التالية :

١- أن في بيان تلك السبل بيان للعدل الإلهي تجاه الإنسان فهو خلقه وأراد منه عبادته وهياً لهذه المهمة بحيث تنقطع معها الحجة .

٢- في بيان تلك السبل إقامة للحجة على الملحددين الذين ينفون وجود الله سبحانه وتعالى وذلك بإبراز الأدلة على وجوده وبيان أن العقل الصحيح يقرر وجود الخالق الواحد .

٣- في بيان تلك السبل هداية للبشر للمنهج الحق الذي يرضاه الله سبحانه لعباده ، وذلك أن بيان تلك السبل يعين على أداء العبادة على الوجه الصحيح عن تفهم واقتناع .

٤- لفت أنظار الغافلين إلى سبل الهداية والرشاد ودلالتهم إلى ما يزيل غفلتهم ويرفع الغشاوة عن أعينهم وقلوبهم .

وسأشرع الآن في بيان هذه السبل مستعيناً بالله تعالى :

السبيل الأول : فطر الإنسان على التوحيد .

خلق الله سبحانه وتعالى عباده حنفاء على الفطرة القويمية ، وركز في نفوسهم الإيمان به .

يقول الله تبارك وتعالى (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون)^١ .

وقال صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه : وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم .^٢ الحديث .
وقال صلى الله عليه وسلم : كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها من جدعاء^٣ .

وقد اختلف أهل العلم في معنى الفطرة على أقوال سآيينها بعون الله وأبين الراجح منها^٤ :

القول الأول : أنها الإسلام .

قال ابن عبد البر : وهو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى : (فطرة الله التي فطر

(١) الروم ٣٠ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار ٤ / ٢١٩٧ حديث رقم ٢٨٦٥ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ٣ / ٢٤٦ حديث رقم ١٣٨٥ .

(٤) انظر هذه الأقوال في : فتح الباري ٣ / ٢٤٨ - ٢٥٠ ، شفاء العليل ص ٤٧٧ - ٤٩٤ ، القرطبي ١٤ / ١٨ - ٢١ .

الناس عليها) الإسلام^١ .

القول الثاني : أن المراد أن ذلك حيث أخذ الله عليهم العهد حيث

قال : (ألسن بربكم قالوا بلى)^٢ .

نقله أبو داود عن حماد بن سلمة^٣ ، وهو مذهب ابن قتيبة^٤ .

القول الثالث : أن المراد كل مولود يولد على السلامة خلقة وطبعاً وبنية ليس

معها كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار ، ثم يعتقد الكفر والإيمان بعد

البلوغ إذا ميز .

وهذا مذهب ابن عبد البر و القرطبي و نقله عن شيخه أبي العباس و

مذهب ابن عطية وهو المفهوم من كلام الخطابي في أعلام الحديث ،

ومذهب الزمخشري^٥ .

القول الرابع : أن المراد أنه يولد على ما يصير إليه من شقاء و سعادة فمن

علم الله أنه يصير مسلماً ولد على الإسلام ، ومن علم الله أنه يصير كافراً

ولد على الكفر ، فكأن صاحب هذا القول أول الفطرة بالعلم كما قال ابن

حجر^٦ .

(١) في نقل هذا الإجماع نظر ، لأن الخلاف حصل في معناها ، ولو كان الإجماع صحيحاً لما

كان للخلاف مسوغ إلا أن يقال إن الإجماع وقع على الآية دون الحديث وهذا ضعيف لأن

المعنى واحد فيهما كما يدل عليه استشهاد أبي هريرة في آخر الحديث بقوله : فاقروا إن شئتم

(فطرة الله . .) كما في مسلم في كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة

٢٠٤٧/٤ حديث رقم ٢٦٥٨ .

(٢) الأعراف ١٧٢ .

(٣) انظر : سنن أبي داود ٥ / ٨٩ حديث رقم ٤٧١٦ .

(٤) انظر : تأويل مختلف الحديث ص ٨٧ — ٨٨ .

(٥) انظر : الكشف ٣ / ٢٢٢ ، المحرر الوجيز ٤ / ٣٣٦ ، القرطبي ١٤ / ١٩ — ٢١ ،

شفاء العليل ص ٤٩٣ — ٤٩٤ ، أعلام الحديث ١ / ٧١٦ — ٧١٧ .

(٦) انظر فتح الباري ٣ / ٢٤٩ .

وهذا القول منسوب إلى ابن المبارك .

القول الخامس : أن الله تعالى خلق فيهم المعرفة ، والإنكار ، فلما أخذ الميثاق من الذرية قالوا جميعاً : بلى ، أما أهل السعادة فقالوها طوعاً ، وأما أهل الشقاوة فقالوها كرهاً .

وهذا القول نقله محمد بن نصر عن إسحاق بن راهوية .

القول السادس : أن اللام في الفطرة للعهد أي فطرة أبويه ، فيكون ابن الكافر كافراً ، وابن المؤمن مؤمناً .

والراجح من هذه الأقوال هو القول الأول وهو المنقول عن

أكثر السلف .

قال ابن القيم رحمه الله : فقد تبين بدلالة الكتاب والسنة والآثار واتفاق السلف على أن الخلق مفلطرون على دين الله الذي هو معرفته ، والإقرار به ، ومحبتة ، والخضوع له ، وأن ذلك موجب فطرتهم ومقتضاها ، يجب حصوله فيها إن لم يحصل ما يعارضه و يقتضي حصول ضده^١ أهـ .

وقد استدل أصحاب القول الأول بأدلة منها :

الدليل الأول : أن عامة السلف فسروا قوله تعالى : (فطرة الله التي

فطر الناس عليها) بالإسلام ، بل قد حكى ابن عبد البر الإجماع على هذا

التأويل كما سبق .

الدليل الثاني : استدلوا بحديث (خمس من الفطرة ٠٠)^٢ فذكر منها

قص الشارب وهو من سنن الإسلام ، فدل على أن المراد بالفطرة الإسلام .

الدليل الثالث : وردت بعض الروايات التي تفسر الفطرة في الحديث ،

ففي رواية الأعمش (ما من مولود إلا هو على الفطرة) وفي رواية ابن معاوية

(١) شفاء العليل ص ٤٩٩ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب اللباس ، باب قص الشارب ١٠ / ٣٣٤ حديث رقم ٥٨٨٩ .

(إلا على هذه الملة حتى يعرب عنه لسانه) وهذا صريح أنه يولد على ملة الإسلام^١ .

الدليل الرابع : استشهاد أبي هريرة راوي الحديث بالآية (فطرة الله التي فطر الناس عليها) على ذلك فإنه يدل على أن معنى الفطرة في الحديث الإسلام لكون الجميع متفق على أن المراد بها في الآية الإسلام .

الدليل الخامس : استدلووا بحديث (خلقت عبادي حنفاء فاجتالهم الشياطين) فالحديث يدل على أن العباد في الأصل حنفاء ، والحنيف في كلام العرب : هو المستقيم المخلص ولا استقامة أكثر من الإسلام . كما قال ابن القيم رحمه الله^٢ .

الدليل السادس : أنه لو لم يرد الإسلام لقال فأبواه يسلمانه ، فلما لم يقل دل على أنه أراد بالفطرة الإسلام .

الدليل السابع : ولأنه لو لم يكن المراد بالفطرة الإسلام لما سأله عقيب ذلك (أرأيت من يموت من أطفال المشركين) لأنه لو لم يكن هناك ما يغير تلك الفطرة لما سأله . نقله ابن القيم عن شيخه^٣ .
وقد أورد بعضهم على هذا القول إيرادين^٤ :

الأول : أنه على هذا القول لا يصح استرقاق ولد الكافر ، ولا يرث أبويه ولا يرثه أبواه لأن اختلاف الدين يمنع الإرث .

(١) انظر هاتين الروايتين في : مسلم كتاب القدر ، باب معنى كل مولود يولد على

الفطرة ٤ / ٢٠٤٨ ، الحديث الثالث والعشرون من أحاديث الباب .

(٢) انظر : شفاء العليل ص ٤٧٤ .

(٣) انظر : شفاء العليل ص ٤٧٥ .

(٤) انظر هذه الإيرادات و الرد عليها في : شفاء العليل ص ٤٧١ — ٤٧٦ — ٤٧٨ ،

فتح الباري ٣ / ٢٤٨ — ٢٤٩ .

الثاني : ولأن هذا القول يمنع أن يكون الكفر خلقاً لله و أصول أهل السنة على خلافه .

والجواب عن الأول : أن الحديث (كل مولود ٠٠) سيق لبيان ما هو في نفس الأمر لا لبيان الأحكام في الدنيا ، فلم يقصد بيان أحكام أولاد الكفار في الدنيا وإنما قصد ما ولد عليه الأطفال من الفطرة ، أما الطفل فإنه يتبع أبويه في الأحكام الدنيوية .

وأما الإيراد الثاني فإنه ليس بلازم فإن القائلين بمنع أن يكون الكفر خلقاً لله وهم القدرية لا يقولون بأول الحديث ولا بآخره .

أما أوله فإنه لم يولد أحد عندهم على الإسلام أصلاً ، ولا جعل الله أحداً مسلماً ولا كافراً عندهم ، وهذا أحدث لنفسه الكفر وهذا أحدث لنفسه الإسلام والله لم يخلق واحداً منهما ولكن دعاهما إلى الإسلام وأزاح علهما ، وأعطاهما قدرة مماثلة فهما يصلحان للضدين ، ولم يخص المؤمن بسبب يقتضي حصول الإيمان فإن ذلك عندهم غير مقدور له ، ولو كان مقدوراً لكان منع الكافر منه ظلماً .

فهؤلاء قالوا : يستحيل أن تكون معرفة الله ضرورة أو تكون ممن فعل الله .

وأما كونهم لا يقولون بآخره فهو أنه ينسب فيه التهود والتنصير إلى الأبوين وعندهم أن المولود هو الذي أحدث لنفسه التهود والتنصير دون الأبوين ، والأبوان لا قدرة لهما على ذلك البتة .

وأيضاً قوله : (الله أعلم بما كانوا عاملين) دليل على أن الله يعلم ما يصيرون إليه بعد ولادتهم على الفطرة هل يبقون عليها فيكونون مؤمنين ، أو يغيرون فيصيرون كفاراً ، فهو دليل على تقدم العلم الذي ينكره غلاة القدرية ، واتفق السلف على تكفيرهم بإنكاره .

فالذي استدلوا به من الحديث على قولهم الباطل وهو قوله (فأبواه يهودانه أو ينصرانه) لا حجة لهم فيه بل هو حجة عليهم ، فغير الله لا يقدر على جعل الهدى والضلال في قلب أحد ، بل المراد بالحديث دعوة الأبوين إلى ذلك وتربيتهم له ، وخص الأبوين بالذكر على الغالب ، وإلا فقد يقع من أحدهما أو من غيرهما ^١ .

وأخرج أبو داود عن ابن وهب قال : سمعت مالكا قيل له : إن أهل الأهواء يحتجون علينا بهذا الحديث .

قال مالك : احتج عليهم بآخره (قالوا أرأيت من يموت وهو صغير ، قال : الله أعلم بما كانوا عاملين) ^٢ .

الأدلة العقلية على صحة ورجحان القول الأول ^٣ :

الدليل الأول : أن الإنسان قد يحصل له من الاعتقادات و الإرادات ما يكون حقاً ، وقد يحصل له ما يكون باطلاً ، وهو حساس متحرك بالإرادة فلا بد له من أحدهما ولا بد له من مرجح لأحدهما .

ونعلم أنه إذا عرض على كل أحد أن يصدق وينتفع وأن يكذب ويتضرر مال بفطرته إلى أن يصدق وينتفع .

وحينئذ فالاعتراف بوجود الصانع والإيمان به هو الحق أو نقيضه ، والثاني فاسد قطعاً ، فتعين الأول ، فوجب أن يكون في الفطرة ما يقتضي معرفة الصانع والإيمان به .

الدليل الثاني : أن عبادته وحده بما يجبه إما أن تكون أكمل للناس

(١) انظر : شفاء العليل ص ٤٧٦ — ٤٧٧ .

(٢) انظر : سنن أبي داود ، كتاب السنة ، باب في ذراري المشركين ٥ / ٨٩ ، حديث رقم ٤٧١٥ .

(٣) انظر هذه الأدلة في : شفاء العليل ٥٠٠ — ٥٠٥ ، شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٤ — ٢٥ .

علماً و قصداً ، أو الإشراك به أكمل ، والثاني معلوم الفساد بالضرورة ، فتعين الأول وهو أن يكون في الفطرة مقتضى يقتضي توحيدته وتأليهه وتعظيمه .

الدليل الثالث : أن الحنيفية وهي دين الله إما أن تكون مع غيرها من الأديان متماثلين أو الحنيفية أرجح أو تكون مرجوحة ، والأول والثالث باطلان قطعاً ، فوجب أن يكون في الفطرة مرجح يرجح الحنيفية ، وامتنع أن يكون نسبتها ونسبة غيرها من الأديان إلى الفطرة سواء .

الدليل الرابع : إذا ثبت أن في الفطرة قوة تقتضي طلب معرفة الحق وإثاره على ما سواه ، وأن ذلك مركز فيها من غير تعليم الأبوين ولا غيرهما كم تجد الصبي إذا ضرب من خلفه يلتفت لعلمه بأن الضربة لا بد لها من ضارب ، فإذا شعر بكى حتى يقتص له ، فلقد ركز في فطرته الإقرار بالصانع وهو التوحيد ، ومحبة القصاص وهو العدل ، وإذا ثبت أن نفس الفطرة مقتضية لمعرفته سبحانه ومحبته وإجلاله ، وتعظيمه والخضوع له من غير تعليم ولا دعاء ، وإن لم تكن فطرة كل أحد مستقلة بتحصيل ذلك ، بل يحتاج كثير منهم إلى سبب معين للفطرة ، مقبول لها ، وهذا السبب لا يحدث في الفطرة ما لم يكن فيها بل يعينها ويذكرها ويقويها .

الدليل الخامس : من المعلوم أن كل نفس قابلة للعلم وإرادة الحق ومجرد التعليم والتحضيض لا يوجب العلم والإرادة لولا أن في النفس قوة تقبل ذلك ، وإلا فلو علم الجماد والبهائم وحضضا لم يقبلوا .
ومعلوم أن حصول إقرارها بالصانع ممكن من غير سبب منفصل من

(١) هكذا العبارة في شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٥ ، ويبدو لي أن العبارة غير صحيحة ، والصحيح أن يقال : (وإلا فلو علم الجماد والبهائم وحضضا قبالاً) بحذف (لم) أو تكون (فلو علم الجماد والبهائم وحضضا لم يقبلوا) بحذف أداة الاستثناء .

خارج ويكون الذات كافية في ذلك .
 فإذا كان المقتضي قائماً في النفس ، وقُدِّرَ عدم المعارض ، فالمقتضي
 السالم عن المعارض يوجب مقتضاه ، فعلم أن الفطرة السليمة إذا لم يحصل لها
 ما يفسدها كانت مقرة بالصانع ، عابدة له .
 وقد أفاض ابن القيم في ذكر أدلة أخرى في كتاب شفاء العليل ويكفي
 في إثبات صحة هذا القول ما ذكرته هنا ، ومن أراد الاستزادة فليرجع إلى
 المرجع المذكور .

الرد على الأقوال الأخرى :

قبل أن أشرع في الرد على بقية الأقوال يحسن أن أنبه على سبب و منشأ
 الخلاف في هذه المسألة .

سبب الخلاف :

منشأ الخلاف في هذه المسألة هو احتجاج القدرية بهذا الحديث على أن
 الكفر ليس من خلق الله مما جعل بعض العلماء يفر من موافقة القدرية في
 تفسيرهم للفطرة بالإسلام كما فسرها القدرية ، ففسرها بما يخالف مذهبهم .
 قال ابن قتيبة رحمه الله : وفرق ما بين أهل القدر وأهل الإثبات في هذا
 الحديث أن الفطرة عند أهل القدر الإسلام ، والفطرة عند أهل الإثبات العهد
 الذي أخذ عليهم حين فطروا^١ . أهـ
 وقال ابن القيم مبيناً سبب الخلاف : ولما صار القدرية يحتجون بهذا
 الحديث على قولهم صار الناس يتأولونه تأويلات يخرجونه بها
 عن مقتضاه^٢ . أهـ

ونقل ابن القيم عن شيخه في هذا الموضوع قوله : وأصل مقصود الأئمة
 صحيح وهو منع احتجاج القدرية بهذا الحديث على نفي القدر لكن لا يحتاج

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٨٨ .

(٢) شفاء العليل ص ٤٧٦ .

مع ذلك أن يفسر القرآن و الحديث إلا بما هو مراد الله ورسوله^١ . أهـ .
 فبين رحمه الله أن القدرية وإن فسروا الفطرة بالإسلام في الحديث
 واحتجوا بذلك على مذهبهم الباطل في أن الكفر و المعصية ليسا بقضاء الله بل
 مما ابتدأ الناس إحدائه فإن هذا لا يمنع أن يبين الإنسان مراد الله ورسوله وإن
 وافق تفسير القدرية في هذه الجزئية فإن هذا هو الحق لكن القدرية
 تناقضت فلم تعمل بأول الحديث ولا بآخره كما سبق بيان ذلك بل
 خرجت عن مراد الله و مراد رسوله إلى قولهم الشنيع في خلق أفعال العباد^٢ .

الرد على الأقوال :

بعد استعراض الأقوال في المراد بالفطرة في الآية و الحديث تبين أن هناك
 فوارق دقيقة بين بعض الأقوال ، وأن هناك أقوال بينة الضعف فالقول الثاني
 والثالث قريبان من القول الأول .

أما القول الرابع و الخامس و السادس فضعفها بين كما سيتضح

إن شاء الله .

الرد على القول الثاني :

وهو أن المراد بالفطرة في الحديث حيث أخذ الله عليهم العهد حيث

قال : (أَلست بربكم قالوا : بلى) (٠٠) .

وهذا المذهب لا يفترق كثيراً عن القول الأول ، ولذلك قال ابن تيمية
 رحمه الله في تفسيره لهذا الحديث : أما قوله صلى الله عليه وسلم : (كل
 مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) فالصواب أنها
 فطرة الله التي فطر الناس عليها وهي فطرة الإسلام وهي الفطرة التي فطرهم

(١) شفاء العليل ص ٤٨٦ .

(٢) انظر : فتح الباري ٣ / ٢٥٠ .

عليها يوم قال : (ألتست بركم قالوا بلى) ، وهي السلامة من الاعتقادات الباطلة و القبول للعقائد الصحيحة ^١ . أهـ

وقال رحمه الله تعالى : ولا يلزم من كونهم مولودين على الفطرة أن يكونوا حين الولادة معتقدين للإسلام بالفعل ، فإن الله أخرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئاً ، ولكن سلامة القلب وقبوله و إرادته للحق الذي هو الإسلام بحيث لو ترك من غير مغير لما كان إلا مسلماً ، وهذه القوة العلمية العملية التي تقتضي بذاتها الإسلام ما لم يمنعها مانع هي فطرة الله التي فطر الناس عليها ^٢ . أهـ

ولكن هناك فارق دقيق وهو أن الذين قالوا بهذا القول إن أرادوا أن الإنسان يولد على مجرد الإقرار بالخالق لما كان لقوله (يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه) معنى ، لأن اليهود و النصارى مقرون بالخالق و كونهم تمودوا أو تنصروا فإنهم لم يخرجوا عن الإقرار بالخالق فهم على هذا القول على الفطرة . ولذلك كان المقصود شيء أعم من الإقرار وهو الإسلام وما يقتضيه من محبة الخالق و تعظيمه و توحيده الذي هو من مقتضيات الفطرة .

قال ابن القيم رحمه الله : والمقصود أن الله فطر عباده على فطرة فيها الإقرار به ومحبه و الإخلاص له و الإنابة إليه و إجلاله و تعظيمه وأن الشخص الخارج عنها لا يحدث فيها ذلك و يجعلها فيها بعد أن لم تكن وإنما يذكرها بما فيها و ينهبها عليه و يحركها له و يفصله لها و بينه ، ويعرفها الأسباب المقوية و الأسباب المعارضة له و المانعة من كماله ، كما أن الشخص الخارج لا يجعل في الفطرة شهوة اللبن عند الرضاع و الأكل و الشرب و النكاح ، وإنما تذكر النفس و تحركها لما هو مركز فيها بالقوة . ومما يبين ذلك أن الإقرار بالصانع مع خلو القلب عن محبه و الخضوع له

(١) مجموع الفتاوى ٤ / ٢٤٥ .

(٢) السابق ٤ / ٢٤٧ .

و إخلاص الدين له لا يكون نافعاً ، بل الإقرار به مع الإعراض عنه وعن محبته و تعظيمه و الخضوع له أعظم استحقاقاً للعذاب ، فلا بد أن يكون للفطرة مقتضى للعلم و مقتضى للمحبة ، والمحبة مشروطة بالعلم ، فإن ما لا يشعر به الإنسان لا يحبه و الحب للمحوبات لا يكون بسبب خارج بل هو جبلي فطري ، فإذا كانت المحبة جبلية فطرية فشرطها وهو المعرفة أيضاً جبلي فطري ، فلا بد أن يكون في الفطرة محبة الخالق مع الإقرار به وهذا أصل الحنيفية التي خلق الله خلقه عليها و فطرته التي فطرهم عليها .

فعلم أن الحنيفية من موجبات الفطرة ومقتضياتها .

و الحب لله و الخضوع له و الإخلاص هو أصل أعمال الحنيفية ، وذلك مستلزم للإقرار و المعرفة ، و لازم اللازم لازم ، وملزوم الملزوم ملزوم ، فالفطرة ملزومة لهذه الأحوال ، وهذه الأحوال لازمة لها . أهـ .

فحاصل القول في القول الثاني أنه لا ينافي القول الأول و لكنه ذكر لبعضه ، فالإقرار جزء الفطرة ، و الفطرة هي الإقرار مع المحبة والخضوع وهذا هو الإسلام .

وبذلك نعلم خطأ من قال إن الفطرة عند أهل الإثبات العهد الذي أخذ عليهم حين فطروا ، و الصواب أن الفطرة هي الإسلام .

الرد على القول الثالث :

الذين قالوا : أن كل مولود يولد على السلامة خلقة و طبعاً و بنية ليس معها كفر ولا إيمان ، ولا معرفة ولا إنكار ، ثم يعتقد الكفر و الإيمان بعد البلوغ .

فمعنى الفطرة عندهم هو قابلية البشر للتوحيد و الإسلام .

وهذا القول يحتمل أمرين :

أحدهما : أنهم خلقوا خالين من المعرفة و الإنكار من غير أن تكون

الفطرة تقتضي واحداً منهما ، بل يكون القلب كاللوح الذي يقبل كتابة الإيمان و الكفر ، و ليس هو لأحدهما أقبل منه للآخر .

الثاني : أنهم ولدوا على الفطرة السليمة التي لو تركت مع صحتها لاختارت المعرفة على الإنكار ، و الإيمان على الكفر ، ولكن بما عرض لها من الفساد خرجت عن هذه الفطرة .

أما الاحتمال الأول ففساد جداً كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية لأنه لا فرق حينئذ بالنسبة إلى الفطرة بين المعرفة و الإنكار ، و التهويد و التنصير و الإسلام ، و إنما ذلك بحسب الأسباب فكان ينبغي أن يقال فأبواه يسلمانه و يهودانه و ينصرانه فلما ذكر أن أبويه يكفرانه و ذكر الملل الفاسدة دون الإسلام علم أن حكمه في حصول ذلك بسبب منفصل عن حكم الكفر^١ .

وعلى هذا التقدير لا يكون في القلب سلامة ولا عطب ، ولا استقامة ولا زيغ ، إذ نسبته إلى كل منهما نسبة واحدة ، و ليس هو بأحدهما بأولى منه بالآخر ، و مثل هذا لا يحكم له بمدح ولا ذم لأنه حينئذ كاللوح الذي يقبل كتابة الأمرين ، وهذا يخالف ورود الفطرة فإنها وردت في معرض الثناء و المدح كما قال سبحانه (فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها) فأمره بلزوم فطرته التي فطر الناس عليها فكيف لا تكون ممدوحة .

و النبي صلى الله عليه و سلم شبهها بالبهيمة المجتمعة الخلق ، و شبه ما طرأ عليها من الكفر بجذع الأنف و الأذن ، و معلوم أن كمالها محمود ، و نقصها مذموم فكيف تكون قبل النقص لا محمودة ولا مذمومة^٢ .

أما على الاحتمال الثاني فإما أن تكون الفطرة مستلزمة

(١) انظر : مجموع الفتاوى ٤ / ٢٤٣ - ٢٤٤ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٤ / ٢٤٣ - ٢٤٤ ، شفاء العليل ص ٤٩٤ - ٤٩٥ .

للمعرفة و الإيمان و إما أن يستوي الأمران المعرفة و الإنكار بالنسبة إليها وهذا ينفي مدحها ، إذ لا فرق حيثذ بين الكفر و الإيمان بالنسبة إليها فثبت أن المعرفة لازمة لها إلا أن يعارضها معارض^١ .

الرد على القول الرابع :

الذين قالوا : إنه يولد على ما يصير إليه من شقاوة و سعادة ، فمن علم الله أنه يصير مسلماً ولد على الإسلام ، ومن علم الله أنه يصير كافراً ولد على الكفر .

واحتجوا بأن معنى الفطرة البداءة فكأنه قال : يولد على ما ابتدأه الله عليه من الشقاء و السعادة مما يصير إليه وقد فطر عليه .

واحتجوا بقوله تعالى (كما بدأكم تهودون فريقاً هدى و فريقاً حق عليهم الضلالة)^٢ .

واستدلوا بحديث الغلام الذي قتله الخضر و قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم : إنه طبع يوم طبع كافراً ، ولو ترك لأرهق أبويه طغياناً و كفراً .

وبيان خطأ هذا القول من وجوه :

الأول : حقيقة هذا القول أن كل مولود يولد على ما سبق في علم الله أنه صائر إليه ، ومعلوم أن جميع المخلوقات بهذه المثابة ، فجميع البهائم مولودة على ما سبق في علم الله لها ، و الأشجار كذلك و حيثذ لا ميزة للإنسان في ذلك لأن كل مخلوق قد خلق على الفطرة .

ثانياً : لو كان كما قالوا لم يكن لقوله صلى الله عليه وسلم (يهودانه) معنى ، فإنهما فعلا به ما هو الفطرة التي ولد عليها .

ثالثاً : قد بينا سابقاً أن الفطرة ذكرت و أريد بها المدح فعلى قولهم

(١) انظر : شفاء العليل ص ٤٩٥ - ٤٩٨ .

(٢) الأعراف ٢٩ - ٣٠ .

يكون الكافر على الفطرة وهي ممدوحة و بالتالي يكون الكفر ممدوحاً لأنه هو فطرة الكافر ، وهذا فاسد جداً .

رابعاً : تمثيل النبي صلى الله عليه وسلم بالبهيمة التي ولدت جمعاء ثم جدعت يبين أن أبويه غيرا ما ولد عليه .

وعلى قولهم لا يصح هذا التمثيل لأنه لم يفعل به إلا الفطرة التي فطر عليها ولم يغيرا منها شيئاً .

خامساً : لا فرق بين حالة الولادة و سائر أحوال الإنسان فإنه من حين كان جنيناً إلى مالا نهاية له من أحواله على ما سبق في علم الله ، فتخصيص الولادة بكونها على مقتضى القدر تخصيص بلا مخصص .

سادساً : قوله في الروايات الأخرى (على هذه الملة) وقوله (إني خلقت عبادي حنفاء) ، مخالف لهذا القول .

سابعاً : أما استدلالهم بالآية فليس في موضعه لأن المقصود بالآية إثبات العلم السابق ، وأن الإنسان يصير إلى ما كتب عليه من الكفر و الإيمان ، ولا يمنع ذلك أن يولد على الفطرة السليمة ثم يعرض له ما يغيرها كما قال في الحديث الصحيح : إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه و بينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . . الحديث .

وذهب ابن القيم بعد تصحيحه لهذا المعنى من حيث الجملة ، ونفيه أن يكون هو المراد من الآية إلى أن معنى الآية معنى نظائرها و أمثالها من الآيات التي يحتج الله سبحانه و تعالى فيها على النشأة الثانية بالأولى ، وعلى المعاد بالمبدأ ، فجاء باحتجاج في غاية الاختصار و البيان فقال (كما بدأكم تعودون) ، وهو كقوله (يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ٠٠) ، وقوله (وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه ٠٠) ، وقوله (أيجسب الإنسان أن يترك سدى) إلى قوله (أليس ذلك بقادر

على أن يحي الموتى) ، وقوله (فليُنظر الإنسان مما خلق خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب إنه على رجعه لقادر) .

وأما قوله : (فريقاً هدى و فريقاً حق عليهم الضلالة) فوجه الارتباط أن الآية تضمنت قواعد الدين علماً و عملاً و اعتقاداً ، فأمر سبحانه فيها بالقسط الذي هو حقيقة شرعه و دينه ، وهو يتضمن التوحيد ، فإنه أعـدل العدل ، والعدل في معاملة الخلق ، والعدل في العبادة وهو الاقتصاد في السنة ، ويتضمن الأمر بالإقبال على الله و إقامة عبوديته في ثبوته ، ويتضمن الإخلاص له ، وهو عبوديته وحده لا شريك له ، فهذا ما فيها من العمل .

ثم أخبر بمبدأهم و معادهم فتضمن ذلك حدوث الخلق و إعادته ، فذلك الإيمان بالمبدأ و المعاد .

ثم أخبر عن القدر الذي هو نظام التوحيد فقال (فريقاً هدى و فريقاً حق عليهم الضلالة) .

فتضمنت الآية الإيمان بالقدر ، و الشرع ، و المبدأ ، و المعاد ، و الأمر بالعدل ، و الإخلاص ، ثم ختم الآية بذكر حال من لم يصدق هذا الخبر ، و لم يطع الأمر بأنه قد أطاع الشيطان دون ربه و أنه على ضلال وهو يحسب أنه على هدى^١ . أهـ

وما ذكره رحمه الله في تفسير الآية وجيه جداً .

ثامناً : أما استشهادهم بحديث الغلام الذي قتله الخضر وأنه طبع يوم طبع كافراً فإن الطبع هنا الكتابة أي أنه كتبه كافراً ، أي إن عاش كفر بالفعل ، وهذا كحديث (يكتب رزقه و أجله و عمله و شقي و سعيد)^٢ .

وبهذا يتبين خطأ هذا القول .

(١) انظر : شفاء العليل ص ٤٨٤ - ٤٨٥ .

(٢) انظر : مجموع الفتاوى ٤ / ٢٤٦ ، شفاء العليل ص ٤٨١ ، ٤٨٨ - ٤٩٠ .

الرد على القول الخامس :

الذين قالوا : إن الله تعالى خلق فيهم المعرفة و الإنكار ، فلما أخذ الميثاق من الذرية قالوا جميعاً : بلى ، أما أهل السعادة فقالوها طوعاً ، و أما أهل الشقاوة فقالوها كرهاً .

واستدلوا بقوله تعالى (وله أسلم من في السماوات و الأرض طوعاً و كرهاً) ، وقوله (كما بدأكم تهودون فريقاً هدى و فريقاً حق عليهم الضلالة . .) .

والرد على هذا القول من أوجه :

الأول : أن هذا التقسيم الذي ذكره يحتاج إلى نقل صحيح ، و لم ينقل عن أحد من السلف إلا عن السدي في تفسيره في أثر لا يوثق به ، فإن في تفسير السدي أشياء قد عرف بطلانها .

الثاني : أن هذا الخبر يعارض سائر الآثار التي تتضمن التسوية بين جميع الناس في الإقرار .

الثالث : أن قوله تعالى (وله أسلم من في السماوات و الأرض طوعاً و كرهاً . .) إنما هو في الإسلام الموجود منهم بعد خلقهم ، لم يقل أنهم حين العهد الأول أسلموا طوعاً و كرهاً .

يدل على ذلك أن ذلك الإقرار الأول جعله الله حجة على من نسيه ولو كان فيهم كاره لقال : لم أقر طوعاً بل كرهاً ، فلا يقوم به عليه حجة .

وبهذا يظهر بطلان هذا القول .

(١) انظر هذه الأوجه في : شفاء العليل ص ٤٨٧ .

الرد على القول السادس :

الذين قالوا : إن اللام في الفطرة للعهد أي فطرة أبويه .
والرد عليه : أنه لو كان الأمر كما يقولون لاقتضى أن يقول في
الحديث : (يسلمانه) ولكنه لما ذكر ملل الكفر دون ملة الإسلام دل
على أن المراد بالفطرة الإسلام .
ولو كان المعنى كما يقولون لما صح تشبيه النبي صلى الله عليه وسلم
في آخر الحديث ^١ .
وهذا المعنى منقوض بالطفل الذي يولد بين أبوين كافرين ثم يعتقد
الإسلام بعد ذلك .
وبهذا يتبين بطلان هذا القول .
وبعد استعراض هذه الأقوال وبيان الراجح منها وهو أن الفطرة هي
الإسلام يتبين ما أردت أن أبينه هنا من أن الله تبارك وتعالى ركز في نفوس
عباده توحيده وسهل لهم بذلك قبول الحق الذي بعث به رسله كل ذلك
من أجل محبته لإسلام عباده له و دخولهم في طاعته و تحقيق الغاية التي من
أجلها أوجدتهم حتى يفوزوا برضاه و يكونون أهلاً لمساكنته في الجنة .

(١) انظر : فتح الباري ٣ / ٢٥٠ .

السبيل الثاني : إعطاؤه العقل .

العقل هو سر تميز الإنسان عن غيره من المخلوقات ، فبالعقل استطاع أن يتغلب على من هو أقوى منه ، وبالعقل استطاع أن يذلل الرواسي الشائخات ، واستطاع أن ينتقل في ملكوت الأرض و السماوات فما هي هذه القوة العجيبة وما فائدتها وما أدواتها .

ماهية العقل :

يقول الجرجاني في تعريفاته : العقل جوهر مجرد عن المادة في ذاته مقارن لها في فعله ، وهي النفس الناطقة التي يشير إليها كل أحد بقوله أنا .
 وقيل : العقل جوهر روحاني خلقه الله تعالى متعلقاً ببدن الإنسان .
 وقيل : العقل نور في القلب يعرف الحق و الباطل .
 وقيل : العقل جوهر مجرد عن المادة يتعلق بالبدن تعلق التدبير والتصرف .

وقيل : العقل قوة للنفس الناطقة ، وهو صريح أن القوة العاقلة أمر مغاير للنفس الناطقة وأن الفاعل في الحقيقة هو النفس ، والعقل آلة لها بمرتلة السكين بالنسبة للقاطع .

وقيل : العقل و النفس و الذهن واحد ، إلا أنها سميت عقلاً لكونها مدركة ، وسميت نفساً لكونها متصرفة ، وسميت ذهنياً لكونها مستعدة للإدراك^١ . أهـ

وقال الراغب في مفرداته : العقل يقال للقوة المتهيئة لقبول العلم ، ويقال للعلم الذي يستفيده الإنسان بتلك القوة عقلاً .

ثم قال : وأصل العقل : الإمساك و الاستمساك كعقل البعير بالعقال و عقل الدواء البطن ، وعقلت المرأة شعرها ، وعقل لسانه : كفه ، ومنه قيل

(١) تعريفات الجرجاني ص ١٥١ - ١٥٢ .

للحصن : معقل وجمعه معقل^١ . أهـ

فالعقل هو قوة يستطيع الإنسان بها تمييز الحسن من الرديء والخير من الشر والحق من الباطل ، ويستطيع بها قبول العلم .
والله سبحانه وتعالى لما خلق الإنسان وأراد منه أن يعبده وحده لا شريك له ، هياً له من الأسباب ما يوصله إلى مراده سبحانه ومن هذه الأسباب ما سبق ذكره من خلقه على الفطرة وهي الإسلام واستعداده الخلقى و النفسي لقبوله .

ومنها أنه خلق له العقل ، وجعله قوة يستطيع الإنسان بها إدراك الحق من الباطل والخطأ من الصواب بناءً على أمارات يستدل بها على ذلك .
والإعمال الصحيح للعقل يمنع الإنسان من الاعتقادات الباطلة و الأمور الضارة به ، فهو حصن حصين يتحصن به الإنسان إذا سلم من الآفات والأهواء .

فالعقل أداة تمييز وإدراك يوصل صاحبه إلى الإيمان بالله تعالى لأنه متوافق مع مقتضيات الفطرة المركوزة في الإنسان ، ولذلك فإننا نجد كثيراً من علماء الطبيعة الذين تعمقوا في مجالات تخصصاتهم لم يجدوا بداً من الاعتراف بوجود الصانع الحكيم^٢ .

والقرآن الكريم يوجه الإنسان كثيراً إلى استعمال عقله في التفكير و النظر في ملكوت السماوات و الأرض و الخروج بالنتائج الحتمية لذلك وهي الإيمان بالله سبحانه وبوحدانيته ، ولذلك فإن كثيراً من الآيات الكونية تختم ببيان أن المستفيد منها هم أصحاب العقول (إن في ذلك لآيات

(١) مفردات الراغب ص ٣٤١ — ٣٤٢ .

(٢) انظر أمثلة على ذلك في : (العلم يدعو للإيمان) للأستاذ كريسي موريسون ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي ، (الله يتجلى في عصر العلم) تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين أشرف على تحريره جون كلوفرمونسيما ترجمة الدكتور الدمرداش عبدالمجيد سرحان .

لقوم يعقلون (١) ، (كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) (٢) ،
 (كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تعقلون) (٣) .

وليس كل الناس يستفيدون من تلك الآيات وإن كانوا يمتلكون هذه
 النعمة العظيمة وإنما المستفيد منها من أعملها الأعمال الصحيح وكان قصده
 وهدفه الوصول إلى الحق ، أما من كان لا يريد الحق ولا يطلبه فليس
 بمستفيد من تلك الآيات ولا من غيرها قال تعالى (وما كان لنفس أن
 تموت إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون قل انظروا
 ماذا في السموات و الأرض وما تغني الآيات و النذر عن قوم
 لا يؤمنون) (٤) .

وهؤلاء وإن امتلكوا العقول إلا إنهم لم يستعملوها فيما يعود عليهم
 بالنعف ولذلك هم كمن لا عقل لهم من الدواب بل هم أسوأ حالاً من
 الدواب التي تتجنب ما يضرها وتسعى لما ينفعها قال تعالى عن
 هؤلاء (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن و الإنس لهم قلوب لا
 يفقهون بها وهم أعين لا يبصرون بها وهم آذان لا يسمعون بها أولئك
 كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) (٥) .

قال ابن جرير رحمه الله في هذه الآية : وأما قوله (لهم قلوب لا
 يفقهون بها) فإن معناه : لهؤلاء الذين ذرأهم الله لجهنم من خلقه قلوب
 لا يتفكرون بها في آيات الله ، ولا يتدبرون بها أدلته على وحدانيته ، ولا
 يعتبرون بها حججه لرسله ، فيعلموا توحيد ربهم ، ويعرفوا حقيقة نبوة

(١) الرعد ٤ .

(٢) الروم ٢٨ .

(٣) البقرة ٢٤٢ .

(٤) يونس ١٠٠ - ١٠١ .

(٥) الأعراف ١٧٩ .

أنبيائهم ، فوصفهم ربنا جل ثناؤه بأنهم لا يفقهون بها لإعراضهم عن الحق ،
وتركهم تدبر صحة الرشد وبطول الكفر .

وكذلك قوله : (ولهم أعين لا يبصرون بها) معناه : ولهم أعين لا
ينظرون بها إلى آيات الله و أدلته فيتأملوها ، ويتفكروا فيها ، فيعلموا بها
صحة ما تدعوهم إليه رسلهم ، وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك
بالله ، وتكذيب رسله ، فوصفهم بتركهم إعمالها في الحق بأنهم لا
يبصرون بها .

وكذلك قوله : (ولهم آذان لا يسمعون بها) آيات كتاب الله
فيعتبروها ويتفكروا فيها ، ولكنهم يعرضون عنها ويقولون (لا تسمعوا
لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)^١ وذلك نظير وصف الله إياهم
في موضع آخر بقوله (صم بكم عمي فهم لا يعقلون)^٢ .

والعرب تقول ذلك للتارك استعمال بعض جوارحه فيما يصلح له ومنه
قول مسكين الدارمي^٣ :

أعمى إذا ما جارتني خرجت حتى يوارى جارتني الستر
وأصم عما كان بينهما سمعي وما بالسمع من وقر
فوصف نفسه لتركه النظر والاستماع بالعمى و الصمم .

ومنه قول الآخر :

وعوراء اللثام صممت عنها وإني لو أشاء بها سميع
وبادرة وزعت النفس عنها ولو بينت من العصب الضلوع

(١) فصلت ٢٦ .

(٢) البقرة ١٨ .

(٣) هو ربيعة بن عامر بن أنيف التميمي ، شاعر عراقي شجاع من أشرف تميم لقب مسكينا
لأبيات قال فيها : أنا مسكين لمن أنكرني ، له أخبار مع معاوية توفي سنة ٨٩ هـ . انظر :

الأعلام ٣ / ١٦ .

وذلك كثير في كلام العرب و أشعارها ١ . أهـ

وقال ابن كثير في تفسيره هذه الآية : يعني ليس ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التي جعلها الله سبباً للهداية ٢ . أهـ

وقد ذم القرآن الكريم هذا الصنف من الناس حتى جعل الأنعام أحسن حالاً منه كما في هذه الآية ، وبين في آية أخرى أن هؤلاء هم شر الدواب كما قال تعالى : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) ٣ .
فبين سبحانه أنه لا فهم لهم صحيح ولو كان لهم فهم صحيح فليس لهم قصد صحيح ٤ .

وسائل العقل في التفكير :

بين القرآن الكريم أن هناك وسائل إذا أهملها الإنسان فقد أهمل عقله حتى يصير كالأنعام في مرتبته بل في مرتبة أقل منها كما قال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والأنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) ٥ .

فبينت الآية الكريمة سبب دخولهم جهنم وهو عدم استعمالهم لوسائل العقل التي يتوصل بها إلى الحق وهي السمع والبصر والفؤاد .
فالقلب أو الفؤاد هو مكان الفقه والفهم وهو أداة التمييز بين الحق والباطل وهو حقيقة العقل والتفكير ولا تستفيد بقية الوسائل إلا به .

(١) ابن جرير ٩ / ١٧٦ - ١٧٧ .

(٢) ابن كثير ٢ / ٢٦٨ .

(٣) الأنفال ٢٢ - ٢٣ .

(٤) انظر : ابن كثير ٢ / ٢٩٧ .

(٥) الأعراف ١٧٩ .

قال تعالى (أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)^١ .

وأما وسيلة السمع فتكون لما يقال ويتلى من آيات الله ، قال تعالى (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد)^٢ .

وقال تعالى : (والذين إذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعمياناً)^٣ .

ولذلك فإن الكفار حاولوا منع الناس من سماع القرآن الكريم وتواصوا فيما بينهم على اللغو عند تلاوته حتى لا يفهم ، قال تعالى (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون)^٤ .

قال ابن عطية : قوله عز وجل (لا تسمعوا لهذا القرآن) حكاية لما فعله بعض قريش كأبي جهل ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ القرآن في المسجد الحرام ويصغى إليه الناس من مؤمن و كافر ، فخشي الكفار استمالة القلوب بذلك ، فقالوا : متى قرأ محمد فلنلغظ نحن بالمكء والصفير والصياح وإنشاد الشعر و الإرجاز حتى يخفى صوته ولا يقع الاستماع منه^٥ . أهـ

وأما وسيلة البصر فتكون لما يرى بالعين من آثار قدرة الله في خلقه وفعله بالمكذبين كما قال تعالى (أولم يرو أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز

(١) الحج ٤٦ .

(٢) ق ٣٧ .

(٣) الفرقان ٧٣ .

(٤) فصلت ٢٦ .

(٥) المحرر الوجيز ١٣ / ٥ .

فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ (١) .

وقال تعالى : (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة

المكذابين) (٢) .

فهذه هي وسائل العقل للإدراك ، وهي التي تقوده إلى الإيمان بالله تعالى إن استعملها استعمالاً صحيحاً ، أو تقوده إلى جهنم إن أهملها ولذلك أخبر الله تعالى أن الإنسان سيسأل عن هذه الوسائل حيث قال : (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً) (٣) .

قال القرطبي : أي يسأل كل واحد منهم عما اكتسب ، فالفؤاد يسأل عما افتر فيه واعتقده والسمع والبصر عما رأى من ذلك وسمع (٤) . أهـ

ولما كانت هذه الوسائل من الطرق الموصلة إلى الله تبارك وتعالى كانت بذلك نعمة من الله تبارك وتعالى تستحق الشكر قال تعالى (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) (٥) .

وقال تعالى : (وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة

قليلاً ما تشكرون) (٦) .

(١) السجدة ٢٧ .

(٢) الأنعام ١١ .

(٣) الإسراء ٣٦ .

(٤) القرطبي ١٠ / ١٦٩ .

(٥) النحل ٧٨ .

(٦) المؤمنون ٧٨ .

مجالات التفكير للعقل البشري :

العقل البشري نعمة كبرى أنعمها الله على الإنسان يستطيع به أن يتوصل إلى الحق ويعينه على أداء المهمة المطلوبة منه وهي العبادة على الوجه الصحيح .

والله سبحانه وتعالى وجه العقل البشري في القرآن ليتفكر في أمور تساعد على أداء المهمة ومعرفة الحقيقة فمن هذه الأمور :

أولاً : الآيات الكونية الماثثة في الآفاق ، الناطقة بوجود الخالق الحكيم
وبوحدايته .

وذلك مثل خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، ونزول المطر ، وإنبات الزرع ، والحياة والموت ، وكل ما يقع عليه بصر الإنسان من الدواب والأنعام ، ونفسه التي بين جنبيه .

قال تعالى (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون)^١ ، وقال تعالى : (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون)^٢ ، وقال تعالى (الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات

(١) الذاريات ٢٠ - ٢١ .

(٢) البقرة ١٦٤ .

وجنت من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد
ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون (١) .
والآيات في هذا الموضوع كثيرة جداً .

وتوجيه العقول إلى الآيات الكونية اتخذ أساليب عدة في القرآن يمكن
تقسيمها إلى قسمين :

١- التوجيه المباشر :

وذلك بالأمر بالنظر كما قال تعالى : (قل انظروا ماذا في السماوات
والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) (٢) .

قال ابن كثير رحمه الله : يرشد تعالى عباده إلى التفكير في الآية وما خلق
الله في السماوات والأرض من الآيات الباهرة لذوي الأبصار مما في السماوات
من كواكب نيرات ، ثوابت وسيارات ، والشمس والقمر والليل والنهار
واختلافهما وإيلاج أحدهما في الآخر حتى يطول هذا ويقصر هذا ، ثم
يقصر هذا ويطول هذا ، وارتفاع السماوات واتساعها وحسنها وزينتها ، وما
أنزل الله منها من مطر فأحيا به الأرض بعد موتها ، وأخرج فيها من
أفانين الثمار والزرع والأزاهير ، وصنوف النبات وما ذراً فيها من
دواب مختلفة الأشكال والألوان والمنافع ، وما فيها من جبال وسهول وقفار
وعمران وخراب ، وما في البحر من العجائب والأمواج وهو مع هذا
مسخر مدلل للمساكين يحمل سفنهم ويجري بها برفق بتسخير القدير لا إله
إلا هو ولا رب سواه (٣) . أهـ

(١) الرعد ٢ - ٤ .

(٢) يونس ١٠١ .

(٣) ابن كثير ٢ / ٤٣٣ - ٤٣٤ .

٢- التوجيه غير المباشر :

وذلك عن طريق الاستفهام مثل قوله تعالى (أولم يـروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون)^١ .

أو عن طريق الخبر كقوله تعالى (إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين)^٢ .

أو التحضيض كقوله تعالى : (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت)^٣ .

أو القسم وذلك أن الله يقسم ببعض مخلوقاته تنبيهاً للناس على ما تحويه تلك المخلوقات من مجالات التفكير والتدبر كقوله تعالى (والذاريات ذروا فالحاملات وقرا فالجاريات يسرا فالمقسمات أمراً)^٤ .

ففيه لفت نظر للإنسان إلى الرياح وما تذرؤه ، والسحب وما تحمله من الماء ، والسفن العظيمة التي تجري في البحار بسهولة ويسر ، والملائكة التي تقسم الأرزاق^٥ .

وكذلك قوله تعالى (والشمس وضحاها والقمر إذا تلاها والنهار إذا جلاها والليل إذا يغشاها والسماء وما بناها والأرض

(١) السجدة ٢٧ .

(٢) الجاثية ٣ .

(٣) الغاشية ١٧ - ٢٠ .

(٤) الذاريات ١ - ٤ .

(٥) انظر : ابن جرير ٢٦ / ٢٤٠ .

وما طحاها ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها (١) .

ثانياً : النظر في أحوال السابقين .

وهو عن طريق السمع والبصر .

أما البصر فهو لما بقيت آثاره من الأمم السابقة كعاد وثور

وقوم لوط وغيرهم .

ومن هذا قوله تعالى (قل سيروا في الأرض ثم انظروا كيف

كان عاقبة المكذبين) (٢) .

وقال تعالى (وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم) (٣) الآية .

وقال تعالى (وإنما لبسبيل مقيم) (٤) .

وقال تعالى (وإنكم لتمررون عليهم مصبحين

وبالليل أفلا تعقلون) (٥) .

أما طريق السمع فهو لما لم يتمكنوا من معاينة آثاره من الأمم الغابرة

وإنما بلغهم أخبارهم عن طريق الرسل أو غيرهم .

قال تعالى في الموعظة السمعية (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم

من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) (٦) .

وقال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) (٧) الآية .

وقال تعالى : (فاقصص القصص لعلهم يتفكرون) (٨) .

(١) الشمس ١ - ٨ .

(٢) الأنعام ١١ .

(٣) العنكبوت ٣٨ .

(٤) الحجر ٧٦ .

(٥) الصافات ١٣٧ - ١٣٨ .

(٦) السجدة ٢٦ .

(٧) يوسف ١١١ .

(٨) الأعراف ١٧٦ .

ثالثاً : التفكير والنظر في الأمور الدالة على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم وصدق ما جاء به من عند الله .

أما التفكير في صدق الرسول فقد قال الله تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد) .

ففي الآية حث على إعمال العقول في دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم والنظر في الأمارات الدالة على صدقه بما عهدوه عنه من الصدق والأمانة ورجحان العقل إذ لو كان كاذباً لا بتغى من وراء دعوته نفعاً دنيوياً ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يكن كذلك ولذلك لم يسألهم على دعوته أجراً .

قال الزمخشري في الكشاف : (بواحدة) أي بخصلة واحدة ، وقد فسرها بقوله (أن تقوموا) على أنه عطف بيان لها .

وأراد بقيامهم إما القيام عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وتفرقهم عن مجتمعهم عنده ، وإما القيام الذي لا يراد المثل على القدمين ولكن الانتصاب في الأمر ، والنهوض فيه بالهمة والمعنى : إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم وهي أن تقوموا لوجه الله خالصاً متفرقين اثنين اثنين وواحداً واحداً .

(ثم تفكروا) في أمر محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، أما الإثتان فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه ، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين ، لا يميل بهما إتباع هوى ، ولا ينبض لهما عرق عصبية ، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه .

وكذلك الفرد يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها ويعرض فكره على عقله وذهنه ، وما استقر عنده من

عادات العقلاء ومجاري أحوالهم .

والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ،
ويعمي البصائر ، ويمنع من الرؤية ، ويخلط القول ، ومع ذلك يقلل
الإنصاف ، ويكثر الاعتساف ، ويثور عجاج التعصب ، ولا يسمع إلا
نصرة المذهب .

وأراهم بقوله (ما بصاحبكم من جنة) أن هذا الأمر العظيم الذي تحته
ملك الدنيا والآخرة جميعاً لا يتصدى لادعاء مثله إلا رجلاً : إما
مجنون لا يبالي بافتضاحه إذا طوب بالبرهان فعجز ، بل لا يدري ما
الافتضاح وما رقة العواقب .

وأما عاقل راجح العقل ، مرشح للنبوة ، مختار من أهل الدنيا ، لا
يدعيه إلا بعد صحته عنده بحجته وبرهانه ، وإلا فما يجدي على العاقل دعوى
شيء لا بينة له عليه !؟

وقد علمتم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ما به من جنة ، بل علمتموه
أرجح قريش عقلاً ، وأرزهم علماً ، وأثقبهم ذهنًا ، وأصلهم رأياً ، وأصدقهم
قولاً ، وأنزههم نفساً ، وأجمعهم لما يحمد عليه الرجال ويمدحون به ، فكان
مظنة لأن تظنوا به الخير وترجحوا فيه جانب الصدق على الكذب ، وإذا
فعلتم ذلك كفاكم أن تطالبوه بأن يأتيكم بآية ، فإذا أتى بها تبين أنه
نذير مبين^١ . أهـ

وهكذا يبين لنا الزمخشري رحمه الله تعالى الطريقة التي يجب على
الإنسان سلوكها لمعرفة صدق دعوة الرسول في أحسن عبارة وأتم بيان .
ويكمل هذا الموضوع والنظر العقلي في صحة دعوة الرسول صلى
الله عليه وسلم البيضاوي رحمه الله حيث يقول مفسراً للآية التي

(١) الكشاف ٣ / ٢٩٤ - ٢٩٥ .

بعدها (قل ما سألتكم عليه من أجر ٠٠) : أي شيء سألتكم من أجر على الرسالة (فهو لكم) والمراد نفي السؤال عنه كأنه جعل النبي مستلزماً لأحد الأمرين : إما الجنون ، وإما توقع نفع دنيوي ، لأنه إما أن يكون لغرض أو لغيره ، وأياً ما كان يلزم أحدهما ثم نفي كلاً منهما^١ . أهـ

وأما التفكير في صدق ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقد جاء في أساليب عدة منها :

التحدي بالإتيان بمثله قال تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)^٢ .

وقال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)^٣ .
وقال تعالى (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين)^٤ .

فإذا عجزوا عن الإتيان بمثله وهم أهل اللغة والفصاحة يكون قد أقام عليهم الحجة بأن هذا القرآن كلام الله الذي لا يستطيع مثله ، وقطع عليهم طريق التكذيب به .

ومن الأساليب في هذا الموضوع المقارعة بالحجة ومنه قول الله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا أت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا

(١) البيضاوي ٢ / ٢٦٥ .

(٢) البقرة ٢٣ .

(٣) الإسراء ٨٨ .

(٤) هود ١٣ .

ما يوحى إلي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم قل
لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من
قبله أفلا تعقلون فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته إنه
لا يفلح المجرمون) ١ .

قال البيضاوي مفسراً لهذه الآية ومقررراً للحجة العقلية التي أوردها
القرآن الكريم: (قل لو شاء الله) غير ذلك ، (ما تلوته عليكم ولا
أدراكم به) ولا أعلمكم به على لساني ، وعن ابن كثير (ولأدراكم
به) بلام التأكيد أي لو شاء الله ما تلوته عليكم ولأعلمكم به على لسان
غيري ، والمعنى : أنه الحق الذي لا محيص عنه ، لو لم أرسل به
لأرسل به غيري .

ثم قال : (فقد لبثت فيكم عمراً) مقدار أربعين سنة (من قبله) أي
من قبل القرآن لا أتلوه ولا أعلمه ، فإنه إشارة إلى أن القرآن معجز خارق
للعادة ، فإن من عاش بين أظهرهم أربعين سنة لم يمارس فيها علماً ، ولم
يشاهد عالماً ، ولم ينشئ قريضاً ، ولا خطبة ، ثم قرأ عليهم كتاباً بزت
فصاحته فصاحة كل منطق ، وعلا عن كل منشور ومنظوم ، واحتوى على
قواعد علمي الأصول والفروع ، وأعرب عن أقاصيص الأولين وأحاديث
الآخرين على ما هي عليه ، علم أنه معلم به من الله تعالى .

(أفلا تعقلون) أي أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكير فيه
لتعلموا أنه ليس إلا من الله ٢ . أهـ .

ومن أساليب القرآن في إثبات صدق ما جاء به الرسول بالحجج العقلية
الدفاع عن المطاعن الموجهة إلى القرآن الكريم بتفنيدها وبيان بطلانها كمن

(١) يونس ١٥ - ١٧ .

(٢) البيضاوي ١ / ٤٣٠ - ٤٣١ .

قال إن النبي صلى الله عليه وسلم تعلم القرآن من بشر قال
تعالى (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يلحدون
إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين)^١ .

قال البيضاوي رحمه الله في هذه الآية : (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما
يعلمه بشر) يعنون جبراً الرومي غلام عامر بن الحضرمي ، وقيل جبراً ويسراً
كانا يصنعان السيوف بمكة ويقرآن التوراة والإنجيل ، وكان الرسول صلى الله
عليه وسلم يمر عليهما ويسمع ما يقرآنه .

(لسان الذي يلحدون إليه أعجمي) لغة الرجل الذي يميلون قولهم
عن الاستقامة إليه ، مأخوذ من لحد القبر .

(وهذا) القرآن (لسان عربي مبين) ذو بيان وفصاحة ، والجملتان
مستأنفتان لإبطال طعنهم وتقريره يحتمل وجهين :

أحدهما : أن ما سمعه منه كلام أعجمي لا يفهمه هو ولا أئتم ،
والقرآن عربي تفهمونه بأدنى تأمل ، فكيف يكون ما تلقفه منه ؟!

ثانيهما : هب أنه تعلم منه المعنى باستماع كلامه لكن لم يتلقف منه
اللفظ ، لأن ذلك أعجمي ، وهذا عربي ، والقرآن كما هو معجز باعتبار
المعنى فهو معجز من حيث اللفظ ، مع أن العلوم الكثيرة التي في القرآن
لا يمكن تعلمها إلا بملازمة معلم فائق في تلك العلوم مدة متطاولة ، فكيف
تعلم جميع ذلك من غلام سوقي سمع منه في بعض أوقات مروره عليه كلمات
أعجمية لعلهما لم يعرفا معناهما .

وطعنهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الركيكة دليل على غاية
عجزهم^٢ . أهـ

(١) النحل ١٠٣ .

(٢) البيضاوي ١ / ٥٥٧ باختصار .

فهذه بعض الأساليب العقلية التي ذكرها القرآن حجة على صدق

الرسالة والرسول .

رابعاً : النظر في الأدلة المثبتة لبعض العقائد كالإيمان بالله والإيمان باليوم

الآخر وغير ذلك .

أما الإيمان بالله فإن القرآن الكريم فيه الكثير من الآيات الدالة عليه —

أعني الآيات التي تلفت العقل إلى هذا الأمر — وقد ذكرت في النقطة الأولى

بعض ذلك وهو النظر في الآيات الكونية المثبتة في الآفاق .

وما أريد أن أضيفه هنا هو لفت نظر الإنسان إلى ما هو مركز في

فطرته من الإيمان بالله .

وقد ضرب القرآن الكريم مثلاً حياً يعيشه كثير من الناس

ويدركونه تمام الإدراك وهو دعاء الإنسان ربه والالتجاء إليه عند

ركوب البحر واضطراب الأمواج قال تعالى (فإذا

ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاههم إلى

البر إذا هم يشركون)^١ .

وقال تعالى (وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه

فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً)^٢ .

وقال تعالى (قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعاً

وخفية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها

ومن كل كرب ثم أنتم تشركون)^٣ .

(١) العنكبوت ٦٥

(٢) الإسراء ٦٧ .

(٣) الأنعام ٦٣ — ٦٤ .

إن انبعاث الفطرة في ساعة الشدة إلى بارئها لدليل تدركه العقول
السليمة أيما إدراك على وجود الخالق العظيم .

وأما الإيمان بالبعث فالآيات التي تناقش العقل فيه كثيرة ومنها الآيات
التي سبق ذكرها في خلق الإنسان .

ومن الطرق العقلية لإثبات البعث في القرآن الاستدلال بالنشأة الأولى
على الرجعة ومنه قول الله تعالى (وقالوا أتأذا كنا عظاماً ورفاتاً أعدنا لمبعوثون
خلقاً جديداً قل كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في
صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة فسينغضون
إليك رءوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريباً)^١ .

ويستدل القرآن بدليل عقلي آخر على هذا الموضوع وهو أن خلق
الخلق عبثاً مناف للحكمة وهم مقرون بأن الله عزيز عليم لا يفعل إلا ما
يوافق العلم والحكمة قال تعالى (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا
لا ترجعون فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم)^٢ .

وقال تعالى : (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن
خلقهن العزيز العليم)^٣ .

فهذه بعض الأمثلة لما وجه القرآن الكريم العقل ليتأمل فيها ويتدبر
ويخرج بالنتائج الصحيحة التي توصله إلى خالقه وبارئه .

قال ابن تيمية في هذه الحجج : فالاستدلال على الخالق بخلق
الإنسان في غاية الحسن والاستقامة ، وهي طريقة عقلية صحيحة وهي
شرعية دل القرآن عليها وهدى الناس إليها وأرشد إليها .
وهي عقلية في نفس كون الإنسان حادثاً بعد أن لم يكن ، ومولوداً

(١) الإسراء ٤٩-٥١ .

(٢) المؤمنون ١١٥ - ١١٦ .

(٣) الزخرف ٩ .

ومخلوقاً من نطفة ثم من علقه ، هذا لم يعلم بمجرد خبر الرسول بل هذا يعلمه الناس كلهم بعقولهم سواء أخبر به الرسول أو لم يخبر لكن الرسول أمر أن يستدل به ، ودل به وبينه واحتج به فهو دليل شرعي لأن الشارع استدل به وأمر أن يستدل به ، وهو عقلي لأنه بالعقل تعلم صحته .

وكثير من المتنازعين في المعرفة هل تحصل بالشرع أو بالعقل لا يسلكونه وهو عقلي شرعي ، وكذلك غيره من الأدلة التي في القرآن مثل الاستدلال بالسحاب والمطر مذكور في القرآن . . . فالآيات التي يريها الناس حتى يعلموا أن القرآن حق هي آيات عقلية يستدل بها العقل على أن القرآن حق وهي شرعية دل الشرع عليها وأمر بها^١ . أهـ

والرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم قد استخدموا الحجج العقلية في إثبات استحقاق الله للعبادة ومنهم على سبيل المثال إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي أوتي من الحجة والبرهان ما ألجم به أعداء الله وأحبرهم على الاعتراف بخطئهم ولذلك قال الله عنه (وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء إن ربك حكيم عليم)^٢ .

فإبراهيم عليه السلام في أكثر من موضع يلزم الكفار ببطان حججهم وقد ذكر القرآن الكريم احتجاج إبراهيم على الذي حاج في ربه واحتجاجه على قومه في سورة الأنعام وفي سورة الأنبياء والصفات وغير ذلك^٣ .

وسأذكر مثلاً لذلك وهو ما ذكره الله تعالى في سورة الأنبياء عن إبراهيم عندما كسر أصنام قومه فسأل قومه : (من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمين) .

فقال بعضهم : (سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم) .

(١) النبوات ص ٧١ - ٧٢ باختصار .

(٢) الأنعام ٨٣ .

(٣) انظر : البقرة ٢٥٨ ، الأنعام ٧٤ - ٨٤ ، الأنبياء ٥١ - ٦٨ ، الصفات ٨٥ - ٩٨ .

- فقالوا : (قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلهم يشهدون) •
- ثم سألوه : (أنت فعلت هذا بأهتنا يا إبراهيم) •
- قال إبراهيم : (بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون) •
- وهكذا قطع عليهم إبراهيم كل طريق للاحتجاج مما جعلهم يعترفون بخطأ ملتهم (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا إنكم أنتم الظالمون) •
- ولكن الكبر والعناد كانا سبب الإعراض عن الحق والإصرار على الباطل (ثم نكسوا على رؤوسهم لقد علمت ما هؤلاء ينطقون) •
- فالعقل أداة تمييز وإدراك وهبها الله لعباده تسهيلاً لمهمتهم التي خلقوا من أجلها ، وجعله حجة عليهم ، ومن سلب منه تلك النعمة أعفاه من التكليف لأنه لا يتصور بغير العقل •
- فالعقل الصحيح شاهد بوجود الله ووحدانيته •
- والفطرة والعقل طريقان موصلان إلى معرفة الله تبارك وتعالى وبالتسالي معرفة الغاية التي من أجلها أوجد الإنسان ، ولكنهما لا يستقلان بذلك تمام الاستقلال لذا فإن من العدل أن يوجد طريق آخر يتوافق مع هذين الطريقين ويزيد عليهما بتفصيل الغرض والمطلوب ، هذا السبيل هو إرسال الرسل •

السبيل الثالث : إرسال الرسل .

إن العقل البشري والفطرة المركوزة في النفس البشرية لا يستقلان بإدراك الحقيقة على وجه التفصيل ، وإنما يدركانها على وجه مجمل ، وهذا أمر واضح إذ لو كانا يستقلان بذلك لما كان لإرسال الرسل فائدة ، ولكنهما لما كانا قاصرين في ناحية المعرفة التفصيلية احتاج الإنسان إلى من يدلّه ويرشده إلى ربه ، ويبين له حقيقة أمره وغاية وجوده فكان إرسال الرسل هو السبيل إلى ذلك ، وكان ذلك من العدل الإلهي واللفظ الرباني بالبشر .

قال الراغب رحمه الله : بعثة الأنبياء إلى الناس من الضروريات التي لا بد لهم منها ، وذلك أن جل الناس يقصر عن معرفة منافعهم ومضارهم الأخروية ، جزئياتها وكلياتها ، وبعضهم إن كان لهم سبيل إلى معرفة كليات ذلك على سبيل الجملة فليس لهم سبيل إلى معرفة جزئياتها ، ولا يمكن أن يعرفوا كيف يجب ، ولا في أي وقت يجب ، أو كم يجب .

فلما كان كذلك من الله تعالى على كافة عباده ، خاصهم وعمهم برسل بعثهم فيهم من أنفسهم يتلون عليهم آياته ، ويزكّونهم ، ويعلمونهم الكتاب والحكمة لكي إذا تمسكوا بذلك صلح معادهم ومعاشهم ، وسهل عليهم إدراكهم ، ولهذا أزاح الله عنهم بعثة الأنبياء فقال (وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً)^١ . أهـ

وقال ابن القيم رحمه الله مؤكداً حاجة الناس إلى الرسل : ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسل ، وما جاء به ،

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٢٠٤ .

وتصديقه فيما أخبر به ، وطاعته فيما أمر ، فإنه لا سبيل إلى السعادة
والفلاح في الدنيا ، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل ، ولا سبيل إلى
معرفة الطيب والخبيث على التفصيل إلا من جهتهم ، ولا ينال رضى الله
البتة إلا على أيديهم ، فهم الميزان الراجح الذي على أقوالهم وأعمالهم توزن
الأقوال والأخلاق والأعمال ، وبمتابعتهم يتميز أهل الهدى من أهل
الضلال ، فالضرورة إليهم أعظم من ضرورة البدن إلى روحه ، والعين إلى
نورها ، والروح إلى حياتها ، فأى ضرورة وحاجة فرضت ضرورة العبد
وحاجته إلى الرسل فوقها بكثير^١ . أهـ

وسأتناول في هذا المبحث جوانب عدة منها مهمة الرسل كما جاءت

في القرآن ، والأدلة على صدقهم ، وفوائد إرسالهم .

أولاً : مهمة الرسل •

بين القرآن الكريم المهام التي بعث بها الرسل عليهم صلوات الله وسلامه
ومن هذه المهام :

١- الدعوة إلى عبادة الله وحده :

بين الله تعالى أن جميع الرسل الكرام قد أرسلوا ليأمرؤا الناس بعبادة الله
وحده سبحانه ، والالتزام بأوامره واجتناب نواهيه قال تعالى (ولقد بعثنا
في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله
ومنهم من حقت عليه الضلالة) ١ الآية •

وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا
إله إلا أنا فاعبدون) ٢ •

وقال تعالى عن نوح (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم
اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون) ٣ •

وقال عن هود (وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم
من إله غيره أفلا تتقون) ٤ •

وقال عن صالح (وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما
لكم من إله غيره) ٥ •

وقال عن شعيب (وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما
لكم من إله غيره) ٦ •

(١) النحل ٣٦ •

(٢) الأنبياء ٢٥ •

(٣) المؤمنون ٢٣ •

(٤) الأعراف ٦٥ •

(٥) الأعراف ٧٣ •

(٦) الأعراف ٨٥ •

وقال عن إبراهيم (وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)^١ .

وقال عن عيسى (وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم)^٢ الآية .

وهكذا كل الرسل دعوا إلى عبادة الله وتوحيده وترك الشرك ، وهي أعظم مهمة يقوم بها الرسل ويوضحوها للناس ، وكل ما يأتي بعدها من المهام فرع لهذه المهمة العظيمة .

٢- التبشير و الإنذار :

ومن مهام الرسل تبشير الناس بما أعد الله تعالى للطائعين له ولرسله من ألوان النعيم في الدنيا والآخرة ، وتبشير عباده المؤمنين بالتمكين في الأرض وذهاب الخوف والحزن عنهم والتمكن من أعدائهم ، وإنذارهم من عذاب الله الذي أعده للعصاة المعاندين في الدنيا والآخرة .

قال تعالى (وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين)^٣ الآية .
وقال تعالى (رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً)^٤ .

فالله سبحانه قد أرسل الرسل بالبشارة و النذارة لكي تقوم الحجة على الناس ويقطع عليهم طريق الاعتذار بالجهل أو بعدم بلوغ الرسالة .
والإنذار من سبل الإعدار كما قيل : قد أعذر من أنذر .

قال ابن كثير في الآية السابقة : (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً) أي أنه تعالى أنزل كتبه وأرسل رسوله

(١) العنكبوت ١٦ .

(٢) المائدة ٧٢ .

(٣) الأنعام ٤٨ .

(٤) النساء ١٦٥ .

بالبشارة والندارة ، وبين ما يحبه ويرضاه مما يكرهه ويأباه لئلا يبقى لمعتذر عذر كما قال تعالى (ولو أنا أهلكتناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى)^١ ، وكذا قوله (ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين)^٢ .

وقد ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أحد أغير من الله من أجل ذلك حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا أحد أحب إليه من المدح من الله عز وجل من أجل ذلك مدح نفسه ، ولا أحد أحب إليه العذر من الله من أجل ذلك بعث النبيين مبشرين ومنذرين^٣ . وفي لفظ آخر : من أجل ذلك أرسل رسله وأنزل كتبه^٤ . أهـ

٣- التبليغ عن الله :

وذلك بيان ما يحبه الله ويرضاه ، وما يبغضه ويأباه ، وتفصيل الأحكام التي يتعبد الناس بها ربه ، وعواقب الطاعة وعواقب المعصية فهم الوسطة بين الله وبين خلقه .

(١) طه ١٣٤ .

(٢) القصص ٤٧ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب التوبة ، باب غيرة الله وتحريم الفواحش ٤ / ٢١١٤ ، حديث رقم ٢٧٦٠ وفي آخره (من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل) .

وأخرجه البخاري مع نقص في ألفاظه في كتاب التفسير ، تفسير سورة الأنعام ، باب (ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن) ٨ / ٢٩٥ حديث رقم ٤٦٣٤ .

وفي التوحيد باب (ويحذركم الله نفسه) ١٣ / ٣٨٣ حديث رقم ٧٤٠٣ .

(٤) ابن كثير ١ / ٥٨٨ .

قال تعالى (فهل على الرسل إلا البلاغ المبين)^١ .

وقال تعالى (وما على الرسول إلا البلاغ المبين)^٢ .

ويلاحظ أن الله وصف البلاغ بأنه (مبين) من الإبانة وهي الظهور والوضوح الذي إذا بلغ سامعه تعرف عليه من غير صعوبة ولا تعقيد ، ويستوي في إدراكه الجاهل والمتعلم .

وفي هذا دليل على وضوح الشريعة وخلوها عن الغموض والتعقيد .

وفيه دلالة على تمكن الرسول من الرسالة وقدرته على تبليغها .

٤- تنظيم أمور البشر والسير على منهج القسط والعدل .

يبعث الرسل عادة إلى أقوامهم عند دخول الخطأ في حياتهم ، واختلال ميزانها ، وانتشار الفوضى والظلم في المجتمعات فيقيمون العدل ويزيلون الظلم ويستأصلون الفساد ، وتبقى شرائعهم من بعدهم لتكون ميزان العدل بين الناس عند الاختلاف .

قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان

ليقوم الناس بالقسط)^٣ الآية .

وقال تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين

ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا

فيه)^٤ الآية .

وقد جاءت الشرائع لتنظيم أمور الناس على وفق مراد الله سبحانه

بحسب ما يصلح أحوالهم ، ولذلك فإن أصول الشرائع الإلهية واحدة ،

ولكنها قد تختلف في بعض الأحكام .

(١) النحل ٣٥ .

(٢) النور ٥٤ .

(٣) الحديد ٢٥ .

(٤) البقرة ٢١٣ .

فالشرائع قاطبة دعت إلى مكارم الأخلاق ، وجاءت جميعها بحفظ
الضروريات الخمس العقل والدين والمال والعرض والنفس .
ولذلك قال تعالى (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي
أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا
تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء
ويهدي إليه من ينيب)^١ .

وقال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً)^٢ .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : والأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى
ودينهم واحد^٣ .

قال ابن حجر : معنى الحديث أن أصل دينهم واحد وإن اختلفت
أصول الشرائع^٤ . أهـ

فالاتفاق بين الشرائع في الاعتقاد وأصول الأحكام ، والاختلاف في
جوانب بسيطة من الأحكام بحسب ما تقتضيه مصلحة كل أمة .

٥- تعليم الناس الحكمة وتزكيتهم .

أجرى الله الحكمة على قلوب أنبياءه وعلى ألسنتهم وأوكلهم بمهمة
تعليمها للناس حتى تزكوا أنفسهم ويتمكنوا من عبادة الله تعالى بنفس صافية
مقبلة .

قال تعالى (كما أرسلنا فيكم رسولاً يتلو عليكم آياتنا ويزكيكم
ويعلمكم الكتاب والحكمة ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون) فاذكروني

(١) الشورى ١٣ .

(٢) المائدة ٤٨ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، باب قول الله (واذكر في الكتاب مريم) ٦ / ٤٧٨ ،

حديث رقم ٣٤٤٣ ، وأخرجه مسلم في الفضائل ٤ / ١٨٣٧ ، حديث رقم ٢٣٦٥ .

(٤) فتح الباري ٦ / ٤٨٩ .

أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون^١ .

فإرسال الرسل بهذه المهمة نعمة تستحق شكر المنعم بها سبحانه وتعالى ولذلك فإن الله تعالى ختم هذه الآية بالأمر بالشكر وترك الكفر .

قال ابن كثير رحمه الله عند هذه الآية : يذكر الله عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إليهم ، يتلو عليهم آيات الله مبينات ، ويزكيهم أي يطهرهم من رذائل الأخلاق وذنس النفوس وأفعال الجاهلية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب وهو القرآن ، والحكمة وهي السنة ، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون ، فكانوا في الجاهلية الجهلاء يسفهون بالعقول الغراء فانتقلوا ببركة رسالته ، ويمن سفارته إلى حال الأولياء وسجايا العلماء ، فصاروا أعمق الناس علماً ، وأبرهم قلوباً ، وأقلهم تكلفاً ، وأصدقهم لهجة^٢ . أهـ

وعلى الضد من هذه الحال حال من أعرض عن هدى الله الذي جاءت به الرسل الكرام فإنهم في الجهالة يتخبطون ، وفي الضلالة يعمهون نسأل الله العافية .

وهذه المهمة العظيمة لا يصلح لها إلا صنف مؤهل من البشر هم الرسل الكرام بما اصطفاهم الله به من الصفات الرفيعة والخصال الحميدة التي هي أكبر شاهد على صدقهم وصدق ما جاءوا به .

ثانياً : الأدلة على صدق الرسل

الرسل هم صفوة خلق الله ، اختارهم الله لأداء هذه المهمة العظيمة مهمة التبليغ عن الله ، وهو سبحانه أعلم بمن يصلح لها ويقوم بها كما قال (الله أعلم حيث يجعل رسالته)^٣ .

(١) البقرة ١٥١ - ١٥٢ .

(٢) ابن كثير ١ / ١٩٥ - ١٩٦ .

(٣) الأنعام ١٢٤ .

وقال تعالى (الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله

سميع بصير)^١ .

وشرف المهمة يقتضي شرف من يقوم بها ، ولذلك فإن الرسل عليهم السلام من أشرف الناس في ذواتهم وأنسابهم ، فهم أكمل الناس علماً ، وأحسنهم أخلاقاً ، وأفضلهم سجية ، وأكرمهم نسباً ، ولو كانوا بضد ذلك لما استمع لهم الناس ولما تبعهم أحد .

وقد استدل هرقل على صحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بذلك لما

سأل أبا سفيان فقال له : كيف نسبه فيكم ؟

فقال أبو سفيان : هو فينا ذو نسب .

فقال هرقل في نهاية حديثه مع أبو سفيان : سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب من قومها^٢ .

وقد بين الله تعالى اصطفاؤه لرسله في مواضع من كتابه منها :

قوله تعالى (واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أولي الأيدي

والأبصار إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار وإئتهم عندنا لمن

المصطفين الأخيار)^٣ .

وقال تعالى (إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران

على العالمين)^٤ .

ومن أصدق الأدلة على صدق الأنبياء هو ما تميزوا به من الخصال

الحميدة والأخلاق الرفيعة والنفوس الصافية والسيرة الحميدة .

(١) الحج ٧٥ .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الوحي ١ / ٣١ حديث رقم ٧ ، وجميع المواضع التي ذكر فيها

الحديث فهذا تخريجه ما عدا بعض المواضع فأشير إليها .

(٣) ص ٤٥ — ٤٧ .

(٤) آل عمران ٣٣ .

قال تعالى عن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم (وإِنَّكَ لَعَلَى
خَلْقٍ عَظِيمٍ)^١ .

وقال تعالى عنه صلى الله عليه وسلم (فيما رحمة من الله لنت لهم ولو
كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك)^٢ .
فهم أبعد الناس عن الغش والكذب والخداع والخيانة وغيرها من
الأخلاق الرديئة .

وهذا كافٍ جداً في الدلالة على صدقهم وصدق نبوتهم لأن من عاش
عمره لا يكذب واشتهر ذلك عنه يبعد أن يحصل منه الكذب عند نضوجه
واكتمال عقله وتأصل طبعه .

وقد احتج النبي صلى الله عليه وسلم على قريش بهذا الدليل لإثبات
صحة نبوته عندما أمر بتبليغ الدعوة وصعد على الصفا وهتف : يا صباحاه
فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه .

فقال : أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل
أكنتم مصدقي ؟
قالوا : ما جربنا عليك كذباً .

قال : فإنِّي نذير لكم بين يدي عذاب شديد^٣ .
وتقرير هذا الدليل أن النبي صلى الله عليه وسلم أقرهم بصدقه ثم الزمهم
بتصديقه .

وقد استدل هرقل على صحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم
بمثل ذلك ، عندما سأل أبا سفيان : هل كنتم تتهمونه بالكذب

(١) القلم ٤ .

(٢) آل عمران ١٥٩ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب التفسير في تفسير سورة (تبت يدا أبي لهب) ٨ / ٧٣٧ ،

حديث رقم ٤٩٧١ .

قبل أن يقول ما قال ؟

قال أبو سفيان : لا .

ثم قال له في نهاية حديثه : وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ، فذكرت أن لا ، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله .

الدليل الثاني من الأدلة الشاهدة على صدق نبوة الأنبياء :

وهو شرف ما يدعون إليه من التوحيد الخالص الموافق للفطرة الإنسانية ، ونبذ الشرك المنافي للعقل والفطرة ، وما يدعون إليه من مكارم الأخلاق ومحاسن العادات التي تشهد العقول بحسنها والنهي عن ضد ذلك . وهذا لا يكون من كاذب قطعاً لأنه إن كان يأمر بالحسن من الأمور ويجاهد من أجل ذلك ثم يقع في ضدها فهو متناقض لا يصلح لهذه المهمة ولن يكتب له التوفيق للخلف بين القول والعمل . ولكنه لما كان معلوم الصدق ، عاملاً به ، ملتزماً به في كل أحواله علم بذلك صحة دعواه .

وقد استدل هرقل بذلك على صحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم عندما سأل أبا سفيان فقال له : فماذا يأمركم به ؟ قال أبو سفيان : يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئاً وينهانا عما كان يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة ، والصدقة ، والعفاف ، والوفاء بالعهد ، وأداء الأمانة .

قال هرقل في نهاية حديثه : وسألتك بماذا يأمركم ؟ فزعمت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وينهاكم عما كان يعبد آباؤكم ، ويأمركم بالصلاة والصدقة والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة .

قال : وهذه صفة نبي^١ .

فالكذاب لا يمكن أن يأمر بما تأمر به الرسل من أفعال الخير والبر لأن ذلك ينافي طبيعته الكاذبة ونفسه الخبيثة .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : والكذاب المدعي للنبوّة لا يأمر بجميع ما أمرت به الأنبياء ، وينهى عن كل ما نهوا عنه ، فإنّ ذلك يفسد مقصوده ، وهو كاذب فاجر شيطان من أعظم شياطين الإنس ، والذي يعينه على ذلك من أعظم شياطين الجن ، وهؤلاء لا يتصور أن يأمرؤا بما أمرت به الأنبياء ، وينهوا عما نهوا عنه لأن ذلك يناقض مقصودهم .

بل وإنّ أمرؤا في ابتداء الأمر من يخدعونه ويربطونه فلا بد أن يناقضوا فيأمرؤا بما نهت عنه الأنبياء ، ولا يوجبوا ما أمرت به الأنبياء — إلى أن قال رحمه الله — فمن أظهر خلاف ما أبطن وكان مطاعاً في الناس فلا بد أن يظهر من باطنه ما يناقض ما أظهره^٢ . أهـ

الدليل الثالث على صدقهم :

أنهم لم يطلبوا على دعوتهم أجراً دنيوياً عاجلاً .

وتقرير ذلك أنّ كل من يفعل شيئاً فهو يفعل إما لدفع مضرة أو جلب

منفعة ظاهرة .

فلو كان الرسول يريد منفعة عاجلة من المنافع الدنيوية التي يسعى الناس

لتحصيلها لابتغى على فعله ذلك أجراً إما مالاً أو ملكاً أو جاهاً أو

غير ذلك .

ولكنه لما كان يدعو من أجل تحقيق منفعة مؤجلة غير ظاهرة وهي

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ، باب دعاء النبي صلى الله عليه وسلم الناس إلى الإسلام

والنبوة ٦ / ١٠٩ ، حديث رقم ٢٩٤١ .

(٢) النبوات ص ١٦٦ — ١٦٧ .

تحصيل رضوان الله والفوز بجناته والبعد عن عقابه لم يطلب على دعوته تلك المنافع التي يطلبها البشر عادة عند فعلهم لشيء من الأفعال .

بل إنه في سبيل تحقيق رضوان الله وأداء الرسالة كما طلب منه يعرض نفسه لأنواع من المضار الجسدية والنفسية يعرفها كل من تأمل سير الرسل ، ولكنهم صبروا وتحملوا لأنهم موقنون بنصر الله تعالى وبوعده .

قال تعالى عن هود وصالح ونوح ولوط وشعيب في مخاطبتهم لأقوامهم (وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين)^١ .
وقال عن محمد صلى الله عليه وسلم (قل ما أسألكم عليه من أجر)^٢ .

(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرينى إلا على الله)^٣ .
واستدل هرقل أيضاً بذلك على صحة رسالة الرسول صلى الله عليه وسلم عندما سأل أبا سفيان : هل من آباءه من ملك ؟
فقال أبو سفيان : لا .

قال هرقل في نهاية حديثه : وسألتك هل كان من آباءه من ملك ؟ فذكرت أن لا ، فقلت : لو كان من آباءه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه .

الدليل الرابع على صدق الرسل :

- تأييدهم بالمعجزات والآيات الدالة على صدقهم .
- قال تعالى (لقد أرسلنا رسلنا بالبينات)^٤ الآية .
- قال القرطبي : أي المعجزات البينة والشرائع الظاهرة^٥ .

(١) انظر سورة الشعراء الآيات ١٠٩ - ١٢٧ - ١٤٥ - ١٦٤ - ١٨٠ .

(٢) الفرقان ٥٧ .

(٣) سبأ ٤٧ .

(٤) الحديد ٢٥ .

(٥) القرطبي ١٧ / ١٦٨ .

ويقع هذا على سبيل التحدي والإعجاز ، وهو من أبلغ الأدلة الدالة على
صدق الأنبياء والرسول .

ويمكن تقسيم معجزات الأنبياء إلى قسمين :

الأول : معجزة حسية ظاهرة للعيان ، كتحويل عصى موسى إلى
ثعبان ، وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لعيسى ، وناقة صالح وغير
ذلك من المعجزات الظاهرة .

الثاني : معجزة علمية ، مثل ما يخبر به أنبياء الله من أمور الغيب التي
تقع كما أخبروا ، أو مثل أخبار السابقين التي لا يعلمها أحد كما قال تعالى
(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من
قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين)^١ .

ويدخل في هذا القسم الإعجاز القرآني بكافة أنواعه فإنه من المعجزات
العلمية الباقية على مدى الدهر .

فوائد آيات الأنبياء ومعجزاتهم :

إن الآيات التي جاء بها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ذات فوائد
كثيرة منها :

١- بيان قدرة الله تعالى فإن هذه الآيات لا بد أن تكون أموراً خارقة
للعادة كشاهد و دليل على صحة ما جاء به الرسل وإذا كانت خارقة
للعادة كانت دليلاً على قدرة الخالق وأنه قادر على تغيير مجرى العادة التي كان
الناس يألفونها ولذا تجد المرء يندهش عند هذه الآيات ولا يمكنه إلا أن
يصدق برسالة الرسول الذي جاء بها حيث جاء بما لا يقدر عليه أحد سوى
الله عز وجل .

٢— بيان رحمة الله بعباده فإن هذه الآيات التي يرونها مؤيدة للرسول تزيد إيمانهم وطمأنينتهم لصحة الرسالة ومن ثم يزداد يقينهم وثوابهم ولا يحصل لهم حيرة ولا شك ولا ارتباك .

٣— بيان حكمة الله البالغة حيث لم يرسل رسولا فيدعه هملأ من غير أن يؤيده بما يدل على صدقه ، وإن المرء لو أرسل شخصا بأمر مهم من غير أن يصحبه بدليل أو أمانة على صحة إرساله إياه لعد ذلك سفهاً وموقفاً سلبياً من هذا المرسل ، فكيف برسالة عظيمة من أحكم الحاكمين ، إنها لا بد أن تكون مؤيدة بالبراهين والآيات البينات .

٤— رحمة الله برسوله الذي أرسله حيث يسر قبول رسالته بما يجريه على يديه من الآيات ليتسنى إقناع الخلق بطريقة لا يستطيعون معارضتها ولا يمكنهم ردها إلا جحوداً وعناداً قال تعالى (فإنهم لا يكذبونك) أي لما يرون من الآيات الدالة على صدقك (ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) .

٥— إقامة الحجة على الخلق فإن الرسول لو أتى بدون آية دالة على صدقه لكان للناس حجة في رد قوله وعدم الإيمان به ، فإذا جاء بالآيات المقنعة الدالة على رسالته لم يكن للناس أية حجة في رد قوله .

٦— بيان أن هذا الكون خاضع لقدرة الله وتدييره ، ولو كان مدبراً لنفسه أو طبيعة تتفاعل مقوماتها وتظهر من ذلك نتائجها وآثارها لما تغيرت فجأة واختلفت عادة بمجرد دعوى شخص لتؤيده بما ادعاه^١ .

الدليل الخامس على صدق الرسل : التأييد بالنصر والتمكين .

ذلك أن الله تعالى ينصر رسوله وأتباعهم من عباده المؤمنين ويمكن لهم في الأرض قال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد)^٢ .

(١) انظر هذه الفوائد في : حكمة إرسال الرسل للشيخ محمد بن صالح العثيمين ص ١٤ — ١٧ .

(٢) غافر ٥١ .

فمن كان كاذباً في دعواه لا ينصره الله تعالى ، ولا يعلي شأنه ، بل يفضحه بكذبه ، ويخذله في دعوته الباطلة كما فعل بأدعياء النبوة أمثال مسيلمة الكذاب والأسود العنسي وغيرهم من الذين طوى التاريخ صفحتهم وأزال الله دولتهم وألحقهم الذل والعار والخزي إلى يوم القيامة .
قال الرازي في تفسير هذه الآية : وأعلم أن نصره الله المحققين تحصل بوجوه :

أحدها : النصره بالحجة ، وقد سمي الله الحجة سلطاناً في غير موضع ، وهذه النصره عامة للمحققين أجمع ، ونعم ما سمي الله هذه النصره سلطاناً لأن السلطنة في الدنيا قد تبطل وقد تبدل بالفقر والذلة والحاجة والفتور ، أما السلطنة الحاصلة بالحجة فإنها تبقى أبد الآباد ، ويمتنع تطرق الخلل والفتور إليها .

ثانيها : أنهم منصورون بالمدح والتعظيم ، فإن الظلمة وإن قهروا شخصاً من المحققين إلا أنهم لا يقدرّون على إسقاط مدحه عن السن الناس .
ثالثها : أنهم منصورون بسبب أن بواطنهم مملوءة من أنوار الحجة وقوة اليقين .

رابعها : أن المبطلين وإن كان يتفق لهم أن يحصل لهم استيلاء على المحققين ففي الغالب أن ذلك لا يدوم ، بل يكشف للناس أن ذلك كان أمراً وقع على خلاف الواجب ونقيض الحق .

خامسها : أن الحق إن اتفق له أن وقع في نوع من أنواع المحذور فذلك يكون سبباً لمزيد ثوابه وتعظيم درجاته .

سادسها : أن الظلمة والمبطلين كما يموتون تموت آثارهم ، ولا يبقى لهم في الدنيا أثر ولا خبر ، أما المحققون فإن آثارهم باقية على وجه الدهر ، والناس بهم يقتدون في أعمال البر والخير .

سابعها : أنه تعالى ينتقم للأنبياء والأولياء بعد موتهم ، كما نصر يحيى بن زكريا فإنه لما قتل قتل به سبعون ألفاً . أهـ

الدليل السادس على صدق الرسل :

• اتفاق دعوة الرسل مع تباعد أزمانهم وتباين أمكنتهم .

أرسل الله جميع الرسل بدين واحد هو دين الإسلام قال تعالى (إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب)^٢ .

وقال تعالى (أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون) . قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل من على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى والنبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون . ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)^٣ .

ونقل ابن جرير عن قتادة في قوله تعالى (إن الدين عند الله الإسلام) قوله : والإسلام شهادة أن لا إله إلا الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ، وهو دين الله الذي شرع لنفسه ، وبعث به رسوله ، ودل عليه أوليائه ، لا يقبل غيره ولا يجزي إلا به^٤ . أهـ

فكل الأنبياء دعوا إلى الإسلام ، وقد جاء التصريح في القرآن عن بعضهم

• بأنه مسلم .

قال ابن تيمية رحمه الله : والإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين ومن اتبعهم من الأمم كما أخبر الله نحو ذلك في غير موضع من كتابه ، فأخبر عن

(١) الرازي ١٣ / ٥٦٦ - ٥٦٧ . باختصار .

(٢) آل عمران ١٩ .

(٣) آل عمران ٨٣ - ٨٥ .

(٤) ابن جرير ٣ / ٢٨٨ .

نوح وإبراهيم وإسرائيل عليهم السلام أنهم كانوا مسلمين ، كذلك عن أتباع موسى وعيسى عليهما السلام وغيرهم^١ . أهـ

فوحدة الدعوة تدل على صدق الرسل ، إذ لو كانوا أهل أهواء لتجاذبتهم الأهواء ، ولصار كل منهم داعياً لهواه ، وهيهات أن تتفق الأهواء مع تباعد الزمان والمكان .

ولما لم يحدث من ذلك شيء بل كان كل واحد منهم مصداقاً لما جاء به الآخر ومبشراً بمن يأتي بعده بذكر صفاته كما بشر عيسى بمحمد عليهما الصلاة والسلام علم أن الجميع رسل الله ، وأن الجميع صادقون في دعوتهم .

قال تعالى مبيناً وحدة الدين الذي دعى إليه الأنبياء (شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب)^٢ .

فهذه بعض الأدلة التي تبين صدق الرسل صلوات الله وسلامه عليهم ، من نظر فيها نظر المرید للحق أيقن أنهم رسل الله جاءوا بالهدى والنور من عنده .

قال الراغب رحمه الله تعالى : لكل نبي آيتان .

إحداهما : عقلية ، يعرفها أولوا البصائر من الصديقين والشهداء والصالحين ومن يجري مجراهم .

الثانية : حسية يدركها أولوا الأبصار من العامة .

فالأولى : ما لهم من الأصول الزكية ، وصورهم المرضية ، وعلومهم الباهرة ، ودلائلهم المتقدمة عليهم والمستصححة ، وأنوارهم الساطعة التي لا تخفى على أولي البصائر ، كما قال الشاعر في

(١) النبوات ص ١٢٧ .

(٢) الشورى ١٣ .

مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تغنيك عن خبره
وذلك أن حق النبي أن يكون من أكرم تربة في العالم ، وحيث يكون أربابها
أوفر ، ولذلك لم يبعث نبي من الأطراف التي تضعف عقول أربابها .
ويجب أن يكون من عنصر كريم من بيت الفضل ، ولهذا قال تعالى (إنَّ
الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين • ذرية
بعضها من بعض والله سميع عليم)^١ .

ونبه بقوله (ذرية بعضها من بعض) أنه جعل النبوة في أهل بيت واحد
لا تخرج عنهم لكونهم أشرف .

ويجب أن يكون عليها أنوار تروق من رآها ، وأخلاق تتملك من ابتلاها
كما قال تعالى (وألقيت عليك محبة مني)^٢ ، وقال لنبينا (وإنك لعلى
خلق عظيم)^٣ .

ويجب أن يكون كلامه ذا حجة وبيان ، يشفي سامعه إذا كان متخصصاً
بنور العقل ولذلك قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً
من أمرنا •••)^٤ الآية .

وهذه الأحوال إذا حصلت لا يحتاج ذو بصيرة معها إلى معجزة ، ولا
يطلبها ، كما لا يطلب الأنبياءُ الملائكةَ فيما يخبرونهم به حجة ، ولهذا لما
عرض النبي صلى الله عليه وسلم على أبي بكر الصديق الإسلام تلقاه
بالقبول حتى قال عليه السلام : ما أحد عرضت عليه الإسلام إلا

(١) آل عمران ٣٣ — ٣٤ .

(٢) طه ٣٩ .

(٣) القلم ٤ .

(٤) الشورى ٥٢ .

كانت له كبوة غير أبي بكر الصديق فإنه لم يتلعثم فيه^١ .
 وأما الآية الثانية فهي المعجزة التي تدركها الحواس من الأنبياء ، وذلك
 يطلبه أحد رجلين : إما ناقص عن معرفة الفرق بين الكلام الإلهي والكلام
 البشري ، وعن إدراك سائر ما تقدم ذكره ، فيحتاج إلى ما يدركه بحسه
 لقصوره عن إدراك ذلك .

وإما ناقص وهو مع نقصه معاند ، فيقصد بما يطلبه العناد كما قال تعالى
 حكاية عن الكفار (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً .
 أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط
 السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك
 بيت من زخرف أو ترقي في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً
 نقرأه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً)^٢ . أهـ^٣

ثالثاً : فوائد إرسال الرسل

قد سبق الحديث عن بعض تلك الفوائد ضمن المباحث السابقة
 وسأجعلها في هذا المطلب في نقاط :

الفائدة الأولى : بيان الغاية التي من أجلها خلق الإنسان ، وهي
 عبادة الله تبارك وتعالى .

الفائدة الثانية : التبشير بما عند الله تعالى من النعيم لمن أطاع أمره
 واتبع هداه ، والإنذار لمن عصى أمره واتبع هواه .

الفائدة الثالثة : جمع كلمة الناس المتفرقة على الحق والهدى ،
 والتأليف بين قلوبهم قال تعالى (واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء

(١) لم أجده . وكذا قال المحقق لكتاب الذريعة .

(٢) الإسراء ٩٠ — ٩٣ .

(٣) الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار
فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون (١) .

الفائدة الرابعة : الرسول هو النموذج الحي والمثالي لمن أراد أن
يحصل رضا الله تبارك وتعالى ، قال تعالى (لقد كان لكم في رسول الله أسوة
حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً) (٢) .

الفائدة الخامسة : الرسل تنظم مجتمعاتها عن طريق تشريع الشرائع
الإلهية وإقامة حكم الله في المجتمع مما يكفل سعادة المجتمع الدنيوية
والآخروية قال تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم
من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير
منهم ساء ما يعملون) (٣) .

وقال تعالى (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما
اختلفوا فيه) (٤) .

قال الشاطبي رحمه الله : فلولا أن من الله على الخلق ببعثة الرسل لم
تستقم لهم حياة ، ولا جرت أحوالهم على كمال مصالحهم ، وهذا معلوم
بالنظر في أخبار الأولين والآخرين . أهـ

الفائدة السادسة : دلالة الناس على أوجه الخير المختلفة ، وبيان ما
يضر بالإنسان وما ينفعه ، وما يرضي الرب وما يسخطه .

الفائدة السابعة : تعريف الناس برهم وخالقهم وذلك عن طريق بيانهم
لأسماء الله وصفاته .

(١) آل عمران ١٠٣ .

(٢) الأحزاب ٢١ .

(٣) المائدة ٦٦ .

(٤) البقرة ٢١٣ .

(٥) الاعتصام ١ / ٤٦ .

وكذلك تعليمهم أمور الغيب كالجنة والنار والملائكة وغير ذلك من الأمور التي لم تكن لتعلم لولا بعثة الرسل .

الفائدة الثامنة : محاربة أعداء الله من الكفرة والملحدين بالحجة والبرهان ، وبالسيف والسنان .

الفائدة التاسعة : الدعوة إلى مكارم الأخلاق ومحاسن العادات ونشر المثل الفاضلة بين الناس .

فهذه بعض الفوائد التي يرسل لأجلها الرسل ، وبعضها قد يدخل في بعض ، وتفصيلها من أجل زيادة البيان .

ومما سبق ندرك أهمية إرسال الرسل في بيان الغاية التي من أجلها أوجد الإنسان ، فهو من أعظم السبل التي هيأها الله تعالى للإنسان كي يدرك الغاية من إيجادها تمام الإدراك ويعرف بالضبط ما هو المطلوب منه .

وقد يرد هنا سؤال وهو أن الرسل أعمارهم محدودة بوقت معين فلا يتسنى لكل البشر مخالطة الرسل ؟

والجواب أن الرسل لهم آثارهم الباقية في أتباعهم المخلصين ، وفي ما نقل عنهم من الهدى والنور وهو نوعان :

النوع الأول : ما يتعلق بسيرته وسنته .

فكل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم ينقله أتباعه عنه نقلاً دقيقاً ، ويتلقاه الخلف عن السلف حتى يصل إلى جميع الأمة .

النوع الثاني : ما جاء به من عند الله من الكتاب .

وهي الكتب المتضمنة لأصول الاعتقاد والأحكام والتي هي لب ما جاء به الرسول ، فتنتقل تلك الكتب إلى أمة النبي من بعده محفوظة بحفظ الله حتى يشاء الله أمراً .

وفي السبيل التالي سأتكلم عن إنزال الكتب وفائدة ذلك في بيان الغاية التي من أجلها أوجد الإنسان .

السبيل الرابع : إنزال الكتب •

الرسول صلوات الله وسلامه عليهم بشر لهم أجل مسمى يعيشون إليه ثم يتوفاهم الله تبارك وتعالى إليه •

واقترضت حكمة الله تعالى أن لا يجعل الناس في فوضى من أمرهم إذا مات رسولهم فأنزل إليهم الكتب الإلهية التي فيها أصول العقائد وأصول الأحكام ، وفيها ما يصلح البشر ويكون دليلاً لهم إلى خالقهم ومولاهم • فالكتب المنزلة من عند الله تبارك وتعالى تشتمل على بيان دعوة الرسول وما دعوا إليه من التوحيد الخالص ، ومن التوجه إلى الخالق وعبادته بما يحبه ويرضاه •

واشتملت أيضاً على بيان الأحكام التي تصلح أحوال الناس ، وتقطع مادة الخلاف بينهم ، لأنهم بغير الكتب الإلهية سيلجأون إلى أهوائهم وتصوراتهم وبالتالي سيحصل بينهم الخلاف والتزاع لاختلاف الأهواء والتصورات •

ولذلك جعل الله تبارك وتعالى كتابه المرجع عند الاختلاف ، قال تعالى (فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ) • الآية • قال ابن جرير : يعني بذلك : فارتادوا معرفة حكم الذي اشتجرتم أنتم بينكم أو أنتم وأولوا أمركم من عند الله ، يعني بذلك : من كتاب الله فاتبعوا ما وجدتم •

وأما قوله (والرسول) فإنه يقول : فإن لم تجدوا إلى علم ذلك في كتاب الله سبيلاً فارتادوا معرفة ذلك أيضاً من عند الرسول إن كان حياً ، وإن كان ميتاً فمن سنته • أهـ

(١) النساء ٥٩ •

(٢) ابن جرير ٥ / ٢٠٨ •

فأمر الله سبحانه المتنازعين بالرد إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإن فيهما ما يقطع مادة التنازع بما اشتملا عليه من الكمال التشريعي الذي لا يختلف في قضية من القضايا ، فهو يستوعب كل القضايا التي تطرأ على حياة البشر .

قال تعالى (كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه) ١ الآية .

والرد إلى كتاب الله يقطع مادة الخلاف بين الناس من وجهين :

الوجه الأول : أنه هو الميزان الحق الذي يرتضيه كل مسلم ، فهو كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وله سلطانه في نفوس المؤمنين ، فلا يستطيع مؤمن دفع ما فيه ، وترك قبوله إذ لو حدث من ذلك شيء لخرج فاعله عن دائرة الإيمان إلى الكفر كما قال تعالى (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) ٢ .

وقال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً) ٣ .

الوجه الثاني : اشتماله على الحلول العملية لكل المشاكل التي تواجه البشر ، وهذا ما سبق تسميته بالكمال التشريعي الذي يستوعب جميع القضايا التي تستجد في حياة البشر .

وقد أنزل الله الكتب على رسله هداية للناس ولكن الناس حرفوا الكلم عن مواضعه وتزيدوا فيه ، وأنقصوا منه بعد موت أنبيائهم ، فأراد الله سبحانه أن يبقي كتاباً للبشرية سالماً من العوارض التي حدثت للكتب التي

(١) البقرة ٢١٣ .

(٢) المائدة ٤٤ .

(٣) النساء ٥٦ .

قبله ، حاوياً لما يصلح العالم ، فأنزل القرآن الكريم على خاتم المرسلين ، وحفظه من التغيير والتبديل والتحريف قال تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)^١ .

قال ابن الجوزي : والذكر : القرآن في قول جميع المفسرين^٢ . أهـ

خصائص الكتب الإلهية الدالة على صدقها :

كما أن هناك أدلة تدل على صدق الرسل فإنّ هناك خصائص في الكتاب تدل على أنه من عند الله تبارك وتعالى ومن هذه الخصائص :

١- أن يكون من جاء به رسول من عند الله قامت الأدلة على صدق

نبوته .

٢- أن يكون محور هذا الكتاب هو الدعوة إلى توحيد الله

تبارك وتعالى ، والدعوة إلى الأخلاق الفاضلة والمثل العليا ، وهداية الناس وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وإيضاح الغاية التي من أجلها خلق الإنسان .

قال تعالى عن التوراة (إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء)^٣ .

وقال تعالى عن الإنجيل (وآتيناها الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقا لما بين

يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين)^٤ .

(١) الحجر ٩ .

(٢) زاد المسير ٤ / ٣٨٤ .

(٣) المائة ٤٤ .

(٤) المائة ٤٦ .

وقال تعالى عن القرآن (ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين)^١ .

٣— التصديق بالكتب السابقة كما صدق الإنجيل التوراة ، وكما صدق القرآن التوراة والإنجيل قال تعالى (وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه . .)^٢ الآية .

٤— انسجام المعاني في ذلك الكتاب بحيث لا يكون بينها تناقض ولا اختلاف كما قال تعالى عن القرآن (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً)^٣ .

قال ابن عطية في هذه الآية : وهذا أمر بالنظر والاستدلال ، ثم عرف تعالى بمواقع الحجج ، أي لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من القصور ، وظهر فيه التناقض والتنافي الذي لا يمكن جمعه ، إذ ذلك موجود في كلام البشر والقرآن متره عنه ، إذ هو كلام المحيط بكل شيء علماً .

قال القاضي أبو محمد رضي الله عنه : فإن عرضت لشخص شبهة وظن اختلافاً في شيء من كتاب الله ، فالواجب أن يتهم نظره ويسأل من هم أعلم منه^٤ . أهـ

وما قيل في القرآن يقال في كل الكتب السماوية السابقة قبل أن تحرف .
٥— أن يكون في الكتاب وجه من أوجه الإعجاز العلمي أو البياني ، أو التشريعي أو غير ذلك من الأوجه .

وقد تتحقق هذه الأوجه كلها في كتاب واحد كما في القرآن الكريم .

(١) النحل ٨٩ .

(٢) المائدة ٤٨ .

(٣) النساء ٨٢ .

(٤) المحرر الوجيز ٢ / ٨٣ .

والإعجاز التشريعي وجه مشترك في جميع الكتب لأن المشرع الله تبارك وتعالى المحيط علمه بكل شيء ، ولذلك فإن الله تعالى أخبر أنهم لو التزموا بما جاءهم في التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لحصلت لهم السعادة في الدنيا قال تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ٠٠)^١ الآية ٠

٦ — أنه لا يستطيع مثله في جانب الهداية ، فلا يوجد كتاب بشري فيه من الهداية ما في الكتب الوحيية قال تعالى (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين)^٢ ٠

قال ابن عطية رحمه الله : هذه حجة أمره الله تعالى أن يصدع بها ، أي أنتم أيها المكذبون بهذه الكتب التي قد تضمنت الأمر بالعبادات ومكارم الأخلاق ونهت عن الكفر والنقائص ، ووعد الله تعالى مع ذلك بالثواب عليها الجزيل إن كان تكذيبهم لمعنى وبجال صحة (فأتوا بكتاب من عند الله) يهدي أكثر من هدي هذه أتبعه معكم ، ثم قال تعالى (فإن لم يستجيبوا لك) وهو قد علم أنهم لا يستجيبون على معنى الإيضاح لفساد حالهم وسياق القياس البين لأهم متبعون لأهوائهم^٣ ٠ أهـ

فالهداية الإلهية في الكتب المتزلة لا يمكن للبشر أن يأتوا بمثلها ٠ فهذه الخصائص إذا اجتمعت في كتاب فإن هذا الكتاب هو من عند الله قطعاً ٠

وإذا أردنا أن نطبق هذه الخصائص على الكتب الموجودة الآن لما انطبقت إلا على القرآن الكريم ، فإن الكتب السابقة وإن كانت في أصلها من عند الله تعالى إلا أنها حرفت وغيرت حتى وقع فيها التناقض والاختلاف بخلاف القرآن

(١) المائة ٦٦ ٠

(٢) القصص ٤٩ ٠

(٣) المحرر الوجيز ٤ / ٢٩١ ٠

الكريم الذي تكفل الله سبحانه بحفظه .

وهناك بعض الخصائص التي انفرد بها القرآن الكريم فمنها :

١- سلامته من التبديل والتجريف والتغيير ذلك أن الله قد تكفل بحفظه

في قوله تعالى (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون)^١ .

٢- نقله إلينا نقلاً متواتراً يوجب القطع بصحة نسبته إلى رسول الله

صلى الله عليه وسلم .

٣- اشتماله على جميع أوجه الإعجاز .

٤- التحدي بالإتيان بمثله أو بعشر سور مثله أو سورة واحدة .

قال تعالى (قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا

القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً)^٢ .

وقال تعالى (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور

مثله مفتريات)^٣ الآية .

وقال تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من

مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين)^٤ .

٥- أنه معجزة الرسول الباقية والخالدة ، فكل معجزات الأنبياء انتهت

ولم يبق إلا أخبارها إلا معجزة النبي صلى الله عليه وسلم فإنها باقية

إلى أن يشاء الله تعالى وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم : ما من الأنبياء

إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً

(١) الحجر ٩ .

(٢) الإسراء ٨٨ .

(٣) هود ١٣ .

(٤) البقرة ٢٣ .

أوحاه الله إليّ فأرجوا أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة^١ .
قال ابن حجر في شرح هذا الحديث : قوله (وإنما كان الذي أوتيته وحياً
أوحاه الله إليّ) أي أن معجزتي التي تحدت بها الوحي الذي أنزل علي وهو
القرآن لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح ، وليس المراد حصر معجزاته فيه ،
ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه ، بل المراد أنه المعجزة
العظمى التي اختص بها دون غيره ، لأن كل نبي أعطي معجزة خاصة به لم
يعطها بعينها غيره تحدى بها قومه ، وكانت معجزة كل نبي تقع مناسبة
لحال قومه كما كان السحر فاشياً عند فرعون فجاءه موسى بالعصا على
صورة ما يصنع السحرة لكنها تلقفت ما صنعوا ، ولم يقع ذلك بعينه
لغيره ، وكذلك إحياء عيسى الموتى وإبراء الأكمه والأبرص لكون الأطباء
والحكماء كانوا في ذلك الزمان في غاية الظهور ، فأتاهم من جنس عملهم بما
لم تصل قدرتهم إليه .

ولهذا لما كان العرب الذين بعث فيهم النبي صلى الله عليه وسلم في الغاية
من البلاغة جاءهم بالقرآن الذي تحداهم أن يأتوا بسورة مثله فلم يقدرُوا على
ذلك^٢ . أهـ

وقال رحمه الله عند قوله (فأرجوا أن أكون أكثرهم تابِعاً يوم القيامة) :
رتب هذا الكلام على ما تقدم من معجزة القرآن المستمرة لكثرة فائدته
وعموم نفعه ، لاشتماله على الدعوة والحجة والإخبار بما سيكون فعم نفعه
من حضر ومن غاب ومن وجد ومن سيوجد فحسن ترتيب الرجوى

(١) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ، باب كيف نزل الوحي ٩ / ٣ ، حديث رقم

٤٩٨١ .

وأخرجه مسلم في الإيمان ، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

١ / ١٣٤ ، حديث رقم ١٥٢ .

(٢) فتح الباري ٩ / ٦ - ٧ .

المذكورة على ذلك ، وهذه الرجوى قد تحققت فإنه أكثر الأنبياء تبعاً^١ . أهـ
 فالقرآن الكريم هو الكتاب الوحيد الذي يشتمل على هدى الله تبارك
 وتعالى وعلى شرعه الآن ، ولا يمكن للبشرية أن تعقل عن الله وتعرف أمره
 ونهيه وتعرف السبيل إلى مرضاته إلا بواسطة هذا الكتاب العظيم ،
 ولأجل ما فيه من الكمالات ارتضاه الله سبحانه وتعالى هادياً للبشرية منذ
 بعثة النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى أن يرفعه الله تعالى إليه .

قال تعالى (آلر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى
 النور ياذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد)^٢ .

(١) فتح الباري ٩ / ٧ .

(٢) إبراهيم ١ .

السبيل الخامس : تسخير ما في السماوات والأرض له .

أهبط الله تعالى الإنسان إلى الأرض بعد أن كان يرفل في ثوب النعيم في الجنة ، فهبط إلى دار لا تقوم إلا بالكد والتعب والاعتماد على الذات في تحصيل المعاش فكان انتقاله إلى الأرض بداية مرحلة جديدة يعتمد فيها الإنسان على ما أودعه الله فيه من العلم ليحصل عيشه ولتستقيم حياته على هذه الأرض .

وكان الهدف من إهباطه إلى الأرض عبادة الله وحده — وهذا هو الهدف من خلقه — ولكنه بحاجة إلى ما يقيم حياته ويصلح معاشه فإنه لم يعد في الجنة التي كان ينعم فيها ، فكان هذا همماً من المهموم التي تتقل كاهل الإنسان وتعوقه عن المهمة الأساسية والغاية العظمى لوجوده وهي عبادة الله .

ولكن الله تعالى وهو اللطيف بعباده قد هياً الأسباب للإنسان كي يعيش حياة سهلة ميسرة يستطيع أن يعبد الله فيها وهو مطمئن النفس هادئ البال فسخر له ما في السماوات وما في الأرض لأجل هذه الغاية .

قال تعالى (ألم ترُوا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ)^١ .

فالله سبحانه سخر ما في السماوات وما في الأرض للإنسان كما تنص عليه هذه الآية ، والتسخير هو سِياقة إلى الغرض المختص قهراً^٢ .

فالله سبحانه سخر ما في السماوات من الشمس والقمر والنجوم والسحاب وغير ذلك لمصلحة الإنسان ، وسخر له ما في الأرض من أنواع

(١) لقمان ٢٠ .

(٢) انظر : مفردات الراغب ص ٢٢٧ .

قال ابن جرير : (ألم تروا) أيها الناس (أن الله سخر لكم ما في السموات) من شمس وقمر ونجم وسحاب (وما في الأرض) من دابة وشجر وماء وبحر وفلك وغير ذلك من المنافع يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم لغذائكم وأقواتكم وأرزاقكم وملاذكم تتمتعون ببعض ذلك أو كله وتنتفعون بجميعة^١ . أهـ

والتسخير نعمة عظيمة على الإنسان وهو نوعان :

تسخير ظاهر : وهو كتدليل الأرض له كما قال تعالى (هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور)^٢ .

وكتسخير الشمس والقمر لمعرفة الليل والنهار وعدد السنين والحساب ، وما فيهما من الإضاءة التي يستفيد منها الإنسان في حياته .

قال تعالى (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلاً)^٣ .

وكتسخير الدواب والأنعام للإنسان .

قال تعالى (والأنعام خلقها لكم فيها دفاء ومنافع تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون)^٤ .

وقد ذكرت أصناف كثيرة من هذه النعم في القرآن الكريم كما في سورة النحل والأنعام والحجر وغير ذلك .

(١) ابن جرير ٢٠ / ٩٣ - ٩٤ .

(٢) الملك ١٥ .

(٣) الإسراء ١٢ .

(٤) النحل ٥ - ٨ .

ويدخل في هذا ما تفتق عنه ذهن الإنسان من استكشاف أسرار الطبيعة وإخضاعها لمصلحته كما هو حاصل في اختراع الآلات على اختلاف أنواعها وأغراضها .

تسخير باطن : وهو قسمان .

القسم الأول : قسم يدرك بالتأمل والنظر وذلك كمعرفة بعض أسرار الطبيعة التي خلقها الله وكيف أن جميع المخلوقات تسير وفق سنن إلهية منظمة وتخضع لقوانين معينة جعلها الله فيها ، وتصب جميعها في مصلحة الإنسان ، ولو احتل شيء منها لأثر ذلك على حياة الإنسان وذلك كقضية التوازن البيئي المعروفة .

ومثال هذا القسم تسخير الله سبحانه الناس بعضهم لبعض ، فالله سبحانه خلق البشر متفاوتون في قدراتهم وإمكاناتهم ومواهبهم وميولهم وطباعهم وطبقاتهم ، فجعل منهم الغني والفقير ، والقوي والضعيف ، والغبي والذكي ، والرئيس والمرؤوس حتى ينتفع الناس بعضهم ببعض فيسد كل واحد منهم عوز الآخر ، فهذا عالم يعلم الناس ، وذاك فلاح يحرث الأرض ، والآخر يركب البحر ليصيد الأسماك ، وآخر يرعى الحيوانات في الصحراء ، وآخر عامل للنظافة . . وهكذا ، وكل واحد منهم يؤدي دوراً في الحياة^١ .

قال تعالى (نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون)^٢ .

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في أضواء البيان : يعني أنه تعالى لم يفوض إليهم أمر معاشهم وحظوظهم في الدنيا ، بل تولى هو جل وعلا قسمة ذلك

(١) انظر في ذلك : تفصيل الشأتين للراغب ص ١١٢ - ١١٣ .

(٢) الزخرف ٣٢ .

بينهم ، فجعل هذا غنياً وهذا فقيراً ، وهذا ربيعاً وهذا وضيعاً ، وهذا خادماً وهذا مخدوماً ، ونحو ذلك فإذا لم يفوض إليهم حظوظهم في الدنيا ، ولم يحكمهم فيها بل كان تعالى هو المتصرف فيها بما شاء ، كيف شاء ، فكيف يفوض إليهم أمر إنزال الوحي حتى يتحكموا في من ينزل إليه الوحي؟!!

فهذا مما لا يعقل ولا يظنه إلا غي جاهل كالكفار المذكورين .
وقوله تعالى في هذه الآية الكريمة (ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً)
التحقيق إن شاء الله أنه من التسخير .

ومعنى تسخير بعضهم لبعض : خدمة بعضهم البعض ، وعمل بعضهم لبعض ، لأن نظام العالم في الدنيا يتوقف قيامه على ذلك ، فمن حكمته جل وعلا أن يجعل هذا فقيراً مع كونه قوياً قادراً على العمل ، ويجعل هذا ضعيفاً لا يقدر على العمل بنفسه ، ولكنه تعالى يهيئ له الدراهم يؤجر بها ذلك الفقير القوي فينتفع القوي بدراهم الضعيف ، والضعيف بعمل القوي فتنتظم المعيشة لكل منهما وهكذا^١ . أهـ

ولنا أن تتصور كيف لو أن الناس كلهم كانوا أغنياء ، أو كلهم كانوا فقراء ، أو كلهم كانوا ضعفاء ، إن النتيجة لذلك هي اختلال ميزان الحياة وذهاب نظام العالم مما يجعل الحياة مستحيلة أو صعبة جداً .

القسم الثاني : قسم لا يدرك .

وهو ما خفي علينا من أمور الكون والحياة مما لا ندركه ولا نعقله ويكون فيه مصلحة لنا .

وما عرفه الإنسان في هذا الباب أقل بكثير مما جهله قال تعالى (وما

أوتيتم من العلم إلا قليلاً)^٢ .

(١) أضواء البيان ٧ / ٢٤٣ .

(٢) الإسراء ٨٥ .

وكل قسم من الأقسام الماضية تدخل فيه صور كثيرة جداً يصعب استقصاءها . وقد ذكر القرآن أمثلة لها . وهو مبحث متسع جدير بالتأمل والنظر .

والقرآن الكريم يذكر التسخير من باب بيان النعمة على الإنسان وبيان استحقاق معطيها للعبادة وحده .

ومع تلك الفوائد التي يجنيها الإنسان من ذلك التسخير يظل هذا التسخير سبيلاً من السبل العظيمة التي تعين الإنسان على أداء العبادة المطلوبة منه في أي ظرف كان ، فهو يتمكن من الحياة في وسط الصحراء وفي غمرات الثلوج وفي أعالي الجبال وفي جزائر البحار وهو مطمئن البال ، موفور الرزق مهياً لأداء المهمة المطلوبة منه .

الباب الثالث

أثر هذه الغاية في حياة الإنسان ومصيره

والمعوقات في طريق تحقيقها

وفيه فصلان :

الفصل الأول : الإنسان بين تحقيق الغاية وعدم تحقيقها •

الفصل الثاني : المعوقات في طريق تحقيق هذه الغاية •

الفصل الأول

الإنسان بين تحقيق الغاية وعدم تحقيقها

وفيه مبحثان :

المبحث الأول : تحقيق هذه الغاية ، وأثر ذلك في حياة

الإنسان ومصيره •

المبحث الثاني : عدم تحقيق هذه الغاية وأثر ذلك في

حياة الإنسان ومصيره •

المبحث الأول

تحقيق الغاية من وجود الإنسان وأثرها في حياته ومصيره

وفيه المطالب التالية :

- المطلب الأول : كيفية تحقيق الغاية في حياة الإنسان
- المطلب الثاني : أثر هذه الغاية في حياة الإنسان
- المطلب الثالث : أثر هذه الغاية في مصير الإنسان

المطلب الأول : كيفية تحقيق الغاية :

بعد أن يعرف الإنسان الغاية من وجوده وهي عبادة الله وحده لا شريك له والسعي في مرضاته واجتناب ما يسخطه يجب عليه أن يعرف كيف يتحقق ذلك .

ولعل فيما سبق من المباحث إجابة على هذا التساؤل .

والجواب المعروف أن الإنسان لا يمكن له ذلك إلا عن طريق واحد هو

إتباع الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه هو المبلغ عن ربه .

قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم

ذنوبكم والله غفور رحيم)^١ .

وقال تعالى (وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه

فانتهوا)^٢ الآية .

وقال تعالى (لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من

أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا

من قبل لفي ضلال مبين)^٣ .

و الآيات في هذا المعنى كثيرة .

و طريق إتباع الرسول يكون بالالتزام بما جاء به من غير

زيادة و لا نقصان ، و في هذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم : من أحدث

في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد .^٤

و هذا الحديث أصل عظيم من أصول الدين كما ذكر ذلك

(١) آل عمران ٣١ .

(٢) الحشر ٧ .

(٣) آل عمران ١٦٤ .

(٤) سبق تخريجه ص ٢٠٠ .

أهل العلم ،^١ وذلك لما اشتمل عليه من بيان واضح لأساس التعامل مع ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم .

وهو أصل في رد كل المحدثات والبدع التي لم يشرعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد بينت فيما سبق أن من خصائص العبادة الانضباط بالوحي فلا مجال فيها لاجتهادات البشر .

فإذا التزم الإنسان بما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد عبد الله بما شرع وحقق العبودية كما أراد الله منه .

أما إذا تزيد في الشرع أو أنقص منه فإنه عندئذ يكون قد طعن في الرسول بأنه لم يبلغ الشرع كاملاً إما نسياناً وإما جهلاً وإما إعراضاً ، وكلها أمور باطلة اعتقاد أي منها كفر^٢ .

فتحقيق العبادة يكون بالالتزام بما جاء به الرسول وترك الزيادة مع أداء العبادة في خضوع ومحبة لله .

فالعبادة تؤدي محبة لله وطمعاً في ما عنده من الثواب وخوفاً من العقاب يفعلها الإنسان بطوعه وإرادته من غير جبر ، فإن فعلها وهو مجبر عليها لم يكن مأجوراً .

قال الراغب : العبادات تكون محمودة إذا تعاطاها الإنسان طوعاً واختياراً ، لا اتفاقاً و اضطراراً ، ودائماً لا في زمان دون زمان ، و لأجل أن ذاتها حسنة لا لأجل غيرها ، فمن أقامها على هذا الوجه فهو الموصوف بقوله تعالى (وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين و سوف يؤتي الله المؤمنين أجراً عظيماً)^٣ . أهـ^٤

(١) انظر : جامع العلوم والحكم لابن رجب ٥ - ٦ .

(٢) انظر : الاعتصام للشاطبي ١ / ٤٨ - ٥١ .

(٣) النساء ١٤٦ .

(٤) تفصيل النشأتين ص ١٨٢ - ١٨٣ .

- وقال الشاطبي : المقصد الشرعي من وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه حتى يكون عبداً لله اختياراً كما هو عبد لله اضطراراً^١ . أهـ
- فها هنا ثلاثة أمور يجب مراعاتها كي تحقق العبادة كما أرادها الله :
- الأول : عبادة الله وحده لا شريك له وهو التوحيد الخالص .
 - الثاني : عبادته بما شرع من غير زيادة أو نقص وهو إتباع الرسول .
 - الثالث : أدائها مع المحبة والرضى ، وهو الاختيار في أداء العبادة .

(١) الموافقات للشاطبي ٢ / ١٦٨ .

المطلب الثاني : أثر تحقيق هذه الغاية في حياة الإنسان .

لا شك أن السير على منهج الله الذي ارتضاه لعباده يؤثر تأثيراً إيجابياً في جوانب الحياة المختلفة ، وسأبين بعض هذه الجوانب في النقاط التالية :

أولاً : انتظام الحياة .

الشرع هو دين الله الحكيم الذي ارتضاه لعباده وهو الطريقة الصحيحة والوحيدة لعبادة الله تعالى على مراده .

والله سبحانه وتعالى الذي وضع لنا هذا الشرع يعلم ما يصلح عباده وما تستقيم به أمور حياتهم ، ويعلم سبحانه ما يخرج هذه الحياة عن خط سيرها المرسوم لها ، وبناءً على هذا العلم الإلهي وعلى الحكمة المقترنة بأفعال الله جاء الشرع الإلهي مصلحاً لأحوال البشر وللحياة ككل .

فالله سبحانه عندما يشرع للناس أمراً من الأمور فإنّ هذا الأمر هو الذي تستقيم معه الحياة ، ولو اختل هذا الأمر لاختلت معه جوانب عدة من الحياة .

وللتمثيل على هذه القضية نأخذ تشريع القصاص الذي جعله الله حقاً من حقوق أولياء الدم في القتل العمد .

قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص في القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفي له من أخيه شيء فاتباع بالمعروف وأداء إليه بإحسان ذلك تخفيف من ربكم ورحمة فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم . ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون)^١ .

فالقاتل في الإسلام يقتل ، ولو لم يقتل القاتل لأدى ذلك إلى نشوء الثارات بين الناس وظهور العصبية بحيث يقتل بالمقتول عدد من قبيلة القاتل

(١) البقرة ١٧٨ - ١٧٩ .

وأهله مما يؤدي بهم إلى طلب الثأر ، وهكذا تستمر الأمور في فوضى غير معقولة تراق فيها الدماء ، وتهتك فيها الحرمات ، و تمتلئ النفوس بالأحقاد والإحـن .

ولو ترك الأمر من غير تشريع القصاص لأدى ذلك إلى استهانة الناس بالقتل والإقدام عليه لأدنى سبب مما يثير الرعب ويزعزع الأمن في المجتمع ، ولأجل ذلك بين الله تعالى أن في القصاص حياة ، لأن من أراد القتل إذا علم أنه إذا قُتِلَ قُتِلَ إنكف عن فعله فكان ذلك حياة له ولمن كان يريد قتله^١ .

وقس على هذا التشريع سائر التشريعات في الإسلام .

فدين الله متوافق مع الفطرة الإنسانية ومنسجم مع السنن الإلهية ذلك أن

مصدر الجميع هو الله تبارك وتعالى .

ولو التزم الناس بدين الله وشرعه لتحقيق للناس السعادة في الدنيا والآخرة فلنا أن نتصور الحياة الإسلامية التي يحقق الإنسان فيها عبادته لربه ، إنها ستكون حياة مثالية ، ليس فيها غش ولا خداع ولا كذب ولا نفاق ولا ظلم ولا اعتداء ولا قطيعة رحم ولا بغض ولا حقد ولا شحناء ولا غيبة ولا نيممة ولا مفاخرة ولا كبر بل تسودها المحبة والوئام والصدق والإخاء والعدل وصلة الرحم والتواضع والتكافل والتعاون على البر والتقوى .

إن تحقيق العبودية يكفل للمجتمع حياة طيبة مثل هذه الحياة يعود نفعها

لا على الفرد وحده بل على المجتمع ككل .

ولكن سنة الله في عباده أنهم متفاوتون في تحقيق العبودية بقدر تفاوتهم

في الإيمان ، ولذلك فإن ظهور بعض المخالفات في المجتمع المسلم سببه ضعف

الإيمان والبعد عن شرع الله وهدايته .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أنبه على أن المطالبة أو الحلم بمجتمع مثالي

صرف أمر صعب بل مستحيل إذ لو كان ذلك ممكن لحصل في عهد النبوة ،

(١) انظر : ابن كثير ١ / ٢١١ .

ولكننا نرى أن في عهد النبوة من كان يزني ومن كان يسرق ومن كان يشرب الخمر ومن يرتد عن دينه ، فغير ذلك العهد أولى بذلك ، لكن الانضباط العام بالشرع من قبل الأفراد يقلل من المخاطر التي يتعرض لها الفرد والمجتمع .

ثانياً : شعور المؤمن بالارتياح والاطمئنان .

الإنسان مكون من روح وجسد ولكل واحد منها متطلباته ، وتحصيل متطلبات الجسد مقدور عليه بالعقل البشري ، أما متطلبات الروح فإنها لا تحصل إلا عن طريق الوحي الإلهي المبلغ إلى رسل الله الكرام . فإذا حصلت الروح متطلباتها حصل لها السعادة والطمأنينة كما قال تعالى (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ٠٠)^١ الآية .

وقال تعالى (من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ٠٠)^٢ الآية .

فلا يستطيع أحد أن ينكر ما للدين من آثار نفسية حميدة في نفوس البشر نظراً لما تضمنه الدين من الكمال التشريعي في جميع الاتجاهات العقديّة والحكمية والتنظيمية وغير ذلك .

وأما إذا لم تحصل الروح متطلباتها فإنها تضل وتزيغ ويعتريها الاضطراب في جميع تصرفاتها وأحوالها ، ولذلك فإن حياة كثير ممن لم يحصلوا متطلبات الروح نكدة مضطربة .

قال تعالى (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى)^٣ .

والضنك : هو الضيق والشدة^٤ .

(١) الرعد ٢٨ .

(٢) النحل ٩٧ .

(٣) طه ١٢٤ .

(٤) انظر : مفردات الراغب ص ٢٢٩ ، الكشاف ٢ / ٥٥٨ .

ثالثاً : المؤمن يشعر بقيمة الحياة ويعرف أنها مزرعة الآخرة .

المؤمن يستغل وجوده في هذه الحياة لكي يحصل على رضا الله تبارك وتعالى ولذلك فهو ينظر إلى الحياة على أنها ميدان عمل وتحصيل وجد واجتهاد لا مجال فيها للتراخي والفتور .

ومثل المؤمن في الحياة كمثل التاجر الحصيف الذي عرف مواطن الكسب فوجه تجارته نحوها ، وأقام سوقه فيها ، فربح وكسب ولا يزال في ربح وكسب ما دام في تلك المواطن .

فعبادة الله أعظم تجارة يتاجر بها العبد وميدانها هو الحياة قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين)^١ .

فهذه هي نظرة المؤمن للحياة ، ولذلك فهو يحاول استغلالها لصالحه وذلك باتباع دين الله ، فيكون عمله كله موجه لله تبارك وتعالى طمعاً في مرضاته والفوز بحسن الثواب وخوفاً من سخطه وأليم العقاب .

قال تعالى عن المؤمنين (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً . عينا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً . يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً . إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً . إنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطيراً . فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً . وجزاهم بما صبروا جنة وحريراً .)^٢ الآيات .

(١) الصف ١٠ - ١٣ .

(٢) الإنسان ٥ - ١٢ .

إنّ هذه النظرة لدى المؤمن تجعله يحسب تصرفاته كلها فلا يعمل إلا ما يرضي الله ولا يتحرك إلا وهو مستصحب للمفهوم الشامل للعبادة مما يجعله يشعر أنّ حياته كلها عبادة لله تبارك وتعالى ، لذا فهو دائم التطلع إلى ربه في عسره ويسره ومنشطه ومكرهه .

رابعاً : العبادة تهذيب للنفس والسلوك .

ذلك أنّ الأمر الإلهي لا بد وأن يوصل النفس إلى كمالها إذ لا يتصور أبداً أنّ عبادة من العبادات التي شرعها الله تعالى تؤدي إلى نقص في السلوك .

ونجد أنّ القرآن قد بين أنّ الإنسان خلق وفي خلقه طبائع تحتاج إلى تقويم وأنّ عباد الله المؤمنين هم الذين يستطيعون تقويم هذا الاعوجاج عن طريق عبادة الله تبارك وتعالى ، قال تعالى (إنّ الإنسان خلق هلوعاً . إذا مسّه الشر جزوعاً . وإذا مسّه الخير منوعاً . إلا المصلين . .)^١ الآيات .

قال الراغب : لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى باستعباد عبيده ، واستخدام خدمه ، فإنّ الله غني عن العالمين ، ولا ليؤذيهم (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر)^٢ ، بل كلفهم ليزيل أنحاسهم وأمراضهم النفسانية ، فبذلك يمكنهم أن يحصلوا حياة أبدية وسلامة باقية^٣ . أهـ

وهذا المعنى المذكور في كتاب الله تعالى حيث قال تعالى مبيناً أهمية تشريع الصلاة وفائدتها التي تعود على المصلين (إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر . .)^٤ .

(١) المعارج ١٩ - ٢٢ .

(٢) البقرة ١٨٥ .

(٣) تفصيل الشأئين ص ١٦٥ .

(٤) العنكبوت ٤٥ .

وقال تعالى عن فائدة أخذ الصدقات (خذ من أموالهم صدقة
تطهرهم وتزكّيهم بها ٠٠) الآية ٠

خامساً : تحقيق العبودية سبب في نزول النعم ٠

إن إقامة شرع الله ودينه سبب في نزول الخيرات على العباد وفتح أبواب
الرزق لهم وهذا المعنى مبثوث في القرآن في مواضع عدة ٠

قال تعالى (ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من
السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون) ٢ ٠

وقال تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم
لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم منهم أمة مقتصدة وكثير منهم ساء ما
يعملون) ٣ ٠

ومعنى (لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) : أي لأنزل الله عليهم
من السماء قطرها فأنبئت لهم به الأرض حبها ونباتها فأخرج ثمارها ٤ ٠

وقال تعالى (آلر كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم
خبير ٠ ألاّ تعبدوا إلاّ الله إنّني لكم منه نذير وبشير ٠ وأن استغفروا ربكم ثم
توبوا إليه يمتعكم متاعاً حسناً إلى أجل مسمى ويؤت كل ذي فضل فضله
وإن تولوا فإني أخاف عليكم عذاب يوم كبير) ٥ ٠

وقال نوح مبيناً لقومه فوائد التمسك بدين الله (فقلت استغفروا ربكم
إنه كان غفاراً ٠ يرسل السماء عليكم مدراراً ٠ ويمددكم بأموال وبنين
ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً) ٦ ٠

(١) التوبة ١٠٣ ٠

(٢) الأعراف ٩٦ ٠

(٣) المائدة ٦٦ ٠

(٤) انظر : ابن جرير ٦ / ٤١١ ٠

(٥) هود ١ — ٣ ٠

(٦) نوح ١٠ — ١٢ ٠

فهذه الآيات تبين فوائد التمسك بهدى الله الذي أرسل به رسوله وأن ذلك كفيل بتحقيق السعادة الدنيوية قبل السعادة الأخروية الباقية ، فهو يضمن لها حياة هادئة هائلة تغدق عليها الخيرات وتيسر فيها الأرزاق وتصرف عنها الشرور .

سادساً : تحقيق العبودية سبب في التمكين في الأرض .

قال تعالى مبيناً للمؤمنين هذه القضية (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً .) الآية .

فهذه الآية الكريمة بينت فوائد عديدة تحصل لمن حقق العبودية لله تبارك وتعالى هي : الاستخلاف في الأرض ، والتمكين لهم ، وتبديل الخوف بالأمن .

وهذه الوعود هي أقصى ما يتمناه إنسان أو ترجوه أمة من الأمم ، ولكنه لا يتحقق إلا بشرطه المذكور في الآية (يعبدونني لا يشركون بي شيئاً) فإذا تحقق الشرط وقع الوعد الإلهي قطعاً .

والصحابه رضوان الله عليهم لما تمسكوا بدين الله الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم حصل لهم التمكين والاستخلاف في الأرض ، وبدلوا بالخوف الذي كانوا يعيشونه أمناً وعزة وكرامة .

ولما ابتعد الناس عن دين الله ولم يحققوا العبودية لله تبارك وتعالى كما ينبغي وقعوا في الذل والهوان ، وبدلوا بالأمن خوفاً ، وبالكرامة مهانة كما هو ملاحظ ومشاهد في حال الأمة الإسلامية اليوم .

والآيات التي تبين فوائد التمسك بهدى الله كثيرة منها ما يبين فوائد ذلك بالنسبة للفرد ومنها ما يبين فوائد ذلك بالنسبة للمجتمع وإن لم يذكر

فيها لفظ العبادة أو مشتقاته بل قد يذكر فيها وصف آخر يدل عليها كالتقوى
والتوكل كما في قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا • ويرزقه من
حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه •)^١
فالتقوى والتوكل هما من حقيقة العبادة •

المطلب الثالث : أثر تحقيق الغاية من الخلق في مصير الإنسان .

يمر الإنسان بمراحل متعددة في عمره ، فمن مرحلة العدم يخلق فيصير بشراً ، ثم يقضى ما كتب له من الحياة الدنيا ، ثم ينتقل إلى دار أخرى يبقى فيها حقبة من الزمن هي دار البرزخ ، ثم يبعث ليحاسب و يجازى ، ثم يستقر في مثواه الأخير إما في الجنة وإما في النار .

والإنسان الذي يدرك الغاية من خلقه يسعى حثيثاً لاستصلاح الدار الآخرة أكثر من سعيه لاستصلاح الدار الدنيا لأنه يعلم أن الدار الآخرة هي الحياة الباقية وأن الدنيا لا تزيد عن كونها محطة لمسافر يتزود منها لما أمامه من السفر حتى يبلغ الدار والمحل .

إن الإيمان بهذا يزيد الإنسان ثباتاً في الدنيا يستطيع أن يواجه به كافة الظروف سهلها وصعبها ، صغيرها وكبيرها .

أمّا إذا اختل ذلك فإن الإنسان سرعان ما يترزعزع لأدنى مشكلة أو عند أول اختبار وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين)^١ .

قال الزمخشري : (على حرف) على طرف من الدين لا في وسطه و قلبه ، وهذا مثل لكونهم على قلق واضطراب في دينهم لا على سكون وطمأنينة ، كالذي يكون على طرف من العسكر فإن أحس بظفر و غنيمة قر و اطمأن وإلا فرّ وطار على وجهه^٢ . أهـ

فهذا حال من لم يطمئن قلبه بالإيمان ، ولكن المؤمن كما أسلفت هو من لم يزعزعه تغير الظروف وتقلب الأحوال بل يسعى إلى الآخرة بكل ثبات وقوة ، هدفه هو تحصيل السعادة فيها لأنها هي السعادة الباقية .

(١) الحج ١١ .

(٢) الكشاف ٣ / ٧ .

فمصير الإنسان المؤمن أهم عنده من الحياة الدنيا لذا فإنه يقدم حياته من أجل الفوز في الآخرة .

و مصير الإنسان يبدأ بموته وينتهي بدخوله إما إلى الجنة وإما إلى النار ، وفي هذا المطلب سأبين أثر العبادة في هذه المراحل التي يمر بها الإنسان حتى يصل إلى مثواه الأخير من خلال النقاط التالية :

أولاً : أثر العبادة في موت الإنسان .

الموت حقيقة لا ينكرها مؤمن ولا كافر ولا عاقل ولا جاهل ، إنه السنة الإلهية في الخلق فهو الكأس الذي يتجرعه الجميع من غير تمييز بين غني وفقير وقوي وضعيف وذكر وأنثى، فالكل هالك لا محالة كما قال تعالى (كل شيء هالك إلا وجهه . .)^١ الآية ، (كل نفس ذائقة الموت . .)^٢ الآية .

والتفكير في لحظة النهاية يبعث الرهبة في القلوب ، تلك الرهبة هي دافع المؤمن لإصلاح عمله والاستعداد للموت بما يناسبه ويخفف من وطئته ورهبته .

ولأجل ذلك نجد أن القرآن الكريم يحفل بذكر الموت وأحوال الناس عنده وحث المؤمنين على أن يموتوا وهم مسلمون .

قال تعالى (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد)^٣ .
وقال تعالى (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)^٤ .

قال القرطبي : وجمهور العلماء على أن هذا اليوم المحذر منه هو يوم

(١) القصص ٨٨ .

(٢) آل عمران ١٨٥ .

(٣) ق ١٩ .

(٤) البقرة ٢٨١ .

القيامة والحساب والتوفية ، وقال قوم : هو يوم الموت^١ . أهـ
 وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا
 وأنتم مسلمون)^٢ .

ففي الآية حث للمؤمنين على أن يموتوا على الإسلام لما في ذلك من
 الكرامة لهم .

وبين الله سبحانه حال المؤمن عند موته في قوله تعالى (الذين تتوفاهم
 الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)^٣ .

قال ابن جرير : كذلك يجزي الله المتقين الذين تقبض أرواحهم ملائكة
 الله وهم طيبون بتطيب الله إياهم بنظافة الإيمان وطهر الإسلام في حال حياتهم
 ومماتهم وقوله (يقولون سلام عليكم) يعني جل ثناؤه أن الملائكة
 تقبض أرواح هؤلاء المتقين وهي تقول لهم : سلام عليكم صيروا إلى الجنة
 بشارة من الله تبشرهم بها الملائكة^٤ . أهـ

فالمؤمن يبشر عند موته بالجنة وهو في ذلك الوقت أحوج ما يكون لمن
 يبشره ويثبته .

وقال تعالى مبيناً ما تقوله الملائكة للمؤمن حال الاحتضار (إن الذين
 قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا
 وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياءكم في الحياة الدنيا وفي
 الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون)^٥ .

قال ابن جرير : تنهبط عليهم الملائكة عند نزول الموت بهم^٦ . أهـ

(١) القرطي ٣ / ٢٤٣ .

(٢) آل عمران ١٠٢ .

(٣) النحل ٣٢ .

(٤) ابن جرير ١٤ / ١٣٥ .

(٥) فصلت ٣٠ — ٣١ .

(٦) ابن جرير ٢٤ / ١٤٥ .

ثم نقل هذا المعنى عن مجاهد والسدي .

فالملائكة تنزل على المؤمنين عند إقبالهم على الآخرة مطمئنة لهم ومبشرة ومثبتة ، تقول لهم لا تخافوا مما أمامكم وما ستقدمون عليه ولا تحزنوا على ما تخلفونه وراءكم من أموال وأهل وولد فإن الله سيخلفكم فيه خيراً .
فهذه بعض جوانب الكرامة الحاصلة للمؤمن عند موته التي بينها القرآن الكريم .

وقد جاءت السنة النبوية مؤكدة لتلك الجوانب ومبينة لها .

ففي الحث على الإكثار من تذكّر الموت يقول المصطفى صلى الله عليه وسلم : أكثروا من ذكر هادم اللذات ^٢ .

(١) انظر : ابن جرير ٢٤ / ١٤٥ .

(٢) أخرجه النسائي في كتاب الجنائز ، باب كثرة ذكر الموت ١/٦٠٠ حديث رقم ١٩٥٠ ، والترمذي في كتاب الزهد ، باب ما جاء في ذكر الموت ٤/٤٧٩ حديث رقم ٢٣٠٧ ، وابن ماجه في الزهد ٢/١٤٢٢ حديث رقم ٤٢٥٨ ، كلهم من طريق محمود بن غيلان حدثنا الفضل بن موسى عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة عن أبي هريرة . وهذا إسناد ضعيف .

فإن محمود بن غيلان : ثقة . انظر التقريب ٢/٢٣٣ . والفضل بن موسى : ثقة ثبت ، روى له الجماعة .
التقريب ٢/١١٢ . ومحمد بن عمرو : صدوق له أوهام ، روى له الجماعة . التقريب ٢ / ١٩٦ . وأبو سلمة هو بن عبد الرحمن بن عوف : ثقة مكثر . التقريب ٢/٤٣٠ .
قال الألباني : بل هو حديث صحيح وله شواهد كثيرة . وذكر منها :
شاهد من حديث ابن عمر أخرجه أبو بكر الشافعي في مجلسان ١/٢ .
والقاسم بن الحافظ ابن عساكر في تعزية المسلم (ق ٢١٥ / ١ - ٢) من طريق أبي عامر القاسم بن محمد الأسدي نا عبید الله عن نافع عنه مرفوعاً به .

ورجاله موثقون غير القاسم هذا أورده ابن أبي حاتم ٣/١١٩ ولم يذكر فيه جرحاً ولا تعديلاً .
وله شاهد من حديث أنس مرفوعاً به .

أخرجه أبو نعيم في الحلية ٩/٢٥٢ ، والخطيب ١٢/٧٢-٧٣ ، والضياء المقدسي في الأحاديث المختارة ١ / ٥٢١ من طريق الطبراني من طريقين :

عن حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس . قلت : وهذا سند صحيح على شرط مسلم .

وعن عمر ابن الخطاب مرفوعاً به مثل رواية المقدسي عن أبي هريرة .

أخرجه أبو نعيم في الحلية ٦/٣٥٥ من طريق عبد الملك بن يزيد ثنا مالك بن أنس عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب عنه . رجاله ثقات غير عبد الملك بن يزيد ، قال الذهبي : لا يدرى من هو . أهـ

بتصرف واختصار من إرواء الغليل للألباني ٣ / ١٤٥ - ١٤٦ .

وهادم اللذات : أي قاطعها^١ .

وجاء التوجيه النبوي بالإكثار من ذكر الموت لأن ذلك يبعث الإنسان

على العمل والاستعداد للموت بما يناسبه .

وبين النبي صلى الله عليه وسلم صعوبة الموت وشدة سكراته حيث قال

عليه الصلاة والسلام : إنَّ للموت لسكرات^٢ .

والسكرة : حالة تعرض بين المرء وعقله ويطلق في الغضب والعشق كما

قال الراغب ، وزاد ابن حجر : والألم والنعاس والغشي الناشئ عن الألم وهو

المراد هنا^٣ .

فمن شدة وقع الموت على الإنسان يحال بينه وبين عقله كما فعل بالنبي

صلى الله عليه وسلم فإنه كان يغشى عليه كما ذكر ذلك في وفاته .

ولو كان أحد يسلم من ذلك لسلم منه سيد الخلق عليه

الصلاة والسلام .

إنَّ المؤمن عندما يعرف تلك الحقائق فإنه يستعد لها بما يضمن له الثبات

عند الممات .

والتشديد على المؤمن يكون في سكرات الموت أما عند الموت فإنه نفس

المؤمن تخرج كما تخرج القطرة من السقاء .

وفي ذلك روى الإمام أحمد بسنده عن البراء ابن مالك من حديث

طويل في حال المؤمن والكافر عند الموت وفيه : . . ثم يجيء ملك الموت حتى

يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الطيبة أخرجني إلى

(١) انظر : تحفة الأحوذى ٦ / ٥٩٤ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب سكرات الموت ١١ / ٣٦١ ، حديث رقم

٦٥١٠ .

(٣) انظر : مفردات الراغب ص ٢٣٦ ، فتح الباري ١١ / ٣٦٢ .

مغفرة من الله ورضوان .

قال : فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء . . . الحديث .

فالمؤمن يسهل له الترع الذي هو أصعب ما يكون في الموت .

والتشديد على المؤمن إنما هو لتكفير خطاياهم ورفع درجاته .

روى الإمام أحمد بسنده عن عائشة رضي الله عنها : أخبرت أن رسول

الله صلى الله عليه وسلم طرقة وجع فجعل يشتكي ويتقلب على فراشه .

فقلت : لو صنع هذا ببعضنا لوجدت عليه !

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن الصالحين يشدد عليهم ، وإنه لا يصيب

مؤمناً نكبة من شوكة فما فوق ذلك إلا حطت به عنه خطيئة

ورفع بها درجة^٢ .

والشاهد في هذا الحديث أن الصالحين يشدد عليهم أكثر من غيرهم وأن

هذا التشديد إما لتكفير السيئات أو لرفع الدرجات ، وهذا يشمل كل حال

يصاب فيه المؤمن بالتشديد سواء أكان مرضاً أم أي أمر يسوءه ولو كان

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٢٨٧/٤ - ٢٨٨ عن أبي معاوية حدثنا الأعمش عن منهل بن عمرو عن

زاذان وهذا إسناد حسن . فأبو معاوية : ثقة ، أحفظ الناس لحديث الأعمش . التقريب ١٥٧/٢ .

والأعمش : ثقة حافظ . التقريب ٣٣١/١ . ومنهل : صدوق ربما وهم ، أخرج له البخاري التقريب

٢٧٨/٢ . وزاذان : صدوق يرسل ، أخرج له مسلم . التقريب ٢٥٦/١ .

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٦٠/٦ من طريق هشام بن سعيد أنا معاوية يعني ابن سلام قال : سمعت

يحيى بن أبي كثير قال : أخبرني أبو قلابة أن عبد الرحمن بن شيبه أخبره أن عائشة أخبرته بذلك . وهذا حديث

حسن . فإن هشام بن سعيد هو الطالقاني كما في التهذيب ٣٨/١١ ، وثقه الإمام أحمد وابن سعد وابن حبان

وقال النسائي : ليس به بأس .

وقال ابن حجر في التقريب : صدوق . التقريب ٣١٨/٢ ، ومعاوية بن سلام : ثقة . التقريب ٢٥٩/٢ ، ويحيى

بن أبي كثير : ثقة ثبت . التقريب ٣٥٦/٢ . وأبو قلابة : هو عبد الله ابن زيد الجرمي . ثقة فاضل كثير

الإرسال . التقريب ٤١٧/١ ، وانظر : التهذيب ١٩٧/٥ . وعبد الرحمن بن شيبه : ثقة . التقريب ٤٨٤/١

شوكة يصاب بها وهذا من فضل الله الواسع على المؤمنين .
 إن معرفة ذلك يورث لدى المؤمن راحة تامة في كل ما يصيبه من
 مصائب ونكبات ، وأحوج ما يكون الإنسان إلى تلك المعرفة عند موته
 وانقطاعه من الدنيا .

ويبين النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمن يبشر عند موته بالكرامة
 ولذلك فهو يحب لقاء الله ويحب لقاءه .

قال صلى الله عليه وسلم : من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ، ومن
 كره لقاء الله كره الله لقاءه .

قالت عائشة أو بعض أزواجه : إننا لنكره الموت !

قال : ليس ذلك ، ولكن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله
 وكرامته فليس شيء أحب إليه مما أمامه ، فأحب لقاء الله وأحب الله لقاءه .
 وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته فليس شيء أكره إليه مما
 أمامه ، فكره لقاء الله فكره الله لقاءه .^١

وإذا مات المؤمن وحمل على أعناق الرجال فإن كان صالحاً قال :
 قدموني كما ثبت الحديث بذلك .

أخرج البخاري بسنده عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : كان
 النبي صلى الله عليه وسلم يقول : إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال على
 أعناقهم فإن كانت سالحة قالت : قدموني .^٢

وبهذا يتضح كم للمؤمن من كرامة يعطيه الله إياها عند موته بسبب
 تحقيقه للغاية التي من أجلها خلق وهي عبادة الله سبحانه وفق ما شرعه له .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ١١ / ٣٥٧
 حديث رقم ٦٥٠٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب قول الميت وهو على الجنازة : قدموني ،

٣ / ١٨٤ ، حديث رقم ١٣١٦ .

ثانياً : أثر العبادة في الحياة البرزخية .

الحياة البرزخية هي الحياة التي يقضيها الإنسان في قبره بعد موته وهي تبدأ بدخوله القبر وتنتهي بيوم البعث ، قال تعالى (ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)^١ .

قال مجاهد في تفسير البرزخ : ما بين الموت إلى البعث . نقله عنه ابن جرير^٢ .

فالحياة البرزخية حق لا مزية فيه ، والقبر أول منازل الآخرة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : القبر أول منازل الآخرة فإن ينج منه فما بعده أيسر منه ، وإن لم ينج فما بعده أشد منه .^٣ الحديث .

ولذلك فالمؤمن يسعى دائماً لأن يكون قبره روضة من رياض الجنة وذلك لا يتحقق إلا بتحقيق العبودية لله تعالى بالمدامومة على الطاعات والمسارة في فعل الخيرات والبعد عما حرم الله تعالى .
ولأن عذاب القبر فظيع فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ منه في

(١) المؤمنون ١٠٠ .

(٢) انظر : ابن جرير ١٨ / ٦٧ .

(٣) أخرجه عبد الله ابن الإمام أحمد في زوائده على مسند الإمام ١ / ٦٣ - ٦٤ قال : حدثني يحيى بن معين ثنا هشام بن يونس حدثني عبدالله بن بجير القاص عن هاني مولى عثمان رضي الله عنه قال : (كان عثمان إذا وقف على قبر بكى ...) الحديث .
وهذا إسناد حسن .

فيحي بن معين : إمام مشهور .

وهشام بن يونس : ثقة من العاشرة . التقريب ٢ / ٣٢٠ .

وعبدالله بن بجير القاص : ثقة وثقه ابن معين . التقريب ١ / ٤٠٣ .

وهاني مولى عثمان : قال النسائي : ليس به بأس ، وذكره ابن حبان في الثقات كما في التهذيب ١١ / ٢٣ .

والحديث رواه الترمذي في الزهد ٤ / ٤٧٩ حديث رقم ٢٣٠٨ ، ورواه ابن ماجه في الزهد ، باب ذكر الموت والبلى ٢ / ١٤٢٦ حديث رقم ٤٢٦٧ .

دعائه ويقول : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر^١ .
 وكان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى كما في الحديث
 السابق الذي أخرجه عبد الله بن الإمام أحمد في زوائده على المسند .
 فالتعوذ من عذاب القبر وخوف السلف رضوان الله عليهم منه يدل
 على فظاعته و هوله .

والإنسان إذا وضع في قبره تولى عنه أهله ومن تبع جنازته ، وأعيدت
 إليه الروح حتى إنه ليسمع قرع نعالم ثم يأتيه ملكان يسألانه .
 قال النبي صلى الله علي وسلم : إنَّ العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه
 أصحابه — وإنه ليسمع قرع نعالم — أتاه ملكان فيقعدانه فيقولان : ما كنت
 تقول في هذا الرجل ؟ لمحمد صلى الله عليه وسلم .
 فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله .
 فيقال : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعداً في الجنة
 فيراها جميعاً .

قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح في قبره .
 هذه رواية الإمام البخاري عن أنس^٢ .
 وللإمام أحمد من حديث البراء بن مالك الطويل وفيه :
 قال : فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من
 ربك ؟

فيقول : ربي الله .

فيقولان له : ما دينك ؟

(١) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب التعوذ من عذاب القبر ٢٤١/٣ حديث رقم

١٣٧٧ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ٣ / ٢٣٢ حديث رقم

١٣٧٤ .

فيقول : ديني الإسلام .

فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟

فيقول : هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فيقولان له : ما عملك ؟

فيقول : قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت .

فينادي مناد في السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة ، وألبسوه من الجنة ، وافتحوا له باباً إلى الجنة ، قال : فيأتيه من روحها وطيبها ، ويفسح له في قبره مدّ بصره ، قال : فيأتيه رجل حسن الوجه ، حسن الثياب ، طيب الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسرك ، هذا يومك الذي كنت توعد .

فيقول له : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير .

فيقول : أنا عمك الصالح .

فيقول : رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي .

فالأئلة السابقة التي يُسألها الإنسان في قبره هي فتنة القبر التي استعاذ

منها النبي صلى الله عليه وسلم .

فقد روى الإمام البخاري بسنده عن عائشة أن النبي صلى الله عليه

وسلم كان يقول : اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهزم ، والمأثم والمغرم ،

ومن فتنة القبر وعذاب القبر .^١

قال ابن حجر : فتنة القبر هي سؤال الملكين^٢ .

وهذا يدل على أن فتنة القبر ليست بالأمر السهل لأن الإنسان في ذلك

الموقف يكون في وضع جديد مخالف لما كان يعهده في الدنيا وهو وحيد في

حفرة ضيقة ليس معه أنيس ثم يأتي هذان الملكان في صورة فظيعة تثير الفزع

(١) أخرجه البخاري في كتاب الدعوات، باب التعوذ من المأثم والمغرم ١٧٦/١١ حديث رقم

٠ ٦٣٦٨

(٢) فتح الباري ١١ / ١٧٧ .

كما دلت على ذلك الأحاديث ، فقد روى الإمام الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا قبر الميت — أو قال أحدكم — أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما : المنكر والآخر : النكير .^١ الحديث .

وقد رويت روايات أخرى تبين فظاعة منظرهما عند الطبراني في الأوسط وعبدالرزاق في المصنف كما قال ابن حجر^٢ .

وعند ابن جرير في تفسيره أنهما شديدي الانتهاز^٣ .

وسميا منكر ونكير لأن الإنسان لم يعرفهما ولم ير صورة مثل صورتهم^٤ .

ففظاعة المنظر وهول الموقف وشدة الحال كلها كفيلة بأن تذهب عقل الإنسان ورشده وتنسيه كل شيء ، ولذلك يحتاج المؤمن في مثل هذا الموقف الصعب إلى من يثبته ويذهب عنه الفزع والخوف فيأتيه المدد والإعانة من الله تبارك وتعالى (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في

(١) أخرجه الترمذي في الجنائز ، باب ما جاء في عذاب القبر ٣/٣٨٣ ، حديث رقم ١٠٧١ من طريق أبو سلمة يحيى بن خلف حدثنا بشر بن المفضل عن عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة به .

و أبو سلمة يحيى بن خلف : صدوق . من العاشرة . التقريب ٢/٣٤٦ . وبشر بن المفضل : ثقة ثبت عابد . من الثامنة . التقريب ١/١٠١ . وعبدالرحمن بن إسحاق : هو ابن عبدالله بن الحارث المدني : صدوق رمي بالقدر وهو من رجال مسلم وأخرج له البخاري تعليقا . التقريب ١ / ٤٧٢ . وسعيد المقبري : ثقة تغير قبل موته بأربع سنين . التقريب ١/٢٩٧ .

ولم يتبين لي هل روى عبد الرحمن عن سعيد قبل الاختلاط أم بعده . وأخرجه ابن حبان في صحيحه من طريق عمر بن محمد الهمداني قال حدثنا بشر بن معاذ العقدي قال : حدثني يزيد بن زريع قال حدثنا عبدالرحمن بن إسحاق قال حدثني سعيد عن أبي هريرة فذكره . الإحسان بترتيب صحيح بن حبان ٥/٤٧ — ٨ / ٤٨ حديث رقم ٣١٠٧ .

(٢) انظر : فتح الباري ٣/٢٣٧ .

(٣) انظر : السابق ١٣ / ٢٨٥ .

(٤) انظر : تحفة الأحمدي للمباركفوري ٤ / ١٨٢ .

الحياة الدنيا وفي الآخرة . . (١) الآية .

أخرج الإمام البخاري من حديث البراء بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إذا سئل المسلم في القبر يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . .)^٢ الآية .

فتزل الطمأنينة على نفسه ويوجب رغم هذه الأحوال إجابة الواثق من نفسه ، لا يتلكأ ولا يتردد ولا يهاب .

كل هذا من العواقب الحميدة التي سببها إحسانه في الدنيا بتحقيق مراد الله تعالى من الخلق .

ويجدر التنبيه إلى أن المؤمنين يتفاوتون في درجات إيمانهم بقدر تفاوتهم في التزامهم بشرع الله ودينه ، لذا فهم متفاوتون في أحوالهم في قبورهم ، وما سبق ذكره من الأحوال الطيبة إنما هي للمؤمن الذي حقق الغاية من وجوده على نحو يستحق معه تلك الكرامة ، وأما المؤمن الذي يحصل منه نوع من التفريط بحيث لا يخرج تفريطه عن دين الله تبارك وتعالى فإن هذا قد ينال به شيء من العذاب كما دلت على ذلك الأحاديث .

قال ابن حجر عند شرحه لأحاديث باب ما جاء في عذاب القبر من صحيح البخاري : وفي أحاديث الباب من الفوائد : إثبات عذاب القبر ، وأنه واقع على الكفار ومن شاء الله من الموحدين^٣ .

وقال ابن القيم رحمه الله رداً على سؤال عن الأسباب التي يعذب بها أصحاب القبور :

جوابها من وجهين : مجمل ومفصل .

(١) إبراهيم ٢٧ .

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ، باب (يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت) ٨ / ٣٧٨

حديث رقم ٤٦٩٩ .

(٣) فتح الباري ٣ / ٢٤٠ .

أما الجحمل : فإنهم يعذبون على جهلهم بالله ، وإضاعتهم لأمره ، وارتكابهم لمعاصيه ، فلا يعذب الله روحاً عرفته وأحبته وامثلت أمره ، واجتنبت نهيه ، ولا بدناً كانت فيه أبداً ، فإن عذاب القبر وعذاب الآخرة أثر غضب الله وسخطه على عبده ، فمن أغضب الله وأسخطه في هذه الدار ثم لم يتب ومات على ذلك كان له من عذاب البرزخ بقدر غضب الله وسخطه عليه ، فمستقل ومستكثر ، ومصداق ومكذب .

وأما الجواب المفصل : فقد أخبر النبي عن الرجلين اللذين رآهما يعذبان في قبورهما يمشي أحدهما بالنميمة بين الناس ، ويترك الآخر الإستبراء من البول^١ . أهـ

قال شارح الطحاوية في أنواع عذاب القبر : والنوع الثاني : أنه مدة ثم ينقطع وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم ، فيعذب بحسب جرمه ثم يخفف عنه^٢ . أهـ

قال القرطبي : قال أبو محمد عبد الحق : وأعلم أنّ عذاب القبر ليس مختصاً بالكافرين ولا موقوفاً على المنافقين ، بل يشاركهم فيه طائفة من المؤمنين وكل على حاله من عمله وما استوجبه من خطيئته وزلته وإن كانت تلك النصوص المتقدمة إنما جاءت في الكافر والمنافق^٣ . أهـ

فالمؤمن الذي حقق الغاية من وجوده على الوجه المطلوب ينعم في قبره ويكون قبره روضة من رياض الجنة ينام فيه كما ينام العروس ليلة عرسه كما في حديث أبي هريرة السابق الذي رواه الإمام الترمذي وابن حبان وفيه : فيقولان : نم كنومة العريس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك . الحديث

(١) الروح ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز الحنفي ص ٤٥٩ ، وانظر : الروح لابن

القيم ص ١٢٣ - ١٢٥ .

(٣) التذكرة للقرطبي ص ١٦٦ .

ثالثاً : أثر العبادة في حال الإنسان يوم القيامة .

يمكث الإنسان في قبره ما شاء الله لهذه الدنيا أن تبقى ثم يأتي اليوم الذي يرجع العباد فيه إلى الله ، ذلك اليوم الرهيب الذي وصفه الله في القرآن بصفات تقشعر لها الأبدان ، مثل : الحاقة ، الصاخة ، الطامة ، القارعة ، الغاشية ، الواقعة .

قال تعالى في وصف ذلك اليوم والتحذير منه (يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد)^١ .

وقال تعالى مبيناً شدة ذلك اليوم (وكان يوماً على الكافرين عسيراً)^٢ ، وقال (فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على الكافرين غير يسير)^٣ .

والآيات التي تبين شدة ذلك اليوم كثيرة جداً كما في سورة التكويد والانفطار والواقعة والزلزلة والقارعة وعبس وغيرها .

وقال تعالى محذراً من ذلك اليوم (واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)^٤ .

وكانت هذه آخر آية أنزلت على النبي كما هو القول الراجح ° .
 وختم القرآن بهذه الآية بيان لعظم ذلك الأمر وأنه مما ينبغي للإنسان أن يسعى له إذ السعي له هو جماع الدين .

(١) الحج ١ - ٢ .

(٢) الفرقان ٢٦ .

(٣) المدثر ٨ - ١٠ .

(٤) البقرة ٢٨١ .

(٥) انظر : الإتقان ١ / ٨٧ .

ولذلك فإن المؤمن يسعى لأن يكون آمناً في يوم الفزع الأكبر وذلك لا يكون إلا بالسلامة من الشرك وعبادة الله وحده (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون)^١ .

وقال تعالى (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون)^٢ .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم هنا بالشرك عندما قال ليس كقاتقولون (لم يلبسوا إيمانهم بظلم) بشرك . . الحديث^٣ .

فالمؤمن الذي سلم من الشرك وحقق مراد الله يأمن يوم الفزع الأكبر قال تعالى (لا يجزئهم الفزع الأكبر وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون)^٤ .

ويوم الفزع الأكبر هو عند النفخة الآخرة كما روى ابن جرير عن ابن عباس ورجحه على قول من قال : إنه النار إذا طبقت على أهلها وهو قول سعيد بن جبير ، وقول من قال : إنه حين يؤمر بالعبد إلى النار وهو قول الحسن .

قال ابن جرير : وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قول من قال : ذلك عند النفخة الآخرة وذلك أن من لم يجزئه الفزع الأكبر وأمن منه فهو مما بعده أخرى أن لا يفزع ، وأن من أفزعه ذلك فغير مأمون عليه الفزع مما بعده .^٥ أهـ

والفزع : انقباض ونفار يعتري الإنسان من الشيء المحيف وهو من

(١) النمل ٨٩ .

(٢) الأنعام ٨٢ .

(٣) أخرجه البخاري في كتاب الأنبياء ، باب قول الله (واتخذ الله إبراهيم خليلاً) ٦ / ٣٨٩

حديث رقم ٣٣٦٠ .

(٤) الأنبياء ١٠٣ .

(٥) انظر : ابن جرير ١٧ / ١٣١ .

جنس الجزع^١ .

وسمي بيوم الفزع لما يعترى الناس فيه من الأهوال الغريبة التي لا قبل لهم بها ، ولما يرى الناس من عظمة الله وجبروته ، ولما يرى من كثرة الخائفين الوجلين الذين كذبوا بالله ورسله ، ولظهور النار والملائكة وغير ذلك من الأمور التي تذهب العقل وتروع الفؤاد .

قال ابن جزى في التسهيل : الفزع الأكبر : أهوال القيامة على الجملة^٢ . أهـ

وقال تعالى واصفاً حال الناس في ذلك اليوم (ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار . مهطعين مقنعين رؤوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء)^٣ .

قال ابن جرير : وذلك يوم القيامة^٤ . أهـ

والمؤمن مع شدة هذه الأهوال تحدث له كرامات كثيرة في هذا اليوم فمنها :

أنه آمن في وقت يسود الناس فيه الفزع كما سبق بيان ذلك .

ومنها أن الملائكة تتلقاهم بالبشرى كما قال تعالى (وتلقاهم

الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) .

ومنها أن المؤمن قد يكون من الأصناف التي تستظل بظل الرحمن يوم لا

ظل إلا ظله يوم تدنو الشمس من الخلائق .

قال صلى الله عليه وسلم : سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا

ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة ربه ، ورجل قلبه معلق في المساجد ،

(١) انظر : مفردات الراغب ص ٣٧٩ .

(٢) التسهيل ٣ / ٧٠ .

(٣) إبراهيم ٤٢ — ٤٣ .

(٤) ابن جرير ١٣ / ٣١٠ .

ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه ^١ .

ومنها أن المؤمن يشرب من حوض النبي صلى الله عليه وسلم شربة لا يظماً بعدها في وقت يكون الناس فيه في شدة العطش .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن ، وريحه أطيب من المسك ، وكيزانه كنجوم السماء من شرب منه فلا يظماً أبداً ^٢ .

ومنها أن المؤمن يحاسب ساعة الحساب حساباً يسيراً كما قال تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه • فسوف يحاسب حساباً يسيراً • وينقلب إلى أهله مسروراً) ^٣ .

ويقول تعالى مبيناً فرحة المؤمن الغامرة في ذلك اليوم (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرءوا كتابيه • إني ظننت أني ملاق حسابه • فهو في عيشة راضية • في جنة عالية • قطوفها دانية • كلوا واشربوا بما أسلفتم في الأيام الخالية) ^٤ .

قال سيد قطب : المشهد المعروض مشهد الناجي في ذلك اليوم العصيب وهو ينطلق في فرحة غامرة بين الجموع الحاشدة ، تملأ الفرحة جوانحه وتغلبه على لسانه فيهتف : (هاؤم اقرءوا كتابيه) ، ثم يذكر في بهجة أنه لم يكن يصدق أنه ناج بل كان يتوقع أن يناقش الحساب (ومن نوقش الحساب

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأذان ، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ١٤٣/٢

حديث رقم ٦٦٠ .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب في الحوض ٤٦٣/١١ حديث رقم ٦٥٧٩ .

(٣) الانشقاق ٧-٩ .

(٤) الحاقة ١٩-٢٤ .

عذب) كما جاء في الأثر عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من نوقش الحساب عذب) .

فقلت : أليس يقول الله تعالى (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحسب حساباً يسيراً وينقلب إلى أهله مسروراً) ؟
فقال : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يحاسب يوم القيامة إلا هلك ^١ . أهـ ^٢ .

ومن الكرامات أن المؤمنين يسعى نورهم في ذلك اليوم بين أيديهم وبأيماهم قال تعالى (يوم ترى المؤمنون والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيماهم بشراكم اليوم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذلك هو الفوز العظيم) ^٣ .

وقال تعالى (يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيماهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير) ^٤ .

وقد اختلف المفسرون في تفسير النور هل هو على الحقيقة أم المراد به شيء آخر ؟

فذهب بعضهم إلى أنه نور على الحقيقة وهو قول ابن مسعود وقتادة .
وذهب البعض إلى أن المقصود بذلك إعطاؤهم كتبهم بأيماهم وهو قول الضحاك ورجحه الطبري ^٥ .

(١) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ٤٠٠/١١ حديث رقم ٦٥٣٦-٦٥٣٧ . وأخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب إثبات الحساب ٢٢٠٤/٤ حديث رقم ٢٨٧٦ .

(٢) في ظلال القرآن ٦/٣٦٨١ .

(٣) الحديد ١٢ .

(٤) التحريم ٨ .

(٥) انظر : ابن جرير ٢٧/٢٨٩-٢٩٠ ، زاد المسير ٨/١٦٥ .

ولا مانع يمنع من حمل الآية على ظاهرها وأنّ النور على حقيقته لاسيما وأنه قول ابن مسعود ورواه قتادة عن النبي صلى الله عليه وسلم كما روى الطبري عنه .

وعلى كلا القولين فالكرامة حاصلة والتميز واقع للمؤمنين .
قال الرازي : دلت الآية على أنّ المؤمنين لا ينالهم أهوال يوم القيامة لأنه تعالى بين أنّ هذه صفتهم يوم القيامة من غير تخصيص^١ . أهـ
ومن الكرامات التي تنال المؤمن يوم القيامة ما يحدث له على الصراط ،
والصراط : هو الجسر المنصوب على جهنم لعبور المسلمين إليه إلى الجنة^٢ .
ويلاحظ أنّ القرآن الكريم لم يذكر أحوال الصراط تصریحاً وإنّ تكرّر لفظ الصراط فيه إذ المراد به في الأعم الأغلب الطريق القويم وهو دين الإسلام^٣ .

وقد فسر بعض أهل العلم قوله تعالى (وإنّ منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً) بأنه الصراط ، ويعني بالورود هنا : المرور على الصراط ،
وقد نقل هذا التفسير ابن جرير عن ابن مسعود رضي الله عنه^٤ .
وإذا كان الحال كذلك في القرآن فإنّ السنة النبوية قد بينت ذلك بياناً كافياً فذكرت صفات هذا الصراط وأحوال الناس فيه والأهوال التي تكون عليه .

ومن صفات هذا الجسر أنه أدق من الشعرة وأحد من السيف كما قال أبو سعيد الخدري^٥ .

(١) الرازي ٣٧٧/١٥ .

(٢) انظر : فتح الباري ٤٤٦/١١ .

(٣) انظر : عمدة الحفاظ ص ٢٣٩ مادة س ر ط .

(٤) انظر : ابن جرير ١٣٨/١٦ حديث رقم ١٧٩٧٦ .

(٥) أخرجه الإمام مسلم في حديث طويل في كتاب الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤيا

١٦٧/١-١٧١ حديث رقم ٣٠٢ .

وهذا الوصف يدل على صعوبة الامتحان والابتلاء الذي يتعرض له الإنسان على هذا الجسر الرهيب ، فهو منصوب على متن جهنم ، وهو أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، ومع هذا فإن فيه خطاطيف من جهنم وكلايب وحسك تتخطف الناس ، فمنهم من يمضي كطرف العين ، ومنهم من يمضي كالبرق ، ومنهم من يمضي كالريح ، ومنهم من يمضي كأجاويد الخيل والركاب ، ومنهم من يمر يسحب سحباً .

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الجسر فقال : مَدْحَضَةٌ مَزَلَةٌ عليه خطاطيف وكلايب وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفاء تكون بنجد يقال لها السعدان ، المؤمن عليها كالطرف ، وكالبرق ، وكالريح ، وكأجاويد الخيل والركاب ، فجاج مُسَلَّم ، وناجٍ مَخْدُوش ، ومكدوس في نار جهنم حتى يمر آخرهم يسحب سحباً .

ومعنى مَدْحَضَةٌ مَزَلَةٌ : أي موضع الزلل^٢ ، والدحض : الزلق .
والخطاطيف : جمع خطاف وهو الحديدة المعوجة كالكلوب يختطف بها الشيء^٣ .

والحسكة : بفتح الحاء والسين المهملتين نبات له ثمر خشن يتعلق بأصواف الغنم ، وربما اتخذ مثله من حديد وهو من آلات الحرب^٤ والمفلطحة : هو الذي فيه إتساع وهو عريض يقال : فلطح القرص بسطه وعرضه^٥ .

(١) أخرجه الشيخان من حديث أبي سعيد واللفظ للبخاري في كتاب التوحيد ، باب قول الله (وجوه يومئذ ناظرة إلى ربها ناظرة) ٤٢٠/١٣ حديث رقم ٧٤٣٩ . وأخرجه مسلم في الإيمان ، باب معرفة طريق الرؤيا ١٦٧/٢ حديث رقم ٣٠٢ .
(٢) انظر : فتح الباري ٤٢٩/١٣ ، النهاية ١٠٤/٢ .
(٣) انظر : النهاية ٤٩/٢ .
(٤) انظر : فتح الباري ٤٢٩/١٣ .
(٥) انظر : فتح الباري ٤٢٩/١٣ ، النهاية ٤٧١/٣ .

عقفاء : تصغير عقيفة وهي الملوية كالصنارة^١ .

والمكدوس : أي المدفوع وتكدر الإنسان إذا دفع من ورائه فسقط^٢ .
 ففي هذا الحديث يبين النبي صلى الله عليه وسلم أن المؤمن كلما حسن عمله وحقق الغاية من وجوده كما أراد ربه كلما خفت عليه هذه المحنة وسهل عليه اجتيازها ويتفاوت الناس في ذلك بحسب تفاضلهم في الأعمال .
 فهذه بعض الكرامات التي تحصل للإنسان المؤمن يوم القيامة جعلنا الله من أهلها .

(١) انظر : النهاية ٣ / ٢٧٦ ، فتح الباري ١٣ / ٤٢٩ .

(٢) انظر : النهاية ٤ / ١٥٥ .

رابعاً : المؤمن في الجنة .

الجنة هي المحطة الأخيرة للرحلة المضنية التي يسيرها المؤمن ، وهي غاية مطلوبة بعد رضى الله تبارك وتعالى إذ أنها لا تنال إلا به .

وقد أفاض القرآن الكريم في ذكر أوصاف الجنة وما فيها من ألوان النعيم وكذلك جاءت السنة النبوية بالكثير عن أوصاف الجنة وأحوال أهلها فيها ، وقد ألف بعض أهل العلم في ذلك تأليف مباركة مثل كتاب (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح) للإمام ابن القيم رحمه الله .

ولست في هذا المطلب بصدد الإفاضة في ذكر الآيات والأحاديث الواردة في ذلك على سبيل الحصر والاستيعاب لأن ذلك يشق في مثل هذا المكان ولكن أريد أن أبين بعض الأمور التي كثر تكرارها في القرآن بشأن الجنة وسبب استحقاقها وسأجعل ذلك في النقاط التالية :

النقطة الأولى : أسباب استحقاق الجنة .

لاشك أن الله تبارك وتعالى لما خلق الخلق أراد منهم عبادته وحده لا شريك له فهذا هو حقه عليهم كما في الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ : هل تدري ما حق الله على عباده ؟

قال معاذ : الله ورسوله أعلم .

قال صلى الله عليه وسلم : حق الله على عباده أن يعبدوه لا يشركوا به شيئاً .

ثم سار ساعة ثم قال : هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه ؟

قال معاذ : الله ورسوله أعلم .

قال : حق العباد على الله أن لا يعذبهم^١ .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب من جاهد نفسه في طاعة الله ١١ / ٣٣٧ ، حديث

وهذا حديث عظيم بين فيه النبي صلى الله عليه وسلم حق الله وهو عبادة الله وحده لا شريك له إذ هي الغاية من إيجادهم .

والمراد بالعبادة : عمل الطاعات واجتناب المعاصي ، وعطف عليها عدم الشرك بالله لأنه تمام التوحيد ، والحكمة في عطفه على العبادة في الحديث أن بعض الكفرة كانوا يدعون أنهم يعبدون الله ولكنهم كانوا يعبدون آلهة أخرى فاشترط نفي ذلك . قاله ابن حجر^١ .

والعمل بالطاعات واجتناب المعاصي لا يوجب بمجرد دخول الجنة كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : لن ينجي أحداً منكم عمله . قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟

قال : ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته . .^٢ الحديث .

وفي رواية : واعلموا أن لن يدخل أحدكم عمله الجنة .

فهذه الأحاديث صريحة في أن العمل بمجرد لا يكفي في استحقاق الجنة ولكن قد وردت بعض الآيات التي تفيد أن دخول الجنة بسبب العمل كقوله تعالى (ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون)^٣ ، وقوله (وتلك الجنة التي أورثتموها بما كنتم تعملون)^٤ .

وقد اختلف أهل العلم في توجيه الآيات والأحاديث ومن أحسن ما قيل في ذلك ما نقله ابن حجر عن ابن القيم رحمه الله تعالى .

قال ابن حجر : قلت : سبقه إلى ذلك ابن القيم فقال في مفتاح دار السعادة : الباء المقتضية للدخول غير الباء الماضية ، فالأولى السببية الدالة

(١) انظر : فتح الباري ٣٣٩/١١ .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق ، باب القصد والمداومة على العمل ٢٩٤/١١ حديث

رقم ٦٤٦٣ ، والرواية الأخرى برقم ٦٤٦٤ .

(٣) النحل ٣٢ .

(٤) الزخرف ٧٢ .

على أن الأعمال سبب الدخول المقتضية له كاقْتِضَاءِ سائر الأسباب لمسبباتها ،
والثانية : بالمعاوضة نحو اشترت منه بكذا .

فأخبر أن دخول الجنة ليس في مقابلة عمل أحد ، وأنه لولا رحمة الله
لعبدته لما أدخله الجنة ، لأن العمل بمجرده ولو تنهى لا يوجب بمجرده
دخول الجنة ، ولا أن يكون عوضاً لها ، لأنه لو وقع على الوجه الذي يحبه الله
لا يقاوم نعمة الله ، بل جميع العمل لا يوازي نعمة واحدة ، فتبقى سائر
نعم الله مقتضية لشكرها ، وهو لم يوفها حق شكرها ، فلو عذبه في هذه
الحالة لعذبه وهو غير ظالم ، وإذا رحمه في هذه الحالة كانت رحمته خيراً من
عمله .

ثم قال : وهذا فصل الخطاب مع الجبرية الذين أنكروا أن تكون الأعمال
سبباً في دخول الجنة من كل وجه ، والقدرية الذين زعموا أن الجنة عوض
العمل وأنها ثمنه ، وأن دخولها بمحض الأعمال ، والحديث يبطل دعوى
الطائفتين والله أعلم . أهـ

فالأعمال سبب في دخول الجنة لاعلى سبيل المعاوضة بل على سبيل
الدلالة على استحقاق دخول الجنة .

فالأعمال كلها لا تفي شكر نعمة واحدة كما قال ابن القيم ، ولكن لما
كان العبد متوجهاً إلى ربه راجياً رحمته ، خائفاً من عذابه ، مطيعاً لأوامره
، وقدم من الأعمال الصالحة ما يدل على ذلك ، تفضل الله عز وجل
بقبول تلك الأعمال ، وجازاه مجازاة أكرم الأكرمين ، فأدخله
جنته وأكرمه فيها غاية الإكرام ، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة .

فالتوفيق كله من الله إذ لولا توفيق الله لما هداه إلى الإسلام ، ولولا رحمته
لما وفقه للأعمال الصالحة ، ولولا رحمته لما جازاه هذا الجزاء العظيم لأن

العبد مملوك لسيده وعمله مستحق لمولاه من غير منة ، ومع ذلك فقد جازاه مجازة عظيمة لا مقارنة بينها وبين ما قدم العبد من عمل .

فهذا تفسير قول النبي صلى الله عليه وسلم : لن يدخل أحدكم عمله الجنة .

فالخاص أن العمل مهم في استحقاق دخول الجنة ولذلك فإن القرآن كثيراً ما يقرن بين الإيمان بالله والعمل الصالح كما قال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً)^١ .

وقال تعالى (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم)^٢ . والآيات في هذا كثيرة جداً .

والعمل الصالح في الآيات هو عبادة الله بما أمر ، ولا يفهم منه الاقتصر على أداء الفرائض وغيرها من الأعمال ، بل يشمل ذلك ترك المناهي واتباع النار بكل وسيلة كما قال تعالى (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم)^٣ .

وقال تعالى مبيناً حال المؤمنين في الدنيا كيف أنهم كانوا على وجل وخوف من عذاب الله تبارك وتعالى ومن عدم قبول أعمالهم (فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . قالوا إنا كنا قبل في أهلنا مشفقين . فمن الله علينا ووقنا عذاب السموم)^٤ .

وقال تعالى (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة

(١) الكهف ١٠٧ .

(٢) يونس ٩ .

(٣) يونس ٦٢-٦٤ .

(٤) الطور ٢٥-٢٧ .

أنهم إلى ربهم راجعون) ١ .

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم حال بعض الناس الذين يفعلون الطاعات ولا يتورعون عن ارتكاب المناهي فقال : أتدرون من المفلس ؟ قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع .

فقال صلى الله عليه وسلم : إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا ، وقذف هذا ، وأكل مال هذا ، وسفك دم هذا ، وضرب هذا ، فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته ، فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار ٢ .

فهذا الحديث يبين حال بعض الناس من أمة النبي صلى الله عليه وسلم الذين لا يكفون أذاهم عن الناس ، ويحذر هؤلاء من أنهم وإن جاءوا بصلاة وصيام وزكاة فإنهم قد يُطرحوا في النار بسبب إقدامهم على ارتكاب المحظورات .

والحديث يبين لنا مدى حفظ شريعة الله لحقوق الناس وتخويف من تحدته نفسه بظلم الناس بأن مصيره سيكون إلى النار .

النقطة الثانية : أوصاف الجنة في القرآن .

أفاض القرآن الكريم في وصف الجنة وما أعده الله فيها للمؤمنين وتكرر ذلك كثيراً خاصة في السور المكية التي نزلت في بداية الإسلام وذلك لتشويق المؤمنين إليها ، ولحفزهم إلى العمل لها والتسابق من أجلها قال تعالى (وسابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله . .) ٣ . الآية

(١) المؤمنون ٦٠ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب البر والصلة ، باب تحريم الظلم ٤/١٩٩٧ حديث رقم ٢٥٨١ .

(٣) الحديد ٢١ .

وقال تعالى بعد ذكر ألوان النعيم فيها (وفي ذلك فليتنافس المتنافسون)^١ .

والآيات القرآنية التي تحدثت عن الجنة ذكرت أنواع النعيم في جوانب المأكل والمشرب والملبس وغير ذلك وسأبين بعض هذه الجوانب فيما يلي :

الجانب الأول : جانب المأكل والمشرب .

وعد الله سبحانه عباده المؤمنين بالجنة وبين لهم طيب ماكلها ومشربها ، فالماكل فيها تشمل جميع أصناف المذات المأكولة من الفاكهة واللحم وغير ذلك .

قال تعالى في ذكر المأكل (وفاكهة مما يتخيرون . ولحم طير مما يشتهون)^٢ .

وقال تعالى (في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة)^٣ .

فالفاكهة أصناف كثيرة من غير انقطاع بحسب المواسم ، وكذلك هي في تناول الجميع ، لا يمنع أحد من الأكل منها ليس كحال بساتين الدنيا التي يمنع أصحابها الناس من الأكل منها .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : وفيها (فاكهة كثيرة) لا ينقطع عنهم شيء منها أرادوه في وقت من الأوقات كما تنقطع فواكه الصيف في الشتاء في الدنيا ، ولا يمنعهم منها ولا يحول بينهم وبينها شوك على أشجارها ، أو بعدها منهم كما تمنع فواكه الدنيا من كثير ممن أرادها على الشجرة منهم ، أو بما على الشجرة من الشوك ، ولكن إذا اشتهاها

(١) المطففين ٢٦ .

(٢) الواقعة ٢٠-٢١ .

(٣) الواقعة ٢٨-٣٣ .

أحدهم وقعت في فيه أو دنت منه حتى يتناولها بيده^١ . أمـ

فالفاكهة في تناول اليد دانية الجنى كما قال تعالى (قطفها دانية)^٢ .

والفاكهة في الجنة لا تشبه الفاكهة في الدنيا إلا في الاسم فقط كما

قال ابن عباس : ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء^٣ .

أما اللحم فهو من جميع أنواع اللحوم التي يشتهيها الإنسان سواء لحوم

الحيوانات أو لحوم الطيور أو غير ذلك من اللحوم كما قال تعالى (ولحم مما

يشتهون)^٤ ، (ولحم طير مما يشتهون)^٥ .

ويلاحظ أن القرآن الكريم ذكر الفاكهة واللحم وذلك لأنهما أطيب طعام

يعرفه الناس ويستسيغونه ، وهما مما اتفق الناس على طيب أكلهما ولذته ،

ويلاحظ أيضاً أن كثيراً من الناس يفتقدون اللحم والفاكهة لقلة ذات اليد

إذ أكثر الناس فقراء ، فهذه الآيات تفتح لهؤلاء أبواب الأمل المشرق الذي

يعرضهم كثيراً عن الحرمان الذي يعيشون فيه .

أما المشارب فهي متنوعة أيضاً من الماء العذب الزلال واللبن والخمر

والعسل .

قال تعالى (مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن

وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من

عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات ومغفرة من ربهم .)^٦ الآية .

(١) ابن جرير ٢٧/٢٤٠ .

(٢) الحاقة ٢٣ .

(٣) انظر : ابن جرير ٢٧/٢٥١ ، ابن كثير ١/٦٣ .

(٤) الطور ٢٢ .

(٥) الواقعة ٢١ .

(٦) محمد ١٥ .

وقال تعالى (يطوف عليهم ولدان مخلدون • بأكواب وأباريق وكأس
من معين • لا يصدعون عنها ولا يترفون)^١ •

وقال تعالى (يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها ولا تأثيم)^٢ •

وقال تعالى (إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافوراً •
عيناً يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيراً)^٣ •

وقال تعالى (ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً • عيناً فيها
تسمى سلسبيلاً)^٤ •

وقال تعالى (يسقون من رحيق مختوم • ختامه مسك وفي ذلك
فليتأنفاس المتأنفسون • ومزاجه من تسنيم • عيناً يشرب بها المقربون)^٥ •
فالماء عذب غير آسن ومزاجه من الكافور والزنجبيل ، واللبن لم يتغير
طعمه بالحموضة •

والخمر لذة للشاربين لا تذهب العقول ولا تترف المال •
والعسل مصفى لا يشوبه ما يشوب عسل الدنيا •

قال ابن القيم رحمه الله في هذه الآية : فذكر سبحانه هذه
الأجناس الأربعة ، ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض لله في
الدنيا ، فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه ، وآفة
اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصاً ، وآفة الخمر
كراهة مذاقها المنافي للذة شربها ، وآفة العسل عدم تصفيته ، وهذا

(١) الواقعة ١٧—١٩ •

(٢) الطور ٢٣ •

(٣) الإنسان ٥—٦ •

(٤) الإنسان ١٧ •

(٥) المطففين ٢٥—٢٨ •

من آيات الرب تعالى أن تجري الأنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ، ويجريها في غير أخطود ، وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها^١ . أهـ

الجانب الثاني : الملبس

يلبس أهل الجنة أصناف الحرير الخالص ، قال تعالى (ويلبسون ثياباً خضراً من سندس وإستبرق^٢) ، وقال تعالى (عليهم ثياب سندس خضر وإستبرق^٣) ، وقال تعالى (ولباسهم فيها حرير^٤) .
والسندس : ما رق من الديباج . والإستبرق : ما غلظ منه^٥ .
قال ابن القيم رحمه الله : وقال الزجاج : هما نوعان من الحرير ، وأحسن الألوان الأخضر ، وألين اللباس الحرير ، فجمع لهم بين حسن منظر اللباس ، والتذاذ العين به ، وبين نعومته والتذاذ الجسم به^٦ . أهـ
وأما حليهم فهي الذهب والفضة واللؤلؤ .
قال تعالى (يحملون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً^٧) الآية .
وقال تعالى (وحلوا أساور من فضة^٨) .

الجانب الثالث : المسكن

أما مساكنهم فقد بين القرآن أنهم في الغرفات المبنية التي تجري من تحتها

(١) حادي الأرواح ص ١٣٢ .

(٢) الكهف ٣١ .

(٣) الإنسان ٢١ .

(٤) فاطر ٣٣ .

(٥) انظر : ابن جرير ٣٠٢/١٥ .

(٦) حادي الأرواح ص ١٤٦ .

(٧) فاطر ٣٣ .

(٨) الإنسان ٢١ .

الأهّار ، قال تعالى (لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأهّار وعد الله لا يخلف الله الميعاد)^١ .

وقال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئنهم من الجنة غرفاً تجري من تحتها الأهّار خالدين فيها نعم أجر العاملين)^٢ .

ووصف الله مساكنهم بأنها طيبة ، قال تعالى (ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأهّار ومسكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم)^٣ .

وقال تعالى (حور مقصورات في الخيام)^٤ .

فبين سبحانه أنّ من مساكنهم الخيام ، وقد بينت السنة النبوية صفة الخيام التي في الجنة حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم : إنّ للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها ستون ميلاً ، للمؤمن فيها أهليون يطوف عليهم المؤمن فلا يرى بعضهم بعضاً^٥ .

الجانب الرابع : الزواج

النفس البشرية مجبولة على حب الاقتران بزواج من جنسها يسكن إليها وتسكن إليه ، ويولي كل منهما رغبات الآخر العاطفية والغريزية ، وقد وعد الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين بأن يعطيهم زوجات طاهرات من الحور العين الفائقات الجمال .

قال تعالى (فيهنّ قاصرات الطرف لم يطمثهنّ إنس قبلهم ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان . كأنهنّ الياقوت والمرجان)^٦ .

(١) الزمر ٢٠ .

(٢) العنكبوت ٥٨ .

(٣) الصف ١٢ .

(٤) الرحمن ٧٢ .

(٥) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب صفة خيام الجنة ٢١٨٣/٤ حديث رقم ٢٨٣٨ ، والبخاري في التفسير ، باب (حور مقصورات في الخيام) ٦٢٤/٨ حديث رقم ٤٨٧٩ .

(٦) الرحمن ٥٦ — ٥٨ .

والمقصورات في الخيام : أي اللاتي قصرن أطرافهن على أزواجهن فلا يطمحن إلى غيرهم^١ .

وقال تعالى عن صفتهم (وحوور عين • كأمثال اللؤلؤ المكنون)^٢ .
والحوور : جمع حوراء وهي المرأة الشابة الحسنة الجميلة البيضاء شديدة سواد العين^٣ .

وقال تعالى في صفتهم (وكواعب أتراباً)^٤ .
والكاعب : هي التي تفلك ثديها وهي الأهد^٥ .
والأتراب : اللدات أي أسنانهن واحدة^٦ .

وقال تعالى عنهن (ولهم فيها أزواج مطهرة)^٧ .
قال ابن القيم رحمه الله : والمطهرة من طهرت من الحيض والبول والنفاس والغائط والمخاط والبصاق وكل قدر وكل أذى يكون في نساء الدنيا ، فطهر مع ذلك باطنها من الأخلاق السيئة والصفات المذمومة ، وطهر لسانها من الفحش والبذاء ، وطهر طرفها من أن تطمح به إلى غير زوجها ، وطهرت أثوابها من أن يعرض لها دنس أو وسخ^٨ . أهـ

وقد جاءت السنة النبوية مبينة بعضاً من صفات الحور التي تحار في وصفها العقول فقال صلى الله عليه وسلم في صفتهم : ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت إلى الأرض لأضاءت ما بينهما ، ولمألت ما بينهما ريحاً ،

(١) انظر : حادي الأرواح ص ١٦٢ .

(٢) الواقعة ٢٢-٢٣ .

(٣) انظر : حادي الأرواح ص ١٦٠ .

(٤) النبأ ٣٣ .

(٥) انظر : الكشف ٢١٠/٤ .

(٦) انظر : ابن جرير ٢٣/٣٠ .

(٧) البقرة ٢٥ .

(٨) حادي الأرواح ص ١٥٩ .

ولنصيفها — يعني الخمار — خير من الدنيا وما فيها^١ .

وبينت السنة النبوية أيضاً أن لكل رجل من أهل الجنة زوجتان فقال صلى الله عليه وسلم : إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء ، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم ، وما في الجنة أعزب^٢ .

ويلاحظ أن القرآن والسنة ركزا على بيان الصفات التي تسبب السعادة إذا ما تحققت في الزوجة وهي الجمال والعفة والطهارة والتحبب إلى الزوج وحسن التبعل ، وهي متحققة في نساء الجنة على وجه الكمال . وفي بيان ذلك ترغيب كبير للناس للسعي للجنة والعمل لها إذ أن الرجل بطبعه يطمح إلى النساء ويحب من كانت منهن جميلة وعفيفة ، فبين القرآن أن كل تلك الصفات الحميدة والتي قل أن تجتمع في امرأة من نساء الدنيا موجودة في نساء الجنة .

الجانب الخامس : الخلود

إن السعادة إذا تحققت للإنسان في الدنيا فإن الشعور بالفناء والانقضاء ينغصها ويكدرها .

والله سبحانه وتعالى أعد الجنة للمؤمنين كي تكون داراً للخلود والسعادة الأبدية التي لا تنقطع ولا تنقضي ، ولا يكدرها الشعور بحتمية النهاية .

قال تعالى (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم

فيها خالدون)^٣ .

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ٤١٨/١١ حديث رقم ٦٥٦٨ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة، باب أول زمرة تدخل الجنة ٢١٧٨/٤ حديث رقم ٢٨٣٤ .

(٣) البقرة ٨٢ .

- وقال تعالى (إنَّ الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون •
 لا يسمعون حسيستها وهم في ما اشتتهت أنفسهم خالدون)^١ •
 وقال تعالى (وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها
 خالدون)^٢ •

ووصفها الله بأنها جنة الخلد قال تعالى (قل أذلك خير أم جنة الخلد التي
 وعد المتقون كانت لها جزاء ومصيراً)^٣ •

وبينت السنة النبوية ذلك حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم : إذا صار
 أهل الجنة إلى الجنة ، وأهل النار إلى النار جيء بالموت حتى يجعل بين
 الجنة والنار ثم يذبح ثم ينادي منادي : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل
 النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ،
 ويزداد أهل النار حزناً إلى حزهم^٤ •

الجانب السادس : الفرحة والارتياح النفسي •

فرح المؤمنين في الجنة لأسباب منها :

الأول : أنهم نجوا من النار •

- قال تعالى (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز)^٥ الآية •
 فالشعور بالنجاة من عذاب جهنم شعور لا يوازيه شعور ، فإن الإنسان
 قد يصبر عن النعيم ولكنه لا يصبر على العذاب •
 فالفرحة التي يشعر بها المؤمن كبيرة جداً •

(١) الأنبياء ١٠١-١٠٢ •

(٢) الزخرف ٧١ •

(٣) الفرقان ١٥ •

(٤) أخرجه البخاري في كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار ٤١٥/١١ حديث رقم ٦٥٤٨ •

(٥) آل عمران ١٨٥ •

الثاني : أنهم أدخلوا الجنة .

ويزداد فرح المؤمنين عندما يساقوا إلى الجنة زمراً مكرمة ، ففتوح لهم أبواب الجنة ، ويذهب بكل شخص إلى مستقره فيها ، عندئذ ينسى المؤمنون كل ألم وحزن تعرضوا له ، وكل شدة واجهوها في مشوارهم إليها وبين لنا الله تعالى حالهم إذ ذلك حيث يقول (وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور . الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب)^١ .

وقال تعالى (وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين)^٢ .
فإذا ذاقوا ألوان النعيم والملاذات ازدادت فرحتهم وكملت غبظتهم ، ونسوا كل شقاء مر بهم وكل بؤس .

قال صلى الله عليه وسلم : يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا من أهل الجنة فيقول : اصبغوه صبغة في الجنة فيصبغونه فيها صبغة .
فيقول الله عز وجل : يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط أو شيئاً تكرهه .
فيقول : لا وعزتك ما رأيت .^٣ الحديث .

(١) فاطر ٣٤-٣٥ .

(٢) الزمر ٧٣-٧٥ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٥٣/٣ من طريق عفان ثنا حماد أنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : . . فذكره .

وهذا إسناد صحيح على شرط مسلم كما قال الألباني في السلسلة الصحيحة ١٥٥/٣ . فإن عفان هو ابن مسلم الباهلي : ثقة ثبت . التقريب ٢/٢٥ ، وحماد : هو ابن سلمة ثقة عابد أثبت الناس في ثابت و تغير حفظه بأخرة . التقريب ١/١٩٧ ، وثابت : هو البناني ثقة عابد . التقريب ١/١١٥ =

الثالث : الشعور بالخلود والأمن من انقطاع اللذة والنعيم .

وقد سبق ذكر حديث ذبح الموت وفيه (فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى

فرحهم) .

الرابع : رضوان الله تبارك وتعالى عليهم .

إنَّ أعظم نعيم وأكبر فرح يعيشه المؤمن هو شعوره برضا الله تعالى عليه ، وما النعيم وما الملمات التي يعيشها في الجنة إلا ثمرة رضا الله تعالى عليه قال تعالى (قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد)^١ .

وقال صلى الله عليه وسلم مبيناً : إنَّ الله تبارك وتعالى يقول لأهل

الجنة : يا أهل الجنة .

فيقولون : لبيك ربنا وسعديك .

فيقول : هل رضيتم .

فيقولون : وما لنا لا نرضى وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك .

فيقول : أنا أعطيتكم أفضل من ذلك .

قالوا : يا رب وأي شيء أفضل من ذلك ؟

قال : أحل عليكم رضواني فلا أسخط عليكم بعده أبداً^٢ .

ومن الأمور التي تحقق الفرح للمؤمنين وتحقق لهم الارتياح النفسي إلحاق

الذرية الصالحة بصاحبها إن كان في درجة أعلى من درجة ذريته كما قال

= ورواه ابن ماجه في الزهد ، باب صفة النار ١٤٤٥/٢ حديث رقم ٤٣٢١ من طريق الخليل

بن عمرو ثنا محمد بن مسلمة الحراي عن محمد بن إسحاق عن حميد الطويل عن أنس قال : قال

رسول الله صلى الله عليه وسلم : فذكره مع اختلاف في اللفظ .

(١) آل عمران ١٥ .

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ٤١٥/١١ ، حديث رقم ٦٥٤٩ .

تعالى (والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم وما ألتناهم من عملهم من شيء كل امرئ بما كسب رهين)^١ .

الجانب السابع : الصحة والجمال الدائمين .

أما الصحة فلا ينال المؤمن في الجنة نصب ولا تعب (لا يمسننا فيها نصب ولا يمسننا فيها لغوب) .

وأما الجمال فإنّ الزمرة الأولى من أهل الجنة يدخلونها على صورة القمر ليلة البدر ، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء كما سبق ذكر الحديث في ذلك .

والجمال في الجنة في ازدياد دائم كما أخبر بذلك الصادق المصدوق حيث قال صلى الله عليه وسلم : إنّ في الجنة لسوقاً يأتونها كل جمعة ، فتهب ريح الشمال فتحثوا في وجوههم وثيابهم ، فيزدادون حسناً وجمالاً ، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسناً وجمالاً ، فيقول لهم أهلوهم : والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً !

فيقولون : وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً^٢ .

فالحسن والجمال إن كان ثابتاً فإنّ النفس قد يتطرق إليها الملل منه كما هو الحال في الدنيا ، ولذلك فإنّ الله منّ على المؤمنين بازدياد الحسن والجمال فيهم وفي أهليهم كل جمعة .

وقال صلى الله عليه وسلم : ينادي مناد : إنّ لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً ، وإنّ لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً ، وإنّ لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً ، وإنّ لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً ، فذلك قول الله عز وجل (ونودوا أن تلکموا الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون)^٣ .

(١) الطور ٢١ .

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها ، باب في سوق الجنة وما ينالون فيها

من النعيم والجمال ٢١٧٨/٤ حديث رقم ٢٨٣٣ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب دوام نعيم أهل الجنة ٢١٨٢/٤ حديث رقم ٢٨٣٧ .

الخلاصة :

لقد وعد المؤمنون في الجنة بالنعيم المقيم ، وبينت هنا جوانب من هذا النعيم وتركت جوانب أخرى ، وقد جمع الله تبارك وتعالى نعيم الجنة في كلمات هي أبلغ ما يمكن أن يقال عنه فقال تعالى في الحديث القدسي : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك في كتاب الله (فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون)^١ .

فالتعبير الإلهي في الآية والحديث يعطي بعداً لا متناهياً لحقيقة ما في الجنة من النعيم ، فكل ما يتصوره العقل من ألوان النعيم فالجنة أفضل منه ، بل هناك أنواع من النعيم لا يمكن تصورها في الدنيا لأنها لا تخطر على قلب البشر .

فهذا العمق التعبيري يعطي المؤمن انطباعاً فخماً لما أعده الله له من الكرامة والنعيم ، وبالتالي يدفعه ذلك إلى العمل لتحقيق هذا الوعد الإلهي له والفوز بذلك الجزاء العظيم .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ٤/٢١٧٤ حديث رقم ٢٨٢٤ .

النقطة الثالثة : التفاضل بين أصحاب الجنة •

من عدل الله تبارك وتعالى أن جعل الجنة درجات ، كل عامل ينال

درجته التي يستحقها عمله •

وقد بين الله تعالى أن أهل الجنة صنفان :

الصنف الأول : المقربون •

وقد ذكرهم القرآن في قوله تعالى (والسابقون السابقون • أولئك

المقربون • في جنات النعيم • ثلة من الأولين • وقليل من الآخرين)^١ •

فهؤلاء هم أصحاب الدرجات العلى في الجنة ، وهم الذين كانوا

يسارعون في الخيرات ويسابقون إليها ، وقد بين تعالى أنهم يقلبون في آخر

الأمر بخلاف أوله فإنهم فيه أكثر •

وقد تعددت أقوال العلماء في تحديد السابقين ، وفيه خمسة أقوال^٢ :

الأول : أنهم السابقون إلى الإيمان من كل أمة • قاله الحسن و قتادة •

الثاني : أنهم الذين صلوا إلى القبلتين • قاله ابن سيرين •

الثالث : أنهم أهل القرآن • قاله كعب •

الرابع : أنهم الأنبياء • قاله محمد بن كعب •

الخامس : أنهم السابقون إلى المساجد وإلى الخروج في سبيل الله • قاله عثمان

ابن أبي سودة •

والذي يظهر والعلم عند الله أن السابقين هم الذين سبقوا غيرهم في

تحصيل الفضائل وحياسة الكمالات ، وكانوا أكثر استجابة من غيرهم لأمر الله

تبارك وتعالى وأمر رسوله ، ويشهد لذلك قول الله تعالى (ثم أورثنا

الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم

(١) الواقعة ١٠-١٤ •

(٢) انظر : زاد المسير ٨/١٣٣ •

سابق بالخيرات ياذن الله ذلك هو الفضل الكبير (١) .

- فينت الآية أن الناس أقسام ثلاثة ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات .
- فالظالم لنفسه : المقصر في العمل أو أصحاب المشئمة على خلاف في ذلك .
- والمقتصد : هم أصحاب الميمنة أو غير المبالغ في طاعة ربه .
- والسابق : هم السابقون من الناس كلهم وهو المبرز الذي قد تقدم المجتهدين في خدمة ربه ، وأداء ما لزمه من فرائضه فسبقهم بصالح الأعمال وهي الخيرات (٢) .

فالسابق له منزلة على غيره وهو تقدمه في الطاعات ومسارعة فيها ، ولذلك فإن درجته أعلى من درجة غيره ، وهذا الصنف موجود في أول الأمة وآخرها وإن كان في الأولين أكثر .

الصنف الثاني : أصحاب اليمين

- وهم في درجة أقل من درجة السابقين ، وقد ميز الله بين أصحاب المترئين فذكر ما أعد لهؤلاء وما أعد لأولئك .
- والجنة درجات ما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض .
- قال صلى الله عليه وسلم : إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم .
- قالوا : يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم .
- قال صلى الله عليه وسلم : بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (٣) .

(١) فاطر ٣٢ .

(٢) انظر : تفسير ابن جرير ١٦٥/٢٥ .

(٣) أخرجه البخاري في بدء الخلق ، باب ما جاء في صفة الجنة ٣٢٠/٦ حديث رقم ٣٢٥٦ . وأخرجه مسلم واللفظ له في كتاب الجنة ، باب ترائي أهل الجنة أهل الغرف ٢١٧٧/٤ حديث رقم ٢٨٣١ .

قال ابن حجر : والمعنى أن أهل الجنة تتفاوت منازلهم بحسب درجاتهم في الفضل حتى إن أهل الدرجات العلا ليراهم من هو أسفل منهم كالنجوم^١ . أهـ

فهذه الدرجات العالية هي درجات السابقين الذين آمنوا بالله وصدقوا المرسلين حق التصديق .

وبالجملة فإن الكرامة حاصلة للجميع والنعيم حاصل للجميع فنسأل الله أن يجعلنا من السابقين بمنه وفضله .

ولعل من فوائد تصنيف الناس في الجنة تحفيز الهمم إلى المسارعة في العمل كما قال تعالى (وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين)^٢ .

ولأجل بيان العدل الإلهي في إعطاء كل عامل ما يستحق من الكرامة ، حتى يستمر المجتهد في اجتهاده ويتدارك المقصر ما فاته .

(١) فتح الباري ٦/٣٢٧ .

(٢) آل عمران ١٣٣ .

النقطة الرابعة : الأسلوب القرآني في هذا الموضوع (وهو خلاصة

ما سبق)

يدور الأسلوب القرآني على المحاور التالية :

المحور الأول : الترغيب في الجنة بذكر الأوصاف المشوقة لها ، وما أعد الله فيها للمؤمنين من النعيم العظيم .

المحور الثاني : مواساة المؤمنين المحرومين في الدنيا بذكر ما أعد الله لهم من النعيم في الآخرة مما يهون عليهم حرمانهم ، ومما يزهدهم في متاع الدنيا الزائل ، مما يجعلهم لا يطمحون إلى عرض الحياة الدنيا الذي يقع التشاحن والتباغض بين الناس بسببه عادة ، فتقل الشحناء بينهم والتباغض مما يوفر مجتمعاً آمناً ينعم بحياة مستقرة ، وهذا أثر عظيم من آثار التربية القرآنية للمؤمنين .

المحور الثالث : بيان أهمية الأعمال في دخول الجنة وذلك بكثرة اقتران الإيمان بالعمل الصالح في الآيات القرآنية .

المحور الرابع : تطمين المؤمنين بأن لهم الأمن والكرامة فيما يستقبلهم من أمور الآخرة مما يهون عليهم أمر الموت ويزهدهم في الدنيا ، ويجعلهم في شوق دائم إلى لقاء الله تبارك وتعالى .

المحور الخامس : بيان العدل الإلهي في مجازاة العاملين كل بحسب عمله ، فلا يستوي المحسن والمسيء ، ولا المقل والمكثر .

المحور السادس : بيان درجات الناس في الجنة وتفاضل أهل الدرجات فيما بينهم تحفيزاً للهمم للسعي في تحصيل الدرجات العالية .

المبحث الثاني

عدم تحقيق الغاية من وجود الإنسان ، وأثر ذلك في حياته

• ومصيره

وفيه المطالب التالية :

- المطالب الأول : كيفية عدم تحقيق الغاية
- المطالب الثاني : أثر عدم تحقيق الغاية في حياة الإنسان
- المطالب الثالث : أثر عدم تحقيق الغاية في مصير الإنسان

تمهيد

بعد أن تكلمت عن أثر تحقيق الغاية في حياة الإنسان ومصيره ، أتحدث هنا عن عكس تلك القضية وهو عدم تحقيق الغاية من خلق الإنسان وأثر ذلك في حياته ومصيره .

وما يقال في هذا المبحث عكس لما قيل في المبحث الأول ، فكل أثر طيب ذكر في المبحث الأول يقابله أثر سيئ في هذا المبحث .
وسأقابل كل نقطة بأختها لنبين الفرق بين الفريقين والله الموفق .

المطلب الأول : كيفية عدم تحقيق الغاية .

ذكرت في المبحث الأول أن العبادة تحقق بثلاثة أمور :

عبادة الله وحده ، و عبادته بما شرع ، و العبادة مع المحبة والرضى وأداءها طوعاً واختياراً .

فإذا اختل أحد هذه الأمور الثلاثة أو كلها يكون الإنسان قد فرط في الغاية التي لأجلها خلق .

فالأمر الأول : وهو التوحيد الخالص ، و يضاده الشرك بالله واتخاذ آلهة أخرى مع الله ، أو اتخاذ آلهة أخرى غير الله ، أو الإلحاد بالله ونفي الإله بالكلية ، وهذا من أعظم الذنوب وأشدّها خطراً على الإنسان ، فإذا وقع الإنسان في هذا المزلق العظيم فإنه يكون قد فرط في الغاية من إيجادها ولم يحققها كما أمره الله تبارك وتعالى .

والشرك هو الذنب الذي لا يغفره الله لصاحبه إذا مات عليه .

قال تعالى (إنَّ الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء

ومن يشرك بالله فقد ضلّ ضلالاً بعيداً)^١ .

(١) النساء ١١٦ .

أما الأمر الثاني : وهو عبادة الله بما شرع ، و يقابله البدعة وهي : الأمر المحدث في الدين ، والوقوع فيها تفريط في الغاية من وجود الإنسان إذ الغاية هي عبادة الله بما شرع قال صلى الله عليه وسلم : من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد^١ .

وقال صلى الله عليه وسلم : إياكم ومحدثات الأمور فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار^٢ . الحديث .

(١) سبق تخريجه ص ٢٠٠ .

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ، باب لزوم السنة ٥ / ١٣ ، حديث رقم ٤٦٠٧ . من طريق أحمد بن حنبل حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا ثور بن يزيد قال حدثني خالد بن معدان قال حدثني عبد الرحمن بن عمرو السلمى وحجر بن حجر قالا : أتينا العرياض بن سارية — وهو ممن نزل فيهم (و لا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه .٠٠) — فسلمنا وقلنا : أتيناك زائرين و عائدين و مقتبسين .

فقال العرياض : صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل علينا فوعظنا موعظة بليغة ذرفت منها العيون .٠٠ فذكر الحديث .

و هذا إسناد ضعيف .

فأحمد بن حنبل : ثقة حافظ فقيه حجة . التقريب ١ / ٢٤ ، رقم ١١٠ .

و الوليد بن مسلم : هو القرشي مولى بني أمية ، ثقة كثير التدليس . التقريب ٢ / ٣٣٦ ، رقم ٨٩ .

و ثور بن يزيد : ثقة ثبت إلا أنه يرى القدر . التقريب ١ / ١٢١ ، رقم ٥٣ .

و خالد بن معدان : ثقة عابد يرسل كثيرا . التقريب ١ / ٢١٨ ، رقم ٨٠ .

و عبد الرحمن بن عمرو : مقبول . التقريب ١ / ٤٩٣ ، رقم ١٠٦٣ .

و حجر : مقبول . التقريب ١ / ١٥٥ ، رقم ١٧٠ .

و الحديث رواه الترمذي و صححه في كتاب العلم ، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب

البدعة ٥ / ٤٣ ، حديث رقم ٢٦٧٦ .

و صححه الهروي ، و البزار ، و الحاكم ، و ابن عبد البر ، و الضياء المقدسي في جزء له . انظر :

إرواء الغليل ٨ / ١٠٨ .

قال تعالى (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم)^١ .

ووجه التفريط في البدعة : أن البدعة تشريع ، والتشريع لا يكون إلا من الله ، فمن أباح لنفسه أن يشرع شيئاً لم يأذن به الله فقد تعدى على حق من حقوق الله تبارك وتعالى ، وهذا ينافي مفهوم الانقياد في العبادة الذي هو أحد شروطها ، وقد سبق بيان شيء من ذلك عند ذكر شروط لا إله إلا الله .

أما الأمر الثالث : وهو العبادة مع المحبة والرضى ، فإن ما يقابله هو العبادة مع عدم المحبة والرضى .

والعبادة انقياد في الظاهر و الباطن ، فالانقياد في الظاهر فقط لا يكفي لتحقيق العبادة ، بل لا بد من الانقياد في الباطن وهو المحبة والرضى . مما شرع الله تبارك وتعالى ، وإنما ضلت أعمال الكافرين وحلت عليهم اللعنة والغضب واستحقوا العذاب لكرهيتهم لما أنزل الله تعالى ، قال تبارك وتعالى (والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم . ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم)^٢ .

فلا يتصور أن تكون عبادة لله مع كراهية لما أنزل الله ، بل لا بد أن تكون عبادة مع محبة ورضى كامل بما جاء من عند الله ، كما قال تعالى (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً)^٣ .

وقبل أن أنهي هذا المطلب أحب أن أوضح أن تحقيق الغاية — وهي العبادة — وعدمه أمر نسبي ، بمعنى أن الناس يتفاوتون فيه بين محسن

(١) آل عمران ٣١ .

(٢) محمد ٨ — ٩ .

(٣) النساء ٦٥ .

ومسيء ، ولذلك يمكن أن يصنف الناس كالتالي :

الصنف الأول : وهم الكفرة والملحدون الذين كفروا بالله وبرسوله
فهؤلاء مقطوع بكفرهم وهؤلاء لم يحققوا الغاية من وجودهم .

الصنف الثاني : من ارتكب مكفراً وهو من أهل القبلة
فهذا حقق العبودية في جانب وهدم ما بناه بارتكابه لذلك
المكفر ، كمن أنكر معلوماً من الدين بالضرورة ، أو كمن يصرف بعض
أنواع العبادة لغير الله .

قال تعالى (وقدمننا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً)^١ .

وقال تعالى (ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت
ليحبطن عملك ولتكوننّ من الخاسرين)^٢ .

الصنف الثالث : وهم أهل القبلة الذين وقعوا في المعاصي والذنوب
وكانت الغالبة عليهم ، ولكنهم لم يصلوا إلى حد الشرك فهؤلاء لم
يحققوا الغاية من إيجادهم كما هو المطلوب .

الصنف الرابع : من خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً على تفاوت بينهم .

الصنف الخامس : من أحسن في العمل وحقق مراد الله تعالى في أغلب
أحواله ، ولم يسلم من الذنب لكنه يعالجه دائماً بالتوبة والاستغفار ،
ويتبع السيئة الحسنة فهؤلاء هم المؤمنون حقاً .

ومن هنا نخلص إلى أن هناك أموراً تنافي العبودية لله كالشرك بالله
والإلحاد ، وهناك أموراً تنافي كمال العبودية وذلك كفعل المعاصي
وارتكاب المحرمات مع الاعتراف بجرماتها .

(١) الفرقان ٢٣ .

(٢) الزمر ٦٥ .

المطلب الثاني : أثر عدم تحقيق الغاية في حياة الإنسان .

لا شك أن شرع الله تبارك وتعالى الذي تعبد الناس به هو الذي يضمن لهم الانتظام في أمور حياتهم كلها ، فإذا نُحي شرع الله فإنّ البديل سيكون من جهد البشر ، والبشر محدودي التفكير إذا التمسوا جانب من المصلحة فاتت عليهم جوانب أخرى ، لذا فإنّ تشريعاتهم قاصرة لا تضمن للناس حياة مستقرة عادلة .

والانحراف عن منهج الله يسبب الفوضى في الحياة بصفة عامة وفي الأخلاق والسلوك بصفة خاصة .

فالإنسان الذي لا يؤمن بالله ، ولا يعرف الغاية من خلقه لا يفكر إلا في مصلحة نفسه ولو كان ذلك على حساب الآخرين ، لذا فهو يسعى إلى المصلحة بكل طريق يؤدي إليها ، ولو كان هذا الطريق يضر بغيره ، فهو لا يتورع عن الكذب ، ولا عن الغش والخداع والسرقة وكافة الخصال القبيحة ، وذلك بسبب عدم وجود الرادع الإيماني الذي يمنعه عن اقتراف تلك الفواحش .

و هذا الإنسان الذي يفعل تلك الفواحش لا يشعر بالذنب لفعله مما يميت الرحمة والشفقة في قلبه ويشعل نار الأنانية في نفسه .

ولنا أن تصور مجتمعاً يكون أفراده أو بعضهم بهذه الصفة !
إنّ هذا المجتمع حري بأن يعيش حياة نكد لا تعرف الأمن والاستقرار ، ولا تعرف الفضيلة والعفة ، ولا تعرف الرحمة والشفقة .

وقد أخبر الله تعالى أن هذا هو مصير من يعرض عن ذكر الله حيث قال (ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى)^١ .

والضنك : الضيق الشديد .

فعيش الكافر ضيق شديد وإن كان في مجبوحة من العيش إلا أن المهم والغم والضيق يلزمه لا يجد له علاجاً مما قد يؤدي به إلى الانتحار للتخلص من هذه الحياة ظناً منه أنه إن تخلص منها ارتاح وهيئات له ذلك .

ويلاحظ أن البلاد الكافرة على ما هم فيه من التنظيم لأموال الحياة إلا أن الجريمة تكثر عندهم بشكل مخيف ، والأمن يكاد يكون معدوماً .

ويلاحظ أيضاً تشتت الحياة الاجتماعية ، وتفارق الأسر ، وذوبان التماسك الاجتماعي بين المجتمع .

ويلاحظ انتشار التفسخ والرذيلة بشكل كبير مما يؤدي إلى اختلاط الأنساب ، وكثرة اللقطاء والحاقدين على المجتمع .

ويلاحظ كثرة الأمراض الخبيثة التي تسببها الفواحش والرذائل .

ويلاحظ كثرة الحروب الطاحنة التي لا ترحم أحداً .

كل هذه من مظاهر الضنك التي يعيشها من أعرض عن ذكر الله وحاد عن شرعه ومنهجه .

فالآثر السلبي الناتج عن عدم تحقيق مراد الله من الخلق يبدأ بالفرد وينتهي بالمجتمع .

المطلب الثالث : أثر عدم تحقق الغاية في مصير الإنسان .

أولاً : أثر الكفر في موت الإنسان .

بين الله تبارك وتعالى حال الكافر عند موته وما يتعرض له من الضرب المهين على وجهه ودبره حيث قال (ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكةُ يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد)^١ .

وقال تعالى (فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم . ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم)^٢ .
فبين سبحانه الحالة الصعبة التي يمر بها الكافر عند موته وكيف أن الملائكة يضربونهم على وجوههم وأدبارهم ، فهم في حال رهيب من الفرع والرعب والألم البدني والنفسي .

هذه الحال نتيجة لما جنت أيديهم من الكفر بالله ، وارتكاب المعاصي والآثام وإتباعهم لما يسخط الله تعالى ، وعدم حرصهم على ما يرضيه وهذا ما نقصده بقولنا : عدم تحقيق الغاية التي أوجد من أجلها الإنسان .

وقد بينت السنة النبوية جانباً آخر لحال الكافر عند موته في حديث البراء بن مالك الطويل الذي رواه الإمام أحمد وفيه : وإنَّ العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح ، فيجلسون مدّ البصر ، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول : أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب .

قال : فتفرق في جسده ، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول ، فيأخذها ، فإذا أخذها لم يدعها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في

(١) الأنفال ٥٠ - ٥١ .

(٢) محمد ٢٧ - ٢٨ .

تلك المسوح ، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض ، فيصعدون بها ، فلا يمرون على ملاء من الملائكة إلا قالوا : ما هذه الروح الخبيثة ؟

فيقولون : فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا ، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح له ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم : (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط)^١ .

فيقول الله عز وجل : اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرْحاً ثم قرأ : (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق)^٢ .^٣ الحديث .

وقال صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه البخاري بسنده عن أنس : وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته ، فليس شيء أكره إليه مما أمامه ، فكره لقاء الله وكره الله لقاءه^٤ .

والكافر عندما يعاين الموت فإنه يدرك صدق الرسول ويعرف مدى تفریطه بكفره ، فيطلب الرجعة إلى الدنيا وهيئات له ذلك قال تعالى (حتى إذا حضر أحدهم الموت قال ربي ارجعون . لعلي أعمل صالحاً فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون)^٥ .

وقال صلى الله عليه وسلم عن الجنابة إذا كانت غير صالحة واحتملها الرجال على أعناقهم : فإن كانت غير صالحة قالت لأهلها : يا ويلها أين

(١) الأعراف ٤٠ .

(٢) الحج ٣١ .

(٣) سبق تخريجه ص ٣٠١ .

(٤) سبق تخريجه ص ٣٠٢ .

(٥) المؤمنون ٩٩ — ١٠٠ .

يذهبون بها يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان ، ولو سمع
الإنسان لصعق .^١

فهذا هو حال الكافر ألم و فزع وهم ومستقبل مظلم ، وكل ذلك بسبب
تفريطه في حق الله تبارك وتعالى ، وعدم إتباع أمره واجتناب
نهيه ، وترك عبادته .

(١) سبق تخريجه ص ٣٠٢ .

ثانياً : أثر (التفریط في الغاية) في الحياة البرزخية .

قد سبق الحديث عن عذاب القبر وأنه حق لا ريب فيه وقد قال الله تعالى
(وحق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدواً وعشياً
ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب)^١ .

قال ابن الجوزي : وهذه الآية تدل على عذاب القبر لأنه بين ما لهم في
الآخرة فقال (ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد
العذاب) . أهـ^٢

قال القرطبي : الإيمان بعذاب القبر وفتنته واجب ، والتصديق به لازم
حسب ما أخبر به الصادق ، وأن الله تعالى يحيي العبد المكلف في قبره برد
الحياة إليه ، ويجعله من العقل في مثل الوصف الذي عاش عليه ليعقل ما
يسأل عنه وما يجب به ، ويفهم ما أتاه من ربه ، وما أعد له في قبره من
كرامة وهوان ، وبهذا نطقت الأخبار عن النبي المختار صلى الله عليه وسلم
وعلى آله آناء الليل وأطراف النهار ، وهذا مذهب أهل السنة
والذي عليه الجماعة من أهل الملة^٣ . أهـ

فالكافر إذا وضع في قبره سأل كما يسأل المؤمن ، وهذا هو القول
الراجح خلافاً لمن خص السؤال بالمؤمنين والمنافقين المنسويين إلى أهل القبلة ،
وهو قول ابن عبد البر وقول أبي عبد الله الترمذي كما نقله القرطبي عنهما^٤ .
ورجح القرطبي القول الأول حيث قال : قول أبي محمد عبد الحق أصوب
والله أعلم فإن الأحاديث التي ذكرناها من قبل تدل على أن الكافر يسأله

(١) غافر ٤٥ — ٤٦ .

(٢) زاد المسير ٧ / ٢٢٩ .

(٣) التذكرة للقرطبي ص ١٣٧ .

(٤) انظر : التذكرة للقرطبي ص ١٦٦ — ١٦٧ .

الملكان ويختبرانه بالسؤال ويضرب بمطارق من حديد على ما تقدم والله أعلم^١ .

وقد بين ذلك الأحاديث الواردة في عذاب القبر كحديث البراء بن مالك الطويل وفيه : فتعاد روحه إلى جسده ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له : من ربك ؟

فيقول : هاه هاه ، لا أدري .

فيقولان له : ما دينك ؟

فيقول : هاه هاه ، لا أدري .

فيقولان له : ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟

فيقول : هاه هاه ، لا أدري .

فينادي مناد من السماء : أن كذب فافرشوا له من النار ، وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، ويأتيه رجل قبيح الوجه ، قبيح الثياب ، منتن الريح ، فيقول : أبشر بالذي يسوءك ، هذا يومك الذي كنت توعد .

فيقول : من أنت ؟ فوجهك الوجه يجيء بالشر ؟

فيقول : أنا عم لك الخبيث .

فيقول : رب لا تقم الساعة^٢ .

وفي رواية الإمام البخاري عن أنس قال : وأما المنافق والكافر فيقال له :

ما كنت تقول في هذا الرجل ؟

فيقول : لا أدري ، كنت أقول كما يقول الناس .

فيقال : لا دريت ولا تليت .

ويضرب بمطارق من حديد ضربة فيصيح صيحة

(١) السابق ١٦٧ ، وانظر : الروح لابن القيم ص ١١٦ - ١١٩ .

(٢) سبق تخريجه ص ٣٠١ .

يسمعا من يله غير الثقلين ٠

فهذا هو أثر مخالفة أمر الله ، وإتباع غير منهج الله ، وعدم تحقيق الغاية التي لأجلها خلق الإنسان ، إنه مصير بئس عذاب في الموت ، وعذاب في القبر ، وشدة وخوف ، ثم يصير إلى عذاب جهنم وعذاب جهنم أدهى وأمر ، لذا فهو يدعوا الله تعالى في قبره ألا يقيم الساعة رضا بالعذاب الأدنى دون العذاب الأكبر ٠

ثالثاً : أثر التفريط في الغاية في حال الإنسان يوم القيامة .

وصف الله تعالى يوم القيامة بأنه يوم عسير على الكافرين .

قال تعالى (فإذا نقر في الناقور . فذلك يومئذ يوم عسير . على

الكافرين غير يسير)^١ .

وقال تعالى (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة

تنزيلاً . الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوماً على الكافرين عسيراً)^٢ .

ففي هذا اليوم الرهيب — الذي سبق ذكر بعض أهواله — يأتي الكافر

خائفاً مرعوباً ذليلاً مهاناً يتمنى أن يرجع إلى الدنيا ليحسن العمل ولكن

هيئات له ذلك .

قال تعالى (ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا يا ليتنا نرد ولا نكذب

بآيات ربنا ونكون من المؤمنين . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو

ردوا لعادوا لما هموا عنه وإنهم لكاذبون)^٣ .

والكافر في هذا الموقف الصعب يتمنى أن يفتدي من عذاب ذلك اليوم

بكل عزيز وغالي .

قال تعالى (يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ ببنيه .

وصاحبته وأخيه . وفصيلته التي تؤيه . ومن في الأرض جميعاً

ثم ينجيه)^٤ .

ويتمنى الكافر لو أن له مثل الأرض ذهباً ومثله معه ليفتدي به نفسه من

عذاب الله ، ومع هذا لو كان له ذلك — وهيئات — فلن يتقبل منه بل

مصيره جهنم وبئس المهاد .

(١) المدثر ٨ — ١٠ .

(٢) الفرقان ٢٥ — ٢٦ .

(٣) الأنعام ٢٧ — ٢٨ .

(٤) المعارج ١١ — ١٤ .

قال تعالى (والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعاً ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد)^١ .
 وقال تعالى (إنَّ الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افتدى به أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين)^٢ .

ويلاحظ أن الأسلوب القرآني في هذا الموضوع يركز على بيان جوانب الحسرة التي تحصل للكافر في ذلك اليوم ، وعلى بيان شدة الهول الذي يعاني منه ، والكرب الذي يعيشه ، فهو في مقابل التخلص من تلك الكروب على استعداد لتقدم كل غالي ونفيس لينقذ نفسه من ذلك العذاب ، ومع ذلك فإنه لا يجد ما يفتدي به ، ولو وجد لما قبل منه ولا يجد له شفيعاً ولا ناصرًا ينصره من دون الله .

وعند يأسه من حاله يتمنى الكافر أن لو يصير تراباً كما تصير البهائم قال تعالى (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً)^٣ .

قال ابن جرير : يقول تعالى ذكره : ويقول الكافر يومئذ تمنياً لما يلقي من عذاب الله الذي أعده لأصحابه الكافرين به : يا ليتني كنت تراباً كالبهائم التي جعلت تراباً^٤ . أهـ

إنَّ هذا الأسلوب بما فيه من التخويف الرهيب ، والتصوير الدقيق لمشاعر الكافر الهلعة في ذلك اليوم يجعل الإنسان يترث كثيراً قبل إقدامه على الكفر والعصيان .

(١) الرعد ١٨ .

(٢) آل عمران ٩١ .

(٣) النبأ ٤٠ .

(٤) ابن جرير ٣٠ / ٣٣ .

وتأتي السنة النبوية موافقة لأسلوب القرآن ، مبينة للناس مدى الخسارة
والندامة التي يُمنى بها الكافر عند لقاء ربه .

قال صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذاباً يوم
القيامة : لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي به .
فيقول : نعم .

فيقول : أردت منك أهون من هذا ، وأنت في صلب آدم أن لا تشرك بي شيئاً
فأبيت إلا أن تشرك بي ^١ .

ويبين القرآن الكريم حال الكافر وهو يتلقى كتابه بشماله وأعاصير
الحسرة والندامة تعصف به .

قال تعالى (وأما من أوتي كتابه بشماله فيقول يا ليتني لم أوت كتابيه .
ولم أدري ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . ما أغنى عني ماليه .
هلك عني سلطانيه) ^٢ .

وهو من حسرته يعرض على يديه أسفاً على ترك اتباع الرسول .
قال تعالى (ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع
الرسول سبيلاً . يا ويلتي ليتني لم اتخذ فلاناً خليلاً . لقد أضلني عن الذكر
بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً) ^٣ .

وفي ذلك اليوم يتبرأ الأخلاء من بعضهم ويلعن بعضهم بعضاً لأن خلتهم
لم تكن لله تعالى .

قال تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوٌ إلا المتقين) ^٤ .
وقال تعالى (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس
في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ، باب صفة الجنة والنار ٤١٦/١١ حديث رقم ٦٥٥٧ .

(٢) الحاقة ٢٥ — ٢٩ .

(٣) الفرقان ٢٧ — ٢٩ .

(٤) الزخرف ٦٧ .

أخراهم لأولهم ربنا هؤلاء أضلونا فآثم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) ١ .

وقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم ل كنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا نحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) ٢ .

وهكذا تتوالى الصور المرعبة للكفرة وهم في غاية الندامة والأسف والذلة والمهانة ، والأغلال توضع على أعناقهم ، ويساقون إلى النار على وجوههم وهم يتصايحون ويلعن بعضهم بعضاً ويخطئ بعضهم بعضاً .
إن المصير الأسود الذي ينتظر الكافرين تنخلع له القلوب فرعاً وخوفاً ، وتتلمس النفوس السوية عند قراءته في القرآن الطريق إلى النجاة منه فلا تجد إلا شرع الله ودينه القويم فتتمسك به وتعص عليه .

(١) الأعراف ٣٨ .

(٢) سبأ ٣١ — ٣٣ .

رابعاً : الكافر في جهنم .

إن الصور الرهيبة السابق ذكرها ما هي إلا مقدمة لما سيصير إليه الكافر من عذاب مقيم .

والقرآن قد أفاض في ذكر عذاب أهل النار وما يحصل لهم من المذلة والمهانة والألم النفسي والبدني .

وهذه بعض صور العذاب التي تنتظر الكافرين يوم القيامة :

- أما شراهم فهو الحميم الذي يقطع الأمعاء .
- قال تعالى (وسقوا ماء حميماً فقطع أمعاءهم)^١ .
- والحميم : هو المغلي الذي انتهى غليه وحره^٢ .
- وبين القرآن أن من شراب أهل النار الغساق .
- قال تعالى (لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً . إلا حميماً وغساقاً)^٣ .
- والغساق : هو عصارة أهل النار وما سال من صديدهم^٤ .
- قال تعالى (ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه)^٥ .
- وقد ذكر ابن رجب أن شراب أهل النار أربعة أنواع :
- النوع الأول : الحميم . وهو الماء الحار الذي بلغ المنتهى في الحرارة .
- النوع الثاني : الغساق . وهو ما يسيل من بين جلد الكافر ولحمه .
- النوع الثالث : الصديد . وهو القيح والدم .
- النوع الرابع : الماء الذي كالمهل . وهو الأسود كمهل الزيت^٦ .
- أما أكلهم فهو الزقوم والضريع والغسلين .

(١) محمد ١٥ .

(٢) انظر : ابن جرير ٢٧ / ٥٤ ، مفردات الراغب ص ٣٠ .

(٣) النبأ ٢٤ — ٢٥ .

(٤) انظر : ابن جرير ٣٠ / ١٧ ، الكشاف ٤ / ٢٠٩ .

(٥) إبراهيم ١٦ — ١٧ .

(٦) انظر : التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار لابن رجب ص ١١٠ — ١١٣ .

أما الزقوم فقد وصفه الله بأبشع الأوصاف .
قال تعالى (إنَّ شجرة الزقوم • طعام الأثيم • كالمهل يغلي في
البطون • كغلي الحميم)^١ .
وقال تعالى (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم • طلعتها كأنه رؤوس
الشياطين • فإنهم لأكلون منها فمائلون منها البطون • ثم إنَّ لهم عليها
لشوباً من حميم • ثم إنَّ مرجعهم لإلى الجحيم)^٢ .
وقال تعالى (هل أتاك حديث الغاشية • وجوه يومئذ خاشعة • عاملة
ناصبة • تصلى ناراً حامية • تسقى من عين آنية • ليس لهم طعام إلا من
ضريع • لا يسمن ولا يغني من جوع)^٣ .
والضريع : هو يبيس الشبرق ، وقيل نبات أحمر منتن الريح يرمى
به البحر .
قال الراغب : وكيفما كان إشارة إلى شيء منكر^٤ . أهـ
وقال تعالى (فليس له اليوم هاهنا حميم • ولا طعام إلا من
غسلين • لا يأكله إلا الخاطئون)^٥ .
والغسلين : صديد أهل النار ، وقيل هو الزقوم^٦ .
وقد وصف الله طعامهم بأنه ذو غصة •
قال تعالى (إنَّ لدينا أنكالاً وجحيماً • وطعاماً ذا غصة وعذاباً
أليماً)^٧ .

(١) الدخان ٤٣ — ٤٦ .

(٢) الصافات ٦٤ — ٦٨ .

(٣) الغاشية ١ — ٧ .

(٤) مفردات الراغب ص ٢٩٥ ، وانظر : التذكرة للقرطبي ص ٤٨٧ .

(٥) الحاقة ٣٥ — ٣٧ .

(٦) انظر : زاد المسير ٨ / ٣٥٤ .

(٧) الزمل ١٢ — ١٣ .

فهو طعام يغص به آكله فلا هو نازل عن حلقه ولا هو خارج منه ^١ .
 أما لباسهم فقد قال تعالى (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب
 من نار) ^٢ الآية .

وقال تعالى (سراييلهم من قطران وتغشى وجوههم النار) ^٣ .
 والسربال : القميص من أي جنس كان ^٤ .
 والقطران : هو النحاس المذاب ، وقيل : هو القطران الذي يهناً به
 الإبل ^٥ .

وذكر القرآن صوراً من العذاب شنيعة وهي كثيرة فمنها :
 — أنه يُصب من فوق رؤوسهم الماء الحار حتى يصهر ما في بطونهم
 وجلودهم ، ويضربون مطارق من حديد ، وكلما أردوا الخروج من النار
 أعيدوا فيها .

قال تعالى (فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق
 رؤوسهم الحميم . يصهر به ما في بطونهم والجلود . ولهم مقامع من
 حديد . كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها وذوقوا عذاب
 الحريق) ^٦ .

— يأتيهم الموت من كل مكان وليسوا بميتين :

قال تعالى : (واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد . من ورائه جهنم
 ويسقى من ماء صديد . يتجرعه ولا يكاد يسيغه ويأتيه الموت من كل
 مكان وما هو بميت ومن ورائه عذاب غليظ) ^٧

(١) انظر : ابن جرير ٢٩ / ١٦٨ .

(٢) الحج ١٩ .

(٣) إبراهيم ٥٠ .

(٤) انظر : مفردات الراغب ص ٢٢٩ ، زاد المسير ٤ / ٣٧٧ .

(٥) انظر : ابن جرير ١٣ / ٣٣٥ — ٣٣٧ ، زاد المسير ٤ / ٣٧٧ .

(٦) الحج ١٩ — ٢٢ .

(٧) إبراهيم ١٥ — ١٧ .

— كلما نضجت جلودهم أبدلوا جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب .
 قال تعالى (إنَّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت
 جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليدوقوا العذاب)^١ .

— أنهم في سموم وحميم وظل من يحموم .
 قال تعالى (وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال • في سموم
 وحميم • وظل من يحموم • لا بارد ولا كريم)^٢ .
 واليحموم : هو الدخان الشديد السواد ، وتسميته إما لما فيه من فرط
 الحرارة كما فسره في قوله (لا بارد ولا كريم) ، أو لما تصور فيه من
 الحممة^٣ .

— أن النار كلما تحبوا يزداد سعيرها .
 قال تعالى (كلما خبت زدناهم سعيراً)^٤ .
 — أنهم مقيدون في السلاسل والأغلال .
 قال تعالى (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون • في الحميم
 ثم في النار يسجرون)^٥ .

— لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها .
 قال تعالى (والذين كفروا لهم نار جهنم لا يقضى عليهم فيموتوا ولا
 يخفف عنهم من عذابها كذلك نجزي كل كفور)^٦ .
 — أنهم عن ربهم محجوبون .

(١) النساء ٥٦ .

(٢) الواقعة ٤١ — ٤٤ .

(٣) انظر : مفردات الراغب ص ١٣٠ .

(٤) الإسراء ٩٧ .

(٥) غافر ٧١ — ٧٢ .

(٦) فاطر ٣٦ .

وهذا من أعظم عذاب أهل النار .

قال ابن رجب : وأعظم عذاب أهل النار حجابهم عن الله عز وجل وإبعادهم عنه ، وإعراضه عنهم وسخطه عليهم ، كما أن رضوان الله على أهل الجنة أفضل من كل نعيم الجنة ، وتجليه لهم ورؤيتهم إياه أعظم من جميع نعيم الجنة ، قال الله تعالى (كلاب ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون . كلاً إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون)^١ أهـ^٢ .

وبعد فهذه بعض أنواع العذاب التي تصيب الكافر كما جاءت في القرآن ذكرتها على سبيل التمثيل لا الحصر .

وقد جاءت السنة النبوية ببيان صور كثيرة من العذاب ، فمن ذلك ما رواه مسلم بسنده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث^٣ .

وقال صلى الله عليه وسلم : ما بين منكي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكب المسرع^٤ .

وتكبير حجم الكافر في النار ليكون أبلغ في إيلامه^٥ .
ويبين النبي مدى البؤس الذي يحصل للكافر والذي ينسى معه كل نعيم في الدنيا حيث يقول صلى الله عليه وسلم : ثم يُؤتى بأنعم الناس كان في الدنيا من أهل النار فيقول : أصبغوه فيها صبغة .

فيقول : يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط ، قرّة عين قط .
فيقول : لا وعزتك ما رأيت خيراً قط ولا قرّة عين قط^٦ .

(١) المطففين ١٤ - ١٥ .

(٢) التخويف من النار لابن رجب ص ١٤٣ .

(٣) أخرجه مسلم في كتاب الجنة، باب النار يدخلها الجبارون ٤/٢١٨٩ حديث رقم ٢٨٥١ .

(٤) السابق : ٤/٢١٩٠ حديث رقم ٢٨٥٢ .

(٥) انظر : شرح مسلم للنووي ١٧/١٨٦ .

(٦) سبق تخريجه ص ٣٣٠ .

وبين النبي صلى الله عليه وسلم فظاعة النار بذكر حجمها وعمق قعرها
وشدة حرها .

قال صلى الله عليه وسلم : يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زَمَامٍ مَعَ
كُلِّ زَمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُوهَا ^١ .

ويقول صلى الله عليه وسلم : ناركم هذه التي يوقد ابن آدم جزء من
سبعين جزء من حر جهنم .

قالوا : والله إن كانت لكافية يا رسول الله !

قال : فإنها فضلت عليها بتسعة وستين جزء كلها مثل حرها ^٢ .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم إذ سمع وجبة فقال النبي صلى الله عليه وسلم : تدرّون ما هذا ؟

قال : قلنا : الله ورسوله أعلم .

قال : هذا حجر رمي به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوي في النار الآن
حتى انتهى إلى قعرها ^٣ .

والأحاديث في بيان ما أعد الله للكافر في النار وللأمور التي تستوجب
النار كثيرة جداً .

والأسلوب القرآني في عرض هذا الموضوع يدور على المحاور التالية :

المحور الأول : ذكر الأوصاف البشعة للنار وبيان شدة حرها .

المحور الثاني : بيان ألوان العذاب الرهيبة التي تنتظر الكافر فيها .

المحور الثالث : بيان حسرة الكافرين وندامتهم عند رؤيتهم للعذاب وتمنيهم
الرجوع إلى الدنيا أو الافتداء بكل غالي ونفيس .

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجنة ، باب في شدة حر نار جهنم وبعد قعرها ٤ / ٢١٨٤ حديث
رقم ٢٨٤٢ .

(٢) السابق ، حديث رقم ٢٨٤٣ .

(٣) السابق ، حديث رقم ٢٨٤٤ ، والوجبة : هي السقطة ، انظر : شرح مسلم ١٧ / ١٧٩ .

المحور الرابع : تصوير حالة الرعب والهلع التي يعيشها الكافر .

المحور الخامس : التحذير من النار صراحة (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)^١ .

المحور السادس : بيان أنهم استوجبوا دخول النار بسوء أعمالهم وبتفريطهم في الغاية التي لأجلها خلقوا .

المحور السابع : بيان العدل الإلهي بإقامة الحجج الكثيرة عليهم وإرسال الرسل المنذرين من عذاب الله .

المحور الثامن : ذكر الأسباب الموجبة لعذاب الله تعالى تحذيراً منها .

المحور التاسع : المقابلة بين ما أعدّه الله للمؤمنين من ألوان النعيم وبين ما أعدّه للكافرين من أصناف العذاب الأليم مما يجعل القارئ للقرآن يستشعر الحالين ، ويعيشها كأنه ينظر إليها ، فتطمئن نفسه لحال المؤمنين ، ويقشعر جلده ويرتجف فؤاده لحال الكافرين ، وتطلب نفسه النجاة والسلامة فتتنفر من كل ما يوجب لها العذاب ، وتقبل على كل ما يوجب لها الأمن والنعيم ، وهذا من هداية القرآن الكريم .

ولكن المستفيد من ذلك هو من قرأ القرآن قراءة تدبر وتفكر ونظر في آيات الله واستلهاً للعبر والعظات ، قال تعالى (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين . يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم)^٢ .

فلا يستفيد الإنسان من القرآن إلا إذا تلقاه بروح المعرفة المنشئة للعمل . قال سيد قطب رحمه الله : إنهم في الجيل الأول لم يكونوا يقرؤون القرآن بقصد الثقافة والإطلاع ، وبقصد التذوق والمتاع ، لم يكن أحدهم يتلقى

(١) التحريم ٦ .

(٢) المائدة ١٥ - ١٦ .

القرآن ليستكثر به من زاد الثقافة لمجرد الثقافة ، ولا ليضيف إلى حصيلته العلمية والفقهية محصولاً يملأ به جعبته ، إنما كان يتلقى القرآن ليتلقى أمر الله في خاصة شأنه وشأن الجماعة التي يعيش فيها ، وشأن الحياة التي يحيها هو وجماعته ، يتلقى ذلك الأمر ليعمل به فور سماعه .

هذا الشعور شعور التلقي للتنفيذ كان يفتح لهم من القرآن آفاقاً من المتاع وآفاقاً من اللذة لم تكن لتفتح عليهم لو أنهم قصدوا إليه بشعور البحث والدراسة والإطلاع .

إنّ هذا القرآن لا يمنح كنوزه إلا لمن يقبل عليه بهذه الروح ، روح المعرفة المنشئة للعمل ، إنه لم يجيء ليكون كتاب متاع عقلي ولا كتاب أدب وفن ولا كتاب قصة وتاريخ — وإن كان هذا كله من محتوياته — إنما جاء ليكون منهاج حياة ، منهاجاً إلهياً خالصاً^١ . أهـ

(١) معالم في الطريق لسيد قطب ص ١٤ — ١٥ باختصار .

الفصل الثاني

المعوقات في طريق تحقيق الغاية من وجود الإنسان

وفيه تمهيد ومبحثان :

التمهيد : في المقصود بالمعوقات

المبحث الأول : المعوقات الذاتية •

المبحث الثاني : المعوقات الخارجية •

تمهيد

المقصود بالمعوقات

نقصد في هذا الفصل بيان المعوقات في طريق تحقيق الغاية وهي الأمور التي تحول بين الإنسان وبين تحقيقه العبودية لله تعالى تحقيقاً كاملاً .

وهذه المعوقات تختلف قوتها من معوق لآخر ، ومن شخص لآخر ، فقد تكون هذه المعوقات مجتمعة في الشخص الواحد ، وقد يكون فيه بعضها دون البعض الآخر .

وهذه المعوقات إما أن تكون ذاتية ونقصد بذلك : أن تكون صادرة عن الإنسان بمقتضى التركيب الذي ركب منه .

أو تكون خارجية بمعنى أنها لا تكون من ذات الإنسان بل تكون لأمر خارج عنه .

وفي هذا الفصل سأبين النوعين بحسب الاستطاعة وبالله التوفيق .

المبحث الأول

المعوقات الذاتية

وفيه مطلبان :

- المطلب الأول : الضعف الإنساني
- المطلب الثاني : النفس الأمارة بالسوء

المطلب الأول : الضعف الإنساني

أخبر الله تعالى عن الإنسان بأنه خلق ضعيفاً قال تعالى (وخلق

الإنسان ضعيفاً)^١

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية : لا يصبر على الشهوات و على

مشاق الطاعات^٢ . أهـ

فالإنسان قد ركب فيه من حب الشهوات المختلفة ما لا يستطيع دفعه عن

نفسه كما قال تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين

والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام

والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب)^٣

وركب في الإنسان طباع الخير وطباع الشر ، وجاءت الرسل لتبين

حسن طباع الخير وأنها هي التي تقود الإنسان إلى رضوان الله ، وقبح طباع

الشر وأنها هي التي تجر الناس إلى سخط الله .

ويمكن إجمال المعوقات التي تكون بسبب الضعف الإنساني في الأمور

التالية :

أولاً : الشهوات :

والمقصود بها كل شهوة يسعى الإنسان لتحصيلها كالشهووات التي

ذكرت في آية آل عمران .

والإنسان ضعيف في مقابل الشهوات كما ذكر الله في آية

النساء (وخلق الإنسان ضعيفاً) .

قال صلى الله عليه وسلم : لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن

(١) النساء ٢٨ .

(٢) الكشاف ١ / ٥٢١ .

(٣) آل عمران ١٤ .

يتركه فجعل إبليس يطيف به ، ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق
خلقاً لا يتمالك^١ .

قال الإمام النووي : الأجوف : صاحب الجوف .

وقيل : هو الذي داخله خال .

ومعنى لا يتمالك : لا يملك نفسه ويجبسها عن الشهوات .

وقيل : لا يملك دفع الوسواس عنه .

وقيل : لا يملك نفسه عن الغضب .

والمراد جنس بني آدم^٢ أهـ .

فالإنسان لا يصبر عن الشهوات .

والله سبحانه وتعالى خلق هذه الشهوات لفوائد منها :

أولاً : أنها سبب بقاء الحياة .

فشهوة النكاح سبب لبقاء النسل الإنساني .

وشهوة حب المال سبب في عمارة الأرض ، لأن الجميع يسعى

لتحصيل جمع المال وذلك لا يتم إلا بأن يقوم كل شخص بأداء أعمال

للآخرين يضمن بها أن يحصل قوته وقوت أولاده فتحصل عمارة الأرض وأداء

المنافع للناس .

وشهوة حب الأولاد سبب في المحافظة عليهم والقيام بشؤونهم وإتباع

النفس في راحتهم .

وشهوة الأكل والشرب سبب في بقاء حياة الإنسان .

وهكذا كل الشهوات .

(١) سبق تخريجه ص ١٤٤ .

(٢) شرح مسلم للنووي ١٦ / ١٦٤ .

فالشهوات أوجدت ولها دور كبير في التوازن الحياتي المذهل الذي جعله الله تبارك وتعالى سبباً لبقاء هذه الحياة إلى أجلها المضروب .

ثانياً : أن الشهوات طريق الامتحان والاختبار .

فلو جرد الإنسان عن الشهوات لما ظهر الطائع من العاصي ، الطائع الذي يطيع ربه فيما يأمره به من اجتناب الشهوات ، والعاصي الذي يعصي ربه فيها .

ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : حجبت النار بالشهوات ، وحجبت الجنة بالمكاره^١ .

فواضح هنا أن الشهوات هي الامتحان الذي يؤدي بالإنسان إلى النار إن هو سقط في حماها .

قال ابن حجر في بيان الشهوات المقصودة في الحديث : والمراد بالشهوات ما يستلذ من أمور الدنيا مما منع الشرع تعاطيه إما بالأصالة ، وإما لكون فعله يستلزم ترك شيء من المأمورات^٢ . أهـ

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومنها أن الحكمة الإلهية اقتضت تركيب الشهوة والغضب في الإنسان ، وهاتان القوتان بمرتلة صفاته الذاتية التي لا ينفك عنهما ، وبهما وقعت المحنة والابتلاء ، وعرض لنيل الدرجات العلى واللحاق بالرفيق الأعلى ، والهبوط إلى أسفل سافلين . . . والمقصود أن تركيب الإنسان على هذا الوجه هو غاية الحكمة ولا بد أن يقتضي كل

(١) أخرجه البخاري في الرقاق، باب حجبت النار بالشهوات ١١ / ٣٢٠ حديث رقم ٦٤٨٧ . واللفظ له .

وأخرجه مسلم في الجنة ٤ / ٢١٧٤ حديث رقم ٢٨٢٢ .

(٢) فتح الباري ١١ / ٣٢٠ .

واحد من القوتين أثره ، فلا بد من وقوع الذنب والمخالفات والمعاصي ، فلا بد من ترتب آثار هاتين القوتين عليهما ، ولو لم يخلق في الإنسان لـم يكن إنساناً ، بل كان ملكاً ، فالترتب من موجبات الإنسانية^١ . أهـ

فالشهوات محبوبة للإنسان ، ولذلك هو يضعف أمامها ، هذا الضعف هو الذي يورد الإنسان موارد الهلاك ، فإن الإنسان إذا استرسل مع شهواته وخرج بها عما أباح الله له فإنه يكون قد خالف أمر الله تعالى ولم يتبع هدى الله الذي أمرنا باتباعه ، فيكون بذلك قد فرط في الغاية التي من أجلها أوجد وهي عبادة الله تعالى بامتثال أمره واجتناب نهيهِ .

ويلاحظ أن الشرع الحنيف لم يأت بكبت الشهوات كما قد يظن البعض ، ولكنه هذبها وسلك بها مسارها الأمثل الذي تقوم به الحياة وتستمر ، وبمخالفته تضطرب الحياة وتتغير .

فالله سبحانه وتعالى لما حرم الزنى أباح الزواج ، ولما حرم الربا أباح البيع والاكْتساب ، ولما زهد الناس في شهوات الدنيا الزائلة رغبهم في شهوات الآخرة الباقية .

وهكذا لا تجد شهوة إلا ولها جانبان ، جانب تكون فيه محمودة ، وجانب آخر تكون فيه مذمومة ، فالمحمود منها ما وافق الشرع وكان ضمن حدوده ، والمذموم منها ما تجاوز حد الشرع وخرج بصاحبه عن الطريق القويم .

ومن هذا نعلم كيف تكون الشهوات عائقاً عن أداء العبودية لله كما ينبغي ، وذلك بالاسترسال معها حتى يتجاوز الإنسان بها الحد المسموح به إلى الحد الممنوع ، فتكون الشهوات حينئذ هدفاً من أهداف الإنسان يسعى لتحصيله بأي طريق ومن أي وجه كان .

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ١ / ٢٩٧ . باختصار .

وهناك عوامل تدفع الإنسان إلى تجاوز الحد المسموح منها :

١- أن حب الشهوات في طبيعة الإنسان .

٢- كثرة الشهوات فإذا انصرف عن إحداها كانت الأخرى له

بالمرصاد .

والقرآن الكريم لم يترك الإنسان من غير توجيه في هذا الموضوع ، بل

عالجه بأسلوبه الرائع المؤثر .

ويمكن تلخيص هذه المعالجة في النقاط التالية :

النقطة الأولى : التقليل من شأن شهوات الدنيا حتى تهون في النفس

فلا يطمح إليها الإنسان .

قال تعالى (قل متاع الدنيا قليل . .)^١ الآية .

وقال تعالى (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)^٢ .

النقطة الثانية : بيان أن متاع الدنيا ليس مقياساً للسعادة ، وأن

كثيراً ممن استمتع بمتاع الدنيا مصيره الهلاك يوم القيامة .

قال تعالى (وأمم ستمتعهم ثم يمسهم منا عذاب أليم)^٣ .

وقال تعالى (متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد)^٤ .

وقال تعالى (متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد

بما كانوا يكفرون)^٥ .

وقال تعالى (ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون)^٦ .

(١) النساء ٧٧ .

(٢) آل عمران ١٨٥ .

(٣) هود ٤٨ .

(٤) آل عمران ١٩٧ .

(٥) يونس ٧٠ .

(٦) الحجر ٣ .

النقطة الثالثة : أن الاستمتاع بمتاع الدنيا قد يسبب الحرمان

من متاع الآخرة .

قال تعالى (ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون)^١ .

قال ابن جرير عند تفسير هذه الآية : ذكر أن عمر بن الخطاب كان

يقول : لو شئت كنت أطيبكم طعاماً وألينكم لباساً ولكني استبقي طيباتي .

وذكر لنا أنه لما قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله قال : هذا لنا ،

فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير ؟

قال خالد بن الوليد : لهم الجنة .

فاغرورقت عينا عمر وقال : لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا — قال أبو

جعفر : فيما أرى أنا — بالجنة لقد باينونا بونا بعيداً^٢ . أهـ

وهكذا كان السلف الصالح رضي الله عنهم في حذر من ملذات الدنيا

يخشون حرمانهم منها في الآخرة .

وليس هذا دعوة إلى ترك الطيبات فإن الله تعالى أباحها لنا ، وإنما هو

دعوة إلى ترك التوسع فيها ، لأنها إن تمكن حبتها من النفس لم تصبر على

فقدانها فتسعى لتحصيلها ولو بطريق الحرام .

وقد أحسن ابن العربي كثيراً عندما قال في تفسيره لهذه الآية : روي أن

عمر بن الخطاب لقي جابر بن عبد الله وقد ابتاع لحماً فقال له : أما سمعت

الله تعالى يقول (أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها) ؟ .

(١) الأحقاف ٢٠ .

(٢) ابن جرير ٢٦ / ٢٧ .

وهذا عتاب منه له على التوسع بابتیاع اللحم والخروج عن جلف الخبز والماء، فإن تعاطي الطيبات من الحلال تستشري لها الطباع، وتستمر عليها العادة، فإذا فقدتها استسهلت في تحصيلها بالشبهات، وحتى تقع في الحرام المحض بغلبة العادة واستشراه الهوى على النفس الأمارة بالسوء، فأخذ عمر الأمر من أوله وحماه من ابتدائه كما يفعله أمثاله .

والذي يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : على المرء أن يأكل ما وجد طيباً كان أو قفّاراً، ولا يتكلف الطيب، ويتخذة عادة، وقد كان صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد، ويصبر إذا عدم، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها، ويشرب العسل إذا اتفق له، ويأكل اللحم إذا تيسر، ولا يعتمده أصلاً ولا يجعله ديدناً، ومعيشة النبي صلى الله عليه وسلم معلومة، وطريقة أصحابه من بعده منقولة، فأما اليوم عند استيلاء الحرام وفساد الحطام فالخلاص عسير، والله يهب الإخلاص ويعين على الخلاص برحمته^١ . أهـ

النقطة الرابعة : بيان أن ما عند الله تبارك وتعالى من النعيم أكبر من

نعيم الدنيا وأعظم .

قال تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين القناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب . قل أؤنبئكم بخير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد)^٢ .

وقال تعالى (فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل)^٣ .

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٤ / ١٦٩٨ — ١٦٩٩ .

(٢) آل عمران ١٤ — ١٥ .

(٣) التوبة ٣٨ .

وقال تعالى (وما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون • أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقيه كمن متعناه متاع الحياة الدنيا ثم هو يوم القيامة من المحضرين)^١ •

إن إبراز نعيم الآخرة وبيانه للإنسان يجعل الإنسان يسعى لتحصيله ولو كان الثمن تركه لكثير من ملذات الحياة الدنيا •

النقطة الخامسة : لم يطلب القرآن من الناس الانصراف عن الشهوات بالكلية ولكنه أرشدهم إلى الطريقة المثلى في التعامل معها والتي بها تتحقق للإنسان حياة الطهر والعفاف والسعادة •

قال تعالى (والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيماهم فإنهم غير ملومين فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون)^٢ •

النقطة السادسة : تحذير المؤمنين من الذين يتبعون الشهوات ، فإنهم يريدون من أهل العفاف والتقوى أن يقعوا في الشهوات كما وقعوا هم فيها •

قال تعالى (والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيماً)^٣ •

وقد اختلف المفسرون في المراد بالذين يتبعون الشهوات^٤ :

فقال البعض : إنهم الزناة ، يريدون من أهل الإسلام أن يزنوا كما زنوا •
وقال البعض : إنهم اليهود والنصارى كانوا يريدون من المسلمين إتباع

(١) القصص ٦٠ - ٦١ •

(٢) المعارج ٢٩ - ٣١ •

(٣) النساء ٢٧ •

(٤) انظر : ابن جرير ٥ / ٤٠ - ٤١ ، زاد المسير ٢ / ٦٠ •

شهواتهم في نكاح الأخوات من الأب .

وقال البعض : كل متبع شهوة في دينه لغير الذي أبيح له .

ورجح ابن جرير القول الأخير ، وهو الذي دل عليه ظاهر الآية وكل

الأقوال الأخرى داخلة فيه .

والله سبحانه وتعالى يتوعد هؤلاء الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين

آمنوا بالعذاب الشديد في الدنيا والآخرة .

قال تعالى (إنَّ الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم

عذاب أليم في الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون)^١ .

وهذه الآية وإن نزلت على سبب خاص وهو حادثة الإفك إلا أن

العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب .

قال الرازي رحمه الله : لا شك أن ظاهر قوله تعالى (إنَّ الذين يحبون)

يفيد العموم وأنه يتناول كل من كان بهذه الصفة ، ولا شك أن هذه الآية

نزلت في قذف عائشة إلا أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فوجب

إجراؤها على ظاهرها في العموم .

ومما يدل على أنه لا يجوز تخصيصها بقذف عائشة قوله تعالى (في الذين

آمنوا) فإنه صيغة جمع ولو أراد عائشة وحدها لم يجز ذلك^٢ . أهـ

النقطة السابعة : الوعيد الشديد لمن اتبع الشهوات .

قال تعالى (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات

فسوف يلقون غيا)^٣ .

وقال تعالى (والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ولا يقتلون النفس التي

(١) النور ١٩ .

(٢) الرازي ١١ / ٥٠٤ .

(٣) مريم ٥٩ .

حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً • يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً^١ •

النقطة الثامنة : فتح أبواب التوبة أمام التائبين ودلالتهم على الطريق الذي يسلكونه إذا وقع منهم الذنب •

قال تعالى بعد الآية السابقة في سورة الفرقان (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفوراً رحيماً)^٢ •

فالله سبحانه يشجعهم على التوبة ، ويعدهم بإبدال سيئاتهم التي فعلوها بحسنات ترفع درجاتهم في الجنة •

وقال تعالى (والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون • أولئك جزأؤهم مغفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ونعم أجر العاملين)^٣ •

فدلهم سبحانه على طريق الاستغفار الذي يمحو الله به الخطايا ، وبين جزاء من يفعل ذلك بأن له المغفرة كما سأل ، وله جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء له على فعله •

وهكذا يبين القرآن للإنسان الطريقة المثلى للتعامل مع الشهوات فيحذره منها قبل وقوعها ، ويدله على التعامل الأمثل معها ، ويبين له الطريق الذي يسلكه عند تجاوز الحد فيها •

قال ابن القيم رحمه الله تعالى عن شفاء القرآن للشهوات : وأما شفاءه لمرض الشهوات فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة بالترغيب

(١) الفرقان ٦٨ — ٦٩ •

(٢) الفرقان ٧٠ •

(٣) آل عمران ١٣٥ — ١٣٦ •

والترهيب ، والتزهيد في الدنيا ، والترغيب في الآخرة ، والأمثال ، والقصص التي فيها أنواع العبر والاستبصار ، فيرغب القلب السليم إذا أبصر ذلك فيما ينفعه في معاشه ومعاده ، ويرغب عما يضره فيصير القلب محباً للرشد مبغضاً للغي .

فالقُرآن مزيل للأمراض الموجهة للإرادات الفاسدة فيصلح القلب فتصلح إرادته ، ويعود إلى فطرته التي فطر عليها ، فتصلح أفعاله الاختيارية الكسبية^١ . أهـ

ثانياً : الغفلة والنسيان .

النسيان نعمة من نعم الله العظيمة على الإنسان ، فعندما يتعرض الإنسان للمصائب والكوارث يصيبه الحزن والهم والغم ، ولا يزال ذلك به حتى يمن الله عليه بالنسيان ، فيخف وطء المصيبة ، ويترن الإنسان ويرجع إلى حالته الطبيعية .

ولو فرض استمرار الإنسان على حاله عند وقع المصيبة عليه فإن حالته النفسية المضطربة تسبب له اضطراباً عاماً في حياته يقل بسببه عطاؤه ومشاركته في الحياة ، وبهذا يتأثر المجتمع ويكون ذلك سبباً في تأخره ، لأن كل فرد منه لا بد أن يناله شيء من المصائب التي يتعرض لها بنو آدم . من هذا نعلم كيف كان النسيان نعمة عظيمة على الفرد والمجتمع .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن أعجب النعم عليه نعمة النسيان ، فإنه لولا النسيان لما سلا شيئاً ، ولما انقضت له حسرة ، ولا تعزى عن مصيبة ، ولا مات له حزن ، ولا بطل له حقد ، ولا تمتع بشيء من متاع الدنيا مع تذكر الآفات ، ولا رجا غفلة عدو ، ولا نقمة حاسد ، فتأمل نعمة الله في الحفظ والنسيان مع اختلافهما وتضادهما ، وجعله في كل واحد منهما ضرباً من المصلحة^١ . أهـ

والنسيان كما أنه نعمة فقد يكون نقمة عليه ، وذلك إذا طال النسيان حقوق الله تبارك وتعالى ، وهذا النسيان هو الذي جاء القرآن بالتحذير منه وذكر عواقبه الخطيرة .

قال تعالى (فمن أظلم ممن ذكر بآيات ربه ثم أعرض عنها ونسي ما قدمت يداه . .)^٢ الآية .

(١) مفتاح دار السعادة ١ / ٢٧٧ .

(٢) الكهف ٥٧ .

وقال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء
وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون)^١ .
فبين سبحانه أن نسيانهم كان سبباً في نزول العذاب بهم .
وقال تعالى مبيناً عاقبة نسيان أوامر الله في الدنيا (فالיום
نساهاهم كما نسوا لقاء يومهم هذا وما كانوا بآيات الله يجحدون)^٢ .
وقال تعالى (قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك
اليوم تنسى)^٣ .

فالنسيان هو : ترك الإنسان ضبط ما استودع إما لضعف قلبه ، وإما عن
غفلة ، وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره .
وكل نسيان ذمه الله تعالى فهو ما كان أصله عن تعمد^٤ .
ونسيان الإنسان لأوامر الله تعالى هو مرادف لقولنا التفريط في الغاية
التي لأجلها أوجد الإنسان إلا أن التفريط قد يكون عن تعمد وإصرار ،
والنسيان قد يكون بسبب الغفلة .

والنسيان المذموم له أسبابه التي تسببه فمنها :

- ١- إهمال الأمر والنهي ، وعدم الاعتناء بهما ، والاستهانة بهما .
 - وهذا يؤدي بالتدرج إلى تركهما بالكلية بل والإعراض عنهما .
 - ٢- البعد عن ذكر الله تبارك وتعالى بكل أنواعه الواجبة والمستحبة .
- فالذكر طمأنينة للقلب ، وطرده للشيطان ، فإذا أهمله الإنسان استولت الغفلة
عليه وتمكن الشيطان منه حتى يستحوذ عليه وينسيه ذكر الله .

(١) الأعراف ١٦٥ .

(٢) الأعراف ٥١ .

(٣) طه ١٢٦ .

(٤) انظر : مفردات الراغب ص ٤٩١ .

قال تعالى (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب
الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون)^١ .

فبين سبحانه أن الشيطان يسبب نسيان ذكر الله لأن الشيطان لا يمكن له
الاستحواذ على الإنسان إلا إذا خلا قلبه عن ذكر الله لذا فهو يسعى جاهداً
لإلهاء الإنسان عن ذلك بما يزينه له من المعاصي وبما يوسوس له من الشرور .
٣- الانجراف وراء زخرف الدنيا ومتاعها الزائل والركون إليها حتى
تكون أكبر هم الإنسان .

فبعض الناس في سعيهم وراء تحصيل متاع الدنيا ينسى الغاية التي لأجلها
خلق ، فيسعى للدنيا كأنه يخلد فيها ، وكأنها غاية ما يتمناه فينسى
الآخرة وبالتالي لا يسعى لها سعيها المطلوب .

قال تعالى (من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد
حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب)^٢ .

وقال تعالى (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم
جعلنا له جهنم يصلها مدموماً مدحوراً) . ومن أراد الآخرة وسعى لها
سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً)^٣ .

فالسعي وراء الدنيا إذا كان هدفاً للإنسان وغاية لا يرجو غيرها فإنه
حينئذ متوعد عليه بالوعيد الشديد الذي في هذه الآية وهو أن مصيره إلى
جهنم .

ويحذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من بعض الأشياء التي تصرفهم عن ذكر
الله ، وتسبب لهم الغفلة والنسيان كالأولاد والأموال حيث يقول تعالى (يا
أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله ومن يفعل
ذلك فأولئك هم الخاسرون)^٤ .

(١) المجادلة ١٩ .

(٢) الشورى ٢٠ .

(٣) الإسراء ١٨ - ١٩ .

(٤) المنافقون ٩ .

ويقول لهم محذراً من الانصراف عن ذكر الله ومبيناً أنّ ما عند الله خير من عرض الحياة الدنيا (وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائماً قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين)^١ .
 فرغبتهم سبحانه أولاً فيما عنده ، وبين لهم أنّ ما عنده خير من اللهو ومن التجارة ، ثم لما كان الإنسان يسعى في حركته لتحصيل الرزق بين أنه تعالى خير الرازقين فلم يسعى المؤمن لغيره وهو بيده خزائن السموات والأرض وهو خير الرازقين ؟

قال القرطبي : (وهو خير الرازقين) أي خير من رزق وأعطى فمنه اطلبوا واستعينوا بطاعته على نيل ما عنده من خيري الدنيا والآخرة^٢ . أهـ
 ٤- الاتكال على عفو الله وصفحه حتى ينسى الإنسان أنه مكلف فيتترك الأمر والنهي .

قال تعالى (فخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيغفر لنا وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه)^٣ الآية .
 فذم سبحانه وتعالى هؤلاء بما كانوا يقترفونه من الإثم وأخذ عرض الدنيا من المكاسب الخبيثة ثم يقولون لا يؤاخذنا الله بما أخذنا وسيغفر لنا وهم مصرون على فعلهم غير تائبين ، وغفران الذنوب لا يصح إلا بالتوبة ، والتوبة لا تكون إلا بالإقلاع عن الذنب^٤ .

فهذا حال اليهود الذين ورثوا الكتاب ، وهو موجود في هذه الأمة كما قال القرطبي رحمه الله^٥ .

(١) الجمعة ١١ .

(٢) القرطبي ١٨ / ٧٨ .

(٣) الأعراف ١٦٩ .

(٤) انظر : الكشاف ٢ / ١٢٨ ، ابن كثير ٢ / ٢٦٠ ، المحرر الوجيز ٢ / ٤٧٢ .

(٥) انظر : القرطبي ٧ / ١٩٨ .

فالالتكال على عفو الله وصفحه مع تضييع أوامره ونواهيه مذموم ، وهو

سبب في نسيان الإنسان الغاية من وجوده .

وإذا أردنا أن نقسم النسيان فإنه يظهر أنه قسمان :

القسم الأول : نسيان دائم

وهو النسيان الذي يحصل ممن استولت عليه الغفلة فحالت بينه وبين

تدارك أمره ، وهو يقع من الكفرة ، ومن انغمس في المعاصي من أهل

الإسلام حتى أهمل الأمر والنهي ولم يكثرث بهما .

وهذا القسم عاقبته وخيمة وفيه وردت آيات التحذير والوعيد .

القسم الثاني : نسيان مؤقت

وهذه الغفلة لا يكاد يسلم منها أحد إلا من عصم الله ، وهي دون

السابقة ، لأنها تحصل للقلب في فترات وتنشع عنه في فترات أخرى ، ولا

تكون مستولية على القلب بحيث تنسيه ذكر الله تماماً .

وصاحب هذه الغفلة يتدارك نفسه في كل مرة تقع منه بأن يرجع ويتوب

وينيب إلى ربه .

قال تعالى (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .)^١ الآية .

ومن هذا القسم النسيان الذي وقع من آدم عليه السلام في قوله

تعالى (ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً)^٢ .

الأسلوب القرآني في معالجة النسيان :

عالج القرآن الكريم قضية النسيان والغفلة من خلال المحاور التالية :

المحور الأول : بيان العواقب الوخيمة للنسيان والغفلة عن ذكر الله .

(١) البقرة ٢٨٦ .

(٢) طه ١١٥ .

جاءت آيات كثيرة تبين أحوال الغافلين وما أصابهم في الدنيا ، وما سيصيبهم في الآخرة .

قال تعالى عن اليهود (فيما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظاً مما ذكروا به . .)^١ الآية .
فاستحقوا اللعنة بسبب ما أقدموا عليه من نقض الميثاق ونسيان ما أمر الله به .

قال ابن كثير : (ونسوا حظاً مما ذكروا به) أي تركوا العمل به رغبة عنه^٢ . أهـ

وقال تعالى عن النصارى (ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظاً مما ذكروا به فأغرينا بينهم العدواة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون)^٣ .

وقال تعالى عن عاقبة الذين نسوا ما ذكروا به من أمر الله في الدنيا (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهاون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون)^٤ .

وقال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين)^٥ .

وقال تعالى عن حالهم يوم القيامة (إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)^٦ .

(١) المائدة ١٣ .

(٢) ابن كثير ٢ / ٣٣ .

(٣) المائدة ١٤ .

(٤) الأعراف ١٦٥ .

(٥) الأنعام ٤٤ — ٤٥ .

(٦) ص ٢٦ .

وقال تعالى (فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا إنا نسيناكم وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون)^١ .

وقال تعالى عن أهل الغفلة (إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون . أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون)^٢ .

المحور الثاني : التشنيع على أهل الغفلة .

قال تعالى (ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسي ما قدمت يداه إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذا أبدا)^٣ .

وقال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)^٤ .

وقال تعالى (من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم . ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين . أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم وأولئك هم الغافلون . لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون)^٥ .

(١) السجدة ١٤ .

(٢) يونس ٧ - ٨ .

(٣) الكهف ٥٧ .

(٤) الأعراف ١٧٩ .

(٥) النحل ١٠٦ - ١٠٩ .

المحور الثالث : ذكر أوصاف أهل الغفلة .

بينت الآيات في المحور السابق صفات أهل الغفلة ، وبينت أنهم لا يستعملون الحواس التي جعلها الله طريقاً للمعرفة والإدراك والتمييز بين الطيب والخبيث والخير والشر ، فهم كالأنعام بل أضل منها لما توفر فيهم من الخصال التي تساعدهم على الإدراك ومع ذلك لم يدركوا بخلاف الأنعام الخالية عن ذلك .

وبين سبحانه أن سبب كفرهم واستحقاقهم لعذاب الله أنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وهنا ندرك كيف يكون حب الدنيا عائقاً للإنسان عن تحقيق الغاية التي خلق لأجلها ، فحب الدنيا قد ينسيه كل شيء ويزج به في حزب الغافلين الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم .

المحور الرابع : بيان العلاج الشافي لهذا الداء ، وهو إدامة ذكر الله في كل الأحوال ، والتفكير في ملكوت الله .

قال تعالى (الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه فقنا عذاب النار)^١ .

وفي هذه الآية بين الله أحوال المؤمنين في ذكر الله تعالى على كل حال قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم فهم لا يغفلون عن ذكر الله .
وبين أنهم استعملوا أدوات الإدراك في الوصول إلى الحقيقة الكبرى وهي توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة ، ومن ثم الخوف منه ومن عقابه ، والرجاء في عفوه ومثوبته بخلاف أهل الغفلة الذين عطلوا تلك الأدوات فاستحقوا دخول جهنم .

(١) آل عمران ١٩١ .

وقال تعالى لنبهه صلى الله عليه وسلم (واذكر ربك إذا نسيت وقل
عسى أن يهدين ربي لأقرب من هذا رشداً)^١ .

وقال تعالى مبيناً حال المتقين (إنَّ الذين اتقوا إذا مسهم طائف من
الشیطان تذكروا فإذا هم مبصرون)^٢ .

قال القرطبي : والمعنى إنَّ الذين اتقوا المعاصي إذا لحقهم شيء تفكروا
في قدرة الله عز وجل وفي إنعامه عليهم فتركوا المعصية^٣ . أهـ

ويبين الله تعالى لجوء المؤمنين وتضرعهم إليه أن يغفر لهم الخطأ
والنسيان الذي قد يقع منهم حيث يقول عنهم (ربنا لا تؤاخذنا إن
نسينا أو أخطأنا)^٤ الآية .

المحور الخامس : التحذير من أسباب الغفلة والنسيان .

قال تعالى (يا أيها الناس إنَّ وعد الله حق فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا
يغرنكم بالله الغرور)^٥ .

وقال تعالى (ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة
الدنيا لفتنتهم فيه ورزق ربك خير وأبقى)^٦ .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن
ذكر الله ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون)^٧ .

(١) الكهف ٢٤ .

(٢) الأعراف ٢٠١ .

(٣) القرطبي ٧ / ٢٢٢ .

(٤) البقرة ٢٨٦ .

(٥) فاطر ٥ .

(٦) طه ١٣١ .

(٧) المنافقون ٩ .

ثالثاً : بعض الصفات في الإنسان التي تمنعه من قبول الهدى .

هناك بعض الصفات التي تمنع الإنسان من قبول الهدى ، ونقصد هنا الصفات الكسبية التي حصلت فيه نتيجة كسبه الخبيث .
فمن هذه الصفات ما يلي :

١- إهمال العقل .

خلق الله الإنسان ، وأعطاه العقل ، وبسط له دلائل وحدانيته في كل شيء ، وأرسل الرسل ليؤكدوا حكم العقل بوجود الخالق ووحدانيته ، ويدلوا الناس على ما يرضي الله ، ويبينوا لهم ما يسخطه ، وأقام الأدلة القاطعة على صدقهم ليستدل الإنسان بعقله على صدق الرسل ، ولكن الإنسان قد يعطل تلك الملكة التي وهبها الله إياها وميزه بها عن غيره فلا يعمل نظره وفكره في دلائل الوحدانية ، أو في دلائل صدق نبوة الأنبياء ، أو التفكر في عواقب الذنوب والمعاصي فيكون ذلك سبب هلاكه كما قال تعالى (ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون)^١ .

فلو استخدم الإنسان عقله وتفكر وتدبر لوصل إلى الحق ، وإذا أهمله فلم ينظر ولم يتفكر وقع فريسة سهلة للشهوات والشبهات التي قد ترديه وتهلكه .

ومن كانت هذه حاله فإنه إما يزيغ عن الطريق المستقيم فيكفر بالله العظيم ، وإما أن يعبد الله لكن على حرف كما قال تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين)^٢ .

(١) الأعراف ١٧٩ .

(٢) الحج ١١ .

٢- الهوى .

قال الراغب : الهوى ميل النفس إلى الشهوة ، ويقال ذلك للنفس المائلة إلى الشهوة ، وقيل سمي بذلك لأنه يهوي بصاحبه في الدنيا إلى كل داهية^١ . اهـ

وقد يصل الإنسان إلى الحق ولكن يحول بينه وبين قبوله الهوى الذي هو أكبر العوائق عن قبول الحق .

وقد ورد ذم الهوى والتحذير منه في مواضع من كتاب الله منها :

قوله تعالى (ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله . .)^٢ الآية .

وفي هذا تشنيع على من اتبع الهوى .

وقال تعالى محذراً من إتباع الهوى (فلا يصدنك عنها من لا يؤمن بها

واتبع هواه فتردى)^٣ .

وقال تعالى (فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا . .)^٤ الآية .

وقال ناهياً عن إطاعة أهل الهوى فيما يقولون (ولا تطع من أغفلنا

قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً)^٥ .

وقال تعالى (ولا تتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا . .)^٦ الآية .

وسمى الهوى إلهاً ، وجعل من اتبع هواه فقد جعله إلهاً له

من دون الله فقال تعالى (أفأرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله

على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من

بعد الله أفلا تذكرون)^٧ .

فإتباع الهوى سبب في الختم على القلب والسمع وجعل الغشاوة على

البصر بحيث لا يدرك الإنسان الحق وإن أدركه لا يستجيب له .

(١) مفردات الراغب ص ٥٤٨

(٢) القصص ٥٠ .

(٣) طه ١٦ .

(٤) النساء ١٣٥ .

(٥) الكهف ٢٨ .

(٦) الأنعام ١٥٠ .

(٧) الجاثية ٢٣ .

٣- الكبر والعلو في الأرض .

وهذا من الأمور التي تحول بين الإنسان وبين قبوله للحق وتحقيقه للغاية التي من أجلها خلق .

قال تعالى عن فرعون وملائته (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)^١ .

فهم قد تيقنوا بصدق موسى عليه السلام وأن ما جاء به ليس من قبيل السحر الذي عهدوه ولكنهم جحدوا بها بسبب الظلم والعلو في الأرض .

وقال تعالى عن الكافرين (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)^٢ .

فبين سبحانه أن دلائل صدقه صلى الله عليه وسلم معروفة عندهم وهم لم يكونوا يتهمونه بالكذب ولكن الظلم والعلو في الأرض والآفات الأخرى التي تتحكم بهم هي التي تجعلهم ينكرون النبوة .

وقد توعد الله الذين استكبروا بأن مصيرهم النار .

قال تعالى (والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون)^٣ .

وقال تعالى (وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذاباً أليماً ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً)^٤ .

وقال تعالى (فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض

(١) النمل ١٤ .

(٢) الأنعام ٣٣ .

(٣) الأعراف ٣٦ .

(٤) النساء ١٧٣ .

بغير الحق وبما كنتم تفسقون) ^١ .

وقال تعالى (ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصبر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين . من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء وهم عذاب عظيم) ^٢ .

٤- التعصب للأبء والأجداد .

وقد بين سبحانه وتعالى أن كثيراً من الأمم التي كذبت رسلها قد احتجت بمخالفة دعوة الرسل لمذهب الأبء والأجداد .

قال تعالى (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون . وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون . قال أولو جنتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون) ^٣ .

٥- الحسد .

وهذه الصفة قد تكون عائقاً عن قبول الحق والخضوع لأمر الله تعالى حتى ولو قامت الأدلة على صحة دعوة الرسول .

وقد أخبر الله عن اليهود والنصارى بأنهم يودون أن يرتد المسلمون عن دينهم بسبب الحسد القائم في نفوسهم ، قال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق .) ^٤ الآية .

(١) الأحقاف ٢٠ .

(٢) الجاثية ٧ - ١٠ .

(٣) الزخرف ٢٢ - ٢٤ .

(٤) البقرة ١٠٩ .

وقال تعالى (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن
 ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله
 ذو الفضل العظيم)^١ .

الخلاصة :

إنّ ما يعترى الإنسان من عوامل الضعف الإنساني تجاه الشهوات ، وما
 يحصل له من الضعف بسبب قصور التفكير من العوامل الرئيسية في
 انصراف الإنسان عن الغاية التي لأجلها خلق وهي عبادة الله .

وقد جاء القرآن الكريم بالبيان الشافي لتلك الأمراض التي تعوق
 الإنسان عن تحقيق تلك الغاية ، وبين أسبابها وعواقبها في الدنيا والآخرة
 وحذر منها ، وقص علينا القصص ، وضرب لنا الأمثال ولكن لا ينتفع
 بذلك إلا العالمون كما قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها
 إلا العالمون)^٢ .

وكل هذا من أجل أن تنقطع الحجة على الإنسان فلا يبقى له عذر
 على الكفر .

(١) البقرة ١٠٥ .

(٢) العنكبوت ٤٣ .

المطلب الثاني : النفس الأمارة بالسوء

من العوائق التي تعوق الإنسان عن أداء العبادة لله تبارك تعالى النفس الأمارة بالسوء ، وهي التي تأمر صاحبها بالسوء^١ .

وقد جاء ذكرها في قول الله تعالى في قصة يوسف (وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي)^٢ الآية .

ويلاحظ أن الوصف هنا للنفس جاء بصيغة المبالغة (أمارة) مما يدل على كثرة وقوع ذلك منها^٣ .

والله سبحانه وتعالى لما خلق الإنسان اقتضت حكمته أن يخلق فيه دواعي الخير ودواعي الشر ، وجعله قادراً على توجيه نفسه إلى أحد السبيلين ، وأعاناه على سلوك درب الخير بأن بين له فوائده في الدنيا والآخرة ، فحثه عليه ورغبه فيه وبين له حسنه ، وحذره من طريق الشر ونهاه عنه وبين له قبحه كي يفوز برضا الله وينجو من سخطه .

ولكن الإنسان قد يغفل عن ذلك ويستجيب لدواعي الشر في نفسه فيكون بذلك خالف أمر الله واتبع ما يسخطه ، والنفس تحب الشهوات ولذلك تدعو إليها بدافع الطبع ، وإنما يلجمها ويمنعها عن مقارفتها العقل السليم الذي يعرف مصلحتها عن طريق الشرع الحنيف .

والنفس الأمارة بالسوء ربما احتالت على العقل وعلى الضمير مستغلة شيئاً من تهاونهما فحقت أغراضها عن طريق تقديم مبررات مغلوطه لأفعالها ، أو عن طريق الالتفاف في ظاهر الأمر بما لا يباه العقل والضمير ومن ثم قد يصنع الإنسان عملاً يحسب أنه لا ضير منه في حين تكون نفسه الأمارة بالسوء قد أنفذت غرضها من خلاله ، وهذا يحتاج من الإنسان إلى تنبه شديد

(١) انظر : الكشاف ٢ / ٣٢٦ .

(٢) يوسف ٥٣ .

(٣) انظر : نصوص قرآنية في النفس البشرية للدكتور / عز الدين إسماعيل ص ١٧٩ .

إلى نفسه ، وإلى محاسبة بين الحين والآخر ^١ .

قال ابن القيم رحمه الله : وأما النفس الأمّارة فهي المذمومة التي تأمر بكل سوء ، وهذا من طبيعتها إلا ما وفقها الله وثبتها وأعانها ، فما تخلص أحد من شر نفسه إلا بتوفيق الله له ^٢ . أهـ

وقال رحمه الله : وقد امتحن الله سبحانه الإنسان بهاتين النفسين الأمّارة واللوامة ، كما أكرمها بالمطمئنة ، فهي في نفس واحدة تكون أمّارة ثم لوامة ثم مطمئنة وهي غاية كمالها وصلاحتها ، وأيد المطمئنة بجنود عديدة فجعل الملك قرينها وصاحبها الذي يليها ويسددها ويقذف فيها الحق وبرغبتها فيه ويربها حسن صورته ، ويزجرها عن الباطل ويزهدها فيه ويربها قبح صورته ، وأما النفس الأمّارة فجعل الشيطان قرينها وصاحبها الذي يليها ، فهو يعدها ويمنيها ويقذف فيها الباطل ، ويأمرها بالسوء ويزينه لها ، ويطيل في الأمل ، ويربها الباطل في صورة تقبلها وتستحسنها ^٣ . أهـ

فالإنسان يعيش معركة شديدة بين دواعي الخير ودواعي الشر فأبما وجدت أسبابه انتصر وسيطر .

وأسباب انتصار الخير التمسك بهدي الله وبدينه وشرعه ، فإذا كان الإنسان كذلك عجز الشر من التمكن منه ، وإن ظفر به بعض في الأحوال لكن ذلك لا يدوم إذ سرعان ما يرجع الإنسان عن أسباب الشر ويتوب وينيب إلى الله تعالى .

وانتصار الشر يكون بالتخاذل عن دين الله وشرعه وترك العمل به فيقوى جانب الشر ويسيطر على الإنسان حتى يتمكن منه ويكون الغالب عليه .

(١) انظر: نصوص قرآنية في النفس الإنسانية ص ١٨٠ .

(٢) الروح ص ٣٠٣ .

(٣) الروح ص ٣٠٣ — ٣٠٤ ، باختصار .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ولما كان جهاد أعداء الله في الخارج فرعاً على جهاد العبد نفسه في ذات الله — كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه — كان جهاد النفس مقدماً على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له ، فإنه ما لم يجاهد نفسه أولاً لتفعل ما أمرت به وتترك ما نهيت عنه ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج ، فكيف يمكنه جهاد عدوه والانتصار منه وعدوه الذي بين جنبيه قاهر له متسلط عليه لم يجاهده ولم يحاربه في الله ، بل لا يمكنه الخروج إلى عدوه حتى يجاهد نفسه على الخروج .^٢ أهـ

فبين رحمه الله أن النفس تحتاج إلى جهاد حتى تستقيم على طريق الحق وتذعن له وإذا تمكن الإنسان من الانتصار على نفسه انقادت له يوجهها إلى طريق الخير كيف شاء ، والعكس بالعكس .

وبين رحمه الله مراتب جهاد النفس حيث يقول : فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً :

إحداها : أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها ولا

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٦ / ٢١ من طريق علي بن إسحاق قال ثنا عبد الله قال انا ليث قال أخبرني أبو هانئ الخولاني عن عمرو بن مالك الجبني قال حدثني فضالة بن عبيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحجة الوداع : ألا أخبركم بالمؤمن . . . فذكره . وهذا إسناد حسن .

فعلي بن اسحاق : هو السلمي ثقة . التقريب ٢ / ٣٢ ، التهذيب ٧ / ٢٤٩ .
وعبد الله : هو ابن المبارك ثقة ثبت فقيه عالم . التقريب ١ / ٤٤٥ ، التهذيب ٥ / ٣٣٥ .
وليث : هو ابن سعد ثقة ثبت فقيه إمام مشهور . التقريب ٢ / ١٣٩ .
و أبو هانئ الخولاني : هو حميد بن هانئ لا بأس به . التقريب ١ / ٢٠٤ ، التهذيب ٣ / ٤٥ .
وعمر بن مالك الجبني : ثقة . التقريب ٢ / ٧٧ ، التهذيب ٨ / ٨٤ .
وفضالة بن عبيد : صحابي . التقريب ٢ / ١٠٩ .
وصححه الحاكم ١ / ١١ ، ووافقه الذهبي .
(٢) زاد المعاد ٣ / ٦ .

سعادة في معاشها ومعادها إلا به ، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين .

الثانية : أن يجاهدها على العمل به بعد علمه ، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها .

الثالثة : أن يجاهدها على الدعوة إليه ، وتعليمه من لا يعلمه وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله من الهدى والبيانات ولا ينفعه علمه ولا ينجيه من عذاب الله .

الرابعة : أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله .

فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين ، فإن السلف مجتمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانياً حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيماً في ملكوت السماوات^١ . أهـ
وقد بين الله سبحانه وتعالى أن نهي النفس عن الهوى الذي تدعو إليه سبب في استحقاق الجنة حيث قال (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى)^٢ .

فالأسلوب القرآني في معالجة النفس الأمارة بالسوء يتلخص في النقاط التالية :

أولاً : الدعوة إلى التمسك بهدى الله تعالى وتحقيق الغاية التي خلق الإنسان لأجلها وهي العبادة ، ذلك لأن العبادة سبب زكاة النفوس والغرض منها تطهير النفس و اجتلاب صحتها .

قال تعالى (ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها . قد أفلح من زكاها . وقد خاب من دساها)^٣ .

(١) زاد المعاد ٣ / ١٠ .

(٢) النازعات ٤٠ - ٤١ .

(٣) الشمس ٧ - ١٠ .

وقال تعالى (قد أفلح من تركى • وذكر اسم ربه فصلى)^١ •

قال الراغب رحمه تعالى : لم يكلف الله الناس عبادته لينتفع هو تعالى بها انتفاع المولى باستعباد عبيده واستخدام خدمه فإنَّ الله غني عن العالمين ، ولا ليؤذيهم فقد قال (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ، بل كلفهم ليزيل أنجاسهم وأمراضهم النفسانية فبذلك يمكنهم أن يُحصلوا حياة أبدية وسلامة باقية^٢ . أهـ

ثانياً : الدعوة إلى مجاهدة النفس في الله لتترك أهواءها وتستقيم على دين الله كما قال تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى • فإنَّ الجنة هي المأوى) •

ثالثاً : بيان عاقبة تلك المجاهدة وذلك النهي وهي الجنة كما في الآية

السابقة •

رابعاً : بيان عاقبة من اتبع نفسه هواها وآثر الحياة الدنيا على الآخرة كما

قال تعالى (فأما من طغى • وآثر الحياة الدنيا • فإنَّ الجحيم هي المأوى)^٣ وإيثار الحياة الدنيا يكون بإتباع الهوى وعدم نهي النفس عنه •

(١) الأعلى ١٤ — ١٥ •

(٢) تفصيل النشأتين ص ١٦٥ •

(٣) النازعات ٣٧ — ٣٩ •

المبحث الثاني
المعوقات الخارجية

وفيه مطلبان :

- المطلب الأول : الشيطان وأتباعه من الجن
- المطلب الثاني : شياطين الإنس

المطلب الأول الشیطان وأتباعه من الجن

للإنسان أعداء يتربصون به من الخارج غايتهم إخراج الإنسان من طريق الهداية إلى الغواية ، أو من النور إلى الظلمات كما هو تعبير القرآن الكريم .
 وهم يسلكون كافة السبل في سبيل تحقيق غايتهم وأسلحتهم التي يستخدمونها لذلك هي الشهوات والشبهات .
 وهؤلاء الأعداء في غاية الخطر على الإنسان ، ولذلك جاء القرآن الكريم بالتحذير منهم ، وفضح نواياهم الخبيثة كما سيتضح إن شاء الله .
 إن هؤلاء الأعداء هم شياطين الجن والإنس ، وهما حزب واحد وسأتكلم في هذا المطلب عن شياطين الجن ، وفي المطلب الثاني عن شياطين الإنس .

وسأجعل الكلام عن شياطين الجن في النقاط التالية :

النقطة الأولى : من هو الشيطان ؟

الشيطان في اللغة : هو كل عات متمرّد من الجن والإنس والدواب ، وتشيطان الرجل إذا صار كالشيطان وفعل فعلهم ^١ .
 الشيطان المقصود هنا : هو إبليس اللعين الذي عصى ربه واستكبر عن أمره عندما أمره بالسجود لآدم عليه السلام .
 وهو من الجن كما جاء التصريح بذلك في القرآن الكريم حيث قال الله تعالى (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه . .) ^٢ الآية .
 وقد اختلف أهل العلم في هذه المسألة هل كان من الجن أم من الملائكة ^٣ ؟
 والراجح أنه من الجن لأمر منها :

الأول : أن القرآن الكريم نص على أنه من الجن ، وهو نص في محل

(١) انظر : لسان العرب ٧ / ١٢١ ، القاموس المحيط ص ١٥٦١ مادة شطن .

(٢) الكهف ٥٠ .

(٣) انظر : ابن جرير ١٥ / ٣٢٢ ، الكشاف ٢ / ٤٨٨ ، القرطبي ١ / ٢٠٢ ، أضواء

البيان ٤ / ١٣١ - ١٣٢ .

التراع ، ولو كان من الملائكة لما قال إنه من الجن بل لقال إنه من الملائكة لما في ذلك من اللبس الشديد ، فإن لفظ الجن لا يطلق إلا على المخلوقات المعروفة التي خلقت من نار ، ولو كان في الملائكة قبيلة تدعى الجن — كما قال البعض — ليُن ذلك في القرآن الكريم أو في السنة حتى يزول اللبس عن ظاهر الآية .

الثاني : أن القرآن بين أن إبليس خلق من نار ، وأنه افتخر على آدم بذلك ، والجن هم المخلوقون من النار ، أمّا الملائكة فهم مخلوقون من النور ، كما أخبر بذلك الصادق المصدوق حيث يقول : خلقت الملائكة من نور ، وخلق الجن من مارح من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم^١ .

فالحديث واضح جداً في التفريق بين الأجناس الثلاثة .

الثالث : أن الملائكة لا تعصي الله تبارك وتعالى ، بل يفعلون ما يؤمرون كما دلت على ذلك نصوص الوحي .

قال تعالى (لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون)^٢ .

الرابع : أن الله تعالى أثبت له ذرية ، والملائكة لا يعلم أن لها ذرية^٣ .

قال تعالى (أفستخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلاً)^٤ .

وأما من احتج بالاستثناء في قول الله تعالى (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس لم يكن من الساجدين) ، فالاستثناء هنا منقطع ، وهذا معلوم وواقع في اللسان العربي ، أو يقال لأنه كان جنياً واحداً بين أظهر الألو ف من الملائكة مغموراً بهم فغلبوا عليه فسجدوا ثم استثنى منهم استثناء

(١) أخرجه مسلم في الزهد ، باب في أحاديث متفرقة ٤ / ٢٢٩٤ ، حديث رقم ٢٩٩٦ .

(٢) التحريم ٦ .

(٣) انظر : الرازي ١٠ / ٣٣٠ .

(٤) الكهف ٥٠ .

واحدٍ منهم كما قال الزمخشري^١ .

والشيطان هو العائق الأكبر للإنسان في طريقه إلى ربه و في تحقيقه للغاية من خلقه ، وهو أخطر العوائق على الإطلاق ، لما يمتلكه من أساليب المكر والدهاء والخداع ، وهو مع ذلك متسلح بالخفاء لا يشعر به ولا يُنفطن إليه .

وهو أخطر من النفس الأمارة بالسوء ، ولذلك اعتنى القرآن الكريم بذكره أكثر مما اعتنى بذكرها .

قال ابن القيم : ومن تأمل القرآن و السنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيدته ومحاربتة أكثر من ذكر النفس ، فإنّ النفس المذمومة ذكرت في قوله تعالى (إنّ النفس لأمارة بالسوء) ، واللوامة في قوله (ولا أقسم بالنفس اللوامة) ، وذكرت النفس المذمومة في قوله (ونهى النفس عن الهوى) ، وأما الشيطان فذكره في عدة مواضع ، وأفردت له سورة تامة ، فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره منها ، وهذا الذي لا ينبغي غيره ، فإنّ شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته ، فهي مركبه وموضع شره ومحل طاعته^٢ . أهـ

النقطة الثانية : بداية العدواة

تظهر نصوص السنة النبوية أنّ إبليس لعنه الله قد أضمر العدواة للإنسان منذ ظهوره ، حيث قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لما صور الله آدم في الجنة تركه ما شاء الله أن يتركه فجعل إبليس يطيف به ينظر ما هو ، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقاً لا يتمالك^٣ .

و قد أخرج ابن جرير عن ابن عباس حديث خلق آدم الطويل وفيه :

(١) انظر : الكشف ١ / ٢٧٣ .

(٢) إغاثة اللهفان ١ / ١٠٧ .

(٣) سبق تخرجه ص ١٤٤ .

فمكث أربعين ليلةً جسداً ملقى ، وكان إبليس يأتيه فيضربه برجله فيصلل — أي فيصوت — فهو قول الله تعالى (من صلصال كالفخار) يقول كالشئ المنفوخ الذي ليس بمصمت ، قال : ثم يدخل في فيه ويخرج من دبره ، ويدخل من دبره ويخرج من فيه ، ثم يقول : لست شيئاً — للصلصلة — ولشئ ما خلقت ، ولئن سلطت عليك لأهلكنك ، ولئن سلطت عليّ لأعصينك . . . الحديث ^١ .

فهذه النصوص تفيد أن الحسد دب في قلب إبليس من قبل أن يؤمر بالسجود له ، فلما أمر بالسجود له أظهر ما كان مستتراً في قلبه فأبى أن يسجد ، فعاقبه الله بلعنه وطرده من الجنة ، وتوعده بالنار فزاده ذلك غيظاً وحنقاً ، فطلب من الله الإمهال إلى يوم القيامة لكي يضل آدم وذريته .
وقد سبق ذكر الآيات التي دلت على هذه العداوة في قصة آدم عليه السلام .

وهذه الآيات تبين مدى الحسد والحقد الذي بلغ بإبليس حتى إنه وقف نفسه على إضلال بني آدم بشئ الوسائل والأساليب ، وتوعد بإغواء أكثر ذرية آدم عليه السلام لمعرفته بمواطن الضعف في النفس البشرية ، فأطلق ذلك التحدي لغلبة ظنه أنه يستطيع ذلك ، فإنه لما وجد آدم ضعيف العزم قد أصغى إلى وسوسته قال إن ذريته أضعف عزماً منه فظن بهم اتباعه ^٢ .

(١) أخرجه ابن جرير ١ / ٢٩٠ من طريق أبو كريب قال : حدثنا عثمان بن سعيد قال :

حدثنا بشر بن عمارة عن أبي روق عن الضحاك عن ابن عباس .

قال السيوطي في الإتقان ٢ / ١٢٣٢ عن هذه الطريق : وطريق الضحاك بن مزاحم عن ابن

عباس منقطعة فإن الضحاك لم يلقه ، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة عن أبي روق عنه

فضعيفة لضعف بشر . اهـ

وقال ابن كثير عن هذا الحديث : هذا سياق غريب ، وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها ،

وهذا الإسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور . اهـ انظر : تفسير ابن كثير ١ / ٧٦ .

(٢) انظر : الكشاف ٣ / ٢٨٦ .

وقد أخبر الله تعالى أن ظن إبليس قد تحقق في البشر فقال (ولقد صدق

عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقاً من المؤمنين)^١

النقطة الثالثة : سلطان إبليس وكيد

أخبر الله تعالى أن كيد الشيطان ضعيف حيث قال (إن كيد الشيطان

كان ضعيفاً)^٢

وهذا من حكمة الله البالغة ، إذ لو كان كيد الشيطان قوياً لما استطاع
الإنسان مقاومة هذا الكيد ، ولكان بذلك معذوراً في فعل المعاصي إذ هو
متعرض لما لا طاقة له به .

وقد يرد على البعض أن الشيطان تمكن من إغواء أمم من الناس كثيرة
وهذا يدل على عظم كيد ومكره فكيف توجه الآية الكريمة ؟

والجواب عن هذا الإشكال من أوجه :

الوجه الأول : أن الشيطان لا يمتلك من الحجج والبراهين الصادقة ما

يمكنه من إغواء الإنسان عن طريق الإقناع والحجة .

وغاية ما يفعله أن يزين لهم الباطل ويغريهم بالشهوات ويدعوهم إلى

ذلك دعاءً مجرداً عن السلطان والحجة .

وقد أخبر الله تعالى عما سيقوله إبليس لأتباعه يوم القيامة حيث قال

(وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم

فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي

فلا تلموني ولو موأ أنفسكم)^٣ الآية .

(١) سبأ ٢٠ ، وانظر في ذلك : ابن جرير ٢٢ / ١٠٦ ، الكشاف ٣ / ٢٨٦ ، أضواء البيان

٣ / ١٣١ .

(٢) النساء ٧٦ .

(٣) إبراهيم ٢٢ .

فالسُّلطان في هذه الآية هو الحجة والبرهان كما ذكر أهل العلم^١ .

الوجه الثاني : أن الشيطان وإن كان عظيم المكر والدهاء شديد الإغواء إلا أن الله قد فضحه في القرآن الكريم ، وبين عداوته لبني آدم وتربصه بهم ، وحذرهم منه أشد التحذير ، فضَعَف كيده لفضح هدفه وغايته ، وضعف كيده لأجل كشف أسلحته وطرقه ، وضعف كيده لبيان الله تعالى كيفية النجاة منه ، فأصبح كيده مفضوحاً وغايته مكشوفة والنجاة من شره معلومة .

الوجه الثالث : أن كيد الشيطان في مقابلة كيد الله تعالى ضعيف ، فالله يكيد للمؤمنين ، والشيطان يكيد للكافرين ، وشتان بين الكيدين ، فكم نصر الله المؤمنين بكيده ، وكم خذل الشيطان أتباعه بكيده وأوردهم المهالك .

قال تعالى (ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون)^٢ فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أننا دمرناهم وقومهم أجمعين^٣ .

وقال تعالى (وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأחסرين)^٤ .

وقال تعالى (أم يريدون كيداً فالذين كفروا هم المكيدون)^٥ .

وقال تعالى (إنهم يكيدون كيداً ، وأكيد كيداً ، فمهمل الكافرين أمهلهم رويداً)^٥ .

الوجه الرابع : أن كيد الشيطان ضعيف بالنسبة لما ترسخ في قلوب المؤمنين من الإيمان العميق بالله تعالى ومعرفته ، ولما علموه من عداوة الشيطان الشديدة لهم وتربصه بهم .

(١) انظر : ابن جرير ١٣ / ٢٦٢ ، القرطبي ٩ / ٢٣٤ ، المحرر الوجيز ٣ / ٣٣٣ .

(٢) النمل ٥٠ — ٥١ .

(٣) الأنبياء ٧٠ .

(٤) الطور ٤٢ .

(٥) الطارق ١٥ — ١٧ .

أما بالنسبة للكافرين فهو قوي الكيد ، قوي الحجّة والسلطان كما أخبر الله تعالى حيث قال (إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين)^١ .

وقال تعالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون)^٢ . إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون)^٣ .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في قوله تعالى (إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا) قال مجاهد وعكرمة والمفسرون : ليس له حجة .

والصواب أن يقال : ليس له طريق يتسلط به عليهم ، لا من جهة الحجّة ، ولا من جهة القدرة ، والقدرة داخلة في مسمى السلطان ، وإنما سميت الحجّة سلطاناً لأن صاحبها يتسلط بها تسلط صاحب القدرة بيده ، وقد أخبر سبحانه أنه لا سلطان لعدوه على عباده المخلصين المتوكلين^٤ . أهـ

فيظهر مما سبق أن الشيطان لا يملك في الأصل طريقاً على ابن آدم ، ولكن ابن آدم نفسه قد يجعل للشيطان سلطاناً عليه ، وذلك إذا استمع لما يلقيه إليه ، وأطاعه فيما يدعوا إليه من الكفر بالله وغير ذلك من المعاصي ، فإذا فعل ذلك تمكن الشيطان منه واستلم زمامه فهو يقوده إذ ذاك إلى الكفر ويؤزّه إليه كما قال تعالى (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزّهم أزاً)^٥ .

أي تغريهم إغراءً وتشليهم إشلاءً كما نقل عن ابن عباس وغيره^٥ . قال ابن القيم في هذه الآية : فهذا من السلطان الذي له على أوليائه

(١) الحجر ٤٢ .

(٢) النحل ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) إغاثة اللفهان ١ / ١١٦ .

(٤) مريم ٨٣ .

(٥) انظر : ابن جرير ١٦ / ١٥٦ - ١٥٧ .

وأهل الشرك ، ولكن ليس له على ذلك سلطان وحجة وبرهان ، وإنما استجابوا له بمجرد دعوته له لما وافقت أهوائهم وأغراضهم ، فهم الذين أعانوا على أنفسهم ومكنوا عدوهم من سلطانه عليهم بموافقته ومتابعته ، فلما أعطوا بأيديهم و استأسروا له سلط عليهم عقوبة لهم ^١ . أهـ

النقطة الرابعة : أسلوب الشيطان ، ووسائله لإغواء الإنسان

توعد إبليس اللعين بإغواء بني آدم وجرهم معه إلى النار حقداً منه عليهم ، وبين اللعين أنه سيقعد لهم صراط الله المستقيم قال تعالى عنه (قال فما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم • ثم لا آتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمائلهم ولا يجد أكثرهم شاكرين) ^٢ .

قال ابن جرير في قوله (لأقعدنّ لهم • •) : لأجلسنّ لبني آدم صراطك المستقيم يعني : طريقك القويم ، وذلك دين الله الحق وهو الإسلام وشرائعه • وإنما معنى الكلام : لأصدنّ بني آدم عن عبادتك وطاعتك ولأغوينهم كما أغويتني ولأضلنهم كما أضلتني ^٣ . أهـ

ثم قال عن قوله (ثم لا آتينهم • •) : وأولى الأقوال عندي بالصواب قول من قال : معناه ثم لا آتينهم من جميع وجوه الحق والباطل فأصدهم عن الحق وأحسن لهم الباطل ، وذلك أنّ ذلك عقيب قوله (لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم) فأخبر أنه يقعد لبني آدم على الطريق الذي أمرهم الله أن يسلكوه ، وهو ما وصفنا من دين الله الحق ، فيأتيهم في ذلك من الوجه الذي أمرهم الله به فيصدهم عنه ، وذلك من بين أيديهم وعن أيمنهم ، ومن الوجه الذي نهاهم الله عنه فيزيهه لهم ويدعوهم إليه وذلك من خلفهم وعن شمائلهم ،

(١) إغاثة اللهفان ١ / ١١٩ •

(٢) الأعراف ١٦ — ١٧ •

(٣) ابن جرير ٨ / ١٧٦ •

وقيل : ولم يقل (من فوقهم) لأن رحمة الله تترل على عباده من فوقهم^١ . أهـ

فالشيطان يسلك كافة الاتجاهات التي توقع الإنسان في معصية الله ، فلا يدع أمراً إلا وحاول أن يضل الإنسان عن الصواب فيه .
وفي هذا المعنى يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام فقال : تسلم وتذر دينك ودين آباءك و آباء آبائك ؟ فعصاه فأسلم .

ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : تهاجر وتذر أرضك وسمائك ، وإنما مثل المهاجر كمثل الفرس في الطول^٢ ؟ فعصاه فهاجر .
ثم قعد له بطريق الجهاد فقال : تجاهد فهو جهد النفس والمال ، فتقاتل فتقتل فتتكح المرأة ويقسم المال ؟ فعصاه فجاهد .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن فعل ذلك كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، ومن قُتل كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، قال : وإن عرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة^٣ .

(١) السابق ٨ / ١٨١ .

(٢) في سنن النسائي (الطور) ، والتصويب من مسند أحمد و ٣ / ٤٨٣ ، وابن جرير

١٧٧ / ٨ .

(٣) أخرجه النسائي في السنن الكبرى في كتاب الجهاد ، باب ما لمن أسلم ثم هاجر وجاهد

٣ / ١٥ ، حديث رقم ٤٣٤٢ ، من طريق إبراهيم بن يعقوب حدثنا أبو النضر هاشم بن

القاسم حدثنا أبو عقيل عبد الله بن عقيل حدثنا موسى بن المسيب عن سالم بن أبي الجعد عن

سيرة بن أبي الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : . . . فذكره .

وهذا إسناد حسن .

فإبراهيم بن يعقوب : هو الجوزجاني ثقة حافظ . التقريب ١ / ٤٧ .

وهاشم بن القاسم : هو ابن مسلم ثقة ثبت . التقريب ٢ / ٣١٤ .

فبين النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن الشيطان يقعد للإنسان في كل طرق الخير ، يريد أن يصدّه عنها بذكر ما قد يصيب الإنسان من المشاكل بسبب سلوكه ذلك الطريق ، ولكن المؤمن إذا أوى وعصاه فإن الله تعالى سيكافأه بإدخاله الجنة ، وبإثابته عن كل جهد يتعرض له في ذلك السبيل ، حتى العرق الذي يعرقه .

وهناك وسيلتان خطيرتان ينفذ بهما الشيطان إلى الإنسان وهما الشهوات والشبهات .

فالشهوات كثيرة ، ومنافذها شتى كالغضب ، والشهوة الجنسية ، والحسد ، والحرص ، الطمع ، والعجلة ، والأموال وغير ذلك من الأمور التي يكون الدافع لها الشهوة سواءً للمال أم للنساء أم لغير ذلك . وقد فصل العلماء الذين كتبوا في علم السلوك ذلك كما فعل الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين)^١ .

وأما الشبهات فهي وسيلة خطيرة ، و مزلق خطير زلقت فيه أقدام كثيرة ، وهي أخطر من الشهوات ، لأن الشهوات غايتها أن تكون كبيرة من الكبائر ، أما الشبهة فإنها قد تؤدي بصاحبها إلى الكفر .
و الشبهات : هي ما يلقيه الشيطان في قلوب الناس من أمور تشتهه على

= وعبد الله بن عقيل : صدوق من الثامنة . التقريب ١ / ٤٣٤ .

وموسى بن المسيب : صدوق من السادسة . التقريب ٢ / ٢٨٨ .

وسالم بن أبي الجعد : ثقة وكان يرسل كثيراً . التقريب ١ / ٢٨٨ .

وقد صحح العراقي إسناد هذا الحديث فقال في المغني : أخرجه النسائي من حديث سيرة بن

الفاكه بإسناد صحيح . اهـ — انظر المغني عن حمل الأسفار في الأسفار ٣ / ٣٢ .

وصححه الألباني في صحيح الجامع ١ / ٧٢ — ٧٣ .

والحديث أخرجه أحمد في المسند ٣ / ٤٨٣ ، وابن حبان في صحيحه كما في الإحسان

٧ / ٥٧ .

(١) انظر : إحياء علوم الدين للغزالي ٣ / ٣٥ — ٤٠ .

بعض الناس تسبب له اضطراباً في الاعتقاد .

وقد بين لنا النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً لما يلقيه الشيطان من الشبهات على ابن آدم حيث قال عليه الصلاة والسلام : يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله ولينتهي .^١

فها هو اللعين يريد أن يززع الإنسان عن عقيدة الإيمان بالله الراسخة في نفسه بموجب الفطرة وبموجب العلم الذي جاء به الأنبياء ، فأتاه بمقدمة تثبت أن لكل شيء خالقاً ، ثم عطف على هذه المقدمة بسؤاله الخبيث عن خالق الخالق حتى يقع الإنسان في البلبلة والاضطراب .

وهكذا يدخل له في أمور الغيب فيشككه في الجنة والنار والبعث والحساب ليشطه عن عمل الخير ، ويرغبه في فعل المعاصي والآثام .

والمؤمن يستطيع دفع هذه الشبهات عن نفسه ولا تؤثر فيه لمكان الإيمان منه ، أمّا من كان في قلبه شك ، أو في إيمانه ضعف فإنه قد ينحرف وراء تلك الشبهات ، وتؤثر فيه وتسبب له اضطراباً في الاعتقاد .

والشيطان لا يهمله قوة الشبهة من ضعفها ، وإنما حسبه أن تكون مدخلاً لزعزعة الإيمان ، وسيجد من يصغي له ويتأثر به .

وخطورة الشبهات تكمن في صعوبة الرد عليها ، إمّا لحفائها أو لقلة علم السامع لها ، فإنه قد يستوعب الشبهة ولا يفقه الرد ، فتبقى الشبهة في نفسه ويقوى تأثيرها ، فالشبهة قد يدركها كل أحد وأمّا الرد فلا يدركه كل أحد .

فالشبهة لا تؤثر إلا في قلب الجاهل ، وأمّا العالم بالله فلا تؤثر فيه

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ، باب صفة إبليس و جنوده ٦ / ٢٣٦ ، حديث رقم

الشبهات ، لأنّ عنده القواعد العامة لرد الشبهات ، فأى شبهة تطرأ عليه دفعها بما عنده من العلم ، لأن الشبهة عادة ما تكون مبنية على أساس غير صحيح فإذا عرف هذا الأساس اندفعت الشبهة بسهولة ، وإن لم يدرك العالم الرد عليها نبذها و ركن إلى إيمانه العميق بالله ، وردّ المتشابه إلى المحكم ، وفوض الأمر لله .

أما الجاهل فالشبهة تتمكن منه ، ولجهله قد لا يدرك ولا يفقه ما يقوله أهل العلم في الرد عليها فتبقى الشبهة في نفسه .

وعلاج الشبهات يكون بالالتجاء إلى الله تعالى ، والاستعاذة به من شر الشيطان وشركه ، ثم بتعلم العلم النافع الذي هو السلاح الأكبر في رد الشبهات ودفعها بعد توفيق الله ، ويكون أيضاً بسؤال أهل العلم عما أشكل والاستيضاح منهم ، و برد ما أشكل إلى المحكم من كتاب الله تعالى ، ويكون أيضاً بالإعراض عما يلقيه الشيطان وترك الاسترسال فيه كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث السابق (فليستعد بالله ولينتهي) .

فهذا تفصيل العلاج لهذا المرض الخبيث ، وهو مستمد من كتاب الله تعالى ومن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

قال ابن القيم في بيان وسائل الشيطان : والفتنة نوعان :

فتنة الشبهات — وهي أعظم الفتنتين — وفتنة الشهوات .

وقديجتماعان للعبد وقد ينفرد بإحدهما .

ففتنة الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ، ولاسيما إذا اقترن بذلك فساد القصد ، وحصول الهوى ، فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى ، فقل ما شئت في ضلال سيء القصد ، الحاكم عليه الهوى لا الهدى ، مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله فهو من الذين قال الله فيهم (إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس)^١ .

وقد أخبر سبحانه أن اتباع الهوى يضل عن سبيل الله فقال (ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب)^١ .

فهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق ، وهي فتنة المنافقين ، وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم ، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه عليهم فيها الحق بالباطل والهدى بالضلال .

ولا ينجي من هذه الفتنة إلا تجريد اتباع الرسول ، وتحكيمه في دق الدين ووجهه ، ظاهره وباطنه ، عقائده وأعماله ، حقائقه وشرائعه ، فيتلقى عنه حقائق الإيمان ، وشرائع الإسلام ، وما يثبت من الصفات والأفعال والأسماء ، كما يتلقى عنه وجوب الصلوات وأوقاتها وأعدادها ، ومقادير نصب الزكاة ومستحقيها ، ووجوب الوضوء والغسل من الجنابة ، وصوم رمضان ، فلا يجعله رسولاً في شيء دون شيء من أمور الدين ، بل هو رسول كل شيء تحتاج إليه الأمة في العلم والعمل ، ولا يتلقى إلا عنه ، ولا يؤخذ إلا منه ، فالهدى كله دائر على أقواله وأفعاله ، وكل ما خرج عنها فهو ضلال ، فإذا عقد قلبه على ذلك وأعرض عما سواه ، ووزنه بما جاء به الرسول فإن وافقه قبله — لا لكون ذلك القائل قاله بل لموافقته للرسالة — وإن خالفه رده ولو قاله من قاله ، فهذا الذي ينجيه من فتنة الشبهات ، وإن فاته ذلك أصابه من فتنها بحسب ما فاته منه .

وهذه الفتنة تنشأ تارة من فهم فاسد ، وتارة من نقل كاذب ، وتارة من حق ثابت خفي على الرجل فلم يظفر به ، وتارة من غرض فاسد وهوى متبع ، فهي من عمى البصيرة ، وفساد الإرادة .

و أما النوع الثاني من الفتنة ففتنة الشهوات . . .

و أصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على
الشرع ، والهوى على العقل .

فالأول أصل فتنة الشبهات ، والثاني أصل فتنة الشهوات .

ففتنة الشبهات تدفع باليقين ، وفتنة الشهوات تدفع بالصبر ، ولذلك
جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال (وجعلنا منهم أئمة
يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون)^١ . أهـ^٢

و الشيطان في إغوائه لابن آدم يتدرج به إما من الأعلى إلى الأدنى ، أو
من الأدنى إلى الأعلى .

و أقصد بقولي من الأعلى إلى الأدنى أن الشيطان يأمر الإنسان بالكفر ،
فإن أبي رغبه في الكبائر ، فإن أبي رغبه في الصغائر وهكذا .

و أما قولي من الأدنى إلى الأعلى فإن الشيطان قد يأتي للإنسان الصالح و
يهون عليه الصغائر حتى يرتكبها فما يزال به حتى يوقعه في الكبائر ، وقد
يخرجه بعد ذلك إلى الكفر إن لم يعصمه الله منه .

قال تعالى محذراً من اتباع خطوات الشيطان (يا أيها الذين آمنوا لا
تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر
بالفحشاء والمنكر)^٣ الآية .

وقال تعالى (يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً ولا تتبعوا
خطوات الشيطان إنه لكم عدوٌّ مبين . إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن
تقولوا على الله ما لا تعلمون)^٤ .

وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا

(١) السجدة ٢٤ .

(٢) إغاثة اللهفان ٢ / ١٧٦ - ١٧٨ .

(٣) النور ٢١ .

(٤) البقرة ١٦٨ - ١٦٩ .

خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) ^١ .

وقال تعالى (ومن الأنعام حمولةً وفرشاً كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا

خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين) ^٢ .

فهذه أربعة مواضع في كتاب الله يحذر فيها الله تبارك وتعالى من اتباع

خطوات الشيطان ، ويبين لنا فيها أن عداوته لنا ظاهرة .

والخطوة : هي ما بين القدمين ^٣ .

والتعبير بخطوات يفيد معنى التدرج و الانتقال من مرحلة إلى أخرى حتى

بلوغ الهدف ، فكأن الشيطان ينتقل بالإنسان من خطوة إلى أخرى حتى

يبلغ هدفه وهو إضلاله وإبعاده عن منهج الله .

وقد ذكر العلماء سبع عقبات يقف الشيطان فيها لابن آدم :

فالعقبة الأولى الكفر ، فإن سلم منه وقف له في عقبة البدعة ، فإن سلم

منها وقف له في عقبة فعل الكبائر ، ثم في عقبة فعل الصغائر ، فإن سلم منه

ففي عقبة فعل المباحات فيشغله عن الطاعات ، فإن غلبه شغله بالأعمال

المفضولة عن الأعمال الفاضلة ، فإن سلم من ذلك وقف له في العقبة

السابعة ولا يسلم منها المؤمن وهي تسليط الأعداء الفجرة بأنواع الأذى ^٤ .

كل هذا والشيطان متسلح بالخفاء لا يدري به ولا يتفطن إليه كما قال

تعالى (إنه يراكم هو و قبيله من حيث لا ترونهم) ^٥ ، وهذا يجعل التعرف

على وسوسته أمراً صعباً خاصة في الأمور الخفية .

(١) البقرة ٢٠٨ .

(٢) الأنعام ١٤٢ .

(٣) انظر : مفردات الراغب ص ١٥٢ ، الكشاف ١ / ٣٢٧ .

(٤) انظر : مصائب الإنسان من مكائد الشيطان لابن مفلح ص ٨٢ .

(٥) الأعراف ٢٧ .

وقد قال الرسول صلى الله عليه وسلم : إنَّ الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم .^١

وهذا يدل على تغلغل الشيطان في النفس البشرية ومعرفته بها بحيث يعرف مواطن الضعف فيها فيدخل على الإنسان منها .

ويمكن تلخيص أسلوب الشيطان في إغوائه للإنسان في النقاط التالية :
أولاً : سلوكه كافة السبل لإغواء الإنسان ، والقعود له بكل طريق من طرق الخير .

ثانياً : تزيين المعاصي والذنوب وتهوينها حتى يقدم الإنسان عليها .
ثالثاً : الاعتماد على الشهوات والشبهات في إغواء الإنسان .
رابعاً : التدرج به من الصغائر حتى يوقعه في الكبائر ، أو العكس كما أسلفت .

خامساً : تبرير الذنوب وبيان وجه المصلحة فيها حتى يحدث عند الإنسان قناعة بارتكاب الذنب كما فعل بالأبوين .
سادساً : التسلح بالخفاء .

سابعاً : دراسة النفس البشرية قبل الشروع في إفسادها لمعرفة المدخل المناسب الذي يدخل على الإنسان منه .
ثامناً : عدم اليأس من إغواء الإنسان ، فإن فاته طريق قعد له بطريق آخر حتى يغويه .

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف ، باب زيارة المرأة زوجها في اعتكافه ٤ / ٢٨١ ، حديث

النقطة الخامسة : دراسة لبعض الآيات التي وردت في الشيطان .

الآية الأولى :

قال تعالى (إنَّ الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا . . .)^١ الآية .
بين الله تعالى في هذه الآية أنَّ المعاصي سبب في إغواء الشيطان للإنسان وتمكنه منه .

قال الراغب : أي استجرهم الشيطان حتى زلوا فإنَّ الخطيئة الصغيرة إذا ترخص الإنسان فيها تصير مسهلة لسبيل الشيطان على نفسه^٢ . أهـ
وفي هذا المعنى يقول تعالى (ومن يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطاناً فهو له قرين . وإهم ليصدونهم عن السبيل ويحسبون أنهم مهتدون)^٣ .

أي ومن يعرض عن القرآن وما فيه من الحكمة إلى أباطيل المضلين يعاقبه الله بشيطان يقضه له حتى يضلّه ، ويلازمه قريناً له فلا يهتدي ، مجازاة له حين آثر الباطل على الحق البين^٤ .

وزيادة في الإضلال يحسب الكفار بفعالهم القبيح أنهم مهتدون وهذا غاية الضلال .

فالمعاصي سبب لاستحواذ الشيطان على الإنسان وإذا استحوذ الشيطان على الإنسان أنساه ذكر الله وإذا نسي الإنسان ذكر الله كان ممن حزب الشيطان كما قال تعالى (استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك

(١) آل عمران ١٥٥ .

(٢) مفردات الراغب ص ٢١٤ .

(٣) الزخرف ٣٦ — ٣٧ .

(٤) انظر : ابن جرير ٢٥ / ٩٢ ، فتح القدير ٤ / ٥٥٦ .

حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون^١ .

والاستحواذ : الاحتواء و الغلب والاستيلاء .

قال في لسان العرب : استحوذ عليهم الشيطان أي استولى عليهم
و حواهم إليه^٢ . أهـ

فإذا تغلب الشيطان على الإنسان واستحوذ عليه ساقه إلى الكفر سوقاً
كما قال تعالى (ألم تر أننا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا^٣) .
قال ابن جرير : يقول تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : ألم تر يا
محمد أننا أرسلنا الشياطين على أهل الكفر بالله (تؤزهم) يقول :
تحرّكهم بالإغواء فتزعجهم إلى معاصي الله وتغريهم بها
حتى يواقعوها^٤ . أهـ

والشيطان لا يستزل الكافرين فقط بل قد يستزل بعض المؤمنين كما في
الآية الأولى في هذه النقطة فإنها نزلت فيمن فر يوم أحد من المؤمنين أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وسلم^٥ .
الآية الثانية :

قال تعالى (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن
كنتم مؤمنين)^٦ .

فالشيطان يسعى لتخويف المؤمنين بتهويل قوة الكافرين ولكن التخويف
لا يقع إلا على أولياءه وأتباعه .

(١) المجادلة ١٩ .

(٢) لسان العرب ٣ / ٣٨٢ . باختصار

(٣) مريم ٨٣ .

(٤) ابن جرير ١٦ / ١٥٦ .

(٥) انظر : ابن جرير ٤ / ١٩٠ .

(٦) آل عمران ١٧٥ .

وقد اختلف المفسرون في معنى الآية على قولين^١ :

الأول : أن الشيطان يخوف المؤمنين بأوليائه على تقدير حرف الجر كقوله تعالى (لينذر بأساً) •

الثاني : أن الشيطان يخوف أوليائه المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين •
فعلى القول الأول يكون مراده تخويف المؤمنين وترهيبهم من قوة أعداءهم الكافرين ، وهذا كالحرب النفسية التي تضعف القوة وتشتت الصف •
فنهاهم الله عن الخوف من الشيطان وأوليائه إن كانوا صادقي الإيمان •
وعلى القول الثاني فالتخويف واقع على أتباعه الذين اتخذوه ولياً من دون الله بإطاعته فيما يأمر به من المعاصي والذنوب •

فالأولياء في هذه الآية : من يمكنه الخروج في صف المؤمنين ليقاتل معهم وهذا يتصور من طائفتين :

الأولى : المنافقون الذين يتسترون بالإسلام فيخوفهم الشيطان ليثبطهم عن الخروج وبالتالي يتأثر الصف المسلم بغياب هؤلاء ولو ظاهراً •
الثانية : العصاة من المؤمنين الذين غلبت عليهم المعاصي وانقادوا في كثير من أمورهم للشيطان فهؤلاء يخوفهم الشيطان من الكافرين ليثبطهم عن الخروج مع المؤمنين •

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : ومن كيد عدو الله أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه ، فلا يجاهدونهم ولا يأمرؤنهم بالمعروف ولا ينهونهم عن المنكر وهذا من أعظم كيده بأهل الإيمان ، وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا فقال (إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه فلا تخافوهم و خافون إن كنتم مؤمنين) •

المعنى عند جميع المفسرين : يخوفكم بأوليائه •

(١) انظر : ابن جرير ٤ / ٢٤٤ ، زاد المسير ١ / ٥٠٦ — ٥٠٧ •

قال قتادة : يعظمهم في صدوركم . ولهذا قال (فلا تخافوهم وخافون
إن كنتم مؤمنين) ، فكلمة قوي إيمان العبد زال من قلبه خوف أولياء
الشیطان ، وكلمة ضعف إيمانه قوي خوفه منهم ^١ . أهـ

وما ذكره ابن القيم رحمه الله تعالى من اتفاق جميع المفسرين على هذا
التفسير ليس بصواب ، وقد قدمت ذكر الخلاف في معنى الآية وممن ذكره ابن
جرير وابن الجوزي و الشوكاني وغيرهم من المفسرين .

الآية الثالثة :

قال تعالى (إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان
لربه كفوراً) ^٢ .

وصف الله تعالى المبذرين بأنهم إخوان الشياطين وذلك تنفيراً للناس من
هذه الخصلة الرديئة التي يتصف بها الشياطين .

قال الشوكاني : هذه الجملة تعليل للنهي عن التبذير ، والمراد بالاخوة
المماثلة التامة ، وتجنب مماثلة الشيطان ولو في خصلة واحدة من خصاله واجب
فكيف فيما هو أعم من ذلك كما يدل عليه إطلاق المماثلة ،
والإسراف في الإنفاق من عمل الشيطان فإذا فعله أحدٌ من بني آدم فقد
أطاع الشيطان واقتدى به ^٣ . أهـ

وهكذا وردت بعض الآيات تدل على أن بعض الأمور من عمل
الشیطان كقول الله تعالى في قصة موسى (فوكزه موسى فقضى عليه قال
هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين) ^٤ .

وقال تعالى عن بعض الأمور المحرمة (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر

(١) إغائة اللهفان ١ / ١٢٩ .

(٢) الإسراء ٢٧ .

(٣) فتح القدير ٣ / ٢٢١ .

(٤) القصص ١٥ .

والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم
تفلحون . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر
والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)^١ .

والمقصود بعمل الشيطان أن الشيطان هو الذي يدعوا إليها ويزينها
ليحصل له غرضه من صدّ الناس عن ذكر الله وعن الصلاة وإيقاع العداوة
والبغضاء بينهم بعد التآلف والمحبة حتى تشتت كلمة المؤمنين ويتفرق
شملهم وتضعف قوتهم .

قال ابن جرير : (من عمل الشيطان) يقول : شربكم الخمر وقماركم
على الجزر وذبحكم للأنصاب و استقسامكم بالأزلام من تزين الشيطان لكم
ودعائه إياكم إليه ، وتحسينه لكم لا من الأعمال التي ندبكم إليها ربكم ولا
مما يرضاه لكم بل هو مما يسخطه لكم^٢ . أهـ

الآية الرابعة :

قال تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإنّ
الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإنّ أطعتموهم
إنكم لمشركون)^٣ .

بين سبحانه في هذه الآية أنّ الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنس
الشبهات ليجادلوا بها المؤمنين ويشككوهم في دين الله تعالى .
وقد ورد في سبب نزول هذه الآية أنّ بعض الكفار قالوا : يا محمد أما ما
قتلتم وذبحتم فتأكلونه ، وأما ما قتل ربكم فتحرمونه ، فأنزل الله الآية ،
رواه ابن جرير عن ابن عباس^٤ .

(١) المائة ٩٠ — ٩١ .

(٢) ابن جرير ٧ / ٩٠ .

(٣) الأنعام ١٢١ .

(٤) انظر : ابن جرير ٨ / ٢٤ .

فزعم هؤلاء أن الميتة قتلها الله ، وأن الذبيحة قتلها الناس ، فكيف يحلون ما قتله الناس ويحرمون ما قتل الله ؟ وهذا منهم على سبيل التهويل والمجادلة بالباطل وإثارة الشبهات .

وإلا فالرد عليهم سهل وميسور فإن الله سبحانه هو الذي أمر باجتنب لحم الميتة وأباح لنا الذبيحة ، وليس أمر التشريع لأحد من البشر إنما هو لله تعالى يبلغنا إياه رسوله صلى الله عليه وسلم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يأت بالحكم من عند نفسه حتى يحتج عليه بأنه حرم هذا أو أحل هذا .

وبهذا يظهر بطلان قولهم .

وهذا هو دأب الشياطين في إثارة الشكوك والظعن على الشريعة .

وقد اختلف أهل العلم بالمراد من الشياطين في هذه الآية^١ :

فقال بعضهم : هم شياطين الجن ، إبليس وجنده .

وقال بعضهم : هم شياطين الإنس من اليهود والمجوس والمشركين .

والظاهر والعلم عند الله أن المراد شياطين الجن يوحون إلى أوليائهم من شياطين الإنس ويشهد لذلك قول الله تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً)^٢ الآية .

وهذا القول رجحه ابن جرير رحمه الله حيث قال : وأولى الأقوال بالصواب أن يقال : إن الله أخبر أن الشياطين يوحون إلى أوليائهم ليجادلوا المؤمنين في تحريمهم أكل الميتة بما ذكرنا من جداهم إياهم ، وجائز أن يكون الموحون كانوا شياطين الإنس يوحون إلى أوليائهم منهم ، وجائز أن يكونوا شياطين الجن أوحوا إلى أوليائهم من الإنس ، وجائز أن يكون الجنسان تعاونوا

(١) انظر : ابن جرير ٨ / ٢٢ - ٢٦ .

(٢) الأنعام ١١٢ .

على ذلك كما أخبر الله عنهما في الآية الأخرى التي يقول فيها : (وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) . بل ذلك الأغلب من تأويله عندي لأن الله أخبر نبيه أنه جعل له أعداء من شياطين الجن والإنس كما جعل لأنبيائه من قبله يوحى بعضهم إلى بعض المزين من الأقوال الباطلة ثم أعلمه أن أولئك الشياطين يوحون إلى أوليائهم من الإنس ليجادلوه ومن تبعه من المؤمنين فيما حرم الله من الميتة^١ . أهـ

الآية الخامسة :

قال تعالى (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أههما في النار خالدین فیها وذلك جزاء الظالمین)^٢ .

هذه الآية تبين صفة من صفات الشيطان وهي خذلانه لأوليائه بعد أن يزوج بهم في الكفر كما فعل هنا ، أو يزوج بهم في القتال كما فعل مع مشركي مكة يوم بدر ، حيث زين لهم الخروج إلى قتال المشركين وبين أنهم أقوى من المؤمنين وأنه لا غالب لهم وأنه جار لهم يساعدهم ، فلما التقى الجمعان ورأى الملائكة فر وهرب كما أخبر الله تعالى عنه حيث قال (و إذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب)^٣ .

وقد جاء في سبب نزول هذه الآية عن ابن عباس قال : جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه رايته في صورة رجل من بني مدلج في صورة

(١) ابن جرير ٨ / ٢٦ .

(٢) الحشر ١٦ — ١٧ .

(٣) الأنفال ٤٨ .

سراقة بن مالك بن جعشم فقال الشيطان للمشركين : لا غالب لكم اليوم من الناس وإني جار لكم ، فلما اصطف الناس أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من التراب فرمى بها في وجوه المشركين فولوا مدبرين وأقبل جبريل إلى إبليس فلما رآه - وكانت يده في يد رجل من المشركين - انتزع إبليس يده فولى مدبراً هو وشيعته فقال الرجل : يا سراقة تزعم أنك جار لنا ؟

قال (إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله والله شديد العقاب) ، وذلك حين رأى الملائكة ^١ .

وهذا دأب عدو الله خذلان أوليائه في وقت الحاجة إليه وقد صرح الله تعالى بهذه الصفة الخبيثة التي يتصف بها اللعين حيث قال (وكان الشيطان للإنسان خذولاً) ^٢ .

والخذول صيغة مبالغة والعرب تقول : خذله إذا ترك نصره مع كونه يترقب النصر منه ^٣ .

و الإنسان إذا عرف هذه الحقيقة و أدركها امتنع من الإصغاء لوعود الشيطان الكاذبة .

وقد أخبر الله تعالى عن وعوده الكاذبة حيث قال (يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً) ^٤ .

و هكذا يفضح القرآن الكريم كيد الخبيث بالإنسان ، ويضرب الأمثلة الواقعية على ذلك حتى يتيقن الإنسان من هذه العدو فلا يركن إلى صاحبها و لا يصغي إليه البتة .

(١) انظر : ابن جرير ١٠ / ٢٥ .

(٢) الفرقان ٢٩ .

(٣) انظر : أضواء البيان ٦ / ٣١٥ .

(٤) النساء ١٢٠ .

النقطة السادسة : الوقاية من الشيطان .

الإنسان يعيش معركة كبيرة مع الشيطان ، هي نوع من أنواع الجهاد الذي ينبغي على الإنسان القيام به حتى ينتصر على عدوه ويقلل من مخاطره .

وجهاد الشيطان مرتبتان :

الأولى : جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك

القادحة في الإيمان .

الثانية : جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة

والشهوات .

فالجهاد الأول يكون بعده اليقين ، والثاني يكون بعده الصبر .^١

وهذا الجهاد هو الوسيلة القوية لدفع كيد الشيطان و أذاه والسلامة من

شره .

و القرآن الكريم بين للناس السبل التي تقيهم شر الشيطان و أذاه ،

وسأبين بعضها فيما يلي :

أولاً : الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند نزغه .

ورد الأمر بالاستعاذة من الشيطان في عدة مواضع من القرآن الكريم .

ففي سورتي الأعراف و فصلت قال تعالى (وإِذَا يَتَزَنَّعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ

نَزَّغَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۗ ۝ ٢) الآية .

و في النحل قال تعالى (فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

الرَّجِيمِ ۗ ۝ ٣) الآية .

فأمر سبحانه بالاستعاذة عند نزغ الشيطان ، و عند قراءة القرآن .

(١) انظر : زاد المعاد ٣ / ١٠ .

(٢) الأعراف ٢٠٠ ، فصلت ٣٦ .

(٣) النحل ٩٨ .

أما نزع الشيطان : فهو دخوله في الأمر لإفساده .^١
 فإذا استعاذ الإنسان بالله عند حصوله ذهب ذلك الترغ .
 وقد بينت السنة النبوية هذا المعنى حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم في
 الرجل الذي رآه غاضباً : إني لأعلم كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد ، لو
 قال : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ذهب عنه ما يجد .^٢
 فبين صلى الله عليه وسلم أن الاستعاذة تذهب الغضب الناشئ عن نزع
 الشيطان ، وهذا الغضب هو الذي تنشأ بسببه الخصومات بين الناس ،
 وتسفك عند مجاراته والاسترسال معه الدماء ، فهو شعلة من النار تشتعل
 بين جوانح الإنسان يستغلها الشيطان لإثارة الغضب حتى يفلت زمام نفسه
 عنه ، فيقع حينذاك في الحماقات التي طالما جرت المآسي العظيمة ، وسببت
 الحسرة والندامة لفاعلها ولكل من اكتوى بنارها .
 فأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالاستعاذة كي تطفأ تلك النار ، وكى
 يندحر الشيطان فلا يتمكن من إشعالها ، وبذلك نعرف أهمية هذا العلاج
 الرباني في معالجة هذا الأمر الخطير .
 ويبين القرآن الكريم علاجاً آخر ذو فائدة عظيمة في مثل هذه الحالات
 — أعني نزع الشيطان بين الناس — وهو الدفع بالتي هي أحسن ، فإن أساء
 إلى الإنسان المؤمن شخص فالمطلوب منه أن يقابل تلك الإساءة بالإحسان إلى
 المسيء ، مما يقطع الطريق على الشيطان ويفوت الفرصة عليه .
 قال تعالى (و لا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا
 الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما

(١) انظر : مفردات الراغب ص ٤٨٨ .

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ٦ / ٣٣٧ ، حديث

رقم ٣٢٨٢ . ومسلم في البر والصلة ، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب ٤ / ٢٠١٥ ،

حديث رقم ٢٦١٠ .

يلقاها إلا ذو حظ عظيم • وإما يترغتك من الشيطان نزع فاستعد بالله إنه هو السميع العليم (١) •

وقال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن السيئة نحن أعلم بما يصفون • وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين • وأعوذ بك رب أن يحضرون) (٢) •
وقال تعالى (وقل لعبادي يقول التي هي أحسن إن الشيطان يترغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً) (٣) •

فهذه الآيات الكريمة تبين هذا العلاج المفيد لترغ الشيطان وهو الدفع بالتي هي أحسن ، ولو تحلى الناس بهذا الخلق الرفيع لانقضت أكثر الخلافات بينهم ، ولما وجد الشيطان فرصة للتفريق بينهم •

وانظر كيف قرن القرآن بين الأمرين في الآيات السابقة ، بين الدفع بالتي هي أحسن والاستعاذة بالله من الشيطان وبين نزع الشيطان بين الناس •
فالتوجيهات الإلهية تضمن للإنسان حياة طيبة ، كلما أراد الشيطان أن يفسدها صدها المؤمن بما في القرآن والسنة من توجيهات •

فخلاصة القول في الآيات الثلاث السابقة تضمنت الأمور التالية :

الأول : بيان فضيلة هذا الخلق الرفيع — وهو الدفع بالتي هي أحسن — والحث على التحلي به ، وبيان فوائده •

الثاني : التحذير من نزغات الشيطان بين الناس عند حدوث الخلاف ، فكم من خلاف بسيط كانت نتائجه وخيمة بسبب نزع الشيطان •

الثالث : بيان العلاج المناسب لدفع نزع الشيطان وهو يتضمن علاجين هامين : الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم ، و الدفع بالتي هي أحسن •

(١) فصلت ٣٤ — ٣٦ •

(٢) المؤمنون ٩٦ — ٩٨ •

(٣) الإسراء ٥٣ •

أما الأمر بالاستعاذة عند قراءة القرآن في سورة النحل فذلك لفوائد مهمة ذكرها ابن القيم رحمه الله في كتابه (إغاثة اللهفان) و أسوقها هنا باختصار :

الفائدة الأولى : أن القرآن شفاء لما في الصدور من الوسواس والشهوات ، فأمر الإنسان أن يطرد مادة الداء ويخلي منه القلب ، ليصادف محلاً خالياً فيتمكن منه ويؤثر فيه .

الفائدة الثانية : أن القرآن مادة الهدى والعلم ، والشيطان كلما أحس بنبات الخير في قلب الإنسان سعى لإفساده ، فأمر أن يستعيد حتى لا يفسد عليه ما يحصل له بالقرآن من خير .

الفائدة الثالثة : أن الملائكة تدنوا من قارئ القرآن كما في حديث أسيد بن الحضير لما رأى مثل الظلة فيها مثل المصاييح عند قراءته للقرآن فقال صلى الله عليه وسلم : تلك الملائكة .^١

والشيطان ضد الملك و عدوه ، فأمر القارئ أن يطلب من الله تعالى مباعدة عدوه عنه حتى يحضرها خاص ملائكته .

الفائدة الرابعة : أن الشيطان يجلب على القارئ بخيله ورجله حتى يشغله عن المقصود بالقرآن وهو تدبره و تفهمه ، فيحرص على أن يحول بين المرء وقلبه وبين مقصود القرآن ، فأمر أن يستعيد بالله منه .

الفائدة الخامسة : أن القارئ يناجي ربه بكلامه ، والشيطان قراءته الشعر و الغناء ، فأمر القارئ أن يطرده بالاستعاذة عند مناجاة الله واستماع الرب قراءته .

الفائدة السادسة : أن الاستعاذة لدفع ما يلقيه الشيطان في قراءة الإنسان من التغليب للقارئ والتخليط والتشويش عليه ، وإذا كان الأنبياء لم يسلموا

(١) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين ، باب نزول السكينة لقراءة القرآن ١ / ٥٤٨ ،

من ذلك فغيرهم أولى كما قال الله تعالى (و ما أرسلنا من قبلك من رسول
ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته فينسخ الله ما يلقي
الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم)^١ .

أي إذا تلا ألقى الشيطان في تلاوته .

الفائدة السابعة : أن الشيطان أحرص ما يكون على إغواء الإنسان عندما
يهم بالخير أو يدخل فيه ، فهو يشتد عليه حينئذٍ ليقطعه عنه ، فأمر العبد أن
يحارب عدوه الذي يقطع عليه الطريق ، ويستعيد بالله أولاً ثم يأخذ
في السير .

الفائدة الثامنة : أن الاستعاذة قبل القراءة عنوان وإعلام بأن المأتي بعدها
القرآن ، ولهذا لم تشرع بين يدي كلام غيره^٢ . أهـ

ثانياً : قطع الطرق الموصلة لمعاد الشيطان .

وهذا ما يمكن تسميته بالعلاج الوقائي حيث أنه يمنع الإنسان من الوقوع
في المحذور باتقاء الأسباب المؤدية إليه .

ويظهر هذا العلاج في ثنايا آيات عدة منها قوله تعالى (وقل لعبادي
يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان يترغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان
عدواً مبيناً)^٣ .

فإذا دفع الإنسان ما يلقي إليه من الناس — سواءً أكان خيراً أم شراً —
بالتي هي أحسن فإنه يكون بذلك قد قطع الطريق على الشيطان ، ومنعه
من الدخول بينه وبين الناس للإفساد بينهم .

و يقول تعالى محذراً من بعض الوسائل والطرق التي يتمكن الشيطان بها
من إغواء بعض الناس وإحداث العداوة والبغضاء بينهم ومن صدهم عن

(١) الحج ٥٢ .

(٢) إغائة اللهفان ١ / ١٠٩ — ١١٢ .

(٣) الإسراء ٥٣ .

الصلاة وعن ذكر الله (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) . إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون)^١ .

فبين سبحانه أن هذه الأمور من عمل الشيطان ، و خص الخمر والميسر بأتهما سببان يصل بهما الشيطان إلى مراده من إحداث العداوة والبغضاء بين المؤمنين ، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة .

أما إحداث العداوة والبغضاء فهو سبب في تفرق كلمة المسلمين وبالتالي ضعف المجتمع الإسلامي ككل ، لأن المجتمع المبني على العداوة والبغضاء لا يفتأ أفراده يكيّدون لبعضهم و يشتغلون بذلك حتى تتمزق عرى المحبة و التآلف بينهم فيدب إليهم الضعف الناتج عن ذلك فيصيروا حينذاك لقمة سائغة لأعدائهم .

وقد حذر الله تعالى من التنازع والفرقة وبين أهما من أسباب الضعف حيث قال (ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم)^٢ الآية .
وأما الصد عن ذكر الله وعن الصلاة فهو قطع للإنسان عن خالقه ومولاه ، فالذي لا يذكر الله و لا يصلي ليس له صلة بربه ، ومن كان كذلك سهل على الشيطان إضلاله .

فالشيطان يتمكن بهذه الوسائل من جعل الإنسان مقطوع الصلة بالله أولاً ، ثم مبتوت الصلة بأفراد مجتمعه ثانياً ، وإذا كان الإنسان كذلك استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله وكان بذلك من حزب الشيطان .

ولأجل هذه النتائج الخطيرة نهانا الله عن مقارفة هذه الوسائل الخبيثة وأمرنا باجتنابها (فاجتنبوه لعلكم تفلحون) فلو اجتنب الإنسان هذه

(١) المائدة ٩٠ - ٩١ .

(٢) الأنفال ٤٦ .

الوسائل لقطع الطريق على الشيطان ولسلم من تلك النتائج الخطيرة .
 فالخلاصة : أن كل طريق يؤدي إلى معصية الله تعالى وإطاعة الشيطان
 يجب على الإنسان اجتنابه .

ثالثاً : النهي عن اتباع خطوات الشيطان .

حذر الله سبحانه من اتباع خطوات الشيطان ، وقد سبق الحديث عنها ،
 وما يهمنا هنا هو أن ترك اتباع خطوات الشيطان التي يتدرج بها لإغواء
 الإنسان هي من أنفع الأشياء في الوقاية من شر الشيطان وكيدته .
 رابعاً : الاشتغال بذكر الله تعالى .

وهو من أهم طرق الوقاية من الشيطان ، فإن الشيطان يخاف من المؤمن
 القوي الإيمان الذي يذكر الله تبارك وتعالى .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : والذي نفسي
 بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجاً إلا سلك فجاً غير فجك^١ .
 وهذا لقوة عمر رضي الله عنه ولصلابته في الدين .

وهكذا كل مؤمن قوي الإيمان يخافه الشيطان و لا يستطيع التسلط عليه
 وهؤلاء هم الذين قال الله فيهم (إنَّ عبادي ليس لك عليهم سلطان)^٢ .
 وذكر الله تبارك وتعالى يشمل جميع أنواع الذكر من تلاوة القرآن
 والصلاة و الأذكار والدعاء وغير ذلك .

وهو علاج ووقاية ، فهو يقي الإنسان الشر قبل وقوعه ، وهو علاج لمن
 مسه أذى الشيطان كما فعل أيوب عندما مسه أذى الشيطان فلجأ إلى ذكر
 الله تبارك وتعالى وتضرع إليه ، فرفع الله ضره وأزال عنه كيد عدوه .

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ، باب صفة إبليس وجنوده ٦ / ٣٣٩ ، حديث

رقم ٣٢٩٤ .

(٢) الحجر ٤٢ .

قال تعالى (واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أي مسني الشيطان
بنصب وعذاب • اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب)^١ •

فالذكر والدعاء من أهم الأمور التي يتقى بها الإنسان شر الشيطان ،
ولهذا أمر الله سبحانه وتعالى رسوله أن يستعيد من همزات الشياطين
حيث قال تعالى (وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين •
وأعوذ بك رب أن يحضرون)^٢ •

والهمزات : مأخوذة من الهمز وهو النخس ، والهمزات جمع المرة منه ،
ومنه مهماز الرائض •

والمعنى : إن الشياطين يحثون الناس على المعاصي ، ويغروهم عليها كما
تمم الراضة الدواب حثاً لها على المشي ، ونحو الهمز الأز في قوله
تعالى (تؤذهم أزا)^٣ •

وقال تعالى لنبيه (قل أعوذ برب الناس • ملك الناس • إله
الناس • من شر الوسواس الخناس • الذي يوسوس في صدور الناس
• من الجنة والناس)^٤ •

فأمره بالالتجاء إليه من الشيطان وشره و ما يوسوس به في صدور الناس
من الشبهات وتزين الشهوات ليحمله من شره ويدفعه عنه •

و لأهمية هذا الأمر وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقال هذه
الدعوات عند الصباح و عند المساء وعند النوم وأدبار الصلوات كما هو
مبسوط في كتب الأذكار •^٥

(١) ص ٤١ - ٤٢ •

(٢) المؤمنون ٩٧ - ٩٨ •

(٣) انظر : الكشاف ٣ / ٤٢ •

(٤) الناس ١ - ٦

(٥) انظر الكلم الطيب لابن تيمية ص ٣١ ، ٣٦ ، ٦٩ ، تحفة الذاكرين

للشوكاني ص ٦٠ ، ٨٢ ، ١١٧ •

خامساً : الإجابة إلى الله وترك الغفلة .

وهو علاج مهم لمن مسه أذى من الشيطان كما قال تعالى (إن الذين

اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون)^١ .

قال ابن جرير في تفسير هذه الآية : يقول تعالى ذكره (إن الذين

اتقوا) الله من خلقه فخافوا عقابه بأداء فرائضه واجتناب معاصيه (إذا مسهم

طائف من الشيطان تذكروا) يقول : إذا ألم بهم طيف من الشيطان من

غضب أو غيره مما يصد عن واجب حق الله عليهم تذكروا عقاب الله

وثوابه ووعدته ووعيدته وأبصروا الحق فعملوا به وانتهوا إلى طاعة الله فيما فرض

عليهم ، وتركوا فيه طاعة الشيطان^٢ . أهـ

فالإبصار المذكور في الآية نتج عن التذكر والتفكير في عواقب إطاعة

الشيطان فتركوا لأجله المعاصي ، وهذا من العلم والبصيرة التي يمن الله بها على

من يشاء من عباده .

ومن هنا نعلم أهمية العلم بالله تعالى وبأسمائه وصفاته والعلم بعبادة

الشيطان التي حذرنا الله منها والتي تدفعه إلى إغراء الناس بالمعاصي وتزيين

الشهوات لهم .

إنّ هذا العلم هو الذي يمنع المسلم من طاعة الشيطان .

(١) الأعراف ٢٠١ .

(٢) ابن جرير ٩ / ٢٠٩ .

النقطة السابعة : الأسلوب القرآني في التحذير من الشيطان (وهو خلاصة

ما سبق من المباحث) .

لما كانت قضية الشيطان وعداوته لابن آدم من أهم الأمور التي ينبغي على الإنسان معرفتها تطف الله تبارك وتعالى بهذا الإنسان فبين له تلك القضية أتم بيان ، وجعل ذلك في كتابه ليبقى على مر الأزمان ليعقل كل من قرأه تلك العداوة ويعرف كيف النجاة منها .

وقد كان أسلوب القرآن فريداً في معالجة هذا الموضوع ، بين فيه كل ما يحتاجه الإنسان لمواجهة هذا العدو ، وذلك في آيات كثيرة من كتاب الله تعالى .

ويمكن إجمال ذلك في النقاط التالية :

أولاً : بيان منشأ العداوة .

بين القرآن الكريم كيف نشأت العداوة بين الشيطان والإنسان وما أسبأها وذلك من خلال قصة خلق آدم عليه السلام ، وفيها ظهر الحقد الشديد الذي يكنه إبليس لآدم وذريته ، وتوعده بإغواء بني آدم وجرهم معه إلى السعير .

وهذا الأسلوب يعطي الإنسان انطباعاً عميقاً لمدى العداوة التي بينه وبين الشيطان ، ويذكر هذا الشعور علم الإنسان بأن إبليس كان سبباً في إخراجه من الجنة أولاً ثم هو يريد منعه من دخولها مرة أخرى .

ثانياً : فضح وسائل الشيطان ومدخله على بني آدم .

بين القرآن الكريم أن الشهوات هي المدخل الذي دخل به إبليس على آدم تحذيراً للإنسان من مغبة الاسترسال مع الشهوات والإنصات لوسواس الشيطان .

وحذره من الشبهات التي يلقيها الشيطان في قلوب الناس ليصرفهم عن عبادة ربهم ويجرهم إلى الكفر .

ثالثاً : بيان صفات الشيطان وأفعاله بابن آدم لتنفير الناس منه .

وذلك ببيان وعوده الكاذبة وخذلانه لأنصاره وتخويفه أوليائه وما يأمر به من الفحشاء والمنكر والقول على الله بلا علم وغير ذلك وذكر القصص التي تشهد لذلك .

رابعاً : تطمين المؤمنين .

وذلك من خلال بيان ضعف كيد الشيطان في جانب كيد الله تعالى وذكر قصص الأمم الماضية التي أطاعت الشيطان واتبعت مكره فحاق بهم سوء مكرهم ونزل بهم عذاب الله تبارك وتعالى ، ولهذا الأسلوب وقعه في نفوس المؤمنين التي ترى ضعف إمكاناتها المادية لمقاومة هذا الكيد الشيطاني الذي أوتي من الإمكانيات الشيء الكثير ، فيرتاح المؤمن لمثل تلك الآيات ، وتطمئن نفسه بسماع تلك القصص ، وتقوى ثقته بالله تعالى فلا يخاف الشيطان ولا يخاف مكره .

خامساً : بيان الوقاية التي تقي الإنسان من شر الشيطان .

وهذا من تلميح الله بعباده ومن إرادته الخير بهم وفضله عليهم قال تعالى (ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتم الشيطان إلا قليلاً)^١ ، فالإنسان يخوض معركته مع الشيطان ومعه أسلحته التي لا تخطيء ، وإن أصابه شيء من عدوه رجع إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه فعرّف كيف ينجو من شر عدوه وأسرّه .

المطلب الثاني

شياطين الإنس

سبق أن بينت معنى الشيطان في اللغة : وهو كل عات متمرد من الجن والإنس والدواب^١ .

قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً) .

وشياطين الإنس هم الذين تمردوا على أمر الله وعتوا عنه ، وهم من أكبر العوائق التي تقف في طريق تحقيق الغاية التي لأجلها خلق الإنسان ، لأنهم وضعوا كل إمكانياتهم المادية والمعنوية في سبيل إيقاف دعوة الرسل وصد الناس عن هدى الله الذي جاءت به .

وقد اختلف التعبير عن هؤلاء في القرآن فهم شياطين الإنس ، والمالئ ، والذين لا يرجون لقاء الله ، وأكابر المجرمين ، والمترفين وغير ذلك .

وقد أفاض القرآن الكريم في بيان مواقفهم السيئة من دعوة الرسل وأتباعهم وسأبين ذلك في هذا المطلب في النقاط التالية :

أولاً : تكذيب الرسل

أرسل الله الرسل ليبينوا للناس الغاية التي أرادها الله من خلقهم وهي عبادته وحده سبحانه ونبذ كل معبود سواه ، وليبينوا للناس دين الله وأحكامه التي يتعبدون بها والتي تستقيم بها حياتهم وتصلح أحوالهم ، وما أعدده الله للمؤمنين وما أعدده للكافرين لتقوم الحجة على الناس .

وما من نبي ولا رسول أرسله الله تعالى إلا وتصدى له من شياطين الإنس من يكذبه فيما يدعو إليه ويسفه رأيه ودينه .

(١) انظر : ص ٣٩٧

قال تعالى (وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم قوم نوح وعاد وثمود • وقوم إبراهيم وقوم لوط • وأصحاب مدین وكذب موسى فأملت للكافرين ثم أخذتهم فكيف كان نكير)^١ •

وقال تعالى (وإن يكذبوك فقد كذب الذين قبلهم)^٢ الآية • واتهام الرسول بأنه كاذب حتى ينفر الناس من دعوته ولا يسمعون لما جاء به من الهدى والنور •

وهؤلاء الذين كذبوا الرسل يعلمون يقيناً أن رسلهم في غاية الصدق والأمانة ، وأنهم لم يقارفوا الكذب قط ، ولكن تكذيبهم لهم واقع على سبيل الجحود لا على سبيل الحقيقة ، فهم يعلمون صدق الرسل بما آتاهم الله من المعجزات ، وبما استقر عند الكفرة من حسن أخلاقهم وترفعهم عن الدنيا قبل بعثتهم ، ولكنهم مع ذلك يجحدون تلك الحقائق بدافع الهوى والكبر •

قال تعالى (فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون)^٣ • وقال تعالى عن فرعون وقومه (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً)^٤ الآية •

ثانياً : إصاق التهم الباطلة بالرسل تنفيراً للناس منهم •

اتهم الأنبياء بأنهم سحرة ، وبأنهم مجانين ، وبأنهم كذبة ، واتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر ، وغير ذلك من التهم الباطلة التي تصد بعض المغفلين عن إتباع الرسل •

(١) الحج ٤٢ — ٤٤ •

(٢) فاطر ٢٥ •

(٣) الأنعام ٣٣ •

(٤) النمل ١٤ •

قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون • أتواصوا به بل هم قوم طاغون)^١ •
وقال تعالى (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب)^٢ •

وهذه التهم الباطلة هي لتشويه صورة الأنبياء عند عامة الناس وعند من لم يخبر أحوالهم •

ويلاحظ أن هذا وقع لجميع الأنبياء كما تدل عليه الآيات •

ثالثاً : صد الناس عن دين الله •

وهؤلاء الشياطين لا يكتفون بالكفر بالله تعالى وتكذيب الأنبياء والرسول بل يريدون من غيرهم أن يكونوا معهم في الكفر بالله تعالى ومواجهة دعوات الرسل ويسلكوا في سبيل ذلك سبلاً شتى ليحققوا هذه الغاية ، ومن هذه السبل :

١- التعذيب البدني والنفسي •

أما التعذيب البدني فيكون بالضرب والحبس وأنواع الأذى ، بل قد يصل بهم الحال إلى قتل الأنبياء وأتباعهم كما قتل يحيى بن زكريا عليهما السلام •

وأما التعذيب النفسي فهو بالاستهزاء والاحتقار والإهانة والطرده وإخراج المؤمنين عن بلدانهم وغير ذلك من صنوف الأذى النفسي •

٢- التشكيك في صدق الدعوة •

وقد سلك هذا المسلك طائفة من أهل الكتاب آمنوا أول النهار ثم كفروا آخره ليصدوا الناس عن الدين ، فإن الناس كانت تعتقد أن اليهود أهل كتاب وعلم وأن كفرهم آخر النهار بالإسلام يدل على أنهم رأوا فيه ما حملهم على الكفر به فيتبعهم فئام من الناس^٣ •

قال تعالى (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون • ولا

(١) الذاريات ٥٢ - ٥٣ •

(٢) ص ٣ •

(٣) انظر : ابن جرير ٣ / ٤٢٢ ، في ظلال القرآن ١ / ٤٠٣ - ٤٠٤ •

تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم ٠٠ (الآية ٠)

٣- إثارة الشكوك والشبهات في صدور المؤمنين ٠

كما سبق أن ذكرت في قول الله تعالى (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطمعوهم إنكم لمشركون)^٢ ٠

فقد استغل الشياطين الإنس في هذه القضية وهي تحريم أكل الميتة فقالوا : إن محمداً وأصحابه لا يأكلون ما ذبح بسكين الله - يعنون الموت - وأما ما ذبحوا هم فإنهم يأكلونه^٣ ٠

وأرادوا بذلك إيقاع المؤمنين في الشبهة ٠

وأثاروا الشبهات حول صلاحية الرسول لحمل الرسالة (وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ٠ أو يلقى إليه كثر أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً)^٤ ٠

وقال تعالى (وقالوا لولا نُزِّلَ هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم)^٥ ٠

واحتج المشركون على شركهم بالقدر حيث قال الله عنهم (سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمانا من شيء ٠٠)^٦ الآية ٠

وقال تعالى (وقال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من

(١) آل عمران ٧٢ - ٧٣ ٠

(٢) الأنعام ١٢١ ٠

(٣) انظر : ابن جرير ٨ / ٢٢ ٠

(٤) الفرقان ٧٨ ٠

(٥) الزخرف ٣١ ٠

(٦) الأنعام ١٤٨ ٠

شيء نحن ولا آباؤنا ولا حرمانا من دونه من شيء. (١) الآية .
 قال الشنقيطي رحمه الله : ومرادهم أن الله لما كان قادراً على
 منعهم من الإشراف ولم يمنعهم منه أن ذلك دليل على رضاه بشركهم ،
 ولذلك كذبهم . (٢) أهـ
 وهكذا يثير شياطين الإنس الشبهات في قلوب المؤمنين ليصرفوهم
 عن دينهم .

٤- إدعائهم حمل الخطايا عن أتباعهم .

وهذا من استهزائهم بالدين ، وصددهم الناس عنه ، ولتهوين الكفر على
 الناس وتشجيع من أحجم منهم عن الكفر مخافة الخطيئة .
 قال تعالى (وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا
 ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء وإنهم
 لكاذبون . وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليستلن يوم القيامة عما
 كانوا يفترون) (٣) .

رابعاً : تسفيه الحق وتصويب الباطل .

ومن خصال شياطين الإنس أنهم يسفهون الحق مع علمهم بأنه حق ،
 ويصوبون الباطل مع علمهم بأنه باطل ، كما وقع من اليهود مع مشركي
 مكة حيث قال قائلهم : إن دين قريش أفضل من دين محمد . (٤)
 قال تعالى عنهم (ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون
 بالجبوت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من
 الذين آمنوا سبيلاً) (٥) .

(١) النحل ٣٥ .

(٢) أضواء البيان ٢ / ٢٤٨ .

(٣) العنكبوت ١٢-١٣ .

(٤) انظر : ابن جرير ٥ / ١٨٦ .

(٥) النساء ٥١ .

وقوم شعيب سفهوا ما يدعوههم إليه شعيب من ترك عبادة غير الله ،
وترك تطفيف الموازين .

قال تعالى (قالوا يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو
أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد)^١ .

قال الزمخشري : جعلوا الصلاة آمرة على سبيل التهكم بصلاته ، و
أرادوا أن هذا الذي تأمر به من ترك عبادة الأوثان باطل لا وجه لصحته ، وأن
مثله لا يدعوك إليه داعي عقل ، ويأمرك به أمر فطنة فلم يبق إلا أن
يأمرك به أمر هذيان و وسوسة شيطان وهو صلواتك التي تداوم عليها في
ليلك و نهارك ، وعندهم أن هذا من باب الجنون و مما يتولع به
المجانين و الموسوسون من بعض الأقوال و الأفعال^٢ . أهـ

فانظر كيف جعلوا عبادته لله سفهاً ، وأمره بعبادة الله و أداء الزكاة
وترك تطفيف الموازين باطلاً ، وهو من الحق الواضح الذي تشهد العقول
الصحيحة بحسنه و صحته .

و قوم لوط لما نهاهم لوط عن الفاحشة أمروا بإخراجه من القرية لأنه
يتطهر عن الفحشاء والخبث .

قال تعالى (فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من
قريتكم إنهم أناس يتطهرون)^٣ .

فجعلوا الطهر والنقاء ذنباً يستدعي الإخراج من القرية .
وقد أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف
حيث قال تعالى (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر

(١) هود ٨٧ .

(٢) الكشاف ٢ / ٢٨٦ .

(٣) النمل ٥٦ .

وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون (١) .

فهذا هو دأب شياطين الإنس تحويل المنكر إلى معروف والمعروف إلى منكر ، والحق إلى باطل والباطل إلى الحق .

خامساً : الحسد .

أخبر الله تعالى عن شياطين الإنس من الكفرة أنهم يحسدون المؤمنين على إيمانهم ويتمنون رجوع المؤمنين عن دينهم حيث قال تعالى (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق .٠٠) (٢) الآية .

وقال تعالى (ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (٣) .

فهم يحسدون المؤمنين على إيمانهم ولا يتمنون لهم الخير أبداً .

سادساً : المكر .

لا يفتأ أعداء الله من شياطين الإنس يكيدون لأولياء الله تبارك وتعالى بشتى أنواع الكيد لإلحاق أي نوع من أنواع الضرر بهم .

قال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين) (٤) .

والآيات التي تدل على مكرهم كثيرة ، ولكن الله تعالى بين أنه يمكر للمؤمنين ويرد عنهم كيد الكافرين .

(١) التوبة ٦٧ .

(٢) البقرة ١٠٩ .

(٣) البقرة ١٠٥ .

(٤) الأنفال ٣٠ .

سابعاً : التعنت في طلب الآيات •

ومن صفات شياطين الإنس أنهم يطلبون الآيات والمعجزات من أنبيائهم على سبيل التعنت والتعجيز لا على سبيل الإستدلال لصدق الرسول ولذلك إذا أتتهم المعجزات استمروا في كفرهم •

قال تعالى (إنَّ الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون • ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)^١ •

ومن هذا الباب كان تعنت بني إسرائيل في طلب المعجزات من نبيهم حتى وصل بهم الحال أن طلبوا من موسى أن يريهم الله جهرة •

قال تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نُؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون)^٢ •

وطلب مشركوا مكة من النبي بعض الطلبات على سبيل التعنت^٣ •
كما أخبر تعالى عنهم في قوله (وقالوا لن نُؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً • أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً • أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً • أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نُؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً)^٤ •

فهذه بعض مواقف شياطين الإنس من الرسل وأتباعهم والتي تهدف إلى صد المؤمنين عن سبيل الله ومنعهم من أداء العبادة لله كما أمرهم الله تعالى • والأسلوب القرآني في عرض هذه القضية كان في غاية التمام والبيان إذ أنه تناول جوانبها وبينها أتم بيان وذلك من خلال المحاور التالية :

(١) يونس ٩٦ - ٩٧ •

(٢) البقرة ٥٥ •

(٣) انظر : ابن جرير ١٥ / ٢٠٤ - ٢٠٧ •

(٤) الإسراء ٩٠ - ٩٣ •

أولاً : بيان صفات هؤلاء الشياطين وفضحها لمعرفة الحذر منها .
 ثانياً : التحذير من التلبس بصفات الشياطين ببيان عواقب ذلك في الدنيا
 والآخرة .

أما عواقب الدنيا فتظهر من خلال ما قص الله تعالى علينا من قصص
 المكذبين والمعاندين وما أصابهم من أنواع الإهلاك من الإغراق والحسف
 وإرسال الريح والصيحة وغير ذلك .

أما العواقب الأخروية فهي بيان ما ينتظر هؤلاء من العذاب الأليم عند
 الله تبارك وتعالى ، وهذا أمر قد سبق الحديث عنه ، وأما بيان موقف الشيطان
 وأتباعه من بعضهم يوم القيامة فيمكن إجماله في النقاط التالية :

النقطة الأولى : التبري من بعض .

بين الله تعالى أن المتبوعين يتبرؤا من الأتباع حيث قال تعالى (إذ تبرأ
 الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب)^١ .

النقطة الثانية : إنقلاب المحبة بينهم إلى عداوة .

قال تعالى (الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين)^٢ .

النقطة الثالثة : لعن كل فريق لصاحبه .

قال تعالى (قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس
 في النار كلما دخلت أمة لعنت أختها)^٣ الآية .

النقطة الرابعة : طلب المستضعفين من المستكبرين تنفيذ وعودهم من

تحمل العذاب عنهم .

قال تعالى (وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا
 لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء قالوا لو هدانا الله

(١) البقرة ١٦٦ .

(٢) الزخرف ٦٧ .

(٣) الأعراف ٣٨ .

لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص) ^١ .

النقطة الخامسة : إلقاء اللائمة على بعضهم .

قال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم ل كنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين . وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) ^٢ .

النقطة السادسة : طلب كل فريق تضييف العذاب للآخر .

قال تعالى (هذا فوج مقتحم معكم لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار . قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قدمتموه لنا فبئس القرار . قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار) ^٣ .

وقال تعالى (حتى إذا ادركوا فيها جميعاً قالت أوراهاهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون) ^٤ .

فمصير الجميع من أتباع ومتبوعين هو العذاب الشديد ، ولا ينفع الظالمين يومئذ معذرتهم ولا هم يستعتبون نسأل الله العافية والسلامة .
فبيان هذه المواقف في القرآن إضاءة لمن غشي قلبه ظلام الجهل ، أو العصبية للآباء والأجداد ، وتبصير لمن سولت له نفسه تجاوز أمر الله وإتباع

(١) إبراهيم ٢١ .

(٢) سبأ ٣١ - ٣٣ .

(٣) ص ٥٩ - ٦١ .

(٤) الأعراف ٣٨ .

شياطين الجن والإنس بأن العاقبة وخيمة والمصير أسود ، فهو إنذار له في زمن
الاعتذار .

ثالثاً : تطمين المؤمنين بأن العاقبة لهم .

بين الله تعالى بأن العاقبة والغلبة في نهاية الأمر لعباده المؤمنين .

قال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم
الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم وهم اللعنة وهم سوء الدار)^١ .
وقال تعالى (ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا
وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ
المرسلين)^٢ .

وقال تعالى (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم
نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين)^٣ .

وهذا البيان الرباني لغلبة المؤمنين في نهاية الأمر يزيد المؤمنين قوة إلى قوتهم
ويعطيهم من الدعم المعنوي ما يستطيعون معه مواجهة قوة الباطل في رباطة
جأش وثقة عظيمة بالله تعالى وبنصره لعباده ولو كانوا قليلي
العدد والعدة (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله
مع الصابرين)^٤ .

وهكذا بين لنا القرآن الكريم حقيقة الصراع الذي يعيشه الإنسان في هذه
الدنيا من جميع جوانبه ، والعقبات التي تعوق الإنسان عن أداء المهمة المناطة به
وهي عبادة الله تعالى ، وكيفية النجاة والفوز برضا الله وجنته بياناً كافياً شافياً
لا يبقى بعده حجة لأحد فالحمد لله رب العالمين .

(١) غافر ٥١ — ٥٢ .

(٢) الأنعام ٣٤ .

(٣) يوسف ١١٠ .

(٤) البقرة ٢٤٩ .

الخاتمة

الخاتمة

وفي ختام هذه الرسالة أحب أن أوضح أهم النتائج التي توصلت إليها والمقترحات التي أرى أن يؤخذ بها ليعم النفع وتحصل الفائدة .

النتائج:

توصلت في هذا البحث إلى نتائج هامة عامة وخاصة .

أما النتائج الخاصة فهي مبثوثة في ثنايا الرسالة ، وأقصد بها تلك النتائج التي تتعلق بجزئيات المسائل كمسألة هل يصح أن يقال الإنسان خليفة الله في الأرض ؟ فهذه لا أذكرها هنا ، وإنما أذكر النتائج العامة للبحث ككل .
فمن هذه النتائج :

١- وضوح قضية وجود الإنسان في الإسلام أصلاً وفرعاً ، ويتبين ذلك من خلال بيان القرآن الكريم لها في عدة مواضع منه ، الأمر الذي لم يحصل لمخلوق غيره .

٢- اقترنت قضية خلق الإنسان وبالذات خلق ذرية آدم عليه السلام بإثبات قضية كبرى هي قضية البعث ، ذلك لأنها شاهدة عليها يعرفها كل إنسان ، إذ القادر على الإنشاء ابتداءً قادر على الإعادة انتهاءً .

٣- النظرة السامية للإنسان في الإسلام ، فهو مخلوق حظي بتشريف الله تبارك وتعالى له كما قال تعالى (ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً)^١ .
و هذه النظرة المميزة للإنسان في الإسلام تختلف عن نظرة غير المسلمين إما جملة أو تفصيلاً .

أما اختلافها جملة فهو مع الملاحظة الذين يرون أن أصل الإنسان هونوع من الحيوانات وحيدة الخلايا التي كانت تعيش في المستنقعات في الأزمنة

(١) الإسراء ٧٠ .

السحيفة ثم تطور بعد ذلك كما هو اعتقاد المشويعين أتباع دارون ، و مع الملاحدة الذين يرون أن الإنسان وجد صدفة ، أو الوثنيين الجهلاء الذين لا يعرفون شيئاً عن حقيقة الوجود .

٤- موافقة كثير من الاكتشافات العلمية في العصر الحديث للحقائق القرآنية التي سبقت العلم بقرون طويلة ، وفي هذا دلالة أكيدة للمنصف على صدق الرسول صلى الله عليه وسلم .

٥- يرى الباحث أنه لا مانع من اعتماد الاكتشافات الحديثة في تفسير القرآن الكريم والوصول إلى المعنى الصحيح للآية بشرط أن تكون يقينية ثابتة وليست نظريات ظنية تحمل النقص والتغير .

٦- يرى الباحث أن الموقف السابق من بعض المرويات التي يخالف بعضها بعضاً لا ينبغي أن يتخذ أصلاً لا يمكن تجاوزه خاصة فيما يتعلق بالأمور العلمية ، بل ينبغي على الباحثين تمحيص الأقوال السابقة مع النظر في معطيات العلم الحديث واستخدام القواعد الأصولية للترجيح بين الأقوال المختلفة للخروج بنتائج أكثر دقة ووضوحاً .

وفائدة هذا : الذب عن كتاب الله تعالى ورد سهام الحاقدين الذين لا يتركون فرصة للنيل من الإسلام إلا واستثمروها في تشكيك المسلمين في دينهم رغبة منهم في إضلال المسلمين ، فتأتي هذه الدراسات المتأنية الجادة الرصينة لتبين الحق و تكشف عوار الباطل .

وأرى أن يتعد الباحثون عن المواقف التوفيقية التي يحاول الباحث من خلالها التوفيق بين المتعارضات ولو كان ذلك الربط ضعيفاً لأن مثل ذلك الأمر يضر أكثر مما ينفع ، أما إن كان وجه الربط قوياً وجيهاً فلا بأس به .

٧- الله تبارك وتعالى قد هياً للإنسان أسباب الإيمان ، ومهد له السبيل ، فأنشأه على الفطرة السليمة ، وأعطاه العقل ، و أرسل له الرسل ، وأنزل له الكتب كل ذلك من أجل أن يسلك الإنسان طريق الهداية الموصل إلى

رضوان الله ، و يتعد عن طريق الغواية الموصل إلى سخط الله ومقته .
 ٨- بينت هذه الدراسة جانب العدل الإلهي حيث أن الله سبحانه لم يترك
 الإنسان من غير توجيه بل تفضل سبحانه ببعثة الرسل و إنزال الكتب التي
 توجه الإنسان إلى ما يحبه الله و يرضاه ، فأقام على الناس الحجّة وقطع
 عليهم طريق الاحتجاج .

٩- وضوح مفهوم العبادة عند المسلمين ، ويظهر ذلك في اتفاق
 تعريفات علماء المسلمين لها .

١٠- العبادة في الإسلام شمولية ، و لها ضوابط وخصائص لا يمكن
 تجاوزها ، فمثلاً لا يمكن لأحد أن يشرّع في الإسلام من قبل نفسه ، فالدين
 ثابت والطريقة واضحة .

١١- وضوح طبيعة المعركة بين الإنسان وعدوه الشيطان ، ودخول
 الإنسان إليها بسلاحي العلم والإيمان .

١٢- ركز القرآن الكريم على بيان هذه العداوة لخطورة الشيطان على
 الإنسان ، وبين أساليب الشيطان في إغواء الإنسان ، وصبره على ذلك ، وغير
 ذلك مما قد ذكرت في ثنايا البحث ، كل ذلك من أجل أن يحذر
 الإنسان منه ويتخذ الأسباب المعينة على اتقاء شره .

١٣- أهمية العلم وأنه طريق الإنسان إلى النجاة بعد توفيق الله ، والعلم
 هنا يشمل معرفة الله ، ومعرفة الغاية من الخلق ، ومعرفة المعوقات التي تعوق
 الإنسان عن تحقيق هذه الغاية ، ومعرفة العلاج المفيد لكل معوق .

ويلاحظ أن كثيراً من الناس اليوم إما أن يكون جاهلاً بما سبق و لم يكلف
 نفسه تحري الحق و اتباعه ، وإما أن يكون عرف الحق أو جانباً منه و لم يلتزم
 اتباعه ، وكلا الأمرين سبب من أسباب تخبط البشرية و دخولها في متاهات
 الصراعات التي يصعب الخروج منها ، وكلما تقدم بنا الزمان وزاد

الانحراف عن منهج الله ازدادت تلك المتاهات طويلاً وتعقيداً نظراً لاختلال ميزان الحياة ، ويخشى أن تكون العاقبة هي تدمير الحياة و زوالها .
و المخرج الوحيد للبشرية من هذه الأزمة هو الرجوع إلى منهج الله ،
و اتباع هدى الله الذي جاءت به الرسل كما دل على ذلك آيات الكتاب الكريم .

١٤ - عظم المسئولية الملقاة على عاتق المسلمين في بيان حقيقة الوجود والغاية منه وتذكير الغافل بذلك وتعليم الجاهل به ، وإيضاح الهداية القرآنية للناس بما اشتملت عليه من أوجه الأعجاز بكل جوانبه ، وبما اشتملت عليه من أسلوب إقامة الحجة و البرهان وقطع طريق الاحتجاج على الناس .

إقتراحات:

وفي هذا المقام أحب أن أقترح بعض الاقتراحات منها:

١- أقترح على الدعوة إلى الله تعالى النظر إلى هذا الموضوع بعمق ، ودعوة الناس إليه وتذكيرهم به دائماً ، لأن الناس قد يغفلون عن حقائق كثيرة وبالتالي يسهل على الشيطان إغواءهم ، فكثرة تذكير الناس سبب في هداية بعضهم إلى الطريق الصحيح الذي يوصلهم إلى رضوان الله تعالى .
٢- أقترح على طلاب العلم الكتابة في مثل هذه الموضوعات التي تبين جوانب من الهداية القرآنية ، وفي ثنايا هذه الرسالة بعض الموضوعات التي يضيق المقام عن استيعابها مثل الموضوعات التالية :

— (المجالات التي وجه القرآن الكريم العقل إلى النظر فيها) .

— (مكانة العقل في القرآن الكريم) .

— (النعم الإلهية على الإنسان في القرآن الكريم) .

— (أثر تحقيق العبادة على الفرد والمجتمع) .

— (مجالات الإعجاز العلمي في القرآن و ضوابطها) .

فهذه بعض الموضوعات التي ما زالت بحاجة إلى دراسة أوسع وأعمق .

وأخيراً أعتز أن البحث أعمق من جهد الباحث ، ولكن حسبي أني

بذلت فيه جهدي فما كان فيه من حسن فمن الله سبحانه ، وما كان فيه

من خطأ أو خلل فمني ومن الشيطان ، فالله المستعان وعليه التكلان .

كتبه

• أحمد بن عبد الله بن علي الدروبي

فهرس المراجع والمصادر

فهرس المراجع والمصادر

- ١ — القرآن الكريم .
- ٢ — الإبهاج في شرح المنهاج .
لعلي بن عبد الكافي السبكي ، وولده تاج الدين عبد الوهاب بن علي ، كتب
هوامشه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر — دار الكتب
العلمية — بيروت — لبنان — الطبعة الأولى — ١٤٠٤ هـ .
- ٣ — الإقتان في علوم القرآن .
للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي — تقديم وتعليق الدكتور
مصطفى البغا — دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع — دمشق — الطبعة
الأولى — ١٤٠٧ هـ .
- ٤ — الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة .
للإمام أبي الحسنات محمد بن عبد الحي اللكنوي الهندي — دار البشائر
الإسلامية — بيروت — لبنان — الطبعة الثالثة — ١٤١٤ هـ .
- ٥ — أحكام القرآن .
لأبي بكر محمد بن عبد الله المعروف بابن العربي — تحقيق علي محمد
البجاوي — دار المعرفة — بيروت — لبنان — الطبعة الثالثة .
- ٦ — الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان .
للأمير علاء الدين بن بلبان الفارسي — قدم له وضبط نصه كمال يوسف
الحوت — دار الكتب العلمية — بيروت — الطبعة الأولى — ١٤٠٧ هـ .
- ٧ — إحياء علوم الدين .
لأبي حامد الغزالي — دار الكتب العلمية .
- ٨ — آدم عليه السلام .
للبيهي الخولي — مكتبة وهبة — القاهرة — الطبعة الثالثة — ١٣٩٤ هـ .

- ٩ — إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول .
 محمد بن علي الشوكاني — دار الفكر .
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم = تفسير أبي السعود .
- ١٠ — إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل .
 لمحمد ناصر الدين الألباني — بإشراف زهير الشاويش — المكتب الإسلامي — بيروت — دمشق — الطبعة الثانية — ١٤٠٥ هـ .
- ١١ — استخلاف الإنسان في الأرض .
 للدكتور فاروق الدسوقي — المكتب الإسلامي — بيروت — دمشق — الطبعة الثانية — ١٤٠٦ هـ .
- ١٢ — الإسرائيليات والموضوعات في التفسير .
 لمحمد بن محمد أبوشهبة — مكتبة السنة — القاهرة — الطبعة الرابعة — ١٤٠٨ هـ .
- ١٣ — الإصابة في تمييز الصحابة .
 للحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني — دار الكتب العلمية — لبنان .
- ١٤ — أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن .
 للشیخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي — الناشر : مكتبة ابن تيمية — القاهرة — ١٤٠٨ هـ .
- ١٥ — الاعتصام .
 لأبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي — تعريف محمد رشيد رضا — دار الفكر .
- ١٦ — الأعلام .
 لخیر الدین الزركلي — دار العلم للملايين — بيروت — الطبعة السابعة — ١٩٨٦ م .

- ١٧ — أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري .
 للإمام سليمان حمد بن محمد الخطابي — تحقيق الدكتور محمد بن سعد بن
 عبد الرحمن آل سعود — الناشر : معهد البحوث العلمية وإحياء التراث
 الإسلامي بجامعة أم القرى — الطبعة الأولى — ١٤٠٩ هـ .
- ١٨ — إعلام الموقعين عن رب العالمين .
 للإمام أبي عبدالله محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية — تحقيق محمد
 محي الدين عبد الحميد .
- ١٩ — إغاثة اللفهان من مصايد الشيطان .
 لابن قيم الجوزية — تحقيق محمد حامد الفقي — دار الكتب العلمية — بيروت
 — لبنان — ١٤١٢ هـ .
- ٢٠ — الله يتجلى في عصر العلم .
 تأليف نخبة من العلماء الأمريكيين — أشرف على تحريره جون كلوفر
 مونسيما — ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد — راجعه وعلق عليه
 الدكتور محمد جمال الدين الأفندي — دار القلم — بيروت .
- ٢١ — الإنسان بين المادية والإسلام .
 لمحمد قطب — دار الشروق — الطبعة الرابعة — ١٤١٥ هـ .
- ٢٢ — الإنسان في القرآن .
 لعباس محمود العقاد — دار نهضة مصر للطباعة والنشر — الفجالة — القاهرة .
- ٢٣ — الإنسان في القرآن .
 لأحمد إبراهيم مهنا — مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية — القاهرة —
 ١٩٧١ م .
- ٢٤ — الإنسان في القرآن من البداية إلى النهاية .
 لعبد الكريم الخطيب — دار الفكر العربي — الطبعة الأولى — ١٩٧٩ م .

- ٢٥ — الإنسان وجوده وخلافته في الأرض — في ضوء القرآن الكريم .
 للدكتور عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي — دار عالم الكتب
 بالرياض — الطبعة الثانية — ١٤١٣ هـ .
- أنوار التنزيل وأسرار التأويل = تفسير البيضاوي .
 ٢٦ — إنه الحق .
- من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي للقرآن والسنة برابطة العالم
 الإسلامي بمكة .
- ٢٧ — البداية والنهاية .
 للحافظ إسماعيل بن عمر بن كثير — تحقيق الدكتور أحمد أبو
 ملحم — الدكتور علي نجيب عطوي — الأستاذ فؤاد السيد — الأستاذ
 مهدي ناصر الدين — الأستاذ علي عبد الستار — دار الكتب
 العلمية — بيروت — الطبعة الرابعة — ١٤٠٨ هـ .
- ٢٨ — البرهان في علوم القرآن .
 للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي — تحقيق محمد أبو
 الفضل إبراهيم — دار الفكر العربي — الطبعة الثالثة — ١٤٠٠ هـ .
- ٢٩ — البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن .
 لكمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم الزملكاني — تحقيق الدكتورة خديجة
 الحديثي — الدكتور أحمد مطلوب — مطبعة العاني — بغداد — ١٣٩٤ هـ
- ٣٠ — بلوغ المرام . (المطبوع مع شرحه سبل السلام) .
 للحافظ أحمد بن علي بن حجر — تحقيق فواز أحمد زمرلي — إبراهيم محمد
 الجمل — دار الكتاب العربي — الطبعة الثالثة — ١٤٠٧ هـ .
- ٣١ — تاريخ بغداد .
 لأحمد بن علي بن ثابت المعروف بالخطيب البغدادي — تصوير دار
 الكتاب العربي .

٣٢ — تأريخ الثقافات .

للحافظ أحمد بن عبد الله بن صالح العجلي — بترتيب الحافظ نور الدين الهيثمي ، وتضمنات الحافظ بن حجر العسقلاني — تحقيق الدكتور عبد المعطي قلعجي — دار الكتب العلمية — الطبعة الأولى — ١٤٠٦ هـ —

٣٣ — تأويل مختلف الحديث .

للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري — دار الكتاب العربي — بيروت .

٣٤ — التبيان في أقسام القرآن .

لابن قيم الجوزية — تصحيح وتعليق محمد حامد الفقي — دار المعرفة للطباعة والنشر — لبنان .

٣٥ — تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين من كلام سيد المرسلين .

للإمام محمد بن علي الشوكاني — دار الكتب العلمية .

٣٦ — التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار .

للحافظ أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد ابن رجب الحنبلي — مكتبة دار البيان — دمشق — الطبعة الأولى — ١٣٩٩ هـ .

٣٧ — تذكرة الحفاظ .

للإمام أبي عبد الله شمس الدين محمد الذهبي — تصحيح عبد الرحمن بن يحيى المعلمي — دار الكتب العلمية .

٣٨ — التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة .

لشمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي — مكتبة أسامة الإسلامية .

٣٩ — التعريفات .

للشريف علي بن محمد الجرجاني — دار الكتب العلمية — الطبعة الثالثة — ١٤٠٨ هـ .

- ٤٠ — تفسير البغوي = معالم التنزيل .
 للإمام أبي محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوي الشافعي — ضبط وتصحيح
 عبد السلام محمد علي شاهين — دار الكتب العلمية — الطبعة الأولى —
 ١٤١٥ هـ .
- ٤١ — تفسير البيضاوي = أنوار التنزيل وأسرار التأويل .
 للقاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي — دار
 الكتب العلمية — الطبعة الأولى — ١٤٠٨ هـ .
- ٤٢ — تفسير ابن جرير الطبري = جامع البيان عن تأويل آي القرآن .
 للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري — ضبط وتوثيق وتخريج صدقي جميل
 العطار — دار الفكر — ١٤١٥ هـ .
- ٤٣ — تفسير ابن جزى = كتاب التسهيل لعلوم التنزيل .
 للإمام محمد بن أحمد بن جزى الكلبي الغرناطي — تحقيق محمد عبدالمنعم
 اليونسي ، إبراهيم عطوة عوض — الناشر : أم القرى للطباعة والنشر —
 القاهرة .
- ٤٤ — تفسير ابن الجوزي = زاد المسير إلى علم التفسير .
 للإمام أبي الفرج جمال الدين عبدالرحمن بن علي بن محمد الجوزي — تحقيق
 زهير الشاويش — المكتب الإسلامي — الطبعة الثالثة — ١٤٠٨ هـ .
- ٤٥ — تفسير الخازن = لباب التأويل في معاني التنزيل .
 للإمام علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم البغدادي الشهير
 بالخازن — ضبط وتصحيح عبد السلام محمد علي شاهين — دار الكتب
 العلمية — الطبعة الأولى — ١٤١٥ هـ .
- ٤٦ — تفسير الرازي = التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب .
 للإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي — دار الغد
 العربي — الطبعة الأولى — ١٤١٢ هـ .

- تفسير الزمخشري = الكشاف .
- ٤٧ — تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم .
للقاضي أبي السعود محمد بن محمد العمادي — دار إحياء التراث
العربي — بيروت — الطبعة الثانية — ١٤١١ هـ .
- تفسير الشوكاني = فتح القدير .
- تفسير بن عطية = المحرر الوجيز
- ٤٨ — تفسير غريب القرآن .
للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري — تحقيق السيد أحمد
صقر — دار الكتب العلمية — ١٣٩٨ هـ .
- ٤٩ — تفسير الفراء = معاني القرآن .
لأبي زكريا يحيى بن زياد الفراء — تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، محمد علي
النجار .
- ٥٠ — تفسير القرطبي = الجامع لأحكام القرآن .
لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي — دار الكتب العلمية — ١٤١٣ هـ .
- ٥٢ — تفسير ابن كثير = تفسير القرآن العظيم .
للحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرني الدمشقي — دار
المعرفة — بيروت — ١٤٠٣ هـ .
- ٥٣ — تفسير المنار = تفسير القرآن الحكيم .
لمحمد رشيد رضا — دار المعرفة — بيروت — ١٤١٤ هـ .
- ٥٤ — تفسير النحاس = معاني القرآن الكريم .
للإمام أبي جعفر النحاس — تحقيق محمد علي الصابوني — معهد البحوث
العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة — الطبعة الأولى —
١٤٠٨ هـ .
- ٥٥ — تفسير النسفي = مدارك التنزيل وحقائق التأويل .

- للإمام عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي — قدم له قاسم الشماعي
الرفاعي — راجعه وضبطه إبراهيم محمد رمضان — الطبعة الأولى — ١٤٠٨ هـ
- ٥٦ — التفسير والمفسرون .
للدكتور محمد حسين الذهبي — مؤسسة التاريخ العربي — دار إحياء التراث
العربي — الطبعة الثانية — ١٣٩٦ هـ .
- ٥٧ — تفصيل آيات القرآن الحكيم لجول لابوم ومعه المستدرك لادوار
مونتيه — نقلهما إلى العربية محمد فؤاد عبد الباقي — دار الفكر .
- ٥٨ — تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين .
لأبي الحسين القاسم بن محمد المفضل المعروف بالراغب الأصفهاني — تحقيق
الدكتور عبد المجيد النجار — دار الغرب الإسلامي — الطبعة الأولى —
١٤٠٨ هـ .
- ٥٩ — تقريب التهذيب .
للمحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني — تحقيق عبد الوهاب
عبد اللطيف — دار المعرفة — ملتزم نشره محمد سلطان المنكاني صاحب
المكتبة العلمية — بالمدينة المنورة .
- ٦٠ — التقييد والإيضاح شرح مقدمة بن الصلاح .
للمحافظ زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي — تحقيق عبد الرحمن محمد
عثمان — دار الفكر .
- ٦١ — التكريم الإلهي للإنسان .
للدكتور محمد الزحيلي — دار القلم — الطبعة الأولى — ١٤١٥ هـ .
- ٦٢ — تهذيب التهذيب .
للمحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني — تقديم الشيخ خليل الميس — دار
الفكر — بيروت — الطبعة الأولى — ١٤٠٤ هـ .

٦٣ — الثقات .

لمحمد بن حبان البستي — تصحيح السيد عزيز بك ، تنقيح محمد عبد المعيد
خان — مطبوعات مجلس دائرة المعارف العثمانية — حيدر آباد الدكن —

١٣٩٣ هـ .

— جامع البيان عن تأويل آي القرآن = تفسير بن جرير .

٦٤ — جامع بيان العلم وفضله .

للإمام أبي عمر يوسف بن عبد البر — تحقيق أبي الأشبال الزهيري — دار

ابن الجوزي — الطبعة الأولى — ١٤١٤ هـ .

٦٥ — جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم .

للإمام زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي — دار

المعرفة للطباعة والنشر — بيروت .

٦٦ — حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح .

للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية — دار الكتب

العلمية — الطبعة الأولى — ١٤٠٣ هـ .

٦٧ — حكمة إرسال الرسل .

للشيخ محمد بن صالح العثيمين — الناشر شمس — الرياض — المنصورة .

٦٨ — خلق الإنسان بين الطب والقرآن .

للدكتور محمد علي البار — الدار السعودية للنشر والتوزيع — الطبعة

العاشرة — ١٤١٥ هـ .

٦٩ — درة التزليل وغرة التأويل .

للخطيب الإسكافي — طبعة دار الآفاق الجديدة ١٩٧٩ م .

٧٠ — الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة .

للمحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني — تحقيق محمد سيد جاد

الحق — الناشر أم القرى للطباعة والنشر — القاهرة .

- ٧١— الذريعة إلى مكارم الشريعة .
 للحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني — تحقيق أبو اليزيد العجمي
 — دار الوفاء — المنصورة — الطبعة الثانية — ١٤٠٨ هـ .
- ٧٢— الرسالة للإمام محمد بن إدريس الشافعي — تحقيق وشرح أحمد محمد
 شاكر — مكتبة دار التراث — القاهرة — الطبعة الثانية — ١٣٩٩ هـ .
- ٧٣ — الروح .
 للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية — تحقيق
 وتعليق محمد اسكندريلدا — دار الكتب العلمية — الطبعة الأولى — ١٤٠٢
 — زاد المسير في علم التفسير = تفسير ابن الجوزي .
- ٧٤ — زاد المعاد في هدي خير العباد .
 للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بان قيم الجوزية — تحقيق
 شعيب الأرناؤوط ، عبد القادر الأرناؤوط — مؤسسة الرسالة ، مكتبة المنار
 الإسلامية — الطبعة السادسة — ١٤٠٤ هـ .
- ٧٥ — سلسلة الأحاديث الصحيحة .
 لمحمد ناصر الدين الألباني — المكتب الإسلامي ، مكتبة المعارف — الطبعة
 الرابعة — ١٤٠٥ هـ .
- ٧٦ — سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة .
 لمحمد ناصر الدين الألباني — المكتب الإسلامي ، مكتبة المعارف — الطبعة
 الخامسة — ١٤٠٥ هـ .
- ٧٧ — سنن الترمذي = الجامع الصحيح .
 لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي — بتحقيق وشرح أحمد محمد
 شاكر — دار الكتب العلمية — بيروت .

- ٧٨ — سنن الدارمي .
 للإمام عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي — تحقيق فواز أحمد زمرلي، خالد السبع
 العلمي — دار الريان للتراث — القاهرة — الطبعة الأولى — ١٤٠٧ هـ .
- ٧٩ — سنن أبي داود (ومعه كتاب معالم السنن للخطابي) .
 للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني — إعداد وتعليق عزت
 عبيد الدعاس ، عادل السيد — دار الحديث للطباعة
 والنشر — بيروت — الطبعة الأولى — ١٣٨٨ هـ .
- ٨٠ — سنن ابن ماجه .
 للإمام أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني — تحقيق محمد فؤاد
 عبد الباقي — دار إحياء التراث العربي — ١٣٩٥ هـ .
- ٨١ — سنن النسائي = السنن الكبرى .
 للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي — تحقيق الدكتور
 عبد الغفار سليمان البنداري ، سيد كسروي حسن — دار الكتب
 العلمية — الطبعة الأولى — ١٤١١ هـ .
- ٨٢ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب .
 لعبد الحي بن أحمد الحنبلي المعروف بابن العماد — بيروت — المكتب
 التجاري .
- ٨٣ — شرح العقيدة الطحاوية .
 للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي — تحقيق بشير محمد
 عيون — مكتبة دار البيان — بيروت — الطبعة الأولى — ١٤٠٥ هـ .
- ٨٤ — شرح الكافية الشافية .
 لجمال الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن مالك الطائي الجبالي — تحقيق
 الدكتور عبد المنعم أحمد هريدي — دار المأمون للتراث — من منشورات

مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى — الطبعة الأولى — ١٤٠٢ هـ .

٨٥ — شرح الكوكب المنير = مختصر التحرير أو المختبر المبتكر شرح المختصر .

للشيخ محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتوح الحنبلي المعروف بابن النجار — تحقيق الدكتور محمد الزحيلي ، والدكتور نزيه حماد — من منشورات مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى — الطبعة الثانية — ١٤١٣ هـ .

٨٦ — شرح مسلم للنووي .

لحي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي — دار الفكر — ١٤٠١ هـ .

٨٧ — شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل .

للإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية — دار الكتب العلمية — الطبعة الأولى — ١٤٠٧ هـ .

٨٨ — صحيح البخاري (المطبوع مع شرحه فتح الباري) .

للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري — رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي — دار المعرفة — بيروت .

٨٩ — صحيح الجامع الصغير وزيادته .

لمحمد ناصر الدين الألباني — المكتب الإسلامي — بيروت — دمشق — الطبعة الثالثة — ١٤٠٢ هـ .

٩٠ — صحيح مسلم .

للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري — تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي — دار الحديث — القاهرة — الطبعة الأولى — ١٤١٢ هـ .

- ٩١ — العبادة في الإسلام .
 للدكتور يوسف القرضاوي — مكتبة وهبة — القاهرة — الطبعة
 الخامسة عشرة — ١٤٠٥ هـ .
- ٩٢ — العبودية .
 لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحرانی — تقديم الأستاذ
 عبد الرحمن البانی — المكتب الإسلامي — الطبعة السادسة — ١٤٠٣ هـ .
- ٩٣ — علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة .
 من إصدارات هيئة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة التابع لرابطة العالم
 الإسلامي بمكة المكرمة .
- ٩٤ — العلم يدعو للإيمان .
 كريسي موريسون — ترجمة الأستاذ محمود صالح الفلكي — تصدير أحمد
 حسن الباقوري — تقديم الدكتور أحمد زكي — مكتبة النهضة
 المصرية — بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر — الطبعة
 الخامسة — ١٩٦٥ م .
- ٩٥ — عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ .
 لشهاب الدين أحمد بن يوسف بن محمد الحلبي المعروف بالسمين
 الحلبي — تحقيق محمود محمد السيد الدغيم — دار السيد للنشر — الطبعة
 الأولى — ١٤٠٧ هـ .
- ٩٦ — غاية الإحسان في خلق الإنسان .
 للإمام جلال الدين السيوطي — تحقيق مرزوق علي إبراهيم — دار الفضيلة
 للنشر والتوزيع — القاهرة .
- ٩٧ — فتاوى شيخ الإسلام بن تیمیة = مجموع فتاوى شيخ الإسلام .
 جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد قاسم العاصمي النجدي الحنبلي وابنه
 محمد — تصوير الطبعة الأولى ١٣٩٨ هـ .

- ٩٨ — فتاوى ومسائل ابن الصلاح في التفسير والحديث والأصول والفقه .
تحقيق الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي — دار المعرفة — بيروت — الطبعة
الأولى — ١٤٠٦ هـ .
- ٩٩ — فتح الباري بشرح صحيح البخاري .
للمحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني — بإشراف الشيخ عبد العزيز بن
عبد الله بن باز — دار المعرفة — بيروت .
- ١٠٠ — فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن .
للإمام يحيى بن زكريا الأنصاري — تحقيق محمد علي الصابوني — دار
القرآن الكريم — بيروت — الطبعة الأولى — ١٤٠٣ هـ .
- ١٠١ — فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير .
لمحمد بن علي الشوكاني — شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى الباي الحلبي
وأولاده بمصر — الطبعة الثانية — ١٣٨٣ هـ .
- ١٠٢ — الفهرست .
لمحمد بن إسحاق النديم المعروف بابن النديم — باعتناء إبراهيم رمضان — دار
المعرفة — بيروت — الطبعة الأولى — ١٤١٥ هـ .
- ١٠٣ — في ظلال القرآن .
سيد قطب — دار العلم للطباعة والنشر بجدة — الطبعة
الثانية عشرة — ١٤٠٦ هـ .
- ١٠٤ — القاموس المحيط .
لمحمد بن يعقوب الفيروز آبادي — تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة
الرسالة — مؤسسة الرسالة — الطبعة الأولى — ١٤٠٦ هـ .
- ١٠٥ — القرآن والطب .
للدكتور الحاج محمد وصفي — بعناية بسام عبد الوهاب الجابي — دار ابن
حزم للطباعة والنشر — الطبعة الأولى — ١٤١٦ هـ .

- ١٠٦ — القرآن وقضايا الإنسان .
 للدكتورة عائشة بنت عبد الرحمن الشاطي — دار العلم للملايين — بيروت
 — الطبعة الثالثة — ١٩٧٨ م .
- ١٠٧ — قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث .
 لمحمد جمال الدين القاسمي — دار إحياء السنة النبوية — الطبعة الأولى — ١٣٩٩
 ١٠٨ — الكامل في اللغة والأدب .
 لأبي العباس محمد بن يزيد المعروف بالمررد النحوي — كتب هوامشه نعيم
 زرزور، تغاريد بيضون — دار الكتب العلمية — الطبعة الأولى — ١٤٠٧ هـ
- ١٠٩ — الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .
 لجار الله محمود بن عمر الزمخشري — تحقيق محمد الصادق القمحاوي —
 شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر — الطبعة
 الأخيرة ١٣٩٢ هـ .
- ١١٠ — كل مولود يولد على الفطرة .
 للإمام تقي الدين السبكي — حققه وعلق عليه محمد السيد أبو عمه — دار
 الصحابة للتراث بطنطا — الطبعة الأولى — ١٤١٠ هـ .
- ١١١ — الكلم الطيب .
 لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني — تحقيق محمد ناصر الدين
 الألباني — المكتب الإسلامي — الطبعة الرابعة — ١٣٩٩ هـ .
- ١١٢ — كلمة الإخلاص وتحقيق معناها .
 لابن رجب الحنبلي — حققها زهير الشاويش — خرج أحاديثها محمد ناصر
 الدين الألباني — المكتب الإسلامي — الطبعة الخامسة — ١٣٩٩ هـ .
- ١١٣ — لا يصح أن يقال إنسان خليفة عن الله في أرضه .
 عبد الرحمن حبنكة الميداني — مؤسسة الريان للطباعة والنشر — بيروت —
 الطبعة الأولى — ١٤١٦ هـ .

- لباب التأويل في معاني الترتيل = تفسير الخازن .
- ١١٤ — اللباب في تهذيب الإنسان .
- لابن الأثير الجزري — تحقيق الدكتور مصطفى عبد الواحد — مطبعة دار التأليف .
- ١١٥ — لسان العرب .
- لمحمد بن مكرم بن علي الأنصاري المشهور بابن منظور — نسقه وعلق عليه ووضع فهرسه مكتب تحقيق التراث — دار إحياء التراث العربي ، مؤسسة التاريخ العربي — الطبعة الثالثة — ١٤١٣ هـ .
- ١١٦ — لسان الميزان .
- للمحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني — دار الكتاب الإسلامي — القاهرة — الطبعة الأولى .
- ١١٧ — ما أصل الإنسان ، إجابات العلم والكتب المقدسة .
- للدكتور موريس بوكاي — قام بالترجمة مكتب التربية العربي لدول الخليج — الطبعة الثانية عشرة — ١٩٨٥ م .
- ١١٨ — متشابه القرآن .
- لأحمد بن جعفر بن محمد المنادي المعروف بابن المنادي — تحقيق الدكتور عبد الله الغنيمان — الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤٠٨ هـ .
- ١١٩ — المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز .
- للقاضي أبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي — تحقيق عبد السلام عبد الشافي — دار الكتب العلمية — الطبعة الأولى — ١٤١٣ هـ .
- مدارك الترتيل وحقائق التأويل = تفسير النسفي .

- ١٢٠- المساعد على تسهيل الفوائد .
- للإمام بهاء الدين بن عقيل - تحقيق وتعليق الدكتور محمد كامل
بركات - طبعة دار الفكر بدمشق - صادر عن مركز البحث العلمي وإحياء
التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة - الطبعة الأولى - ١٤٠٢ هـ .
- ١٢١- المستدرك .
- للإمام أبي عبد الله الحاكم - مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب تصوير محمد
أمين دمج - بيروت .
- ١٢٢- المسند .
- للإمام أحمد بن محمد بن حنبل - نشر المكتب الإسلامي - الطبعة الخامسة
- ١٤٠٥ هـ .
- معالم الترتيل = تفسير البغوي .
- معاني القرآن = تفسير الفراء .
- معاني القرآن الكريم = تفسير النحاس .
- ١٢٣- مشكاة المصابيح .
- محمد بن عبد الله الخطيب التبريزي - تحقيق محمد ناصر الدين
الألباني - المكتب الإسلامي - الطبعة الثانية - ١٣٩٩ هـ .
- ١٢٤- مصائب الإنسان من مكائد الشيطان .
- للشيخ تقي الدين أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن مفلح الحنبلي - كتب
هوامشه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر - دار الكتب
العلمية - الطبعة الأولى - ١٤٠٤ هـ .
- ١٢٥- معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول في التوحيد .
- للشيخ حافظ بن أحمد حكيمي - المكتبة السلفية ومطبعتها .

- ١٢٦ — معترك الأقران في إعجاز القرآن .
 للحافظ جلال الدين السيوطي — تحقيق علي محمد البجاوي — دار الفكر
 العربي — ١٩٦٩ م .
- ١٢٧ — المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .
 لمحمد فؤاد عبد الباقي — المكتبة الإسلامية — استانبول — تركيا — ١٩٨٤ .
- ١٢٨ — معجم مقاييس اللغة .
 لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا — تحقيق وضبط عبد السلام محمد
 هارون — دار الجبل — الطبعة الأولى — ١٤١١ هـ .
- ١٢٩ — مع الطب في القرآن .
 الدكتور عبد الحميد دياب ، الدكتور أحمد قرقوز — مؤسسة علوم
 القرآن — الطبعة السادسة — ١٤٠٣ هـ .
- ١٣٠ — المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من
 أخبار . (مطبوع بهامش الإحياء) .
 للحافظ عبد الرحيم بن الحسين العراقي — دار الكتب العلمية .
- ١٣١ — مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة .
 للإمام محمد بن أبي بكر المعروف بابن قيم الجوزية — دار الكتب العلمية .
- ١٣٢ — المفردات في غريب القرآن = مفردات الراغب .
 لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني — تحقيق وضبط
 محمد سيد الكيلاني — دار المعرفة — بيروت .
- ١٣٣ — ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل .
 لأبي جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير الغرناطي — تحقيق سعيد الفلاح — دار
 الغرب الإسلامي — الطبعة الأولى — ١٤٠٣ هـ .

- ١٣٤ — المنتظم في تاريخ الملوك والأمم .
 لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي — مطبعة دائرة المعارف
 الإسلامية بمحدر آباد الدكن عام ١٣٥٨هـ .
- ١٣٥ — منهاج السنة النبوية .
 لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحرانی — تحقیق الدكتور محمد
 رشاد سالم — مكتبة ابن تیمیة — القاهرة — الطبعة الثانية — ١٤٠٩ هـ .
- ١٣٦ — الموافقات في أصول الشريعة .
 للإمام أبي إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي — عني بضبطه وترقيمه
 الأستاذ محمد عبد الله دراز — دار المعرفة — بيروت .
- ١٣٧ — ميزان الاعتدال في نقد الرجال .
 لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي — تحقیق علي محمد
 البجاوي — دار الفكر .
- ١٣٨ — النبوات .
 لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحلیم بن تیمیة الحرانی — دار الكتب
 العلمية — ١٤٠٢هـ .
- ١٣٩ — نزهة النظر شرح نخبة الفكر .
 للحافظ أحمد بن علي بن حجر — الناشر المكتبة العلمية في المدينة
 المنورة — الطبعة الثالثة .
- ١٤٠ — نصوص قرآنية في النفس الإنسانية .
 للدكتور عز الدين إسماعيل — طبع ونشر دار النشر المغربية — ١٩٧٦ م .

ملاحظة :

المراجع التي لم يذكر فيها رقم الطبعة أو تأريخها سببه عدم وجود هذه
 المعلومات على الكتب التي اعتمدت عليها .

فهرس الآيات

فهرس الآيات

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٢٧٤، ٢٤٠	٢٣	البقرة	وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا
٣٢٧	٢٥	=	ولهم فيها أزواج مطهرة
٥٥، ٢٥	٣٠	=	وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل
١٣٥، ٤٢	٣٥	=	اسكن أنت وزوجك الجنة
١٦٤، ١٦٣، ١٥٠، ١٤٠	٣٦	=	فأزلهما الشيطان عنها
١٥٢، ٤٧	٣٧	=	فتلقى آدم من ربه كلمات
٢٠٣، ١٦٦، ١٦٣	٣٨	=	قلنا اهبطوا منها جميعا
٦٩	٤٩	=	وإذ نجيناكم من آل فرعون
٣٢٨	٨٢	=	و الذين آمنوا وعملوا الصالحات
٣٩٠	١٠٥	=	ما يود الذين كفروا من أهل
٣٨٩	١٠٩	=	ود كثير من أهل الكتاب
٢٥٣	١٥١	=	كما أرسلنا فيكم رسولا
٢٣٤	١٦٤	=	إن في خلق السموات والأرض
١٩٧	١٦٥	=	ومن الناس من يتخذ من دون الله
٤٠٩	١٦٩-١٦٨	=	يا أيها الناس كلوا مما في الأرض
٢٨٨، ١٨٢	١٧٨	=	كتب عليكم القصاص في القتلى
٣٩٥، ٢٩٢	١٨٥	=	يريد الله بكم اليسر
٤٠٩	٢٠٨	=	ادخلوا في السلم كافة
٢٧٠، ٢٦٧، ٢٥٢	٢١٣	=	كان الناس أمة واحدة
١٥٧	٢٢٢	=	إن الله يحب التوابين

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٢٠٥	٢٣٣	البقرة	لا تكلف نفس إلا وسعها
٢٢٩	٢٤٢	=	كذلك يبين الله لكم آياته
١٩٠	٢٥٦	=	لا إكراه في الدين
٣٠٩ ، ٢٩٧	٢٨١	=	و اتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله
٣٨٥ ، ٣٨١ ، ٢٠٥	٢٨٦	=	لا يكلف الله نفساً إلا وسعها
٣٧٢ ، ٣٦٦ ، ١٨٥	١٤	آل عمران	زين للناس حب الشهوات
٣٣١	١٥	=	قل أو نبئكم بخير من ذلكم
٢٦٣	١٩	=	إن الدين عند الله الإسلام
٣٤١ ، ٢٨٥ ، ١٩٧	٣١	=	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني
٢٦٥ ، ٢٥٥	٣٣	=	إن الله اصطفى آدم ونوحاً
١٠٠	٤٠	=	قال رب أنى يكون لي غلام
٣٦ ، ٣١	٥٩	=	إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم
٤٣٤	٧٣-٧٢	=	وقالت طائفة من أهل الكتاب
٢٦٣	٨٣	=	أفغير دين الله يبغون
٣٥٢	٩١	=	إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار
٢٩٨	١٠٢	=	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله
٢٦٦	١٠٣	=	و اذكروا إذ كنتم أعداء
٣٣٦	١٣٣	=	وسارعوا إلى مغفرة من ربكم
٣٧٥ ، ٤٧	١٣٦-١٣٥	=	و الذين إذا فعلوا فاحشة
٤١٣	١٥٥	=	إن الذين تولوا منكم يوم التقى
٢٥٦	١٥٩	=	فبما رحمت من الله لنت لهم
٢٨٥	١٦٤	=	لقد من الله على المؤمنين إذ بعث

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٤١٤	١٧٥	آل عمران	إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه
٣٧٠ ، ٣٢٩ ، ٢٩٧	١٨٥	=	كل نفس ذائقة الموت
٣٨٤	١٩١	=	الذين يذكرون الله قياما وقعودا
٣٧٠	١٩٧	=	متاع قليل ثم مأواهم جهنم
٧٥	١	النساء	يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي
٥٨	٤	=	فإن طبن لكم عن شيء منه
٣٧٣	٢٧	=	و الله يريد أن يتوب عليكم
٣٦٦	٢٨	=	وخلق الإنسان ضعيفا
٤٣٦	٥١	=	ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً
٣٥٨	٥٦	=	إن الذين كفروا بآياتنا سوف
٢٦٩	٥٩	=	فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله
٣٤١ ، ٢٧٠ ، ٥٠	٦٥	=	فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك
٤٠١	٧٦	=	إن كيد الشيطان كان ضعيفا
٣٧٠	٧٧	=	قل متاع الدنيا قليل
٢٧٢ ، ٢٠٠	٨٢	=	أفلا يتدبرون القرآن
٤٣١	٨٣	=	و لولا فضل الله عليكم ورحمته
٣٣٩	١١٦	=	إن الله لا يغفر أن يشرك به
٤٢٠	١٢٠	=	يعدهم ويمنيهم
١٩٥	١٢٥	=	ومن أحسن ديناً ممن أسلم وجهه
٣٨٧	١٣٥	=	فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا
٢٨٦	١٤٦	=	وأخلصوا دينهم لله فأولئك
٢٥٠ ، ٢٠٠	١٦٥	=	رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٣٨٨	١٧٣	النساء	و أما الذين استنكفوا واستكبروا
٢٠٤	٣	المائدة	اليوم أكملت لكم دينكم
٢٠٥	٦	=	ما يريد الله ليجعل عليك من حرج
٣٨٢	١٣	=	فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم
٣٨٢	١٤	=	ومن الذين قالوا إنا نصارى
٣٦١ ، ١	١٦-١٥	=	قد جاءكم من الله نور وكتاب
٢٧١ ، ٢٧٠	٤٤	=	إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور
٢٧١	٤٦	=	و آتيناها الإنجيل فيه هدى ونور
٢٧٢ ، ٢٥٣	٤٨	=	و أنزلنا إليك الكتاب بالحق
١٩٧	٥٤	=	يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم
٢٩٣ ، ٢٧٣ ، ٢٦٧	٦٦	=	و لو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل
٢٥٠	٧٢	=	وقال المسيح يا بني إسرائيل
٤٢٦ ، ٤١٦	٩١ - ٩٠	=	يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر
٣٤	٢	الأنعام	هو الذي خلقكم من طين
١٦٠	٦	=	ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم
١٣٧ ، ٢٣٣	١١	=	قل سيروا في الأرض ثم انظروا
٣٥١	٢٨-٢٧	=	ولو ترى إذ وقفوا على النار
٤٣٣ ، ٣٨٨ ، ٤٦	٣٣	=	فإنهم لا يكذبونك
٣٨٢	٤٥-٤٤	=	فلما نسوا ما ذكروا به
٢٥٠	٤٨	=	وما نرسل المرسلين إلا مبشرين
٢٤٣	٦٤-٦٣	=	قل من ينجيكم من ظلمات البر
٣١٠	٨٢	=	الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٢٤٥	٨٣	الأنعام	و تلك حجتنا آتيناها إبراهيم
٤٣٢، ٤١٩، ٤١٨	١١٢	=	وكذلك جعلنا لكل نبي عدوا
٥٣	١١٦	=	و إن تطع أكثر من في الأرض
٤٣٥، ٤١٧	١٢١	=	ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه
٢٥٤	١٢٤	=	الله أعلم حيث يجعل رسالته
١٧٨	١٣٣	=	إن يشأ يذهبكم ويستخلف
٤١١	١٤٢	=	ومن الأنعام حمولة وفرشا
٤٣٥	١٤٨	=	سيقول الذين أشركوا
٣٨٧	١٥٠	=	و لا تتبع أهواء الذين كذبوا
٢٠٥	١٥٢	=	لا نكلف نفسا إلا وسعها
٢٠١	١٦٢	=	قل إن صلاتي ونسكي ومحياي
٥٦	١٦٥	=	وهو الذي جعلكم خلائف الأرض
٢٦١	١١	الأعراف	ولقد خلقناكم ثم صورناكم
٤٠٤، ٤٤٤	١٧-١٦	=	قال فيما أغويتني لأقعدن لهم
١٣٥	١٩	=	و يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة
١٤٨، ١٤٠، ٤٥	٢٠	=	فوسوس لهما الشيطان ليدي لهما
١٦٠، ١٤٨، ١٤٧	٢٢	=	فلما ذاقا الشجرة بدت لهما
١٥٢، ٤٧	٢٣	=	قالا ربنا ظلمنا أنفسنا
١٦٣، ١٥١	٢٤	=	قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو
١٤٨	٢٦	=	يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان
٤١١	٢٧	=	إنه يراكم هو وقبيله من حيث
٢٢٥، ٢٢٣، ٢٢٢	٢٩	=	كما بدأكم تعودون

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٣٨٨	٣٦	الأعراف	والذين كذبوا بآياتنا و استكبروا
٣٥٤	٣٨	=	قال ادخلوا في أمم قد خلت
٣٤٦	٤٠	=	لا تفتح لهم أبواب السماء
٢٠٥	٤٢	=	لا نكلف نفساً إلا وسعها
٣٧٨	٥١	=	فاليوم ننساهم كما نسوا
٢٤٩	٦٥	=	وإلى عاد أخاهم هودا
١٧٨	٦٩	=	واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد
٢٤٩	٧٣	=	وإلى ثمود أخاهم صالحا
١٧٨	٧٤	=	واذكروا إذ جعلكم خلفاء
٢٤٩	٨٥	=	و إلى مدين أخاهم شعيبا
٢٩٣	٩٦	=	و لو أن أهل القرى آمنوا واتقوا
٣٨٢، ٣٧٨	١٦٥	=	فلما نسوا ما ذكروا به
٣٨٠	١٦٩	=	فخلف من بعدهم خلف
٢١٨، ٢١١	١٧٢	=	ألست بربكم قالوا بلى
٢٣٧	١٧٦	=	فاقصص القصص لعلهم يتفكرون
٣٨٦، ٣٨٣، ٢٣١، ٢٢٩	١٧٩	=	ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن
٨٠، ٧٩، ٧٥	١٨٩	=	هو الذي خلقكم من نفس واحدة
٤٢١	٢٠٠	=	و إما يترغبك من الشيطان نزغ
٤٢٩، ٣٨٥	٢٠١	=	إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف
٢٣١	٢٢	الأنفال	إن شر الدواب عند الله الصم
٤٢٦	٤٦	=	و لا تنازعوا فتفشلوا
٤١٩	٤٨	=	وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٣٤٥	٥١-٥٠	التوبة	و لو ترى إذ يتوفى الذين كفروا
١٩٨	٢٤	=	قل إن كان آباؤكم و أبناءكم
٣٧٢	٣٨	=	فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة
١٩٤	٤٥	=	إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله
٢٩٣	١٠٣	=	خذ من أموالهم صدقة
٢٠٤	١١٥	=	وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم
٣٨٣	٨ - ٧	يونس	إن الذين لا يرجون لقاءنا
٣٢٠	٩	=	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم
٥٦	١٤	=	ثم جعلناكم خلائف في الأرض
٢٤٠	١٥	=	وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال
٣٢٠	٦٣ - ٦٢	=	ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم
٣٧٠	٧٠	=	متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم
٢٢٩	١٠٠	=	و ما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله
٢٣٥	١٠١	=	قل انظروا ماذا في السموات
٢٩٣	٣ - ١	هود	الر كتاب أحكمت آياته
٢٧٤ ، ٢٤٠	١٣	=	أم يقولون افتراه
٣٧٠	٤٨	=	و أمم ستمتعهم ثم يمسهم منا
٢٦٠	٤٩	=	تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك
١٧٨	٥٧	=	ويستخلف ربي قوما غيركم
٤١	٤	يوسف	إذ قال يوسف لأبيه
٣٩١	٥٣	=	و ما أبريء نفسي
٤١	١٠٠	=	ورفع أبويه على العرش

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٥٣	١٠٣	يوسف	و ما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين
٥٣	١٠٦	=	و ما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون
٢٣٧ ، ١٥٤	١١١	=	لقد كان في قصصهم عبرة
٢٣٥	٢	الرعد	الله الذي رفع السموات بغير عمد
٢٢٩	٤	=	إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون
١٩٠	١٥	=	ولله يسجد من في السموات والأرض
٣٥٢	١٨	=	والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم
٢٩٠	٢٨	=	الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله
٢٧٦	١	إبراهيم	الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس
٦٩	٦	=	و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه
٣٥٧ ، ٣٥٥	١٧ - ١٥	=	واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد
٤٠١	٢٢	=	و قال الشيطان لما قضي الأمر
٣٠٦	٢٧	=	يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت
٣١١	٤٣ - ٤٢	=	و لا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون
٣٥٧	٥٠	=	سراييلهم من قطران
٣٧٠	٣	الحجر	ذرهم يأكلوا ويتمتعوا
٢٧٤ ، ٢٧١	٩	=	إنا نحن نزلنا الذكر
٣٥ ، ٢٦	٢٦	=	و لقد خلقنا الإنسان من صلصال
٣٩	٢٩	=	فإذا سويته ونفخت فيه من روحي
٤٢٧ ، ٤٠٣ ، ١٨٣	٤٢	=	إن عبادي ليس لك عليهم سلطان
٢٣٧	٧٦	=	وإنها لبسيل مقيم
١٠٨ ، ٩٥	٤	التحل	خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٢٧٨	٥	النحل	والأنعام خلقها لكم فيها دفء
٢٩٨	٣٢	=	الذين تتوفاهم الملائكة طيبين
٤٣٥ ، ٢٥٢	٣٥	=	فهل على الرسل إلا البلاغ
٢٤٩	٣٦	=	و لقد بعثنا في كل أمة رسولا
١٧	٤٤	=	و أنزلنا إليك الذكر لتبين للناس
١٨٣	٤٩	=	و لله يسجد من في السموات و الأرض
١٥٩	٦١	=	ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم
٨٢ ، ٨٠	٧٢	=	و الله جعل لكم من أنفسكم أزواجا
١٨٢	٧٥	=	و عبدا مملوكا لا يقدر على شيء
٢٣٣	٧٨	=	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم
٢٧٢	٨٩	=	ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء
٢٩٠	٩٧	=	من عمل صالحا من ذكر أو أنثى
٤٢١	٩٨	=	فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله
٤٠٣	٩٩-١٠٠	=	إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا
٢٤٢	١٠٣	=	و لقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر
٣٨٣	١٠٦-١٠٩	=	من كفر بالله من بعد إيمانه
١٥٩	١١٢	=	و ضرب الله مثلا قرية كانت آمنة
٢٧٨	١٢	الإسراء	وجعلنا الليل و النهار آيتين
٣٧٩	١٨-١٩	=	من كان يريد العاجلة
٤١٦	٢٧	=	إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين
٢٣٣	٣٦	=	و لا تقف ما ليس لك به علم
١٨٩ ، ١٨٣	٤٤	=	تسبح له السموات السبع

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٢٤٤	٤٩	الإسراء	و قالوا أئذا كنا عظاما و رفاتا
٤٢٥ ، ٤٢٣	٥٣	=	و قل لعبادي يقولوا التي هي أحسن
٢٧	٦١	=	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
٢٤٣	٦٧	=	و إذا مسكم الضر في البحر
٤٣	٧٠	=	ولقد كرمتنا بني آدم
٢٨٠	٨٥	=	و ما أتيتم من العلم إلا قليلا
٢٧٤ ، ٢٤٠	٨٨	=	قل لئن اجتمعت الإنس والجن
٢٦٦	٩٠	=	وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من
٣٥٨	٩٧	=	كلما خبت زدناهم سعيرا
٣٨٥	٢٤	الكهف	و اذكر ربك إذا نسيت
٣٨٧	٢٨	=	و لا تطع من أغفلنا قلبه
١٩١ ، ١٨٩	٢٩	=	وقل الحق من ربكم
٣٢٥	٣١	=	ويلبسون ثيابا خضرا من سندس
٣٩٨ ، ٣٩٧ ، ٢٧	٥٠	=	وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم
٣٨٣ ، ٣٧٧	٥٧	=	فمن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض
٣٢٠	١٠٧	=	إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات
٣٧٤	٥٩	مريم	فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة
٣١٤	٧١	=	وإن منكم إلا واردها
٤٢٨ ، ٤١٤ ، ٤٠٣	٨٣	=	ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين
١٨٢	٩٣	=	إن كل من في السموات والأرض إلا
٣٨٧	١٦	طه	فلا يصدنك عنها من لا يؤمن
٢٦٥	٣٩	=	وألقيت عليك محبة مني

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٣٨١ ، ٤٤ ، ٢٨	١١٥	طه	ولقد عهدنا إلى آدم من قبل
١٣٥	١١٧	=	فقلنا إن هذا عدو لك و لزوجك
١٤٠ ، ٤٥	١٢٠	=	قال يا آدم هل أدلك
١٤٨ ، ١٤٧	١٢١	=	فأكلا منها فبدت لهما
١٥٨ ، ١٥٣ ، ٤٧	١٢٢	=	ثم اجتباه ربه
١٦٧ ، ١٦٣ ، ٥٠	١٢٣	=	قال اهبطا منها جميعا
٣٤٣ ، ٢٩٠	١٢٤	=	ومن أعرض عن ذكري فإن له
٣٧٨	١٢٦	=	قال كذلك أتتك آياتنا
٣٨٥	١٣١	=	و لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به
٢٥١ ، ٢٠٠	١٣٤	=	و لو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله
٢٤٩	٢٥	الأنبياء	وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا
٢٤٥	٥٩	=	قالوا من فعل هذا بأهتنا
٤٠٢	٧٠	=	وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأخرسين
٣٢٩	١٠٢-١٠١	=	إن الذين سبقت لهم منا الحسنى
٣١٠	١٠٣	=	لا يجزئهم الفزع الأكبر
٣٠٩	٢-١	الحج	يا أيها الناس اتقوا ربكم
١٠٥ ، ٩٥ ، ٩٣ ، ٣١	٥	=	يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث
٣٨٩ ، ٢٩٦	١١	=	ومن الناس من يعبد الله على حرف
٣٥٧	٢٢-١٩	=	فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار
٣٤٦	٣١	=	ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء
٤٣٣	٤٤-٤٢	=	وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم
٢٣٢	٤٦	=	أفلم يسيروا في الأرض

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا	الحج	٥٢	٤٢٥
الله يصطفي من الملائكة رسلا	=	٧٥	٢٥٥
هو اجتباكم وما جعل عليكم	=	٧٨	٢٠٥
ولقد خلقنا الإنسان من سلالة	المؤمنون	١٢	١٠٩، ١٠٨، ١٠٥، ٣٤
ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه	=	٢٣	٢٤٩
و الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة	=	٦٠	٣٢٠
لا نكلف نفسا إلا وسعها	=	٦٢	٢٠٥
وهو الذي أنشأ لكم السمع	=	٧٨	٢٣٣
ادفع بالتي هي أحسن السيئة	=	٩٨-٩٦	٤٢٨، ٤٢٣
و من ورائهم برزخ	=	١٠٠	٣٤٦، ٣٠٣
أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا	=	١١٥	٢٤٤
إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة	النور	١٩	٣٧٤
يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات	=	٢١	٤٠٩
وما على الرسول إلا البلاغ	=	٥٤	٢٥٢
وعد الله الذين آمنوا منكم	=	٥٥	٢٩٤، ١٧٨
قل أذلك خير أم جنة الخلد	الفرقان	١٥	٣٢٩
و قدمنا إلى ما عملوا من عمل	=	٢٣	٣٤٢
أصحاب الجنة يومئذ خير مستقرا	=	٢٤	١٦٤
ويوم تشقق السماء بالغمام	=	٢٦-٢٥	٣٥١، ٣٠٩
ويوم يعض الظالم على يديه	=	٢٩-٢٧	٤٢٠، ٣٥٣
أرأيت من اتخذ إلهه هواه	=	٤٣	٤٣
وهو الذي خلق من الماء بشرا	=	٥٤	١٠٨، ٨٦

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٢٥٩	٥٧	الفرقان	قل ما أسألكم عليه من أجر
١٨٣	٦٣	=	وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض
٣٧٤ ، ١٥٨ ، ٤٩	٦٩-٦٨	=	و الذين لا يدعون مع الله إلها آخر
٣٧٥	٧٠	=	إلا من تاب وآمن
٢٣٢	٧٣	=	والذين إذا ذكروا بآيات ربهم
٨١ ، ٥٨	٧٤	=	ربنا هب لنا من أزواجنا
١٨٣	٥٢	الشعراء	أن أسر بعبادي
٢٥٩	١٠٩	=	و ما أسألكم عليه من أجر
٤٣٣ ، ٣٨٨ ، ٤٦	١٤	النمل	و جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم
٣١٨	٣٢	=	ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون
٤٠٢	٥١-٥٠	=	ومكروا مكرا ومكرنا مكرا
٥٧	٦٢	=	أمن يجيب المضطر إذا دعاه
٣١٠	٨٩	=	من جاء بالحسنة فله خير منها
٤١٣	١٥	القصص	فوكزه موسى فقضى عليه
٢٥١	٤٧	=	ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت
٢٧٣	٤٩	=	قل فأتوا بكتاب من عند الله
٣٨٧	٥٠	=	و من أضل ممن اتبع هواه
٣٧٣	٦١-٦٠	=	و ما أوتيتم من شيء فمتاع الحياة
٢٩٧	٨٨	=	كل شيء هالك إلا وجهه
٤٣٦	١٣-١٢	العنكبوت	وقال الذين كفروا للذين آمنوا
٢٥٠	١٦	=	و إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله
٢٣٧	٣٨	=	وعادا وثمودا وقد تبين لكم

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٣٩٠	٤٣	العنكبوت	وتلك الأمثال نضربها للناس
٢٩٢	٤٥	=	إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر
٣٢٦	٥٨	=	والذين آمنوا وعملوا الصالحات لنبوئناهم
٢٤٣	٦٥	=	فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين
٣١	٢٠	الروم	و من آياته أن خلقكم من تراب
٨٣ ، ٨٠	٢١	=	و من آياته أن خلق لكم من أنفسكم
٢٢٩	٢٨	=	كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون
٢٢١، ٢١٣، ٢١٢، ٢١٠	٣٠	=	فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله
٨٧	٥٤	=	الله الذي خلقكم من ضعف
٢٧٧	٢٠	لقمان	ألم تروا أن الله سخر لكم
١٩٥	٢٢	=	ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن
١٢٢، ١١٠، ١٠٦، ٣٤، ٢٨	٧	السجدة	الذي أحسن كل شيء خلقه
١٠٦ ، ٨٩ ، ٨٦	٨	=	ثم جعل نسله من سلالة
٣٨٣	١٤	=	فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم هذا
٤٠٩	٢٤	=	وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا
٢٣٧	٢٦	=	أو لم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم
٢٣٦ ، ٢٣٣	٢٧	=	أو لم يروا أنا نسوق الماء
٢٦٧	٢١	الأحزاب	لقد كان لكم في رسول الله أسوة
٥٠	٣٦	=	و ما كان لمؤمن ولا مؤمنة
١٩٠	٧٢	=	إنا عرضنا الأمانة على السموات
٤٠١	٢٠	سبا	و لقد صدق عليهم إبليس ظنه
٣٥٤	٣٣-٣١	=	ولو ترى إذ الظالمون موقفون عند ربهم

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٢٣٨	٤٦	سبأ	قل إنما أعظكم بواحدة
٢٥٩	٤٧	=	قل ما سألتكم من أجر فهو لكم
٣٨٥	٥	فاطر	يا أيها الناس إن وعد الله حق
١٠٥ ، ٩٦ ، ٣١	١١	=	و الله خلقكم من تراب
٤٣٣	٢٥	=	وإن يكذبوك فقد كذب الذين من
١٥٦	٢٨	=	إنما يخشى الله من عباده العلماء
٣٣٥	٣٢	=	ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا
٣٢٥	٣٣	=	و لباسهم فيها حرير
٣٣٠	٣٥-٣٤	=	وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن
٣٥٨	٣٦	=	والذين كفروا لهم نار جهنم
٥٦	٣٩	=	هو الذي جعلكم خلائف في الأرض
١٠٩	٧٧	يس	أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة
٣٤	١١	الصافات	إنا خلقناهم من طين لازب
١٩٥	٢٢	=	احشروا الذين ظلموا وأزواجهم
٣٥٦	٦٨-٦٤	=	إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم
٢٣٧	١٣٧	=	و إنكم لتمرون عليهم مصبحين
١٨٣	١٦٠	=	إلا عباد الله المخلصين
٤٣٤ ، ١٦٥	٣	ص	ولات حين مناص
٤٠٩ ، ٣٨٢	٢٦	=	يا داود إنا جعلناك خليفة
٤٢٧	٤٢-٤١	=	واذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه
٢٥٥	٤٥	=	واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق
٣٥ ، ٢٨	٧١	=	إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٣٩	٧٢	ص	فإذا سويته ونفخت فيه من روحي
٤٦	٧٥	=	قال يا إبليس ما منعك أن تسجد
٤٦	٧٦	=	قال أنا خير منه
٧٥	٦	الزمر	خلقكم من نفس واحدة
٣٢٦	٢٠	=	لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف
١٩٥	٥٤	=	و أنيبوا إلى ربكم وأسلموا له
٣٤٢	٦٥	=	ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك
٣٣٠ ، ١٧٢ ، ٦١	٧٥-٧٣	=	وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا
٣٤٨	٤٦-٤٥	غافر	و حاق بآل فرعون سوء العذاب
٢٦١	٥١	=	إننا لننصر رسلنا في الحياة الدنيا
٤٢	٦٤	=	و صوركم فأحسن صوركم
١٠٥ ، ٣١	٦٧	=	وهو الذي خلقكم من تراب
١٨٩	١١	فصلت	ثم استوى إلى السماء وهي دخان
٢٣٢ ، ٢٣٠	٢٦	=	لا تسمعوا لهذا القرآن
٢٩٨	٣١-٣٠	=	إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا
٤٢٢ ، ٤٢١	٣٦-٣٤	=	ولا تستوي الحسنة و لا السيئة
١	٤٢	=	لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من
١٠٤	٥٣	=	سنريهم آياتنا في الآفاق
٢٦٤ ، ٢٥٣	١٣	الشورى	شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا
٣٧٩	٢٠	=	من كان يريد حرث الآخرة نزد له
١٥٩	٢٥	=	وهو الذي يقبل التوبة عن عباده
١٠٠	٤٩	=	لله ملك السموات والأرض

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٢٦٥	٥٢	الشورى	و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا
٢٤٤	٩	الزخرف	و لئن سألتهم من خلق السموات
٧٥	١٩	=	وجعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن
٣٨٩	٢٤-٢٢	=	بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة
٤٣٥	٣١	=	وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل
٢٧٩	٣٢	=	نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة
٤١٣	٣٧-٣٦	=	و من يعيش عن ذكر الرحمن نقيض له
٣٥٣	٦٧	=	الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو
٣٢٩	٧١	=	وفيها ما تشتهي النفس
٣١٨	٧٢	=	و تلك الجنة التي أورثتموها
٣٥٦	٤٦-٤٣	الدخان	إن شجرة الزقوم طعام الأثيم
٢٣٦	٣	الجاثية	إن في السموات والأرض آيات
٣٨٩	١٠-٧	=	ويل لكل أفاك أثيم
٢٠٤	١٨	=	ثم جعلناك على شريعة من الأمر
٣٨٧	٢٣	=	أفرايت من اتخذ إلهه هواه
٣٨٨ ، ٣٧١	٢٠	الأحقاف	ويوم يعرض الذين كفروا على النار
٣٤١	٩ — ٨	محمد	والذين كفروا فتعسأ لهم
٣٥٥	١٥	=	وسقوا ماء حميماً
٣٢٣	١٥	=	مثل الجنة التي وعد المتقون
١٩٣	١٩	=	فاعلم أنه لا إله إلا الله
٣٤٥	٢٨ — ٢٧	=	فكيف إذا توفتهم الملائكة
١٠٠ ، ٩٨	١٣	الحجرات	يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
١٩٤	١٥	الحجرات	إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله
٢٩٧	١٩	ق	وجاءت سكرة الموت بالحق
٢٣٢	٣٧	=	إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب
٢٣٦	١	الذاريات	والذاريات ذروا
٢٣٤	٢٠	=	وفي الأرض آيات للمؤمنين
١٠٠	٢٩	=	فأقبلت امرأته في صرة
٤٣٣	٥٣ — ٥٢	=	كذلك ما أتى الذين من قبلهم
١٧٦	٥٦	=	وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون
٣٣٢	٢١	الطور	والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم
٣٢٤	٢٣	=	يتنازعون فيها كأساً
٣٢٠	٢٧ — ٢٥	=	فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون
٤٠٢	٤٢	=	أم يريدون كيداً
١٧	٣	النجم	وما ينطق عن الهوى
١٠٦ ، ٩٥ ، ٨٧ ، ١٠٩ ، ١٠٨	٤٥	=	إنّ يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس
١٠٨	٣	الرحمن	خلق الإنسان علمه البيان
٣٦ ، ٢٩	١٤	=	خلق الإنسان من صلصال كالفخار
٣٢٦	٥٨ — ٥٦	=	فيهنّ قاصرات الطرف
٣٢٦	٧٢	=	حور مقصورات في الخيام
٣٣٤	١٤ — ١٠	الواقعة	والسابقون السابقون
٣٢٤	١٩ — ١٧	=	يطوف عليهم ولدان مخلدون
٣٢٣ ، ٣٢٢	٢١ — ٢٠	=	وفاكهة مما يتخيرون

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
وحوور عين كأمثال اللؤلؤ	الواقعة	٢٢ — ٢٣	٣٢٧
في سدر مخضود وطلح منضود	=	٢٨ — ٣٣	٣٢٣ ، ٣٢٢
وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال	=	٤١ — ٤٤	٣٥٨
أفرأيتم ما تمنون	=	٥٨	٩٤ ، ٨٩ ، ٨٧
يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم	الحديد	١٢	٣١٣
وسابقوا إلى مغفرة من ربكم	=	٢١	٣٢١
لقد أرسلنا رسلنا بالبينات	=	٢٥	٢٥٩ ، ٢٥٢
استحوذ عليهم الشيطان	المجادلة	١٩	٤١٣ ، ٣٧٩
وما أتاكم الرسول فخذوه	الحشر	٧	٢٨٥
يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم	الصف	١٠	٢٩١
ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار	=	١٢	٣٢٦
وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها	الجمعة	١١	٣٨٠
يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم	المنافقون	٩	٣٨٥ ، ٣٧٩
وصوركم فأحسن صوركم	التغابن	٣	٤٢
يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم	=	١٤	٨١
ومن يتق الله يجعل له مخرجاً	الطلاق	٢ — ٣	٢٩٥
لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها	=	٧	٢٠٥
يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم	التحريم	٦	٣٦١
لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون	=	٦	٣٩٨
يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا	=	٨	٣١٣
هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا	الملك	١٥	٢٧٨

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٢٦٥ ، ٢٥٦	٤	القلم	وإنك لعلى خلق عظيم
٣١٢	٢٤ — ١٩	الحاقة	فأما من أوتي كتابه بيمينه
٣٢٣	٢٣	=	قطوفها دانية
٣٥٣	٢٩ — ٢٥	=	و أما من أوتي كتابه بشماله
٣٥٦	٣٧ — ٣٥	=	فليس له اليوم هاهنا حميم
٣٥١	١٤ — ١١	المعارج	يبصرونهم يود المجرم لو يفتدي
٢٩٢	١٩	=	إن الإنسان خلق هلوعا
٣٧٣	٣١ — ٢٩	=	والذين هم لفروجهم حافظون
٢٩٣	١٢ — ١٠	نوح	فقلت استغفروا ربكم
١٠٢ ، ٣٧	١٣	=	ما لكم لا ترجون لله وقارا
٣٥٦	١٣ — ١٢	المزمل	إن لدينا أنكالا وجحيما
٣٥١ ، ٣٠٩	١٠ — ٨	المدثر	فإذا نقر في الناقور
١٦٤	١٢	القيامة	إلى ربك يومئذ المستقر
١٠٩ ، ٨٧	٣٦	=	أيحسب الإنسان أن يترك سدى
١٠٦ ، ٩٥ ، ٨٩	٣٧	=	ألم يك نطفة من مني يمى
١٠٨ ، ١٠٦	٢	الإنسان	إنا خلقنا الإنسان من نطفة
٣٢٤ ، ٢٩١	٥	=	إن الأبرار يشربون من كأس
٣٢٥	٢١	=	عاليهم ثياب سندس
٨٧ ، ٨٦	٢٠	المرسلات	ألم نخلقكم من ماء مهين
٣٥٥	٢٥ — ٢٤	النبا	لا يدوقون فيها بردا ولا شرابا
٣٢٧	٣٣	=	وكواعب أترابا
٣٥٢	٤٠	=	يوم ينظر المرء ما قدمت يداه

الصفحة	رقم الآية	السورة	الآية
٣٩٥	٣٧ — ٣٩	النازعات	فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا
٣٩٥ ، ٣٩٤	٤٠ — ٤١	=	وأما من خاف مقام ربه
١٠٧ ، ٩٤	١٧	عبس	قتل الإنسان ما أكفره
٣٥٩	١٤ — ١٥	المطففين	كلا بل ران على قلوبهم
٣٢٤	٢٥ — ٢٨	=	يسقون من رحيق مختوم
٣٢٢	٢٦	=	وفي ذلك فليتنافس المتنافسون
٣١٢	٧ — ٩	الانشقاق	فأما من أوتي كتابه بيمينه
٩٢ ، ٨٨ ، ٨٦	٥	الطارق	فلينظر الإنسان مما خلق
٩٣	١١	=	والسماوات ذات الرجوع
٤٠٢	١٥ — ١٧	=	إنهم يكيدون كيداً
٣٩٥	١٤ — ١٥	الأعلى	قد أفلح من تزكى
٣٥٦	١ — ٧	الغاشية	هل أتاك حديث الغاشية
٢٣٦	١٧	=	أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت
٢٣٦	١	الشمس	والشمس وضحاها
٤٨	٧	=	ونفس وما سواها
٣٩٤	٧ — ١٠	=	ونفس وما سواها
٨٣ ، ٤٢	٤	التين	لقد خلقنا الإنسان
١٠٦	٢	العلق	خلق الإنسان من علق
١٩٢	٥	البينة	وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين
٤٢٨	١ — ٦	الناس	قل أعوذ برب الناس
١٤١	٤	=	من شر الوسواس الخناس

فهرس الأءادبء

فهرس الأحاديث

ملاحظات	الصفحة	الحديث
	٣٢١	أتدرون من المفلس
	١٥٠	احتج آدم وموسى
	٣٠٧	إذا سئل المسلم في قبره
	٣٢٩	إذا صار أهل الجنة إلى الجنة
	٣٠٦	إذا قبر الميت أتاه ملكان
	١١٧ ، ١٢٠	إذا مر بالنطفة ثنتان وأربعون ليلة
	٣٠٢	إذا وضعت الجنازة فاحتملها الرجال
	١٩٤	أذهب بنعلي هاتين فممن لقيت
	٢٥٦	أرأيتمكم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج
	٧٦	استوصوا بالنساء خيرا
	١٩٤	أشهد أن لا إله إلا الله و أنى رسول الله
قدسي	٣٣٣	أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت
	٢٩٩	أكثروا من ذكر هادم اللذات
	٥٩	الله خليفتي على كل مسلم
	٥٩	اللهم أنت الصاحب في السفر
	٣٠٤	اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر
	٣٠٥	اللهم إني أعوذ بك من الكسل و الهرم
	١١٣	إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه
	٣٣	إن الله تعالى خلق آدم من قبضة

ملاحظات	الصفحة	الحديث
قدسي	٣٣١	إن الله تعالى يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة
	٣٣٥	إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم
	٣٢٨	إن أول زمرة تدخل الجنة
	٤٠٥	إن الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه
	٤١٢	إن الشيطان يجري من الإنسان مجرى الدم
	٣٠١	إن الصالحين يشدد عليهم
	٣٠٤	إن العبد إذا وضع في قبره و تولى عنه
	٣٤٩ ، ٣٤٥	وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا
	٣٣٢	إن في الجنة لسوقا يأتونها كل جمعة
	٣٤٩، ٣٤٦	وإن الكافر إذا حضر بشر
	٦٢	إن كان لله خليفة في الأرض
	٣٢٦	إن للمؤمن في الجنة لحيمة
	٣٠٠	إن للموت سكرات
	٢٥٣	والأنبياء إخوة لعلات
قدسي	٢١٣ ، ٢١٠	وإني خلقت عبادي حنفاء
	٤٢٢	إني لأعلم كلمة لو قالها
	٣٤٠	إياكم ومحدثات الأمور
	٤٩	بايعوني على ألا تشركوا بالله شيئاً
	١٥٦	تعرض الفتن على القلوب كالحصير
	١٨٣	تعس عبد الدرهم
	٨١	تنكح المرأة لأربع

ملاحظات	الصفحة	الحديث
	٤٢٤	تلك الملائكة
	٣٥٩	ثم يؤتى بأنعم الناس
	٣٠١	ثم يجيء ملك الموت
	١٩٩	ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان
	٢٠٨	وجعلت قرعة عيني في الصلاة
	٣٦٨	حجبت النار بالشهوات
	٣١٢	حوضي مسيرة شهر
	٣٩٨	خلقت الملائكة من نور
	٢١٢	خمس من الفطرة
	٨١	الدنيا متاع وخير متاع الدنيا
	٤٢٧	والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان
	٣١١	سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله
	٣٥٩	ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد
	٣٤٦	فإن كانت غير صالحة
	٩٧	فقيم يشبهها ولدها
	١٨٥	و في بضع أحدكم صدقة
	٣٠٣	القبر أول منازل الآخرة
	٤٦	الكبر بطر الحق وغمط الناس
	١٥٦ ، ٤٨	كل ابن آدم خطاء
	٢١٨ ، ٢١٠	كل مولود يولد على الفطرة
	٢٥١	لا أحد أغير من الله

ملاحظات	الصفحة	الحديث
	١٤٢	لا تصدقوا أهل الكتاب
	١٩٨	لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه
	٣٦٦ ، ١٤٤	لما خلق الله آدم في الجنة تركه
	٣١٨	لن ينجي أحد منكم عمله
	٣٢٧	ولو أن امرأة من أهل الجنة اطلعت
	٣١٠	ليس كما تقولون (ولم يلبسوا إيمانهم بظلم): بشرك
	٢٧٤	ما بين منكبي الكافر في النار
	٢١٣	ما من مولود إلا وهو على الفطرة
	١٩٥	مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم
	٣٩٣	المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله
	٣١٥	مدحضة مزلة عليه خطاطيف
	٣٠٢	من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه
	٣٤٠ ، ٢٠٠	من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد
	١٩٤	من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله
	٣١٣	من نوقش الحساب عذب
	٣٦٠	ناركم هذه التي يوقد ابن آدم
	٣٦٠	هذا حجر رمي به في النار
	٣١٧	هل تدري ما حق الله على عباده
	٤٠٧	يأتي الشيطان أحدكم فيقول
	٣٣٠	يؤتى بأشد الناس كان بلاء في الدنيا
	٣٦٠	يؤتى بجهنم يومئذ لها سبعون ألف

ملاحظات	الصفحة	الحديث
	١٢٠	يدخل الملك على النطفة
	٦٣ ، ٦٢	يقتل عند كتركم ثلاثة
قدسي	٣٥٣	يقول الله تعالى لأهون أهل النار عذابا
	٣٣٢	يناد مناد : إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا

فهرس الأعلام

فهرس الأعلام

الصفحة	الإسم
٣٢٥	إبراهيم بن السري بن سهل المعروف بالزجاج
٢٨٧ ، ٢٦٧ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ١٩٠	إبراهيم بن موسى الشاطبي
٦ ، ٤	أحمد إبراهيم مهنا
٧٢ ، ٦٩	أحمد بن جعفر ابن النادي
١٩٢ ، ١١٥ ، ١١٣ ، ٥٥	أحمد بن زكريا بن فارس
٢١٧ ، ٢١٣ ، ١٩٩ ، ١٨٦ ، ٥٨ ، ٥٤ ٢٦٣ ، ٢٥٨ ، ٢٤٤ ، ٢٢١ ، ٢١٨ ،	أحمد بن عبد الحلیم بن عبد السلام بن تيمية
٢٧٥ ، ٢٥٣ ، ٢١١ ، ١٢٩ ، ١٢٨ ، ٧٦ ، ١٨ ٣٣ ، ٣١٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٣٠٠ ٣٦٨	أحمد بن علي بن حجر العسقلاني
٩١	أحمد بن عمار المهدي
٣٤٥ ، ٣٠٤ ، ٣٠١ ، ٣٠٠	أحمد بن محمد بن حنبل
٢١٢	إسحاق بن راهوية
٢٩٩ ، ٢٢٥	إسماعيل بن عبد الرحمن السدي
٢٣٥ ، ٢٣١ ، ١٦٨ ، ١٦٧ ، ٤١ ٣٨٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٠	إسماعيل بن عمر بن كثير
٢٦٢	الأسود العنسي
٤٢٤	أسيد بن الحضير
	ابن الأعرابي = محمد بن زياد
	الأعمش = سليمان بن مهران
٨٨	امرئ القيس
٣٤٦	أنس بن مالك

الصفحة	الإسم
	البخاري = محمد بن إسماعيل
٣٤٩ ، ٣٤٥ ، ٣٠٧ ، ٣٠٤ ، ٣٠٠	البراء بن مالك
١٢٦	أبو بكر الخلال
	البيضاوي = عبد الله بن عمر بن محمد
	الترمذي = محمد بن علي المعروف بالحكيم
	الترمذي = محمد بن عيسى بن سورة
	ابن تيمية = أحمد بن عبد الحلیم
١٢٦	ثوبان
٣٧١	جابر بن عبد الله
	الجرجاني = علي بن محمد
	ابن جرير الطبري = محمد بن جرير
	ابن جزى = محمد بن أحمد
	ابن جماعة = محمد بن إبراهيم
	ابن الجوزي = عبد الرحمن بن علي بن محمد
	ابن حبان = محمد بن حبان بن أحمد
	ابن حجر = أحمد بن علي
١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١	حذيفة بن أسيد
٦٢	حذيفة بن اليمان
٣٣٤ ، ٣١٠ ، ٥٢	الحسن البصري

الصفحة	الإسم
٣٠، ٥٥، ٧٥، ١١٣، ١٤١، ١٨٢، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٩٢، ٢٢٧، ٢٤٧، ٢٦٤، ٢٨٦، ٢٩٢، ٣٠٠، ٣٥٦، ٣٩٥، ٤١٣	الحسين بن محمد = الراغب الأصفهاني
٢١١	حماد بن سلمة
٢١١	حمد بن محمد = الخطابي
٣٧١	خالد بن الوليد
٨٨	دريد بن الصمة
	أبو داود = سليمان بن الأشعث
	الرازي = محمد بن عمر بن الحسين
	الراغب الأصفهاني = الحسين بن محمد
٢٣٠	ربيعة بن عامر التميمي = مسكين الدارمي
	ابن رجب = عبد الرحمن بن أحمد
	الزجاج = إبراهيم بن السري
	الزركشي = محمد بن عبد الله بن بهادر
	الزحشري = محمود بن عمر بن محمد
١٢٧، ١٢٨، ٢١٥	زيد بن وهب
٩٦	سبالانزاني
٦٢	سبيع بن خالد
	السدّي = إسماعيل بن عبد الرحمن
٤٢٠	سراقة بن مالك
٣٠٢، ٣١٤، ٣٩٩، ٤٠٣، ٤٠٨، ٤١٥، ٤١٦، ٤٢٤،	سعد بن مالك = أبو سعيد الخدري
	أبو السعود = محمد بن محمد بن مصطفى

الصفحة	الإسم
٣١٠ ، ١٩٦ ، ١٩١	سعيد بن جبير
٢٥٩ ، ٢٥٧ ، ٢٥٦ ، ٢٥٥	أبو سفيان
٣٠٦	سليمان بن أحمد بن أيوب = الطبراني
٢١٥ ، ٢١١ ، ٦٢	سليمان بن الأشعث السجستاني = أبو داود
١٢٨ ، ١٢٧	سليمان بن مهران = الأعمش
٣٦١ ، ٣١٢ ، ١٦١ ، ٨٠ ، ٤٥ ، ٣٢	سيد قطب
	السيوطي = عبدالرحمن بن أبي بكر بن محمد
٩٧	أم سلمة
٩٧	أم سليم
٢٨٧ ، ٢٦٧ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ١٩٠	الشاطبي = إبراهيم بن موسى
	الشنقيطي = محمد الأمين بن محمد المختار
	الشوكاني = محمد بن علي
٣١٣ ، ١٩٦ ، ٣٨ ، ٣٧	الضحاك بن مزاحم الهلالي
	الطبراني = سليمان بن أحمد بن أيوب
٨٩	العائد بن محسن = المثقب العبيدي
٥٨	العباس بن مرداس السلمى
٥ ، ٤	عباس العقاد
	ابن عبد البر = يوسف بن عبد البر
٢٧٢ ، ٢٣٢ ، ٢١١ ، ١٦٤ ، ٨٩ ، ٣٤٨ ، ٢٧٣	عبد الحق بن غالب أبو محمد = ابن عطية
١٢٩	عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن = العراقي
٩ ، ٦ ، ٤	عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي

الصفحة	الإسم
٣٥٩ ، ٣٥٥	عبد الرحمن بن أحمد = ابن رجب
٦٩ ، ٦٨	عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد = السيوطي
٣٨	عبد الرحمن بن زيد
٣٠٨ ، ٣٠٦	عبد الرحمن بن صخر = أبو هريرة
٤١٦ ، ٣٤٨ ، ٢٧١ ، ٢٠١	عبد الرحمن بن علي بن محمد = ابن الجوزي
٣٠٦	عبد الرزاق
٤	عبد الكريم الخطيب
١٩٦ ، ١٩١ ، ١٦٥ ، ١٤٣ ، ٧٧ ، ٣٨ ، ٣٧ ، ٤١٩ ، ٤١٧ ، ٣٩٩ ، ٣٢٣ ، ٣١٠	عبد الله بن عباس
٢٤٢ ، ٢٤١ ، ٢٣٩ ، ١٤٥ ، ٤٢	عبد الله بن عمر بن محمد = البيضاوي
٥٨	عبد الله بن قحافة = أبو بكر الصديق
٢١٢	عبد الله = ابن المبارك
١٢٤ ، ١٢٢ ، ١٢١ ، ١١٦ ، ١١٢ ، ١٢٥ ، ١٢٦ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ٣١٤ ، ٣١٣ ، ١٩١ ، ١٣١ ، ١٣٠	عبد الله بن مسعود
٢١٧ ، ٢١١	عبد الله بن مسلم = ابن قتيبة
٢١٥	عبد الله بن وهب
٣٣٤	عثمان بن أبي سودة
	ابن العربي = محمد بن عبد الله بن محمد
٥٨	عقيل بن علفة المري
٢٢٧ ، ١٩٣	علي بن محمد = الجرجاني
٣٧١ ، ٥٣	عمر بن الخطاب
١٣٥	عمر بن أبي ربيعة

الصفحة	الإسم
١٢٣	عياض = القاضي عياض اليحصبي
٣٧٤ ، ٣١٣ ، ٣٠٥ ، ٣٠١	عائشة بنت أبي بكر الصديق
١٩٢ ، ١١٥ ، ١١٣ ، ٥٥	ابن فارس = أحمد بن زكريا
٩٦	فان بندن
	الفراء = يحيى بن زياد
٤١ ، ٧٧ ، ١١٢ ، ١٩١ ، ٢٦٣ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٣٤ ، ٤١٦	قتادة
	ابن قتيبة = عبد الله بن مسلم
	القرطبي = محمد بن أحمد بن أبي بكر
	ابن القيم = محمد بن أبي بكر
	ابن كثير = إسماعيل بن عمر
٣٣٤	كعب الأحبار
١٠٢	كيث . ل . مور
	ابن ماجة = محمد بن يزيد
١٠٣	مارشال جونسون
٢١٥	مالك بن أنس
	الميرد = محمد بن يزيد أبو العباس
٣٧ ، ٣٨ ، ٧٧ ، ١١٢ ، ٢٩٩ ، ٣٠٣ ، ٤٠٣	بجاهد بن جبر
٦٧ ، ٦٨	محمد بن إبراهيم = بدر الدين بن جماعة
٢٥٩ ، ٢١١ ، ١٨٧ ، ١٦٤ ، ١٦٠ ، ٩١ ، ٢٩٧ ، ٣٠٨ ، ٣٤٨ ، ٣٨٠ ، ٣٨٥	محمد بن أحمد بن أبي بكر = القرطبي
٣١١	محمد بن أحمد بن جزى الكلبي الغرناطي = ابن جزى

الصفحة	الإسم
٧٧	محمد بن إسحاق
٩٧ ، ١٢٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧ ، ٣٤٦	محمد بن إسماعيل = البخاري
١١١ ، ١٣٨ ، ١٤٩ ، ٢٧٩ ، ٤٣٦	محمد الأمين الشنقيطي
٥٨ ، ٦٠ ، ١٢١ ، ١٢٣ ، ١٢٥ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٩ ، ١٧٣ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ، ٢١٩ ، ٢٢٣ ، ٢٤٧ ، ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥ ، ٣٢٧ ، ٣٦٨ ، ٣٧٥ ، ٣٧٧	محمد بن أبي بكر = ابن قيم الجوزية
١٨ ، ١٩ ، ٣٧ ، ٤١ ، ٧٧ ، ٨٨ ، ١١٦ ، ١٤٢ ، ١٦٥ ، ١٩١ ، ١٩٦ ، ٢٢٩ ، ٢٦٣ ، ٢٦٩ ، ٢٧٨ ، ٢٩٨ ، ٣٠٦ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٢٢ ، ٣٥٢ ، ٣٧١ ، ٣٧٤ ، ٣٩٩ ، ٤٠٤ ، ٤١٤ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ، ٤٢٩	محمد بن جرير = ابن جرير الطبري
٣٠٨	محمد بن حبان بن أحمد = ابن حبان
١٤٥	محمد رشيد رضا
١١٧	محمد بن زياد بن الأعرابي
٥٢ ، ٣٣٤	محمد بن سيرين
٤	محمد الشيخ عايد
٦٧ ، ٦٨	محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي
٣٤٨	محمد بن علي الحكيم = أبو عبد الله الترمذي
٣٧١	محمد بن عبد الله بن محمد بن العربي
١١٧ ، ٤١٦	محمد بن علي الشوكاني
١١٨ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ٢٦٢ ، ٣١٤	محمد بن عمر بن الحسين الرازي

الصفحة	الإسم
٣٠٨، ٣٠٦	محمد بن عيسى الترمذي
٥	محمد قطب
٣٣٤	محمد بن كعب القرظي
١٤٣	محمد محمد أبو شهبة
٨٨	محمد بن محمد بن مصطفى العمادي = أبو السعود
٢١٢	محمد بن نصر
٦٢	محمد بن يزيد بن ماجة
٧١	محمد بن يزيد أبو العباس الميرد
١٩، ٧١، ٧٢، ٧٦، ١٥٠، ٢٠١، ٢١١، ٢٣٨، ٢٩٦، ٣٦٦، ٣٩٩	محمود بن عمر بن محمد الزمخشري
٥٣	مسروق
	مسكين الدارمي = ربيعة بن عامر التميمي
١١٧، ١٢٠، ١٢٨، ١٢٩، ٣٥٩	مسلم بن الحجاج
٢٦٢	مسيلمة الكذاب
٣١٧	معاذ بن جبل
	المهدوي = أحمد بن عمار
١١٥، ١٠٤	مورس بوكاي
٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩	هرقل
	أبو هريرة = عبد الرحمن بن صخر
٩٦	هيرتوج
١٤٢	وهب بن منبه
١١٧	يحيى بن زياد الفراء

الصفحة	الإسم
٣٦٧ ، ٢٠٢ ، ٧٧	يحيى بن شرف النووي
٣٤٨ ، ٢٧١ ، ٢١٠ ، ٥٢	يوسف بن عبد البر

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

	المقدمة
٢	سبب اختيار الموضوع
٤	عنوان الرسالة
٤	موضوع البحث
٤	الدراسات السابقة
١٤	خطة البحث
١٦	منهج البحث
	الباب الأول
	الوجود الإنساني والحكمة منه
٢١	تمهيد
	الفصل الأول : وجود الإنسان
٢٤	المبحث الأول : خلق آدم
٢٥	تمهيد
٣١	المطلب الأول : مادة الخلق
٣٧	المطلب الثاني : أطوار الخلق
٤٠	المطلب الثالث : تأملات في قصة الخلق
٤٠	— تكريم الله للإنسان
٤٤	— عداوة الشيطان للإنسان
٤٤	— العصيان وعقوبته
٥٠	— خطورة استعمال الرأي عند ورود النص
٥٣	— الأكثرية من الناس ينحرفون عن منهج الله

٥٤	— الاحتجاج بالقدر على الذنب
٥٥	— وقفات مع لفظ الخليفة
٥٥	— معنى الخليفة
٥٥	— المقصود بالخليفة في الآية
٥٨	— هل يصح أن يقال الإنسان خليفة الله في الأرض
٦٧	— التكرار في قصة آدم عليه السلام وفوائده
٦٧	— فوائد تكرار القصص عموماً
٧٠	— شبهة والرد عليها
٧٤	المبحث الثاني : خلق حواء
٧٥	المطلب الأول : خلق حواء
٧٩	المطلب الثاني : الحكمة من خلق حواء
٨٥	المبحث الثالث : خلق ذرية آدم عليه السلام
٨٦	المطلب الأول : مادة الخلق
٨٧	— صفات الماء في القرآن
٩١	— الخلاف في معنى قوله تعالى (يخرج من بين الصلب والترائب)
٩٦	— ماء المرأة وعلاقته بالخلق
٩٨	— ما هو ماء المرأة ولم سمي ماء
٩٩	— خلاصة المطلب
١٠٢	المطلب الثاني : أطوار الخلق
١٠٥	— أطوار الخلق في القرآن
١٠٧	— النطفة
١١٣	— العلقة

١١٥	- المضغة
١١٦	- المضغة المخلقة وغير المخلقة
١١٩	- العظام
١٢١	- إشكالان في حديثي الخلق والإجابة عنهما
١٢٤	- الترجيح
١٢٩	- الخلاصة
١٣٠	- اللحم
١٣١	- إنتهاء الخلق
١٣٣	الفصل الثاني : الإنسان من الجنة إلى الأرض
١٣٤	المبحث الأول : آدم وحواء في الجنة
١٣٥	المطلب الأول : الجوانب التي بينها القرآن في هذه القضية
١٣٨	المطلب الثاني : الجوانب التي لم يذكرها القرآن
١٣٩	المبحث الثاني : معصيتهما وتوبتهما
١٤٠	المطلب الأول : المعصية
١٤١	- وسيلة الإغواء
١٤٤	- مدخل الإغواء
١٤٥	- المعصية
١٤٧	- النتائج
١٥٢	المطلب الثاني : التوبة
١٥٤	المطلب الثالث : الدروس المستفادة من القصة
١٥٤	- القصة أنموذج للمعاصي الحاصلة من بني آدم
١٥٥	- الخطأ وارد على بني آدم

١٥٧	— الشيطان متربص
١٥٨	— الذنب قد يكون سببا لرفعة الإنسان عند ربه
١٥٩	— حلم الله على عباده
١٥٩	— المعاصي سبب زوال النعم
١٦٠	— الفطرة البشرية تأبي التعري والخلاعة
١٦٢	المبحث الثالث : الإنسان في الأرض — والحكمة من ذلك
١٦٣	المطلب الأول : إهباط آدم وزوجه إلى الأرض
١٦٩	المطلب الثاني : الحكمة من إهباط آدم وزوجه إلى الأرض
	الباب الثاني
	الغاية من وجود الإنسان والسبل التي هيأها الله له ليحقق الغاية
	الفصل الأول : الغاية من وجود الإنسان (العبودية)
١٧٦	تمهيد : في تحرير الغاية من وجود الإنسان
١٨٠	المبحث الأول : معنى العبادة
١٨١	المطلب الأول : المعنى اللغوي للعبادة
١٨٢	المطلب الثاني : المعنى الشرعي للعبادة
١٨٤	— تعريف العبادة
١٨٤	- تعريف الراغب
١٨٥	- نقد التعريف
١٨٦	- تعريف شيخ الإسلام
١٨٧	- تعريف القرطبي
١٨٩	المبحث الثاني : خصائص العبادة
١٨٩	— الاختيار

١٩٢	— الإخلاص
١٩٨	— الجمع بين كمال الذل للمعبود وكمال المحبة له
١٩٩	— الانضباط بالوحي
٢٠٠	— الشمول
٢٠٣	— الوضوح
٢٠٤	— السهولة واليسر
٢٠٩	الفصل الثاني : السبل التي هيأها الله للإنسان كي يحقق الغاية من إيجاده
٢٠٩	تمهيد
٢١٠	السبيل الأول : فطره على التوحيد
٢١٠	— الاختلاف في معنى الفطرة
٢١٢	— أدلة أصحاب القول الأول
٢١٥	— الأدلة العقلية على صحة و رجحان القول الأول
٢١٧	— سبب الخلاف
٢١٨	— الرد على الأقوال الأخرى
٢١٨	— الرد على القول الثاني
٢٢٠	— الرد على القول الثالث
٢٢٢	— الرد على القول الرابع
٢٢٥	— الرد على القول الخامس
٢٢٦	— الرد على القول السادس
٢٢٧	السبيل الثاني : إعطاؤه العقل
٢٢٧	— ماهية العقل
٢٣١	— وسائل العقل في التفكير

٢٣٤	— مجالات التفكير للعقل البشري
٢٣٤	— الآيات الكونية الماثوثة في الآفاق
٢٣٧	— النظرة في أحوال السابقين
٢٣٨	— التفكير في الأمور الدالة على صدق الرسالة والرسول
٢٤٣	— النظر في الأدلة المثبتة لبعض العقائد
	السبيل الثالث : إرسال الرسول
٢٤٩	— مهمة الرسول
٢٥٤	— الأدلة على صدق الرسول
٢٦٦	— فوائد إرسال الرسول
٢٦٩	السبيل الرابع : إنزال الكتب
٢٧١	— خصائص الكتب الإلهية الدالة على صدقها
٢٧٤	— خصائص انفرد بها القرآن الكريم
٢٧٧	السبيل الخامس : تسخير ما في السموات و الأرض له
٢٧٨	— أنواع التسخير
	الباب الثالث
	أثر هذه الغاية في حياة الإنسان ومصيره والمعوقات في طريق تحقيقها
	الفصل الأول : الإنسان بين تحقيق الغاية وعدم تحقيقها
٢٨٤	المبحث الأول : تحقيق وأثره في حياة الإنسان ومصيره
٢٨٥	المطلب الأول : كيفية تحقيق الغاية
٢٨٨	المطلب الثاني : أثر تحقيق الغاية في حياة الإنسان
٢٨٨	— انتظام الحياة
٢٩٠	— شعور المؤمن بالارتياح والاطمئنان

٢٩١	- المؤمن يشعر بقيمة الحياة ويعرف أنها مزرعة الآخرة
٢٩٢	- العبادة تهذيب للنفس والسلوك
٢٩٣	- تحقيق العبودية سبب في نزول النعم
٢٩٤	- تحقيق العبودية سبب في التمكين في الأرض
٢٩٦	المطلب الثالث : أثر تحقيق الغاية في مصير الإنسان
٢٩٧	- أثر العبادة في موت الإنسان
٣٠٣	- أثر العبادة في الحياة البرزخية
٣٠٩	- أثر العبادة في حال الإنسان يوم القيامة
٣١٧	- المؤمن في الجنة
٣١٧	- أسباب استحقاق الجنة
٣٢١	- أوصاف الجنة في القرآن
٣٣٤	- التفاضل بين أصحاب الجنة
٣٣٧	- الأسلوب القرآني في هذا الموضوع
٣٣٨	المبحث الثاني : عدم تحقيق الغاية وأثر ذلك في حياة الإنسان ومصيره
٣٣٩	المطلب الأول : كيفية عدم تحقيق الغاية
٣٤٣	المطلب الثاني : أثر عدم تحقيق الغاية في حياة الإنسان
٣٤٥	المطلب الثالث : أثر عدم تحقيق الغاية في مصير الإنسان
٣٤٥	- أثر الكفر في موت الإنسان
٣٤٨	- أثر التفريط في الغاية في الحياة البرزخية
٣٥١	- أثر التفريط في الغاية في حال الإنسان يوم القيامة
٣٥٥	- الكافر في جهنم
٢٦٠	- الأسلوب القرآني في عرض هذا الموضوع

	الفصل الثاني : المعوقات في طريق الغاية من وجود الإنسان
٣٦٤	تمهيد : في المقصود بالمعوقات
٣٦٥	المبحث الأول : المعوقات الذاتية
٣٦٦	المطلب الأول : الضعف الإنساني
٣٦٦	— الشهوات
٣٦٧	— فوائد خلق الشهوات
٣٧٠	— علاج القرآن للشهوات
٣٧٧	— الغفلة والنسيان
٣٧٨	— أسباب النسيان المذموم
٣٨١	— أنواع النسيان
٣٨١	— الأسلوب القرآني في معالجة النسيان
٣٨٦	— بعض الصفات في الإنسان التي تمنعه من قبول الهدى
٣٨٦	— إهمال العقل
٣٨٧	— الهوى
٣٨٨	— الكبر والعلو في الأرض
٣٨٩	— التعصب للأباء والأجداد
٣٨٩	— الحسد
٣٩٠	الخلاصة
٣٩١	المطلب الثاني : النفس الأمارة بالسوء
٣٩٤	— الأسلوب القرآني في معالجة النفس الأمارة بالسوء
٣٩٦	المبحث الثاني : المعوقات الخارجية
٣٩٧	المطلب الأول : الشيطان وأتباعه من الجن

٣٩٧	— من هو الشيطان
٣٩٩	— بداية العداوة
٤٠١	— سلطان إبليس وكيده
٤٠٤	— أسلوب الشيطان ووسائله لإغواء الإنسان
٤١٣	— دراسة لبعض الآيات التي وردت في الشيطان
٤١٣	- (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان)
٤١٤	- (إنما ذلكم الشيطان يخوف أوليائه)
٤١٦	- (إن المبشرين كانوا إخوان الشياطين)
٤١٧	- (ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه)
٤١٩	- (كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر)
٤٢١	— الوقاية من الشيطان
٤٢١	- الاستعاذة بالله منه
٤٢٥	- قطع الطرق الموصلة لمراد الشيطان
٤٢٧	- النهي عن إتباع خطوات الشيطان
٤٢٧	- الانشغال بذكر الله
٤٢٩	- الإنابة إلى الله وترك الغفلة
٤٣٠	- الأسلوب القرآني في التحذير من الشيطان
٤٣٢	المطلب الثاني : شياطين الإنس
٤٣٢	- تكذيب الرسل
٤٣٣	- إصاق التهم الباطلة بالرسل تنفيرا للناس منهم
٤٣٤	- صد الناس عن دين الله
٤٣٦	- تسفيه الحق وتصويب الباطل

٤٣٨	- الحسد
٤٣٨	- التعنت في طلب الآيات
٤٣٩	- الأسلوب القرآني في عرض هذه القضية
	الخاتمة
٤٤٣	النتائج
٤٤٦	المقترحات
	الفهارس
٤٤٨	فهرس المراجع والمصادر
٤٦٧	فهرس الآيات القرآنية
٤٨٨	فهرس الأحاديث
٤٩٣	فهرس الأعلام
٥٠٢	فهرس الموضوعات